جمال البنا



الناشر
دار الفكر الإسلامى
١٩٥ شارع الجيش ١١٢٧١
تليفون ٩٣٦٤٩٤ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

مقدمة

كان لنا مندوحة عن ان نكتب هذه الرسالة ، لأنها تقول كلمة الحق ، وكلمة الحق مُرَّة ، عن دعوات إسلامية بعضها وصل الى الحكم ، ونقدها يعنى الاضطهاد ، وبعضها الآخر ممن لم يصل الى الحكم تربطنا بها وشائج قديمة . ونقدها يعنى القطيعة . وكنا عن هذا وذاك فى غنى لو آثرنا العافية ولذنا بالصمت . ونحن لا نزهد فى العافية ، كما يعز علينا ان نفقد صداقاتنا ، ولكننا لا نسمح لهذين أن يفتاتا على الحقيقة التى حالت حوائل عديدة دون ان تظهر . فمن رزق الشجاعة اعوزه عمق الفكر أو سعة الأفق ، ومن رزق هذين وقفته روابط الوظيفة ، وانتماءات الحزب والهيئة ، والأمل فى المستقبل ، والخوف من الاضطهاد . أو حالت المجاملات دون أن يقول «كل الحق» أو أن تكون نبرته كما ينبغى لنبرة الحق أن تكون .

وقد انتظرنا أربعين عاما ان ينهض احد المفكرين بهذه المهمة المقدسة ، ولكن هذا لم يحدث بالصورة المطلوبة ، ولم يعد يجمل

الانتظار ، وقد جاوزنا السبعين وأصبح أداء هذه الرسالة فرض عين ، قبل أن يمضى بنا قطار العمر ، ونحاسب على مافرطنا .

- وما أريد أن اخالفكم الى ما أنهاكم عنه .
- ان أريد الا الاصلاح ما استطعت .
- وما توفيقى الا بالله ..
- عليه توكلت واليه أنيب» .

هود : ١٨٨

جمال البنا

القاهرة/ جمادى الآخرة ١٤١٢

ديسمبر ١٩٩١

الباب الأول

الدعوات الاسلامية على الساحة

الفصل الأول : الاخوان المسلمون العالمية .

الفصل الثاني : الجماعة الاسلامية (باكستان) .

الفصل الثالث : حزب التحرير (الاردن) .

الفصل الرابع : الرافضة الجديدة .

أ – التكفير والهجره .

ب – القطبيون وكتاب معالم فى الطريق .

ج – جماعات الجهاد .

الفصل الخامس : قسمات مشتركة بين الدعوات الاسلامية .

الفصل السادس : دعوات اسلامية صاعدة .

أ – الجبهه الاسلامية (السودان) .

ب – الجبهه الاسلامية للانقاذ (الجزائر) .

ج – النهضة الاسلامية (تونس) .

د – الشوريون التعاونيون (اليمن) .

هـ – الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل .

الفصل السابع : دعوات توصلت الى الحكم .

أ – الوهابية .

ب – الجعفرية .

الفصل الأول

دعوة الإخوان المسلمين العالمية

دعوة الإخوان المسلمين هى أولى ، وكبرى الدعوات الإسلامية المعاصرة .

وقد أثرت أثراً عميقا ، وتركت بصمتها على الدعوات الإسلامية الأخرى حتى التى انشقت عليها أو التى تختلف معها .

وبقدر ماكانت سيئة الحظ فى بلدها ، بقدر مارزقت الانتشار والذيوع فى دول أخرى .. بما فى ذلك الدول الأوروبية والأمريكية ..

المجتمع المصرى قبيل الإخوان :

كان المجتمع المصرى فى عشرينات هذا القرن[١] يدخل مرحلة جديدة تختلف جذريا عن المراحل السابقة .

ففى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حاول جمال الأفغانى أن يثير نهضة إسلامية تنقذ مصر من تغلغل النفوذ الأوروبى .

---

(١) القرن العشرين الميلادى .

ولكنه أبعد عن البلاد فى وقت كانت مصر أشد ما تكون حاجة إليه .

فقد أدت دعوته إلى الثورة العرابية التى انتهت – لعدم وجود القيادة الحازمة – إلى الاحتلال البريطانى عام ١٩٨٢ م .

وما إن دخل الجيش البريطانى مصر حتى واصل بصورة شاملة عملية التغريب التى كان اسماعيل باشا (الخديو) قد بدأها بصورة جزئية .

فغيرت مناهج الدراسة لتتفق مع المناهج الأوروبية ، وجعلت لغتها . «الانجليزية» ..

وهيمن الإنجليز على كل المناصب العليا ، وخضع الوزراء المصريون لتوجيهات المستشارين الإنجليز .

وكانت كل الشركات التجارية ، والمصارف والبنوك ، والدور الصناعية فى يد الإنجليز أو غيرهم من الأجانب ، وكانت لغتها هى : الانجليزية ، أو الفرنسية ..

وشُجِّعت صور من اللهو والفحش ، وأبيح وحُمِى البغاء ، وانتشرت الحانات ، وظهرت المراقص والكباريهات التى كانت مباءات لإغواء الشباب ، وابتزاز «العمد» الذين يأتون إلى القاهرة ليشهدوا عالم «كشكش بيه» ..

وكانت الأواصر التى تربط المجتمع بمقوماته الإسلامية تتهاوى شيئا فشيئا ..

وبدا كأن مصر تسير فى طريق التطور الأوروبى ، عندما انفجر الشعب فى ثورة ١٩١٩ م ، التى عبر بها عن رفضه لسياسة الاحتلال ..

وكانت انتفاضة تلقائية شعبية عنيفة قامت دون ترتيب من الزعماء ، وتطورت رغم إرادة الزعماء الذين ما كانوا يريدون إلا مفاوضة الإنجليز ، وليس الثورة على الإنجليز ..

وتبينت بريطانيا أن الشعب لايقبل الاحتلال ..

وكانت بريطانيا قد اضطرت قبيل ذلك إلى إقالة عميدها العتيد «لورد كرومر» إثر فضيحة محكمة دنشواى ، فأعادت ترتيب الأوراق وغيرت فى سياستها ، واعترفت باستقلال مصر بتحفظات أربع[١] .

---

(١) تتعلق (١) بتأمين المواصلات البريطانية . (٢) الدفاع عن مصر . (٣) حماية المصالح الاجنبية والاقليات . (٤) السودان .

وكان ذلك إيذانا بدخول مصر المرحلة الليبرالية التى تقوم على ركائز ثلاث :

نواة هى الفرد
هدف هو الربح والكسب
مناخ هو الحرية

وقد يطلق على هذه المرحلة.. إذا نظرنا إليها من الزاوية الاقتصادية : «الرأسمالية» .
وإذا نظرنا إليها من الزاوية السياسية : «الديمقراطية» .
وإذا نظرنا إليها من الزاوية الطبقية : «البرجوازيه» .

فهذه التسميات كلها جوانب متعددة لحقيقة واحدة ..

ووجدت المرحلة فارسها فى سعد زغلول ، ووثيقتها فى دستور عام ١٩٢٣ ..

وكان سعد زغلول تلميذاً لمحمد عبده ، ومحمد عبده كان تلميذا لجمال الأفغانى ، ولكنه انسلخ من فكر جمال الافغانى الثورى الكفاحى واتجه اتجاها إصلاحيا توفيقيا : فتقبل مهادنة اللورد كرومر ..

فجاء سعد زغلول ليمضى بهذا الاتجاه إلى غايته التى تؤدى - لامحالة - إلى الفصل مابين الدين .. والمجتمع .

بحيث يقوم المجتمع على الركائز الليبرالية الثلاث التى أشرنا إليها ، ويأوى الدين إلى ركن قصّى فى المساجد والزوايا والطرق الصوفية وأئمة المساجد ..

ووجدت المرحلة وثيقتها فى دستور عام ١٩٢٣ م الذى أقام الأحزاب ، ومجلس النواب ، ومجلس الشيوخ ، وسمح بانطلاقة الرأسمالية .. وحرية الفكر ..

كان المجتمع المصرى خارجاً من استعمار بغيض ، ومجتازاً لثورة عصيبة ضحى فيها بأكثر من ثلاثة آلاف قتيل ، فتجاوب مع العهد ..

واكتسب سعد زغلول - لأسباب عديدة - شهرة أسطورية ..

وخلال عشر سنوات تقريبا من بدء المرحلة ظهرت ثمارها فى الطبقة المثقفة الجديدة - رواد حركة التنوير[١] - طه حسين ، ومنصور فهمى ،

(١) كما أطلقوا عليها بعدئذ .

وإسماعيل مظهر ، ومحمود عزمى ، وحسين هيكل ، وسلامه موسى ، وقاسم أمين[1] الذين فتنوا بالثقافة الأوروبية ، وانبهروا بمظاهر الثراء والحرية وصور الاستمتاع الطليق ومشاهد الجمال فى كل ناحية ، فعادوا مبشرين بها .

وظهرت الأحزاب وأخذت تتسابق وتتصارع على الحكم ، وشغلت الناس بمعاركها ومؤامراتها ..

ووصل التعصب للأحزاب والأشخاص فى بعض الحالات إلى درجة أن هتف بعضهم :

«الحماية على يد سعد أفضل من الاستقلال على يد عدلى !» .

وكان الإنجليز والملك يتلاعبان بالأحزاب ..

واحتلت أخبار الأحزاب أنهار الصحف وزاحمت أخبار الفنانين والفنانات والممثلين والممثلات والمغنيين والمغنيات والراقصات وقامت السينما بدور مؤثر فى إفساد المقومات وإشاعة التفاهة والفحشاء .

ولم يكن لدى الأحزاب أى حس إسلامى ، ولانجد فى برامجها أى إشارة إلى الإسلام .

ولم تكن مواقفها متجاوبة – بل لعلها كانت متجافية – مع الإسلام ..

وفى ظل حكم الأحزاب اعتُمِد الاقتصاد الرأسمالى الربوى .. والديمقراطية الليبرالية .. والتحررية الاجتماعية .. كمثل عليا للنظام ..

ولم تقم محاولة واحدة لاستلهام الإسلام ..
ولم يظهر الإسلام على خريطة البرامج التعليمية إلا بصورة تافهة ..
ولم يظهر التاريخ الهجرى الا بعد التقويم الميلادى .
ولم تظفر اللغة العربية بما تستحقه ..

وكان يمكن لمسيرة الليبرالية أن تسير على عواهنها ، وتمضى إلى غايتها لولا ظهور دعوة الإخوان المسلمين ..

---

(١) من الجدير بالذكر أن معظم هذه الشخصيات عادت إلى الفكر الإسلامى ، وتبينت أن اتجاهها لأول إنما كان بتأثير الانبهار الأول .

دعوة الإخوان المسلمين :

كان على دعوة الإخوان المسلمين أن تتصدى لهذا التيار الكاسح الذى كان يمضى قُدُما مسلحاً بالفكر والثقافة ، مدعما بباشوات السياسة والاقتصاد ، مؤيداً من القوى العالمية التى جعلت مقاومة الإسلام جزءًا رئيسيا من سياستها ..

● كان على دعوة الإخوان المسلمين أن تُبِّين خطأ وقصور الفكر الليبرالى البورجوازى ، وأن هذه النظم التى فُتِنَ بها المجتمع المصرى ليست هى بالنظم المثلى ، ولاهى خالية من المثالب والقصور .. وأن المثل الأعلى الليبرالى الذى يتمحور حول الفرد ، ويستهدف الربح أو الكسب ليس هو المثل الذى ينهض بالأمة أو يحقق السلام الإجتماعى أو يكفل تضافر الجهود .

● وكان على دعوة الإخوان المسلمين أن تقدم البديل الإسلامى :

بأن تبرز نظاما اقتصاديا إسلاميا أفضل من اقتصاد ربوى ..

وسياسة إسلامية تفضل الديمقراطية والبرلمانية والتعددية الحزبية ..

وقيما إجتماعية إسلامية أفضل من القيم التى تقوم على الفردية والأثرة والأنانية وتستهدف الاستمتاع .

● وكان على **دعوة الإخوان** المسلمين أن تعيد الإسلام من ركنه البعيد القصى إلى قلب وصميم المجتمع بحيث يُثرى القضية الاجتماعية ويعرض وجهة النظر الإسلامية وأن تصحح المفهوم الليبرالى ، الذى قد يسميه البعض «العلمانى» لدور الدين فى المجتمع ..

هذا الدور الذى تأثر فى أوروبا بمسلك الكنيسة عندما استحوزت على السلطان ، أو تعاونت مع الملوك فى مواجهة الشعوب ، وقاومت كل أفكار التقدم العلمى .

وأن هذه الفكره ان كانت صحيحة فى أوروبا ، فإنها غير ذات موضوع فى مصر ، وفى الدول الإسلامية :

أولاً : لأنه لايوجد فى الإسلام كنيسة .
وثانيا : لأن الإسلام لايقاوم العلم .

وثالثاً : لأن الإسلام دين حياة ، فالزكاة مقترنة بالصلاة ، والعمل الطيب مقترن بالإيمان ، والجهاد يعد من أولى الواجبات ... ، والقرآن يحرم صراحة وبقوة الخمر والميسر والربا والزنا وكلها أمور ممارسة فى المجتمع ...

● وكان على دعوة الإخوان المسلمين مرة أخرى أن تصحح المفاهيم الإسلامية نفسها التى سادت وقتئذ .

فعندما عزلت الليبرالية الإسلام عن قضايا المجتمع الحيوية ، وعندما أغلقت فى وجهه هذه المجالات ، فإنه تقوقع فى قوقعتى «العبادة» و«المذهبية» .

وأصبحت كل المشاكل التى يعنى بها الشيوخ ، ويهتم بها الناس هى جزئيات الشعائر والطقوس ، والمسائل الخلافية فيها بين المذاهب .

☆ ☆ ☆

وكما ذكرنا فإن الليبراليه وإن أبعدت الإسلام عن صدارة المجتمع ، فإنها لم تمس الدين نفسه . بل على العكس ، فإنها لم تضن عليه بمعسول القول ، كما أنها عُنِيَّت بأن تكفل للشيوخ والفقهاء . تأمينا ماديا .

وبين آونة وأخرى فى المناسبات يدعى هؤلاء الشيوخ ليشتركوا مع اللبراليين على منصة الاحتفالات .

وبهذه الوسائل حالوا دون ثورة الشيوخ على الأوضاع القائمة .

وخلال هذه الرحلة الطويلة التى تدحرجت فيها الفكرة عن الإسلام شيئا فشيئا حتى فقدت روحها ولم تحتفظ إلا بقشورها اختفى المعنى الجهادى من الإسلام .

مع أن الجهاد أحد عناصر الحيويه والفعالية فى الإسلام .

وكان على دعوة الإخوان أن تتصدى لتصفية الخلافات المذهبية ، والاهتمام بالجزئيات والشكليات ، وأن تضع الأولويات فى مكانها .

وقد أورد الإمام الشهيد أول استقبال الشيوخ له فى جامع الاسماعيلية وأسئلتهم له عن :

«التوسل» ....

السلام بعد الأذان ....

قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ..

السياده للرسول فى التشهد ......

عن أبوى الرسول ....

قراءة القرآن للميت ....

وسارت دعوة الإخوان المسلمين قدما فى هذه الناحية إلى الدرجة التى جاوزت الفقه المذهبى واستشرفت فقه السنه ..

ودفع الإمام الشهيد الشيخ سيد سابق لتأليف كتابه المشهور «فقه السنه» وكتب مقدمته .

بل إن دعوة الإخوان المسلمين جاوزت هذا الإطار إلى إطار التقريب مابين السنة والشيعه عندما شاركت السيد تقى الدين القمى فى تكوين دار التقريب بين المذاهب الإسلامية .

★ ★ ★

وقبل دعوة الإخوان المسلمين كان الجانب التربوى مقصورا على الطرق الصوفية ، ولم يكن للإمام البنا اعتراض على فكرة تصوف سليمة رشيدة تلحظ آداب وروح الإسلام .

ولكن الحقيقة أن ذلك كان يناقض الإرث الصوفى .

ولهذا عني الإخوان المسلمون بالجانب التربوى فكانوا مدرسة ترعى أعضاءها وتجعلهم يأخذون أنفسهم بآداب الإسلام وتوجيهاته في كل جزئيات حياتهم : فى الطعام والشراب والملبس والنفقة والعمل والعلم والعلاقات الاجتماعية ،.....

ووضع الإمام البنا رسائل خاصة بذلك كرسالة التعاليم ..

كما أن هناك وسائل تربوية عملية كالرحلات ، والندوات ، ونظام الأسر ، والمؤتمرات ، والكتائب ، والمخيمات ، والدورات ..

وكلها وسائل جماعية مدروسة ومبرمجة[١] .

وهكذا كان على دعوة الاخوان المسلمين ان تقوم ثلاث مهام :

أولاً : تقديم الإسلام كدين حياة يقول كلمته فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ويلهم الناس القيم والمثل ، واثبات أن ماجاء به الإسلام يفضُل كل ماجاءت به النظم «العلمانية» أو الأوروبية . وإنقاذ المجتمع المصرى من «الانبهار» بالحضارة الأوروبية وتحويل التطور ليسير المسار السليم .

ثانيا : إخلاص الدين لله ، وترتيب الأولويات فيه ، والابتعاد عن الجدل والمراء والشكليات والخلاف ..

ثالثا : إيجاد «المسلم النمطى» عن طريق التربية والتعليم بحيث يحيا حياة إسلامية ويعلم الاتجاهات والمواقف والقرارات التى يتخذها فى مواجهة مشكلات الحياة الحديثة ، وتكون عنده «الإجابات» عن الأسئلة التى يطرحها العصر .



ونعتقد أن دعوة الآخوان المسلمين نجحت إلى حد ، وبقدر ما سمحت به الظروف فى هذه المهام الثلاثة .

ومن العسير تصور المجتمع المصرى لو لم توقف دعوة الإخوان موجة التحلل والانسياق وراء مظاهر الحياة الحديثة التى كانت تدق طبولها فنون وآداب ، وأهواء وشهوات ، ومصالح ، وانخداع بالظواهر ..

ومع أنها لم تستأصل هذا الاتجاه الذى كان يمضى بحكم تطور لايمكن إيقافه ، إلا أنها أوجدت رأيا عاما إسلاميًا يتمتع بقوة شعبية تفوق مايتمتع به الاتجاه الدنيوى . مع انها لم تتوصل فى يوم من أيامها إلى أجهزة الإعلام التى هى فى يد الحاكم .

وكان من عبقرية الإمام البنا أنه صاغ هذا الحل فى كلمات معدودات وشعارات عامة ومفهومه ، ولا يكاد يكون هناك خلاف عليها .

---

(١) راجع وسائل التربية عند الإخوان المسلمين دراسة تحليلية تاريخية : د . على عبد الحليم محمود دار الوفاء .

مثل : «دين ودولة» ، «الله غايتنا» .. «القرآن دستورنا» .. «الرسول زعيمنا» .. «الجهاد سبيلنا» .. «الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا» .

وكان هذا الرأى الإسلامى العام فى أصل ماأطلق عليه فيما بعد : الصحوة الاسلامية .

ونجحت فكرة الإخوان المسلمين فى القضاء على الخلافات المذهبية التى كانت محتدمة تشغل بال المسلمين وتفرق وحدتهم ، حتى كادت هذه الخلافات أن تنتهى وتطوى صفحتها .

كما أنها قدمت المسلم النمطى فى هذا العصر : طالبا متفوقا .. عاملاً دؤوبا .. موظفا أمينا .

ولم تركز تربية الإخوان وقتئذ على الشكليات والمظاهر التى استشرت بعد ذلك وأصبحت نوعاً من «اللازمة» كتفضيل القميص «الجلابيه» والطاقيه على أى زى آخر .

.. فهذا شىء لم تعرفه المدرسة الإخوانية ..

وكان معظم شباب الإخوان حليقى اللحى ، يرتدون البدل والكارافت ، ويضعون الطرابيش وكان الإمام البنا نفسه يرتدى البدله والطربوش كما يظهر فى صوره .

وبفضل دعوة الإخوان وعملها المتصل والمخلص عاد الإسلام مرة أخرى دعوة إنقاذ وإنهاض ، واستعاد جهاديته وحيويته ووقف أمام تحديات العصر بعد أن نجحت علمانية الحقبة الليبرالية فى أن تقصيه إلى ركن بعيد من أركان المجتمع .

حسن البنا : رجلاً وإماما وشهيداً :

كانت دعوة الإخوان المسلمين[1] هى ثمرة فهم وعمل رجل مؤمن موهوب موفق هو : «الإمام الشهيد حسن البنا» الذى رزق عوامل أهلته للقيام بهذه الدعوة من طفولته حتى شهادته .

ومن هذه العوامل .

(١) وكلمة : «دعوة» من نحت وصياغة الإخوان المسلمين .

(١) كان الامام البنا هو الابن البكر لرجل عرف بالعصاميه وعلو الهمة والابداع وخدمة السنة . وولد وشب فى بقعه من اجمل بقاع الريف المصرى . وعلى ضفاف النيل – واشترك مع أترابه فى الالعاب الجماعية ثم انتظم فى دراساته بحيث تخرج بترتيب الاول من دار العلوم ليعمل فى المهنة التى أحبها وبمرتب يفوق ما كان ينقاضاه الاوساط من الناس ثم تزوج فى مستهل شبابه زواجاً موفقاً[١] .

هذه العوامل المواتية كلها حالت دون ان يصاب الامام الشهيد بالتعقيد أو الانطواء أو الشعور بنقص أو يبدء دعوته فى سن الاربعينيات من العمر ، أو يضطر للتغيير فيها كما حدث لكثير من الدعاه ، وجعلته «منفتحا» ، مرنا . وكان هذا فى اصل سعة افقه ، وتلقائيته ، لكل الاتجاهات الاسلامية التى أشرنا اليها .

وكان الامام الشهيد بصفة عامة يتقبل كل واحد يعرض خدماته على الأخوان ويأمر باعداد مكتب له . فاذا كان لديه جديد ، فستكسب الدعوة . والا فسيدرك امكانياته . وقد كتب مقدمة كتاب الاستاذ عبد الحميد جودة السحار عن ابى ذر ، ودفع الشيخ سيد سابق لكتابة «فقه السنة» وكتب مقدمته ، وأمر بطبع كتاب العدالة الاجتماعية للشهيد سيد قطب .

(٢) توفرت فى الامام الشهيد صفات الداعية النموذجى فكان كاتباً وخطيباً ومربياً ومنظماً . وجمع بين الفكر والعمل . وكان لديه من الذكاء والحس والحضور والكياسة مايكسب قلب جليسه . وعصمه الله من فتن الدنيا : المال والنساء فكان متقشفاً ولم يملك فى حياته بيتا أو عربة . وكان مأكله وملبسه هو اكل ولبس عامة الناس .

وكان الامام الشهيد هو شيخ الدعوة والمرشد الروحى لاعضائها . فهو امامهم فى الصلاة : يصلى فيحسن الصلاة ويقرأ القرآن على غير ما ألف الشيوخ بصورة تمس شغاف قلوبهم وتجعل احد كتابهم يقول ان الصلاة وراء الامام الشهيد كانت جزءا من التكوين الروحى لهم . وهو ضيف الشرف فى كل مناسبة . من ولادة أو زواج أو وفاة .. وهو «مطوفهم» فى الحج وهو فى كل هذه المناسبات الخطيب الذى يأتى بما يتطلبه المقام دون اسهاب ممل أو ايجاز مخل ، ويغلب ان يتضمن حديثه استشهاداً موفقاً من الشعر أو الحديث أو القرآن ..

---

(١) لمزيد من آثار الوراثة والطفولة ، انظر .. خطابات حسن البنا الشاب الى ابيه .. للمؤلف .

(٣) كان الامام الشهيد منظماً قديراً نابهاً . وقد استطاع خلال عشرين عاماً ، وتحت مظله من النكر والخفاء ، ان يضع بيده بذرة خمسمائة شعبه من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب . وكان يعرف الناس ويتذكر الوجوه والأسماء بعد عشرات الاعوام ويخاطب ويعامل كل واحد بما يتفق مع نفسيته . وكان حسه المرهف وأدبه يكسبه حب الجميع . وفى كل شعبه من هذه الشعب الخمسمائة . خطب الامام الشهيد . وصلى . وتناول الطعام ، وأمضى ليلة أو أكثر وتعامل مع أهلها واستخلص من آنس فيه الخير ..

وقد استطاع ان يربط بين هذه الشعب ، وان يجمع بين القلوب وان يمسك بكل الخيوط بصورة لاأثر فيها لقسر أو ضغط . كانت الخيوط التى تربط التنظيم الاخوانى فى مثل متانة ونعومة الحرير لا فى قسوة وصلابة الحديد فالاعضاء ، انما يسلمون له القياد لانهم تأكدوا من ايمانه وكفاءته وتوفيق الله له .. ووثقوا به قائداً ومرشداً ، وهو – من ناحيته – يُدخل بين الضرورات الادارية الجافة عنصراً نفسياً وعاطفياً هو «الحب فى الله» .

ان هذه الصفات قلما توفرت لشخص واحد من قيادات الدعوة الاسلامية . فجمال الافغانى كان ثورياً . ولكنه لم يكن منظماً جماهيرياً ، ومحمد عبده ورشيد رضا كانا رجال قلم وفكر وكتابة ولم يكونا رجال عمل وتنظيم وادارة . وسوف نرى أن «المودودى» منشىء «الجماعة الاسلامية» كان باحثاً وكاتباً ، ولكنه لم يكن رجل جماهير وتنظيم – وبصفة عامة فيغلب أن لايكون رجل الكتابة والفكر هو رجل العمل والتنظيم ، وان لايكون واحد من هذين مربياً روحياً ، وكان الامام البنا الثلاثة معاً : الكاتب المفكر ، الادارى المنظم ، المرشد الروحى .

ومكنت هذه الصفات الامام الشهيد ان يتوصل الى صيغة «الاخوان المسلمين» دون سابق وجود ، فقد كان هناك هيئات صوفية وهيئات لمقاومة البدع ونشر السنه ، وكان هناك «الشبان المسلمون» التى تجمع الشبان على رياضة وثقافة .. وكانت لهذه الهيئات تركزاتها فى أقاليم أو مناطق من العاصمة . ولكن لم تكن هناك هيئة شاملة يمكن ان تصهر جوانب الاسلام المختلفة فى بوتقه واحدة . ولكن الامام الشهيد بانفتاحه ضم أفضل مافى الدعوات الاسلامية مثل ثورية الافغانى وسلفية محمد عبده ورشيد رضا وتربوية بعض الطرق الصوفية ، وكان لابد أن يصقل هذه الجوانب

جميعاً حتى لايحدث تنافر أو تلفيق ، وقد استوعبها أولاً فى نفسه .. ثم نقلها الى الاخوان وليس شرطاً ان هذه الجوانب كلها ظهرت مره واحدة فى الدعوة لان الدعوة المنفتحه كانت تتطور تطوراً طبيعياً ، أشبه بالنمو العضوى ...

العشرون عاماً الأولى :

قبل ان يتخرج الامام الشهيد من دار العلوم ويذهب الى الاسماعيلية ؛ كانت قضية الاصلاح هماً مؤرقا له ، فحاول ان يدفع بعضاً من افضل الشيوخ المعروفين وقتئذ للعمل وللقيام بدور ايجابى وعندما صدم بالسلبية واليأس لم يستسلم وتابعهم ولاحقهم حتى استطاع بفضل هذه الملاحقة والتذكير استثاره بقية وهنانه من الايمان فى نفوسهم وكانت نتيجة ذلك اصدار مجلة الفتح(١) .

ومن أجل هذا فانه عندما نقل الى الاسماعيلية وفكر فى القيام بالدعوة – فانه استبعد العمل مع المشايخ والفقهاء أو الدعوة فى المساجد . وانتهى الى طريقة مختلفة كل الاختلاف عن مألوف وطرق الدعوة الدينية .

ذهب الى المقاهى . وأخذ يجلس فى كل مقهى من المقاهى الثلاث فى «حى العرب» يومين فى الاسبوع ، كما لو كان مرتاداً عادياً ، ولكنه لا يعدم وسيلة للتعرف الى بعض الجالسين ، والحديث معهم حديثاً عادياً ، لا يلبث ان يتطرق الى حديث نبوى أو آية قرانية ، يعرضها عرضاً رفيقاً جذابا .

من هذه البداية المتواضعة وعلى أيدى ستة من عمال شركة قناة السويس تكونت النواة الأولى للاخوان المسلمين – تلك النواة التى ستصبح اكبر الدعوات الاسلامية فى العصر الحديث .

واستعراض تطور الاخوان المسلمين خلال العشرين عاما الاولى – من ٢٨ الى ٤٨ – حقبة البنا فى تاريخ الدعوة . يوضح المراحل التى كانت تشغلها . ففى مرحلة الاسماعيلية – قرابة عشر سنوات – كان الطابع التربوى الصوفى يغلب العناصر الأخرى . وكانت شعب الاخوان مركزه تقريباً فى منطقة القنال وشرق الدلتا . ولم يكن بالقاهرة شعبه الا عندما أنضمت جمعية الحضارة الاسلامية التى كونها الشقيق التالى للامام الشهيد – الاستاذ عبد الرحمن الى الاخوان واعتبرت نفسها شعبة القاهرة .

---

(١) من الخير للقارىء ان يعود الى هذه المحاولة فى «مذكرات الدعوة والداعية» لانها حافلة بالدلالات . ولولا طولها لنقلناها .

وفى مرحلة تاليه من ٤٠ – ٤٥ – استهدفت الدعوة حشد الجماهير وجمعها على اساس مسلمات من العقيدة – وبدأت شعاراتها تتردد فى حوارى وأحشاء القاهرة حتى انتقلت الى شقة كبيرة بميدان العتبة – وكان هذا اول ظهورها «على وش الدنيا» كما يقولون وتركها لحوارى وأحشاء القاهرة :

فى هذه المرحلة بدأ غزو الجامعة وأنضمام أعداد ضئيلة أولاً ثم كثيرة حتى أصبحت الغالبية تقريباً فى المرحلة الثالثة من حقبة العشرين عاماً وبرز العنصر الجهادى فى تكوين «الجوالة» و «النظام الخاص» الذى كان بتعبير احد الكتاب الاخوانيين «جيشاً اسلاميا» وبدأ الفكر السلفى يأخذ طابعاً حياتياً ، ويتخلص من كثير من حواشيه ..

وأخيراً تأتى المرحلة الثالثة من هذه الحقبة ، وهى أهمها وآخرها عندما تعرفت الحكومة على قوة الاخوان إثر نشر الصحفى الصهيونى البريطانى جون كمش تقريراً طويلاً عن الاخوان فى الصحف البريطانية ، وتبين السياسى المصرى الطيب مصطفى النحاس ان الشيخ البنا ليس كشيوخ الطرق الصوفيه الذين يجوبون القرى فى الموالد والمناسبات الأخرى . وبدأ نوع من التحفز بين السلطة والاخوان . وحدثت حوادث فرديه ، لكنها كانت ذات اثر بعيد فى وقوع الصراع مثل استيلاء الشرطة على عربة جيب بها وثائق النظام الخاص . ومثل غياب الاستاذ البنا فى احدى الاوقات الحرجة للصراع فى الحجاز ، بحيث حدث الصدام على غير هوى الاخوان . وفى ديسمبر سنة ٤٨ أعلن النقراشى ، وهو سياسى مصرى ضيق الافق – حل الاخوان وكان هذا الحدث اول حدث من نوعه تشهده البلاد ، إذ كان فى كل قرية مصرية اخوانى أو اكثر وفى كل شارع من شوارع المدن بيت اخوانى أو اكثر . كانت هيئة الاخوان هى اكثر الهيئات حشداً وتمثيلاً للشعب المصري ، وكان لديها عقيده ، وبين يدها تاريخ كفاحى لعشرين عاماً . وكان المتطوعون الذين هرعوا لفلسطين يهزمون الاسرائيليين ، ويساندون الجيش المصرى . فكان حل هذه الهيئة بقرار «عسكرى» امراً فى منتهى الفجاجة ونوعاً من التحدى الوقح لمشاعر الشعب . وهذه الملابسات هى التى جعلت الاخوان لا يتبرأون من مقتل النقراشى الذى تم بإحكام على يد احدى خلايا النظام الخاص .

ان الدرس الأليم الذى يقدمه اغتيال النقراشى فى ٢٨ يناير سنة ١٩٤٩ ، لايتعلق

بشرعية هذا الاغتيال . فمما لاجدال فيه ان نشر الحكومة للارهاب وحل اكبر هيئة شعبية بقرار عسكرى منفرد والاعتقال الجماعى الوبائى ، يبرر الاغتيال . ولاهو يتعلق بشخص النقراشى ، فقد كان حزبياً من هؤلاء الحزبيين الذين لايساوون شيئاً ، وقصارى جهده ان يناور ليصل الى الحكم ، وان يصانع الانجليز والسراى لمصلحة مجموعة ضئيلة من البورجوازية الطامعة . ومن الناحية الشخصية ، فلم يكن موهوباً البتة . باختصار كان من الذين تكسب البلاد بموتهم اكثر مما تكسب من حياتهم . ولكن عندما يشغل مثل هذا الشخص القميء ، رآسه الوزاره – ورآسه حزب ما ، فقد يظن بعض المهووسين ان الثأر له انما يكون باغتيال رئيس الهيئة الأخرى – اى مرشد الاخوان – وقيل ان اغتيال المرشدتم بناء على مثل هذه الفكره . ومن هنا يكون على الذين يقومون بخطوات حاسمه أن يحسبوا حساب ردود الفعل كائنة ما كانت – معقولة ، أو مجنونه !!

على اننا نؤمن ان اغتيال الامام الشهيد فى ١٢ فبراير سنة ٤٩ كان اكثر خفاءً حتى مما اظهرته التحقيقات بعد سقوط الملكية . واكتشاف يد السراى ، وابراهيم عبد الهادى ، وعبد الرحمن عمار (وكيل الداخلية) فقد كانت هذه الفترة هى فترة خروج الدبيلوماسية السرية الامريكية وعملها على مسرح المنطقة . وظهور اسرائيل واعتراف الولايات المتحدة بها كدولة بعد دقائق من اعلان بن جوريون قيامها وكانت الفترة التى شاهدت بطولة متطوعى الاخوان فى فلسطين وصعود نجم الاخوان فى القاهرة بحيث اصبحت الهيئة المؤهلة – فى وقت قريب – للقيام بدور حاسم . كما كانت الفترة التى شاهدت ثوره الميثاق سنة ١٩٤٨ فى اليمن التى نظمها الاخوان وكانت قاب قوسين من النجاح لولا عوامل طارئة ، ومن غير المعقول ان دلالات ذلك خفيت على القوى الدولية ذات المصلحة فى المنطقة . وكانت ايضاً هى الفترة التى نظم فيها عميل الـ C.I.A كرميت روزفلت انقلابات سوريا ، ثم زار القاهرة بعدها . ومالم يلق مايستحقه من اهتمام ، أو يعنيه من دلالة أنتحار الاميرالاى محمد وصفى رئيس حرس الوزارات عندما كادت تحقيقات الجيش تلحقه وكان هو حلقه الوصل بين الداخلية المصرية ، والسفارات الأجنبية . وقضى هذا الانتحار على السر الأكبر فى المأساة كلها الذى كان يمكن ان يكشف عن خيط مابين هذا الحادث الاليم ومندوب الـ C.I.A فى السفارة الأمريكية بالقاهرة ، وهذا الضابط الاثيم هو الذى ذهب الى مستشفى القصر العينى ليتأكد من وفاة الامام الشهيد بالفعل وليجهز عليه ان لم يكن قد مات .

على أن اغتيال الامام البنا كان أمراً مقدوراً ، رسم فى قضاء الله وقدره – كان كاغتيال على بن ابى طالب ، وختم الخلافة الراشدة . وعندما يضيق مجتمع ما بمثل على بن ابى طالب وحسن البنا ، فان استشهادهما يصبح قدراً مقدوراً . وقد استراح الرجلان ، ولكن ما اكثر ماحاق بمجتمعهمامن المتاعب ..

ذلك ان الامام الشهيد كان يعمل بطريقة مرحلية ، وكان قد وصل الى مرحلة «**الحشد**» التى جمع فيها الجماهير تحت شعارات ومسلمات وأصول عامة . وكان يجب أن تأتى مرحلة «**الفرز**» والتمييز ، والتحقيق . سواء بالنسبة للأعضاء أو للموضوعات . وكان الفكر الاخوانى قد أضفى على الفكر السلفى قدراً من المرونة والانفتاح ، ولكنه كان لايزال مرتبطا به . وكانت الخطوه التالية هى الانتقال من فقه المذاهب الى فقه السنة ثم الى فقه القرآن . كما كان يجب عرض موقف الاخوان من القضايا السياسية والاقتصادية بنوع من التحديد يسير خطوه بعد ما جاء فى «مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى» ولم يكن الامام الشهيد قد وصل الى ذلك عندما حدث الصدام ، ولم تكن رغبته أولاً فى تفادى الصدام ، وثانيا فى الخلاص منه بالمفاوضة ، الا ادراكاً منه ان الصدام وقع قبل وقته ، وقبل ان يتم تطوير الفكر ، والتنظيم الاخوانى بالصورة المنشودة . ولو سارت الامور كما رسمها ، لما حدث الصدام فى هذا الوقت ، ولكن عوامل طارئة مثل اكتشاف عربة الجيب التى بها وثائق النظام الخاص . وغيبة الامام الشهيد نفسه فى الحجاز قرابة شهرين فى هذه الفترة كانا من العوامل التى أدت الى وقوع الصدام فى وقت غير مناسب ..

ولو لم يحدث هذا الصدام ، الذى ادى الى اغتيال الامام الشهيد ، لتغيرت مصاير المنطقة تماما ، فمثلاً ما كان انقلاب ٢٣ يوليو يقع بالصورة التى وقع بها ، وهذا مثال واحد من امثلة عديدة كان يمكن ان تحدث لو لم ينجح هذا الاغتيال الأثيم فى حرمان اكبر الهيئات المصرية تمثيلاً وتنظيماً من قائدها الموهوب .

السنوات اللاحقة :

مع أن الاغتيال الاثيم للمرشد حرم الهيئة من قائدها ، فانه حقق لها تعاطف الجميع ووضعها فى المعسكر الشعبى المضطهد من السلطة والسراى – فضلاً – ان هذا الاستشهاد كان العامل الثانى (كان العامل الاول هو حرب فلسطين وهزيمة الجيش والذخائر الفاسدة الخ) فى زلزله الملكية ، وزعزعة ، النظام ، وقيام الأنقلاب العسكرى بعد ذلك .

ولم يكن فى الهيئة من يماثل ، او يقارب . الامام الشهيد ، فبعد فترة قصيره ولى أمورها الشيخ الباقورى بتوصية من الامام الشهيد كما تنوقل وقتئذٍ ، انتخبت الهيئة التأسيسيه القاضى حسن الهضيبى مرشداً عاماً .

لقد وجه البعض النقد للامام الشهيد لانه لم يوجد «خليفة» له ، وهذه قضية جدلية ، فان تعيين خليفة كان سيتضمن قدراً من الوصاية على ارادة وحرية القاعدة ، فضلاً عن ان القائد لايصنع ، ولكنه «يُخْلَقْ» . فالله تعالى وحده هو الذى يضع ملكات القيادة فيمن يشاء ..

وكان الاستاذ الهضيبى رحمه الله قاضياً ممتازاً ، وصل الى اعلا درجات القضاء . وآمن بالدعوة وبايع الامام الشهيد فيما قيل – وان حالت صفته كقاضى دون ان يمارس عملاً ، أو حتى ان يظهر فى دوائر الاخوان . وجاء انتخابه نتيجة لملابسة خاصة هى تمسك كل . واحد من المرشحين الاربعة من أعضاء مكتب الارشاد العام بنفسه فى «معركة القيادة» كما أطلق عليها ، وبالانجليزية ايضا : Battle of Leadership زعيم طلاب الاخوان وقتئذٍ مصطفى مؤمن . وكان هذا التمسك شيئاً مألوفاً فى الممارسات الحزبية ولكنه كان فى دوائر الأخوان شيئاً إداً . وأهتبل الفرصة جناح معين برز وقتئذٍ فى الدوائر الاخوانية ، واطلق عليه – الروضيون – لان معظم شخصياته كانت تسكن حى منيل الروضة وكان له اتجاه خاص وفرض الهضيبى ، ولم يجد المرشحون الاربعة بداً من قبوله .

ولاجدال فى ان هذا الاجراء ، كان خطأً – فبصرف النظر عن انه كان من الواجب الأدبى والاسلامى أن يتنازل بعض المرشحين الاربعة للأكفأ فيهم وهم ادرى بقدراتهم – فان الاجراء السليم فى حالة عدم قيامهم بذلك هو اجراء انتخابات ولم يكن هذا ليحدث قلقلة لانه سيتم فى اطار «الهيئة التأسيسية» ولأن جمهور الاخوان عرف بالطاعة والالتزام . ومسئولية هذا الخطأ التاريخى تقع على الاخوة الروضيين الذين كانوا هم أول من دفع ثمن خطئهم .

وظهرت جريرة هذا الخطأ الفادح عندما قام انقلاب ٢٣ يوليو سنة ٥٢ .

وقد عالجنا تلك القصة فى قرابه مائة صفحة كبيرة من كتابنا «الاسلام هو الحل» [١] . ومع ان الكتابات الزائفة أو شبه الرسمية تضائل من أثر الاخوان فى

---

(١) الاسلام هو الحل – جمال البنا – دار الفكر الاسلامى – ص ١٦٦ الى ص ١٧٥ .

قيام الانقلاب فإن هذا يعود الى الاتجاهات المضادة لمعظم الذين سجلوا أحداث تلك الفترة . والذين لا يعجزون عن ان يجعلوا من هزيمة ٥٦ انتصاراً ، ومن انتصار ٧٣ هزيمة ، لايعجزهم قلب الحقائق بالنسبة لما سبق ، ولما لحق أحداث ٢٣ يوليو ولكن كائنا ماكان صياح الاذاعيين والطبالين والزمارين وكتاب السلطة الذين وُضِعوا رؤساء للصحف فان الحقيقة لاتموت» ..

والحقيقة التى لامراء فيها ان عبد الناصر رغم انه اتصل بكل الهيئات والاحزاب ، فانه اعتمد على الاخوان فى تكوين الضباط الاحرار ، ثم اعتمد عليهم فى مساندة الانقلاب ، والحقيقة ايضا هى ان الاخوان كان لهم تنظيم قوى فى الجيش وآخر فى البوليس ، وان هذه الوقائع التى لم تكن خافية على الاخوانىّ العاق جمال عبد الناصر كانت فى أصل تقربه اليهم ، وانها ايضا كانت سبب نقمته عليهم وتمثيله بهم تمثيلاً لم يشرك به هيئة اخرى ...

الشاهد هنا ، ان اللحظة كانت تتطلب موقفاً مختلفاً تماماً عما وقفه الهضيبى رحمه الله . فقد وقف موقفا جافا – ولكن سلبيا – من الانقلاب وقادته ، فلا هو سلك سبيل اصطناعه واحتوائه والتعامل معه بما لا ترفضه السياسة الاسلامية ، وضرورات العمل واللحظة ، ولا هو قاومه وقضى عليه به عندما كان قادراً على ذلك . وقد اعترفت معظم الكتابات «الاخوانية» التى عُنِّيت بهذه النقطة بخطأ السلبية القاتله حتى وان لم تُحَمِّل الهضيبى رحمه الله مسئولية ذلك أو توجه اليه النقد تورعاً والتزاما ..

على كل حال ، فان ما ابتلى به الاخوان من البلاء العظيم ، وما امتحنوا به فى المعتقلات والسجون ، وماقدموه من ضحايا وشهداء كان فى حد ذاته دليل صوابهم فى معارضة عبد الناصر ، وانه كان ديكتاتوراً ، ولا يفلح الديكتاتور حيث أتى . وبقدر ما اكسبهم هذا الاضطهاد شعبية ومجداً فانه كان «الوصمة» التى قضت على العهد وأدانته ..

وفى هذا البلاء أثبت الاستاذ الهضيبى قدراً من الصلابة ثم توفي ليخلفه الاستاذ عمر التلمسانى وهو من الرعيل الاول ووضع سياسة مهادنة السادات حتى تبرأ جراح الاخوان – وعندما توفاه الله امتلأ ميدان التحرير ، وهو اوسع ميادين القاهرة والشوارع المحيطة به ، بالذين صلوا عليه وقدر عددهم بما بين مائه الف وخمسمائة الف واعلنوا وقتئذ ان من الجائز ان يسجد الواحد على ظهر اخيه اذا ضاق المكان . وحدث التجمع وتم الانصراف بنظام وفى منتهى الهدوء .

وأخيراً أنتخب الاستاذ محمد حامد أبو النصر .

★ ★ ★

إننا أولى الناس بمعرفة منزلة ، وسابقة ، وجهاد دعوة الاخوان . وأنها أعرق وأطيب الدعوات . وانها قدمت شهداءها لمقاومة الحزبية داخل البلاد .. ولمقاومة الانجليز فى القنال .. ولمقاومة الاسرائيلين فى فلسطين . والحق اقول انى ، اكثر من مرة ، لا أفتح احدى الاعداد القديمة لمجلة الاخوان حتى تطالعنى صورة شهيد .. وأتساءل وأتعجب من اهمال هذه الدعوة لشهدائها ...

وقد عايشناهم من الايام الاولى للدعوة واكرمنا الله بالاعتقال معهم عام ١٩٤٨ ولنا صداقات وذكريات مع الرعيل الأول ..

ومن ثم فنحن عندما نعرض نقداً أو نقترح اصلاحاً فان هذا يكون من منطلق «صديقك من صَدَقَك لا من صًدقك» و «رحم الله امروءً اهدى الى عيوبى» و«انصر اخاك ظالما أو مظلوما» وهو شىء لم نقدمه للهيئات الاسلامية الاخرى التى أشرنا اليها لحق الاخوان علينا وخصوصية العلاقة بهم ..

عن هذه الروح نكتب وبهذه الروح نرجو ان يُقرأ .

لقد حفلت الفترة من استشهاد الامام البنا حتى الوقت الراهن بالأحداث والفرص .. ففى مستهلها كان الشعب بأسره متعاطفاً مع الاخوان إثر الاغتيال الأثيم ، وحل الهيئة والزج بالالوف الى المتعقلات . ثم قام انقلاب ٢٣ يوليو مرتكزا على الاخوان .. وكانت هذه فرصة كبيرة أضاعها الاخوان . ومرة أخرى يتعرض الاخوان للاضطهاد والتعذيب ويقدمون شهداء ممن حكمت عليهم محاكم جمال سالم ، والدجوى ، أو ممن فاضت روحهم فى يد الجلادين ، واكتسب الاخوان عطف المجتمع خاصة وقد تكشفت سوءات العهد حتى جاءت هزيمة ٦٧ حاكمة عليه ، ومنهية له ... فسمحت فرصة اخرى أضاعها الأخوان .. وآثروا السلبية ..

ان السلبية فى الهيئات – كما هى فى الافراد – تعنى الصدأ والتآكل الذى ينتهى بما يماثل الشلل . وهو فى حقيقة الحال نوع من الأنتحار الاختيارى البطىء ..

ولم تقتصر السلبية على النشاط السياسى وماقد يثيره من صدام – ولكن شملت مجال الفكر الاسلامى الذى رفعت لواءه ، وسارت به خطوات بعد السلفية التقليدية .

هذا المجال الذى كان يمكن ان تملأ به القياده الاخوانية الفراغ .. لم يشهد عملاً من أى نوع ، ولم يضع واحد من الثلاثة الذين خلفوا الامام الشهيد إضافة أو مساهمة ذات أصاله[١] . فى الفقه ، أو التفسير أو الحديث أو الاقتصاد أو الاجتماع . ولم **يقم بهذا أحد مفكرى الاخوان مع ان المناخ كان مهيئا له ، بل ويتطلبه ... والذى حدث هو النكوص عما وصل اليه الاخوان من مرونة فكرية الى السلفية التقليدية الجامدة والمتزمتة . وفى بعض الدول العربية والجاليات الاسلامية فى دول اوروبية حدث تحالف بين الأخوان والهيئات الوهابية التى تساندها السعودية – لمواجهة اتجاهات اسلامية متحررة ، أو صاعدة . أو وقف الاخوان موقف المعارضة من هيئات اسلامية اخرى ..**



انه لمن العسير ان يستسيغ اى واحد اكذوبة عدم شرعية الهيئة وصبر الاخوان عليها لاكثر من عشرين عاماً انتظاراً لحكم احدى المحاكم ، أو عجزهم عن اصدار مجلة أو تأسيس دار ..

هذا أمر لايمكن ان يفهم ، الا اذا كانت السلبية والاستخذاء ، اصبحا السياسة المقررة ...

الغريب ان القوة لاتنقص الاخوان ، وان الشارع لم يتخل عن الاخوان ، وان الاحزاب المقررة تغازل الاخوان . وانها جميعاً سعت ، أو قبلت – شخصيات اخوانية تدخل انتخابات مجلس الشعب تحت مظلتها . وان المرحلة الاخيرة لهذا «التحالف» ادخلت قرابة خمسين نائباً من الاخوان .. فاذا كان «المجلس الموقر» قد نسج شبكة من اللوائح الداخلية التى تحاصر المعارضة ، او اذا كان يحكم بديكتاتورية الاغلبية ، او ان رئيسه يرى ان «المجلس سيد قراره» ليجُبَّ بذلك الشرعية والحقيقة .. فقد كان واجب نواب الاخوان ان يتقدموا الى الشعب باستقالة جماعية يقولون فيها : اننا دخلنا لنخدم – وقد حيل بيننا وبين ذلك . فنحن نستقيل .

وكان عليهم عندئذٍ ان يركزوا جهدهم فى العمل الشعبى وهو مجالهم الأصيل . وان يعتنوا بالتكتلات الشعبية المنظمة كاتحادات الطلاب . والنقابات . والجمعيات الريفية الخ ...

---

(١) باستثناء كتاب «دعاة لاقضاة» الذى صدر باسم الاستاذ الهضيبى .

لقد خسر الاخوان كثيراً من طلبه الجامعة الذين ضاقوا بسلبيتهم ، فانحازوا الى الذين يرفعون شارات الجهاد . وعوض الله تعالى الاخوان بأغلبية فى بعض النقابات المهنية .. لكنهم عجزوا عن ان يقدموا «الوجه الاسلامى» للخدمة التى يفترض ان تقوم بها نقابة مهنية فى خدمة عامة كالطب لأنهم دخلوا الحركة النقابية بفهم سلفى ومزاج بورجوازى ولايمكن توقع نجاح مع هذا ، فالحركة النقابية لها أصولها ومقوماتها التى يكون عليهم ان يتعلموها ، ولم يكن هذا عسيراً عليهم لان هذا المجال قد خدم فى مجال الكتابة والتنظير ، وهناك هيئة اسلامية مختصة ليست بعيدة عنهم .



اننا لنأمل ان يعيد الاخوان النظر فى تاريخهم المجيد وتقاليد الامام الشهيد . فلا يتخذون السلبية منهجاً والتقوقع اسلوبا . ان هذا وذاك يخالفان جهادية الاخوان وأنفتاحهم . وقد أدت سلبيتهم الى ازدهار صور الفساد فى المجتمع المصرى حتى أصبح له «مافيا» قوية وأنصاراً أو حماة فى اعلا المناصب وتدنت المستويات - اجتماعية وسياسية واقتصادية وخلقية - الى الدرك الأسفل وأصبح الزيف والباطل شرعة وحقيقة - وهم مسئولون عن هذا امام الله .. وامام المجتمع المصرى لانهم اقوى هيئة يمكن ان تكبح جماحه وتوقف استشراءه .

وليس شرطا ان يأخذ كفاح الاخوان لهذه الصور من المفاسد صورة العمل السياسى والوصول الى الحكم للاصلاح - لان فى ايديهم ماهو ادنى واقوى ، وماهو اقرب اليهم روحاً وممارسة وهى **الدعوة** . ويااليتهم يعلنون ان الحكم ليس هدفا . وان جهادنا الاول ليس بالسيف ولا بالحكم ولكن «به» اى بالقرآن «وجاهدهم به» اى بالدعوة .. فالاخوان هيئة دعوة .. هيئة ضغط .. هيئة أمر بمعروف ونهى عن منكر . لايدخل فيها الاصلاح باليد ..

ان الملم بتاريخ الهيئات العامة يعلم ان الجمعية الفابية (Fabian Society) التى ظهرت فى بريطانيا فى اواخر القرن التاسع عشر وكانت هيئة دعوة تلجأ الى اصدار الكتيبات والدوريات والمراجع . وتعقد دورات ثقافية .. ان هذه الهيئة أثرت فى المجتمع البريطانى بحيث حققت اهدافها فى الاصلاح الاجتماعى خلال سبعين سنة بفضل تغيير الفكر والرأى العام . وان تجربتها تلك تفضل تجربة الحزب الشيوعى الذى اغتصب الحكم بتكنيك سياسى . وفرض التطبيق اللينينى على المجتمع الروسى

بكل ماأوتى من قوة ، وحقق بالفعل تغييرات جذرية . ولكنها - بعد سبعين عاما فشلت وانتكس المجتمع الروسى كما هو معروف . **ان سبعين عاما من الدعوة بالحكماة والموعظة الحسنة نجحت فى التغيير وان سبعين عاما من الحكم والتطبيق والتشريع فشلت فى تحقيق أهدافها ...**

وتتفق هذه الرؤية ، مع النتائج التى انتهينا اليها فى هذا الكتاب عن دراسة بعض الدعوات الاسلامية التى وصلت الى الحكم . وكيف ان الحكم فى حد ذاته لم يحقق طائلاً ، وان الدعوة الاسلامية التى تجعل الحكم غاية بفكرة تطبيق ماانزل الله تقع فى خطأ جسيم لان الحكم وسيلة . وليس غايه . ولا يجوز للوسيلة ان تكون غاية .. **قد تقولون ان الحكم وسيلة وان الغاية هى تطبيق ماانزل الله . لكن تجربة التاريخ فى كل زمان ومكان - تدلنا على ان الحكم - أو السلطة - تصبح غاية حتى عندما تراد كوسيلة . ولم يستهدف** الرسول فى دعوته حكما .. وانما نشر دعوته حتى دعته الظروف ان يطبق الشريعة - وكان نبياً يُعْصَم مما لايُعْصم منه غيره[1] ..

والدعوات الاسلامية بصفة عامة تميل لان تنسب للحكم قوة ليست له ، وقد تتعجله قبل تهيئة المناخ واصلاح النفوس . فى حين أن هذا الأخير نفسه هو المطلوب . ومالا يمكن للحكم ان يحققه . ولو ركز الاخوان جهدهم فى الدعوة لجاءهم الحكم «يجرجر أذياله» ولعل هذا هو ماعناه الامام الشهيد عندما قال «نحن لا نسعى للحكم . إن الحكم هو الذى يسعى الينا» . والذى أعلمه ، ولعل بعض الاخوان يعلمونه ايضاً ، ان فكرة التركيز على الدعوة بالحكمه والموعظة الحسنة لم تكن بعيدة عن ذهن الامام الشهيد خلال الشهور الاخيرة العاصفة التى سبقت استشهاده . وليس معنى هذا ان يقتصر الأمر على اصلاح النفوس بالتربية والعبادة . ولكن اصلاح المجتمع بكشف السوءات والتنديد بها وعرض طرق الاصلاح والدعوة اليها .. حتى لاتكون الأخوان هيئة صوفية أو سلفية .. وانما حياتيه تقوم اليوم بما قامت به فى الامس ، عندما استنقذت الاسلام من الركن القصى الذى ابعد فيه الى صميم الحياة والمجتمع ، والجامعة والشباب وقضايا الاقتصاد والاجتماع والسياسة .

إن الأخذ بمثل هذه الفكرة لايمثل انتكاسا أو تغييراً فى الخط الاخوانى ولكنه «الرجوع الى الأصل» .

---

(١) انظر فصل «دعوات وصلت الى الحكم» فى هذا الكتاب .

واذا جاز لنا ان نقترح على الأخوان أمثلة للمجالات الجديدة للدعوة يمكن الاشارة الى قضية محو الأمية التى أعيت من يداويها وفشلت فيها كل الأجهزة والهيئات . ويمكن للاخوان ان تركز كل جهودها فى حملة تحت الشعار القرآنى «إقرأ» فاذا لم تنجح فى محوها تماما ، فلا ريب فى انها ستقضى على نسبة كبيرة منها . وسيكون عملها حافزاً ومثالاً لبقية هيئات البلاد ، بحيث يمكن ، فى فترة قريبة – القضاء عليها .

واسلامياً .. فهل هناك افضل من «اقرا» أول لفظة نزلت من السماء الى الارض . يحملها جبريل .. الى محمد ليبلغها محمد للناس .

وهناك ايضاً مجال قد لا يمكن لغير الاخوان ان يطرقوه هو انشاء هيئات «صوفية اسلامية مهنية» لايجاد طراز جديد من الممرضات اللاتى يدخلن هذه المهنة النبيلة بايمان واخلاص وللقربى الى الله . **ويمكن لهذه الهيئات ان تحمل اسم «الخديجات» أو «الفاطمات» وتضم كرائم الآنسات والسيدات المتطوعات وتقدم لهن دراسات** فنية فى التمريض ودروس اسلامية روحية . بحيث يمكن ان توجد ممرضات مسلمات يماثلن نظام الممرضات الراهبات الذى سبقت اليه المسيحية ، والموقف الاسلامى الأمثل منه هو «نحن أولى به منهم ..» كما ضرب لنا الرسول المثل من قبل ...

والاخوان ، وعلاقتهم وثيقة بنقابة الاطباء يعلمون ان «عنق الزجاجة» فى العلاج المصرى هو التمريض . وان مهارة الطبيب وحداثه المعدات والوسائل ، تذهب فى النهاية هدراً لسوء التمريض لأننا ظلمنا الممرضة ، فلم تستطع القيام بدورها وتقديم عطائها ولايمكن بالوسائل البيروقراطية والرسمية إصلاح هذا الخطأ ، لأن القضية ليست فحسب ظلم الممرضة ماديا ، ولكنه أيضاً المفهوم الطبقى المزيف للمجتمع المصرى نحوها ونظرته اليها فى استغلاء ، ولا يمكن القضاء عليه ، الا باحلال مفهوم اسلامى ، كالذى أوجده الرسول عندما رفع عاليا اليد التى خشنها العمل قائلاً «هذه يديحبها الله ورسوله» .

وحملات محو الأمية تحت شعار «اقرأ» وانشاء هيئات «الفاطمات» و «الخديجات» هى من أفكار «الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل» ونحن نقدمها للاخوان لأنهم اليوم اقدر على التحقيق .

وعن «الاصلاحات» الجزئية لبعض الاوضاع فى النظم الاخوانية ، فان من الخير

السعى لاكتشاف القيادات الشابه وافساح المجال امامها من القاعدة حتى القمة ، ويدخل في ذلك استبعاد المبدأ العقيم الذى اتبعته اخيراً . وهو انتخاب اكبر اعضاء الهيئة التأسيسية سنا ليكون مرشدا . إن هذا يمكن ان يساغ لو كان الاخوان هيئة من اصحاب المعاشات أو المحالين على التقاعد .

كذلك يجب ان تفهم القيادات الاخوانية ان البيعة لاتعنى استسلام العضو جسماً وروحاً للأوامر .. وأن الطاعة فى المنشط والمكره لاتستبعد الشورى – التى يبدو أنها نسيت ، فأنما تكون الطاعة فيما انتُهى اليه باعمال الشورى .

الفصل الثانى

الجماعة الاسلامية

باكستان - الهند

تاريخ عريق :

قد يكون من الضرورى قبل الحديث عن الجماعة الإسلامية أن نُعرِّف القارىء العربى فى إختصار شديد «بالمشهد الهندى» والملابسات التى قامت قبل «الجماعة الإسلامية» ، إذ يغلب أن يكون ذلك جديدا عليه .

كما أن من العسير أن يتفهم القارىء المؤثرات التى أثرت على «الجماعة الإسلامية» دون إلمامه بهذا التاريخ .

فقد بدأت الموجه الأولى للفتح الإسلامى للهند بقيادة «محمد بن القاسم» ذى السبعة عشر ربيعاً من الشاطىء الغربى الشمالى (السند) عام ٩٢ هـ .

وكان من الممكن أن يمضى قدما لولا المؤامرات التى انتزعته من الهند[١] .

---

(١) وقصة المؤمرات : أن الحجاج بن يوسف الثقفى كان قد سير ابن أخيه محمد بن القاسم على رأس جيش إلى الهند وكان ذلك فى عهد الوليد بن عبدالملك وفى تلك الأثناء أراد الوليد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه فساعده الحجاج فى ذلك ، إلا أن سليمان تولى بعد موت أخيه الوليد ، وانتقم سليمان من الحجاج فى شخص رجاله ، ومنهم محمد بن القاسم الذى استدعاه من الهند وسجنه .

وجاءت الموجه الثانية مع دخول السلطان «محمود الغزنوى» (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) عن طريق الحدود الشمالية الغربية .

والمدة الطويلة مابين ٩٢ و ٤٠٠ هـ التى تفصل الموجة الثانية عن الأولى توضح لنا جريرة المؤامرات وكيف يمكن أن تكون بعيدة المدى فى مصائر الشعوب !

فقد كان من الممكن اختصار ثلاثمائة سنة لتمكين الإسلام فى الهند ..

ودخل مع السلطان محمود الغزنوى الترك والأفغان ، وأسسوا الدولة الاسلامية فى الهند التى بلغت أوجها فى عهد الملك أكبر ، وشاه جهان ، وأورانجزيب ..

وظلت قائمة .. ثم أخذت تتدهور حتى دهمتها الجيوش الأوروبية .

وبدأت صفحة التدخل بالاستعمار البريطانى الذى ترك آثارا عميقة على حاضر القارة الهندية ، وكان أصلاً لمعظم مشاكلها .

واختلف المجتمع الإسلامى فى الهند عن المجتمع الإسلامى فى مصر وسوريا والعراق فى أن الفتح الإسلامى لم يعط الهند لغته العربية .

كان هناك كثافة سكانية ، وكان هناك تقاليد وأوضاع مؤثله ، فضلاً عن أنه - باستثناء الموجه الأولى التى قادها محمد بن القاسم التى كانت عربية خالصة - فإن معظم الفاتحين المسلمين لم يكونوا عربا ، أو لم يكونوا من الذين يحكمون العربية .

وهكذا حرم المجتمع المسلم الهندى من اللغة العربية .

وفى دين كالإسلام - معجزته الكبرى وجذره الأصيل القرآن - يكون عدم الإلمام بالعربية نقصا كبيرا فى الإيمان ..

فمن لايعرف العربية يغلب أن لايصل إلى أعماق العقيدة التى عبر عنها القرآن بأسلوب فريد يعسر أن يترجم .

ولم تقتصر جريرة مؤامرة استدعاء محمد بن القاسم وإيقاف الموجة الأولى من موجات الفتح الإسلامى على تأخر وقوع الموجه الثانية لثلاثة قرون ، ولكن أيضا أنها حالت دون تغلغل اللغة العربية ..

وإنه من العجيب أن تتكرر هذه المأساة بالنسبة لإيران ..

وتكررت مرة أخرى فى الباكستان – دون أن يكون هناك مبرر حقيقى – إلا الغفلة عن أهمية تلك النقطة التى جعلت الباكستانيين يبقون على لغتهم الأصلية ، ولو جعلوا العربية لغة رسمية لهم منذ إستقلالهم عام ١٩٥٧ لأصبحوا عربا (لأن العربية هى اللسان) ولأصبحوا أقرب إلى المجموعة العربية من الصومال وجيبوتى .. الأعضاء فى الجامعة العربية .

أخطاء يُظَنُ أنها صغيرة .. وتجر عواقب مصيريه خطيره ..



وفى نظرنا أن تلك الواقعة فرضت نفسها على مدى وعمق ونقاء إسلامية المجتمع الهندى ، وكانت فى أصل ما تعرض له من مفارقات ومن شذوذ ظهر فى سياسة الملك «أكبر» الذى كاد يمرق من حظيرة الإسلام ، وما اتسم به البلاط المغولى من سرف وطقوس وسياسات بعيدة قلبا وقالبا عن الإسلام ، كما كانت سببا فى ظهور «رد الفعل» فى محاولات الخلاص التى أخذت طابعاً جهاديا وتزعمها علماء[1] كان أولهم وأبرزهم الإمام المجاهد أحمد السرهندى (أحمد بن عبد الأحد الفاروقى) الملقب بمجدد الألف الثانى للهجره الذى عمل خلال الفترة الأخيره من حكم أكبر ، وابنه الخليع جهان كير الذى أمر بسجن العالم فى حصن كواليار ، وكان سجنه هذا نعمة لأن شهرته سبقته بحيث أصبح السجن وما حوله منطقة إسلامية تطبق تعاليمه . وتنبه المسئولون إلى ذلك وتغير مسلك الملك ، واستقدمه ولى عهده الذى ولى الملك باسم شاه جهان ورحب به .

وبذلك استطاع العالم المجاهد أن يوقف عجلة الانحراف التى كانت تمضى قدما .

وخلف الإمام المجاهد أحمد السرهندى فى قيادة الدعوة الإسلامية الشيخ

---

(٢) رجعنا فى هذا القسم من استعراض تاريخ الإسلام فى الهند إلى الكتيب الذى وضعه السيد مسعود الندوى باسم : «نظره إجمالية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند» وطبعته لجنة الشباب المسلم بالحلمية الجديدة وكتب مقدمته الأستاذ محب الدين الخطيب – رحمة الله – عام ١٣٧٢ هـ .

عبد الحق الدهلوى[1] الذى أحيا علم الحديث فى شمال الهند ، وشرح «مشكاة المصابيح» بالعربية والفارسية ..

وكانت جهود العلماء قبله منصبة على فروع الفقه الحنفى والمنطق وعلم الكلام .

ثم ظهر الإمام ولى الله الدهلوى (١١١٤ - ١١٧٦ هـ) مؤلف «حجة الله البالغة» ، وهو أحد غرر المراجع الإسلامية ، والكتاب الموجز «الإنصاف فى بيان سبب الاختلاف» ..

ووضع ولى الله الدهلوى أساس الفكر السلفى المستنير الذى يعود إلى القرآن والحديث والأئمة ، وقد نفع الله به الهند كلها لما رزقه من قبول فكثر أتباعه وكان أولاده الأربعة امتدادا له ولدعوته .

فقد أنجب أصغر أبنائه «الشاه عبد الغنى» الذى مات وهو شاب ، ابنه الشهيد «اسماعيل» الذى كان اليد اليمنى للسيد أحمد بن عرفان وخاض معه معارك عديده ضد السيخ والهنادك المحاربين للإسلام وحققا انتصارات عديدة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة ، ولكنهما هزما واستشهدا فى معركة بلاكوت (مابين كشمير والحدود الشمالية الغربية) وأوقفت هذه الهزيمة المد الإسلامى وحالت دون قيام حكم إسلامى رشيد .

الثورة الهندية وأحمد خان :

اندلعت وقتئذ الثورة الهندية الكبرى .. فقد ثارت مجموعات عديدة من الشعب ، وأيدتها فرق من الجيش الهندى (١٢٧٣ هـ - ١٨٥٧ م) . على الانجليز واستطاع الإنجليز قمع الثورة بعد عناء شديد .. وصبوا جام غضبهم على المسلمبن الذين كانوا «فرسان الهند» وتمثل فيهم روح الجهاد والقيادة المترسبة من ذكريات الفتح الإسلامى والامبراطورية المغولية ومقاومة الانجليز بقيادة تيبو صاحب الذى سقط شهيدا عام ١٧٩٩ . فدبر الانجليز مذابح استهدفت استئصال عناصر المقاومة من المسلمين ووصل بهم الأمر أن كانوا - على ماروى ذكاء الله الدهلوى - لايفلتون أى مسلم عليه سمه من جمال أو بسطه فى الجسم - كما أغتالوا الاسره المالكة بعد استئمانها ،

---

(١) نسبة إلى «دهلى» وهى التسمية الصحيحة ، ولبست «دلهى» كما حرفها الإنجليز .

فسبقوا لينين فيما فعله باسرة القيصر نيقولا الثانى ، ثم وضعوا النظم الادارية التى تبعد المسلمين عن النشاط العام والخدمة المدنية ومجالات العمل ، بقدر ما اصطنعوا السيخ وطوائف من الهندوس ليكونوا شوكة فى حلق المسلمين وليسدوا الطّريق أمامهم .

وقال مسعود الندوى عن الآثار التى جاءت بها الثورة على مسلمى الهند :

«وكان من جراء الفزع والخوف على مستقبلهم ، واضطهاد الحكومة المتتابع لهم أن تحولت حياتهم الدينية والسياسية تحولا كاملاً بعد الثورة الكبرى (١٢٧٣ هـ - ١٨٥٧ م) وكأنى بهم قد أنشئوا أمة جديدة لاصلة لها بالأمة المسلمة الباسلة التى نشرت ظلال الأمن والدعة والسلام فى ربوع الهند قرونا عديدة ، والتى قاتلت فى صفوف المجاهدين منذ وقت قريب ورفعت لواء الحق وأرادت أن تعلى لواء الله فى الخافقين» .

وفى هذه الفترة المظلمة ظهر السيد أحمد خان ، وبدأ أولى محاولات التجديد بعد الثورة . وكان رجلاً مستنيرا دؤوبا صاحب عزيمة قوية ، وله بعض الدالة على الإنجـ . (١) ..

وكان الوسيلة التى اختارها تمثل لنا إحدى نقاط الافتراق عن الوسائل التى وضع أصولها مجدد السرهندى وتقوم على : «الجهاد» أو التى وضعها ولى الله الدهلوى وتقوم على . الأصول السلفية وتنقية العقيدة .

كما أنها تكشف عن أثر التطور الذى حدث فى أعقاب الاستعمار البريطانى وزحف الثقافة الأوروبية ..

فقد اختار السيد أحمد خان : «**التعليم المدنى**» الذى لمس أهميته وشاهد عزوف المسلمين عنه .

وهكذا أسس عام ١٢٩٣ هـ كلية «عليكرة»(٢) التى أصبحت فيما بعد جامعة عليكرة كبرى الجامعات الإسلامية فى الهند .

---

(١) لأنه فى أحرج أيام الثورة أضفى حمايته على كثير من السيدات البريطانيات وأنقذهن من الموت المؤكد .

(٢) تبعد عن دهلى ٥٥ ميلا تقريباً .

وفى البداية لم تتقبل العناصر الإسلامية التقليدية هذه الخطوة بقبول حسن ؛ خاصة وقد أخذ على أحمد خان بعض الإجتهادات التى أخطأه فيها التوفيق ، ولم تكن هذه الاجتهادات تمس صلب العقيده ، ولكن المسلمين رأوها كبيره ؛ فتجرأ على إنكار :

الرق فى الإسلام .. تعدد الزوجات .. ولادة السيد المسيح من غير أب .. المعجزات كلها .. الجن ..

وكانت العناصر الإسلامية قد أسست قبل تكوين عليكرة بسنوات قلائل مدرسة «ديوبند»(١) التى بدأت بمدرس وطالب ثم نمت حتى أصبحت أكبر مدرسة دينية فى الهند ..

ولعل اتجاه السيد أحمد خان جعل مؤسسى «ديوبند» يتشددون ، وبتعبير السيد مسعود الندوى : «... لكن هؤلاء العلماء أخطأوا من جهة أخرى ، فإنهم حافظوا على منهاج التعليم القديم العقيم الذى ورثوه عن شيوخهم وشيوخ مشايخهم منذ قرون وأجيال .

ولم يرضوا بأدنى تغيير فى الكتب والمواد المقررة للتدريس أو طرق الإلقاء والإملاء والدرس .

وكذلك جعلوا أنفسهم فى عمى عن كل ما يظهر ويتجدد فيما حولهم من الأرض ..

وكأنى بهم أرادوا أن يعتصموا بدينهم وعقائدهم منزوين فى جوامعهم وزواياهم ، وهيهات أن ينالوا بغيتهم ، فإن أعاصير الإلحاد والزندقة التى كانت تهب بين جدران الكليات العصرية ، ما كانت لتذر سكان الجوامع والزوايا فى أمنة منها ..

فإنهم مهما اجتهدوا فى اغلاق أبواب الجوامع وإيصاد مصاريعها دون زوابع التفرنج والأفكار الأوروبية العصرية ، فإن هذه الأعاصير داخلة فى بيوتهم وحجراتهم وزواياهم لامحالة .

فإنه ليس من قوانين الطبيعة إخماد النيران المضطرمة بالسكون والعزلة ، ولا دفع السيول المتدفقة باللجوء إلى الحجرات والمخادع ..

---

(١) تبعد عن دهلى ٦٠ ميلا تقريبا .

وكل من اراد ذلك فقد ارتكب الغلطة الكبرى وسيذوق مغبتها يوما لامحالة»[١] .

وفي عام ١٣١١ هـ تكونت جمعية «ندوة العلماء» ، و«دار العلوم» التابعة لها ، أى بعد . ربع قرن من «عليكرة» و «ديوبند» .

وكانت الفكرة فيها إيجاد منهج وسط يقوم على الكتاب والسنة دون تجاهل العلوم العصربة ، واللغة الإنجلبزية ، وكونت «دار العلوم» لتكون مثالا علمبا بقف بين «عليكره» و «ديوبند» .

وهذه تجربة حسنة .. فالمنهج فى حد ذاته هو المنهج السليم ..

كما كانت ندوة العلماء هى الأولى التى تنبهت إلى أهمية دراسة اللغة العربية ، واستقدمت المدرسين لذلك من الدول العربية ، كما أرسلت إليها بعض الدارسين النابهين .

ولكن يغلب أنها فى تقبلها للعلوم العصرية استهدفت توظيف هذه العلوم لخدمة الفكرة السلفية دون أن يكون لديها «الحس» الموضوعى اللازم للمعرفة الحقه ، والذى لايخالف توجيه القرآن .

وتلك نقطة كانت – ولاتزال – يعسر على السلفيين – إساغتها ..

وكانت التطورات السياسية تدفع بالحركة الإسلامية لأن تعلن رأيها وتحدد موقفها ..

فقد نشبت الحرب العالمية الأولى ووقفت بريطانيا ضد تركيا – دولة الخلافة – ثم ذكرت للوعود التى أعطتها للملك حسين ، وناصرت – بل وأسهمت – فى سياسة تقطيع أوصال العالم الإسلامى ؛ دع عنك وعد بلفور المشئوم .

وبالإضافة إلى هذه السياسة البريطانية ففى تركيا نفسها ظهر مصطفى كمال متشحا بلباس «الغازى» .. ثم منقضا على الخلافة .. ومتنكرا للإسلام .. وباطشاً بعلمائه .. وقاضيا على اللغة العربية وكل التقاليد الإسلامية .. وبادئا عهد العسكر العقيم .

أدت هذه الأحداث كلها إلى وجود اتجاهات تقاسمت مسلمى الهند ؛ وحفلت الحقبة

---

(١) نظره إجمالية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند وباكستان ص ٥٩ – ٦١ .

بعدد من الشخصيات الإسلامية البارزة والموهوبة في مجال القيادة مثل : أبى الكلام آزاد ، ومحمد إقبال . ومولانا محمد على ، ومحمد على جِنَّة ... ومجموعة أخرى كبيرة من الأطباء وأساتذة الجامعات والمحامين .

وكانت ثقافة معظم هذه القيادات ، والمناصب التى شغلوها أو المهن التى يمتهنونها ، تجعلهم يقتربون من الاتجاه العصرى قدر ما يبتعدون عن الاتجاه السلفى التقليدى .

على أن ذلك لم يوهن من حماستهم لقضية الإسلام ، بل زودهم بمنطق وأسلوب كانت الدعوة الإسلامية فى أشد الحاجة إليه .

وظهرت وقتئذ القضية الرئيسية التى تملكت اهتمام المسلمين على اختلافهم فى الهند ؛ هذه القضية هى : موقف المسلمين من استقلال الهند ..

كان حزب المؤتمر أكبر وأقوى الأحزاب الهنديه ينادى بهند واحدة ديمقراطية تضم الهندوس والمسلمين وبقية طوائف الهند .

وكان التالوث الذى يقود حزب المؤتمر هم : غاندى ، وجواهر لال نهرو ، وأبو الكلام آزاد «الذى كان رئيس المؤتمر» .

وكان أبو الكلام آزاد وقتئذ هو أكبر زعيم سياسى مسلم ، وقد أيد بقوه فكرة الهند الديمقراطية الواحدة ..

ولكن مجموعات إسلامية عديدة تنبأت بأن الهند الديمقراطية ، بأغلبية هندوسية ، ذات عداوة قديمة مع الإسلام ، لابد أن تحيف على حقوق المسلمين ، ولن يكون المسلمون فيها مواطنين سعداء أحرار ، وأن من الخير أن تنقسم شبه القارة (وليست هى بالصغيرة حجما أو بالضئيلة عددا) إلى دولتين : دولة للهندوس ، ودولة للمسلمين .

وأيد هذه الفكرة الشاعر محمد إقبال ، الذى كان روح الحركة وشعلتها المثيرة ، والذى أبدع كلمة «باكستان» وظهر بجانبه السياسى المحنك القدير محمد على جنه ، وظهرت «الرابطة الإسلامية» كهيئة تدعو للدولة الإسلامية الجديدة .

ونعتقد أن دعاة «باكستان» كانوا أقرب إلى الصواب ، وأن قادتهم أيضا كانوا أكثر نبوغا ؛ ، محمد إقبال كان لايجارى كشاعر مسلم استطاع بإيمانه وملكاته أن يوظف اللفظ والمعنى ، وأن يلهب القلوب والعواطف .

كما أثبت محمد على جنه أنه مفاوض قدير صعب لم يستطيع معه غاندى أن يصنع شيئا ، وأساء إلى منزلة أبى الكلام آزاد – وهو الزعيم الإسلامى الذى كان سابقا على هؤلاء جميعا – موقفه من مصطفى كمال أتاتورك ؛ فإنه أيد «إصلاحاته» المزعومة ! ، ورأى أنه فى إلغائه الخلافة لم يرتكب أمرًا إدا !! ..

وكانت الخلافة أحدى مقدسات مسلمى الهند ..

ومع أن «أبو» الكلام – باستثناء ذلك – كان أقرب إلى الثقافة الإسلامية من محمد على جنه ، الذى كان فى الثقافة والمزاج والسلوك سيدا بريطانيا لايفترق عن أى «باريستر»(١) إنجليزى ..

إلا أن الذكاء والدهاء جعلا من «جنه» القائد الأعظم الذى يخرج «باكستان» من أحشاء الهند بعملية قيصرية لم يكن منها بد ..

وتلك نقطة تستحق وقفه قصيره ..

فإن جنه(٢) لم يكن من العلماء المسلمين ، بل إن ثقافته الإسلامية كانت ضحلة ، وقيل إنه من «الإثنى عشرية» ، ولما اضطر إلى الإمامة فى الصلاة تلعثم ، فضلا عن أنه بالنشأة والثقافة والمهنة كان غربيا أوروبيا ..

ومع هذا فإنه كان سياسيا أقدر من «أبو الكلام آزاد» الذى يعد حجة وأستاذا فى الآداب والثقافة الإسلامية ..

وكان جنه هو الأحق فعلا بأن يصبح رجل باكستان الأول ..

ولكن هذا لايعنى أنه كان رجل دولة من الطراز الرفيع ؛ فقد كان سياسيا ذكيا ماهرا ؛ استطاع بمهارته السياسية أن يظهر باكستان على الخريطة والواقع رغم كل الشكوك ، والمثبطات ، والقوى المعارضة التى ترصدت له ..

ولكنه لم يكن رجل دوله مع أن الفرصة كانت مهيأة لو كان مؤهلا لذلك ..

ولو أنه كان رجل دولة لأقام دولة إسلامية ؛ بمعنى استلهام القيم الإسلامية الكبرى ،

---

(١) وهو فى النظام البريطانى ارقى مستوى للمحامين . barrister (1)

(٢) وعادة مالاينطق حرف الهاء .. فى آخر الكلمة ، وكتابتها – جناح نوع من التحريف Jinnah

وأولها العدل ؛ ولأهتم باللغة العربية ، أو رسم خطة لتكون لغة باكستان على المدى البعيد .

لو فعل هذا لاغتفر له قصوره فى الثقافة السلفية ، أو عدم إحسانه للإمامة فى الصلاة ، فهذا لاقيمة له للإمام فى دولة إسلامية فى العصر الحديث .

على أن خصومه السياسيين : أبو الكلام آزاد ، وأبو الأعلى المودودى .. لم يكونوا رجال دولة كذلك ، لأن إيمانهم كان إيمانا سلفيا صرفا و لم يكن الإيمان السلفى ليقيم دولة فى العصر الحديث ...

* * *

مع هذه التطورات برزت المجموعة «المدنية» الإسلامية ، وكاد التراث الفكرى لولى الله الدهلوى وخلفائه أن ينسى فى عجيج المعركة السياسية .

وكان رد الفعل أن يظهر الرجل الذى يحول دون أن يندثر هذا الفكر ، فيبعثه ، ويجدد فى صياغته بحيث يصل به إلى مستوى «النظرية» بعد أن كانت الأفكار الإسلامية مشتتة فى الأذهان .

هذا الرجل هو : الإمام أبو الأعلى المودودى .

المودودى : النشأة والتطور :

ولد الإمام أبو الأعلى المودودى فى ٣ رجب عام ١٣٢١ هـ - ٢٥ سبتمبر عام ١٩٠٣ فى أورنك آباد ، وكان أبوه قد درس حيناما بجامعة عليكرة ثم تركها ليشتغل بالمحاماه والتعليم وفى عام ١٣٢٢ هـ ترك العمل وانعزل عن الناس .. ثم عاد مرة ثانية إلى المحاماه حتى داهمه المرض وأبقاه قعيدا حتى توفى عام ١٣٣٨ هـ .

ونشأ المودودى خلال فترة انعزال وانقطاع والده إلى العبادة والزهد ، فحرص والده على تربيته تربية إسلامية ، وألحقه بمدارس الثقافة الإسلامية ، حيث أتقن لعربية والفارسية والفقه والحديث ، واجتاز امتحان «مولوى» .

وفى عا ١٩١٨ م عمل فى إحدى الصحف التى كانت تصدر ببعض المدن الهندية حتى استقر به المقام فى دهلى ، واشترك فى حركة إحياء الخلافة .

وخلال هذه الفترة تعلم اللغة الإنجليزية وطالع كتب التاريخ والفلسفة والسياسة ... إلخ ؛ إما بحكم عمله ، وإما لأنه اكتشف عدم إلمامه بها مع أهميتها ..

وأقام فترة فى بهوبال عكف فيها على المطالعة والبحث ..

وتحدد خلال هذه الفترة العمل المهنى لأبى الأعلى المودودى الذى كان مهيئاً له بحكم النشأة والتربية والمزاج وهو «الكتابة» التى يكون مجالها المنتظم هو : (الصحافة) بالمعنى القديم لهذه الكلمة[١] .

وفى عام ١٩٢٨ م أصدر كتاب : «الجهاد فى الإسلام» الذى رد به على شبهة انتشار الإسلام بالسيف ، التى ادعاها غاندى فى إحدى المناسبات .

وفى عام ١٩٣٢ م أصدر صحيفته الخاصة «ترجمان القرآن» فى حيدر أباد الدكن ، وكان شعارها :

«احملوا دعوة القرآن وحلقوا بها فوق العالم» .

وكتب عددا من الكتب ، وانتشر اسمه ككاتب ومفكر وداعية إسلامى ، وبدأت معالم دعوته تتفتح خلال كتاباته عن :

الربا ، والحجاب ، والتنقيحات ، والتفهيمات ، ... لخ .

وفى عام ١٩٣٧ م قدم المودودى إلى لاهور بناء على دعوة قدمها له العلامة إقبال ، ولم يكد يستقر بها حتى توفى إقبال .

وتوالت التطورات السياسية ، وظهرت فكرة القومية الهندية ، ووجد المودودى نفسه فى خضم الصراع فأصدر كتابيه عن الصراع السياسى ومسألة القومية .

ودفعه هذا الاتجاه للتركيز على قضية الدولة الإسلامية التى ستصبح واسطة العقد فى فكره .

وتصدى لدعاة القومية الهندية ، وأوضح أن قيام جمهورية هندية يكون الحكم فيها للأغلبية ستقضى على الكيان الإسلامى ، وأن المسلمين إذا قبلوا ذلك سيوقعون بأنفسهم على حكم إعدامهم .

---

(١) أى الصحافة الثقافية الرسالية الإسلامية .

وكانت مقالات المودودى فى هذا الصدد من أكبر العوامل التى أوهنت حزب المؤتمر وحرمته من تأييد أغلبية المسلمين ..

وكان السياسيون المفاوضون قد كونوا «الرابطة الإسلامية» ودعمتها مقالات المودودى بنفس القدر ، ولكن العلاقة مابين المودودى والرابطة لم تكن صفوا ، فقد اكتشف المودودى الاتجاه «المدنى» لقياداتها ، وأنهم يريدون دولة إسلامية بالاسم ، وأن الإسلام لديهم كالقومية لدى الهنود ، وأنهم إنما يريدون «قومية إسلامية» ودولة إسلامية فى مواجهة القومية الهندية والدولة الهندية ، فأوضح لهم أن المسلمين ليسوا أمة كالجرمان والانجليز ، ولكنهم المؤمنين بدعوة .

وتطرق إلى ناحية هامة هى أنه حتى عندما تتجمع المقاطعات ذات الأغلبية الإسلامية فى دولة واحدة مستقلة ، فسيظل فى مقاطعات الهند العديدة أقليات إسلامية قد تزيد فى مجموعها عن مجموع مسلمى الدولة الجديدة ، وهؤلاء ليس لهم من مخلص إلا ماسماه «شهادة الحق» القولية والعملية ولخصها فى :

«ان المسلمين عندما قدموا الهند ، منذ ألف سنة ، لم يكن لهم فيها عدد أو عُدة ، وإنما رسخت أقدامهم وتغلغلت أفكارهم بفضل العلماء والصوفية الذين قالوا بفرضية شهادة الحق القوليه والفعلية ، ولولا تقاعس الملوك واشتغالهم بالأمور الأخرى لما كان هناك وجود لمشاكل الأقلية والأغلبية .

وأن الحل الحقيقى لمشاكل المسلمين ، سواء فى الهند أو باكستان ؛ هو التزام الخط الإسلامى وما يمليه من خلق وتماسك واتحاد وقيم ... الخ» .

ولكن الأغلبية – لم تتفهم مغزى دعوة المودودى وآثرت العاجلة على الآجلة – المحددة على العامة وصادق مؤتمر «الرابطة الإسلامية» عام ١٩٤٠ م على قرار تكوين دولة إسلامية مستقلة .

وفى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٤١ م تكونت «الجماعة الإسلامية» من خمسة وسبعين رجلاً اجتمعوا من مختلف بقاع الهند بناء على دعوة وجهها عن طريق مجلته «ترجمان القرآن» ، وانتخب الإمام المودودى «أميرًا» لها ..

وهذا هو أول بعث للكلمة الإسلامية القديمة «أمير» بعد أن حل محلها تعبير «الرئيس» أو «الأمين العام» ، .

ونرى هنا تجديدا يماثل تجديد الإمام الشهيد رحمه الله عندما بعث تعبير «المرشد» من تعابير الصوفية ..

عمل الجماعة :

فى هذه الفترة أتم المودودى كتبه الهامة : المصطلحات الأربعة فى القرآن ، الإسلام والجاهلية ، المسألة الاقتصادية .. وبدأ كتبه : تفهيم القرآن ، دين الحق ، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ، شهادة الحق .

وفى الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٧ م تكونت «باكستان» ، وبدأت صفحة جديدة من العمل للجماعة الإسلامية ..

إن تكوين باكستان كان نهاية لمخاض دموى تمثل فى هجرة مئات الألوف من مسلمى شرقى البنجاب حيث سادت الأغلبية الهندوسية ، بينما هاجر الهندوس من البنجاب الغربية التى اعتبرت صميم باكستان ، وتعرض المهاجرون من هذه المناطق أو تلك لاضطهادات الأغلبية هندوسا كانوا أو مسلمين ، وكان موقف الجماعة الإسلامية مثاليا :

فإنها قاومت بشجاعة اضطهاد الهندوس للمسلمين ، وبذلت جهودها لاستقبال مئات الألوف من المهاجرين البؤساء ، بينما نددت بكل شدة باضطهاد المسلمين للهندوس ورفضت فكرة المعاملة بالمثل .

ودعا هذا المسلك المثالى الحكومة لأن تفوض كثيرا من مشاريع خدمة اللاجئين إلى الجماعة الإسلامية طوال أربعة أشهر حتى انقطع سيل اللاجئين وبدأ استقرارهم فى وطنهم الجديد .

وخلال عامى ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ م قام المودودى بنشاط سياسى مكثف تطلبه تكوين الدولة الجديدة وعرض المودودى فكرته فى خطاب بكلية الحقوق عام ١٩٤٨ م ..

كما قدم فى أحد الاجتماعات الغفيرة فى كراتشى النقط الأربع للنظام الإسلامى وهى :

(١) باكستان هى ملك لله فقط ، وعلى الحكومة الباكستانية أن تقيم نظام البلاد بما يرضى الله[١] .

(٢) القضاء على القوانين المخالفة للشريعة .
(٣) أن يكون القانون الأساسى لباكستان هو الشريعة الإسلامية .
(٤) أن تحدد الحكومة الباكستانيه سلطانها طبقا لحدود الشريعة .

وعلى غير المنتظر ، فإن تكوين باكستان كان إيذانا ببداية معركة مريرة وطويلة بين الإمام المودودى وسلطات الدولة الجديدة ∴

فالمودودى أصر على أن تكون الدولة إسلامية بالمعنى الذى قدمه ؛ بينما آثرت السلطات اتجاها آخر ، وقامت خلال المعارضة العنيفة باعتقال المودودى أربع مرات !!!! .

الأولى : فى أكتوبر عام ١٩٤٨ م .

الثانية : فى مارس عام ١٩٥٣ م ، وفى هذه المرة حوكم المودودى وحكم عليه بالإعدام ! ولكن الحكومة تراجعت أمام الضغوط الشعبية والدولية فغيرته إلى السجن مدى الحياة ! ولكنها عام ١٩٥٥ م أصدرت عفوا عنه وأطلقت سراحة .

الثالثة : فى يناير عام ١٩٦٤ ، عندما حظرت الحكومة نشاط الجماعة الإسلامية واعتقلت المودودى مع ثلاثة وستين من قيادات الجماعة ، ولكن المحكمة العليا حكمت بأن هذا الإجراء غير قانونى ، وأطلق سراح المودودى ورفاقه ، وعادت الجماعة لممارسة نشاطها .

الرابعة : فى يناير عام ١٩٦٧ ، حيث اعتقلت الحكومة الإمام لفتواه عن «تقديم يوم عيد الفطر» !! ولكنها أفرجت عنه بعد شهرين بقرار من المحكمة العليا .

وفى أول نوفمبر عام ١٩٧٢ م وبعد واحد وثلاثين عاما من الكفاح قدم الإمام

---

(١) هناك ترجمة أخرى لهذا البند :
أن الحاكمية فى باكستان مختصة لله تعالى العلى الأحد ، وليس لحكومة باكستان من الأمر شىء غير انجاز مالكها الحقيقى فى أرضه . وهذا النص مأخوذ من كتاب مسعود الندوى ص ١٢٣ ، ونص المتن من كتاب د . سمير عبد الحميد : ابو الأعلى المودودى فكره ودعوته ص ٢٢٣ .

المودودى طلبا إلى الجماعة الإسلامية بإعفائه من منصبه كأمير للجماعة الإسلامية لأسباب صحية ، وعكف على البحث والقراءة بحيث أكمل «تفهيم القرآن» و «سيرة النبى ﷺ» . وفى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٩ م توفى .

☆ ☆ ☆

من هذا العرض لنشأة الإمام المودودى رحمه الله وتطوره الفكرى الثقافى وعمله فى مجال الدعوة الإسلامية يتضح لنا أن الإمام المودودى لم يستهدف منذ أيامه الأولى أن ينال منصبا أوجاها ، ولم يحاول أن يكون محاميا ضليعا ، أو استاذا فى الجامعة ، أو سياسيا كساسة الأحزاب ، أو شيخا من الشيوخ بالطريقة التقليدية ..

إنه اختار القراءة والبحث والكتابة بالإضافة إلى نشاطه العام والثمار الطيبة التى نتجت عن اقتران العلم بالعمل ، وكان من أبرز مواهبه التى ساعدت على نجاح دعوته أنه أرتى أسلوبا سهلاً سائغاً ، وأنه لم يسلك أبدا مسلك الفقهاء التقليدين أو علماء الكلام ، كما لم يحاول أن يرفع مستوى حديثه عن مستوى القارىء العادى بحيث يشق عليه فهمه .

وكان من أبرز قسمات أسلوبه أنه يلجأ إلى الأمثال السهله والأفكار الساذجه لتوضيح فكرته ، وأنه عندما يناقش قضية عويصة أو فنية فإنه لاينساق وراء «الفنية» المعقدة ، وإنما يبسطها بحيث يفهمها كل واحد .

دعوة الإمام المودودى :

ككل الأفكار الكبيرة ، كانت دعوة الإمام المودودى تتسم بالبساطة والوضوح ، وتقوم فكرته على مبادىء أساسية ثلاث :

المبدأ الأول : هو «الحاكمية الإلهية» المنبثقة من أن الله تعالى هو خالق هذا الكون وخالق الإنسان ، ومبدع كل شىء فى الوجود ، وأنه مامن ذرة فى السماء والأرض أو نجوى ثلاثة أو أقل إلا يعلمها الله .. وبناء على هذا المبدأ الرئيسى يتفرع المبدآن الثانى والثالث .

المبدأ الثانى : «العبودية لله [illegible]» فلايجوز للإنسان أن يشرك بالله تعالى شيئا .

المبدأ الثالث : أن كل أوضاع المجتمع الإنساني من سياسة ، واقتصاد ، واجتماع يجب أن تتم طبقا لما أراده الله تعالى لها وفقا لما شرعه فى الكتاب والسنة ، وأى قانون أو تنظيم يخالف ذلك يعد نوعا من مخالفة «الحاكمية الإلهية» ويقرب من الشرك .

وقد يبدو أن هذه المبادىء بديهيات وأنه مامن أحد يعارضها أو يشك فيها ، ولكن الدراسة المتأنية للأوضاع القائمة تثبت أن هذه الأوضاع تختلف بل وتتناقض مع هذه المبادىء ؛ فطموح الناس هو للشهوات والمناصب والمال والجاه ، وهم يتقربون إلى ملوكهم وأمرائهم بما يكاد يشبه الشرك ، والقوانين سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية تعارض مبادىء الشريعة بحيث يكون الإقرار بهذه المبادىء مجرد إقرار نظرى ، أما الواقع فهو شىء آخر مختلف تماما .

وكان على المودودى أن يوضح ذلك وأن يبين فساد الأفكار والأوضاع التى لاتقوم على أساس إسلامى .

الجماعة الإسلامية خصائصها وعقيدتها :

لم تكن الجماعة الإسلامية هيئة كبقية الهيئات ، لأنها قامت على أساس يتوفر فيه الإيمان والشمولية ..

وأراد المودودى وزملاؤه أن يوجدوا داخل المجتمع المدنى الذى غلب على باكستان مجتمعا إسلاميا حقيقيا يتوفر لأعضائه الإيمان والعمل ، أو ما أطلق عليه المودودى الشهادة القولية والفعلية ، ويخضع لمعايير صارمة هى التى رأى المودودى أنها تتفق مع متطلبات الإسلام .

وأقامت الجماعة فى قرية عمرتها بنفسها ، واستوطنها صفوة من أعضائها كما لو كانت مدرسة للكبار ، وكان من واجبات كل عضو أن يأخذ نفسه بآداب الإسلام وأوامره «فلا يعامل أحداً إلا على الصدق ، ولا يعاقد قريبا أو أجنبيا إلا على ما جاءت به الشريعة من شروط ولايرضى بالعقود الفاسدة المحرمة فى الشريعة ، ولو كلفه ذلك قناطير مقنطرة من الذهب والفضه ..

فاستقال أعضاؤها من وظائف الحكومة الكافرة – البريطانية – وانقطع المحامون

من رجالها عن المحاماه أمام المحاكم التى تحكم بغير ما أنزل الله ، وأبوا أن يتعاطوا بالربا فتوقفوا عن التعامل مع البنوك (المصارف) .

وتعرض أعضاؤها لكثير من العنت والاضطهاد :

فمن الشبان – وهم الأغلبية العظمى – من طرده أبوه وأخرجه من داره وحرم عليه أرضه ومتاعه .. ومنهم من أبى ذوو قرباه أن يزوجوه ابنتهم لأنه عمل بسنة النبى ﷺ وأعفى لحيته التى طالما تعود على حلقها من قبل .

ومن الشيوخ من ضربه ابنه وأهانه لأنه تخلى عن حياة الجاهلية فى شيخوخته .. إلخ ![1] .

هذه هى الشهادة الفعلية ، أما الشهادة القولية فهى أن يبلغ رسالة الجماعة لكل من يعرف أو يأنس فيه الخير .

وكان الأعضاء يترابطون فيما بينهم برباط الفكرة ، فعلى أساسها ينتخبون الأمير ، وعلى أساسها تكون طاعة الأمير ..

وقد لايكون فى هذه النقطة جديد عن مألوف الفكر الإسلامى ، ولكن الجديد فيما أشار إليه الأستاذ مسعود الندوى فى نظرته الإجمالية من حرية النقد لكل عضو فى نظام الجماعة الداخلى ، ويعبر عن هذا المعنى بقوله : «.. فقد جرى العمل فى نظام الجماعة من يوم تأسيسها بأنه ينتقد بعضهم عمل بعض ، ويستمع الذى ينتقد عمله إلى كلام الناقد بسعة القلب ورحابة الصدر ويرد عليه بأدب ووقار إن كان يرى فى انتقاد أخيه ما يحتاج إلى الرد والإيضاح ، وكذلك واجب الناقد أن لايصر على رأيه أو نقده إذا أرشده المنتقد عمله إلى وجه الصواب فى المسألة ، وأيضا من واجبات جميع الأعضاء أن يدّلوا الأمير على موطن الضعف أو الخلل أو الفساد فى نظام الجماعة فى أى فرع من فروعها ، وعلى الأمير أن يستمع إلى أمثال تلك الشكاوى ويهتم بالتحقيق فى شأنها ، وقد جرى العمل بذلك فى نظام الجماعة منذ أول عهدها ، ولايزال العمل به جاريا ، وإن أفضى فى بعض الأحيان إلى نوع من الخلل فى تسيير دولاب العمل»[2] .

---

(١) مسعود الندوى ص ١٠٣ – ١٠٥ .
(٢) ص ١٠٨ .

نقول إن هذه القسمة من قسمات الجماعة الإسلامية كانت جديدة وقتئذ فى عالم الهيئات ، وقد استلهمتها الجماعة بالطبع من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووجوب النصح لعامة المسلمين وخاصتهم .

ويمكن أن تكون «صمام أمن» ضد استشراء الفساد فى أوضاع الجماعة وأفرادها ، ولكن يشوب تطبيقها محاذير عديدة وشبهات قد تودى بأهميتها ، ويمكن فى بعض الحالات استغلالها . والاسلوب بعد ، من الأساليب المطبقة فى الأحزاب الشيوعية ، ويمكن أن تسلطه بعض القيادات على المعارضين لها بحق أو بدون حق .



وعندما قامت الجماعة فى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٤١ م وضعت دستورها ، ويغلب أن يكون المودودى هو الذى وضع بنفسه المواد الجوهرية الخاصة بالغاية والوسيلة لأنها تكاد تكون قطعة من كتاباته .

وظل الدستور الذى وضع عام ١٩٤١ سارى المفعول حتى عام ١٩٥٢ أى حوالى أحد عشر عاما تمت خلالها أحداث جسام كان منها قيام «باكستان» دارًا للإسلام ، فانتخب أعضاء الجماعة فى المؤتمر لجنة لوضع دستور الجماعة .

ولكن لم يمض زمن طويل على وضع الدستور الجديد حتى شعرت الجماعة إزاء التطورات الحثيثة بضرورة المزيد من التعديلات فعينت فى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٥٢ م لجنة حملت اسم «لجنة تعديل الدستور» ، ولكنها لم تتمكن من إنجاز مهمتها لانصراف الجماعة بكليتها إلى القيام بحملة شاملة للمطالبة بدستور إسلامى للباكستان ، ولاعتقال الإمام المودودى وصدور حكم بإعدامه حتى أطلقته المحكمة العليا عام ١٩٥٥ م ..

وأصدر المؤتمر العام للجماعة (١٧ – ٢١ فبراير عام ١٩٥٧ م) عددا من القرارات الخاصة بتعديل الدستور كلها ذات طابع إدارى .

المهم أن المواد الجوهرية الخاصة بعقيدة وغاية الجماعة لم تمس منذ وضعت عام ١٩٤١ م ، ونظرًا لأهميتها فمن المهم إثباتها هنا :

فتحت عنوان «عقيدة الجماعة الإسلامية» جاء[1] :

المادة الثالثة : عقيدة الجماعة الاسلامية الاساسية هى : **لا اله الا الله محمد رسول الله** . والمراد من الجزء الأول من هذه العقيدة أى كون الله الها واحدا دون غيره ، هو : ان كل ما فى السماوات والارض فالله خالقه وربه ومالكه وهو حاكمه .

ومن مستلزمات هذه العقيدة بعد فهمها والاقرار بها :

١ – أن لا يعتقد الانسان فيما دون الله ولياً له ووكيلا ، وقاضيا لحاجاته ، وكاشفا لمشكلاته ، ومجيبا لدعواته . فغير الله لا يملك بتاتا سلطة من السلطات المطلقة .

٢ – أن لا يعتقد فى غير الله أنه ينفعه أو يضره . وأن لا يتقى احدا غيره . ولا يخاف الا اياه ، ولا يطمع الا منه ، ولا ينوكل الا عليه ، فالله وحده مصدر جميع السلطات .

٣ – أن لا يدعو الا الله ، ولا يتعوذ الا به[1] ، ولا يستعين الا به ، ولا يعتقد فى غيره ان له ضلعا ونفوذا فى التدابير الالهية ، أو أن شفاعته تبدّل قضاء الله وقدره ، فالجميع فى مملكة الله ، سواء من الملائكة أو الانبياء أو الاولياء ، ليسوا الا رعيته التى لا تملك شيئا الا باذنه .

٤ – أن لا يطاطىء راسه امام غير الله . ولا يعبد الا اياه ، ولا ينذر الا له ، ولا يتعامل مع احد غير الله ما كان يتعامله المشركون مع آلهتهم . فالله هو وحده يستحق أن يؤدى له كل انواع العبادة .

٥ – ان لا يسلّم لغير الله بأنه ملك ، أو مالك الملك ، أو مصدر السلطة العليا . ولا يعترف لاحد غير الله بحقه فى الأمر والنهى بناءا على سلطته الذاتية . وكذلك لا يؤمن بغير الله شارعا ومقننا مستقلا بذاته . ويرفض كل طاعة لا تتبع طاعة الله ولا تلتزم بأحكام الله . فالله وحده هو مالك حقيقى لملكه وخالق حقيقى لمخلوقه . وليس لغيره ابدا حق الملكية والحاكمية بصفة مطلقة .

ويستوجب بعد قبول هذه العقيدة :

٦ – أن يتنازل الانسان عن حريته وسيادته ، وأن يتخلى عن اتباع اهوائه ، وأن يكون عبدا منقادا مخلصا لله الذى آمن به إليها دون منازع .

---

(١) فى الأصل منه . ولعل الخطأ جاء من ترجمه الأصل الاوردى .

٧ - أن لا يزعم لنفسه مالكا حقيقيا لاى شىء ، بل يؤمن بأن كل ما عنده من الاشياء حتى نفسه ، وجوارحه ، ومواهبه الذهنية ، وقواه الجسدية ملك لله عز وجل ووديعة له عنده .

٨ - أن يعتبر نفسه مسؤولا أمام الله ، ومحاسبًا عنده . ولا يغيبنّ عن باله ، ولا للمحة من البصر ، حيث استخدامه قواه ومواهبه وعند سائر تصرفاته ومعاملاته أنه سوف يحاسب على كل شىء من ذلك .

٩ - وأن يجعل رضى الله مقياس ما يحبه ، وسخط الله مقياس ما لا يحبه .

١٠ - وأن يجعل ابتغاء مرضات الله ، والتقرب اليه غاية جهوده ومناط حياته .

١١ - وأن يتخذ هدى الله هو الهدى فى اخلاقه ، ومعاملاته ، وحياته الاجتماعية ، والتمدنية ، والاقتصادية والسياسة حتى فى كل امر من امور الدنيا ، وأن يرفض كل طريق أو ضابط يخالف شريعة الله .

والمراد من الجزء الثانى من هذه العقيدة اى محمد رسول الله : ان محمدا صلى الله عليه وسلم هو آخر الانبياء ، وبواسطته ارسل الله رب العالمين ومالك هذا الكون الهداية الحقيقية والاحكام المعتمدة الى الناس كافة ، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يكون بتطبيق هذه الهداية والاحكام المعتمدة فى حياته العملية مثالا يحتذى وقدوة يقتدى بها .

ومن مستلزمات الايمان بهذا الجزء من العقيدة :

١ - أن يقبل الانسان ، بدون تلكؤ ، كل ما ثبت من محمد ﷺ من تعليم أو هدى .

٢ - وأن يكون له الكفاية ، بصدد الاخذ بشىء أو الكف عنه ، فى أن ذلك مما امر به رسول الله ﷺ ، أو نهى عنه الرسول ﷺ ، ولا تستند طاعته على أى دليل آخر سواه .

٣ - وأن لا يقبل احدا سوى الرسول ﷺ هاديا ومرشدا مستقلا بالذات . ولا تكون طاعته لاحد غيره الا تابعة لكتاب الله وسنة رسوله ، لا منفصلة عنهما .

٤ - وأن يتخذ كتاب الله وسنة ورسوله مصدرين للاحتجاج والاستناد فى كل شأن

من شؤون الحياة ، وكل رأى أو عقيدة أو طريق يوافق الكتاب والسنة يأخذ به ، وكل رأى أو عقيدة أو طريق يخالفهما يرفضه . ويجب أن يرجع اليهما فى كل معضلة تتطلب الحل .

٥ – وأن ينزع من قلبه كل نوع من العصبيات سواء أكانت شخصية ، أو عائلية ، أو قبلية ، أو عنصرية ، أو قومية ، أو وطنية ، أو طائفية . ولا يشغف باحد حبا أو تقديرا يفوق حب وتقدير الحق الذى جاء به النبى ﷺ ، أو يدانيه .

٦ – وأن لا يتخذ بشراً سوى الرسول عليه الصلاة والسلام مقياسا للحق ، وكذلك لا يرى أحدا يفوق الانتقاد والسؤال عما يفعل ، وأن لايقع فى العبودية الفكرية لاحد من الاشخاص سواه ﷺ . بل يضع كل شخص على ذلك المقياس الكامل الذى وضعه الله سبحانه وتعالى . ويضع كل شخص فى نفس المكانة التى هى له بموجب ذلك المقياس .

٧ – وأن لا يقبل لاحد جاء بعد النبى ﷺ مقاما يكون الاقرار به أو انكاره حاسما لكون المرء مؤمنا أو كافرا .



وتحت عنوان «الغاية التى تستهدفها الجماعة الاسلامية بباكستان» جاء :

المادة الرابعة : ان غاية الجماعة الاسلامية ومناط جميع جهودها هو : اقامة دين الله (أو اقامة «الحكومة الالهية» أو «اقامة النظام الاسلامى») واقعا . وكسب مرضاة الله والنجاة فى الآخرة أصلاً .

بيان ذلك : ان «الدين» و «الحكومة الالهية » و «النظام الاسلامى للحياة» كل تلك الكلمات تعبر عن مفهوم واحد لدى الجماعة الاسلامية . فان المعنى الذى عبر عنه القرآن الكريم بكلمة : «اقامة الدين» («ان اقيموا الدين» : سورة الشورى : ١٣) تعبر الجماعة الاسلامية عن نفس المعنى بكلمات : «الحكومة الالهية» (ان الحكم الا لله . سورة يوسف : ٤٠) أو اقامة «النظام الاسلامى للحياة» .فان مغزى تلك الكلمات

الثلاث واحد . وهو : أن يخضع الانسان للشريعة التى انزلها الله بالوحى عن طواعية النفس فى نطاق حياته الذى منح الله له فيه الحرية والخيار ، على غرار ما تخضع كل ذرة فى الكون للنواميس الالهية الكونية رضيت أم ابت (اى القوانين الطبيعية التى سنها الله للكون) . والخضوع للشريعة الالهية يتمثل فى منهج للحياة يعبر عنه «بالدين» وهو المراد مما يصطلح عليه «الحكومة الالهية» أو «النظام الاسلامى للحياة» .

وليس المراد من اقامة دين الله اقامة جزء معين منه . بل اقامة دين الله كاملا غير منقوص ، سواء فيما يرجع الى الحياة الفردية ، أو الحياة الاجتماعية ، أو الى الصلاة والصيام والحج والزكاة ، أو الى الاقتصاد والاجتماع والمدنية والسياسة . اذ ليس فى الاسلام ولا جزء بسيط منه يعتبر غير ضرورى . فالاسلام كله ضرورى . وعلى المؤمن ان يبذل جهده فى اقامة الاسلام كاملا بدون أن يقسمه الى اجزاء . فالجزء الذى يتعلق بحياة المؤمن الفردية يقيمه المؤمن فى حياته بصفة فردية . والجزء الذى لاتتم اقامته الا بالكفاح الاجتماعى على المؤمنين أن يكوّنوا لاقامته نظاما جماعيا ويبذلوا له جهودا متضافرة .

وان كان الهدف الحقيقى للمؤمن فى حياته ابتغاء مرضاة الله والنجاة فى الآخرة . الا أن هذا الهدف لا يتحقق ابدا الا ببذل المساعى فى اقامة دين الله فى الارض . وعلى هذا يكون هدف المؤمن الواقعى اقامة الدين ، وهدف المؤمن الحقيقى ابتغاء مرضاة الله التى لا تأتى الا ثمرة للجهود التى تبذل فى اقامة دين الله .



وتحت عنوان المنهج الدائم للجماعة الاسلامية جاء :

المادة الخامسة : تتخذ الجماعة المبادىء التالية منهجا دائما لها :

١ - انها تنظر ، قبل أن تقرر أمرا أو تخطو خطوة ، **ما هو توجيه الله ورسوله** فى ذلك الباب . اما المصالح الاخرى فانها تضعها فى الدرجة الثانية ، وتراعيها **بقدر ما يكون لها متسع فى الاسلام** .

٢ – انها لا تستخدم ابدا لتحقيق غايتها ونيل أهدافها الاساليب والوسائل التى تنافى الصدق والامانة أو تثير الفساد فى الارض .

٣ – انها تمارس الطرق الدستورية والقانونية للقيام بالاصلاح الذى تنشده ، والانقلاب الذى تستهدفه . وبكلمة أخرى انها تركز عنايتها على استصلاح الاذهان والسلوك بالدعوة ، والاقناع ، ونشر المفاهيم الصحيحة عن الاسلام . كما انها تحاول أن تكسب تأييد الرأى العام للتغيير الذى وضعته نصب عينيها .

٤ – لا يقوم كفاحها لاجل الوصول الى غايتها على النشاط السرى على غرار الحركات السّرية فى العالم ، بل انها تعمل كل ما تعمل علنا وفى وضح النهار .

★ ★ ★

مع أن العرض السابق يقدم فكرة الجماعة بقدر من الوضوح ، فإن هذه الفكره لاتفهم على حقيقتها ، ولاتعرف الأصول والجذور التى أثمرتها إلا بالتعرف على الفهم الخاص والمعين لما جاء بها من تعبيرات ، وهو ماقدمه المودودى فى كتابه الشهير : «المصطلحات الأربعة فى القرآن : الإله . الرب . العباده . الدين» الذى كتبه فى السنة التى شاهدت تكوين الجماعة الإسلامية .

وقدم المودودى لكتاب المصطلحات الاربعة بمقدمة جاء فيها :

«إذا كان الإنسان لايعرف ماالإله ومامعنى الرب وماالعبادة وماتطلق عليه كلمة الدين ، فلا جرم أن القرآن كله سيعود فى نظره كلاما «مهملا» لايفهم من معانيه شيء ، فلا يقدر أن يعرف حقيقة التوحيد أو يفطن إلى ماهية الشرك ، ولا يستطيع أن يخص عبادته بالله سبحانه أو يخلص دينه له ، وكذلك إذا كان مفهوم تلك المصطلحات غامضا متشابها فى ذهن الرجل وكانت معرفته بمعانيها ناقصة ، فلاشك أنه يلتبس عليه كل ماجاء به القرآن من الهدى والرشاد ، وتبقى عقيدته وأعماله كلها ناقصة مع كونه مؤمناً بالقرآن ..

فإنه لن ينفك يلهج بكلمة لاإله إلا الله ويتخذ مع ذلك آلهة متعددة من دون الله ، ولن يبرح يعلن أنه لا رب إلا الله ، ثم يكون مطيعا لآرباب من دون الله فى واقع الأمر .

إنه يجهر بكل صدق وإخلاص بأنه لايعبد إلا الله ولايخضع إلا له ، ولكنه مع ذلك يكون عاكفا على عبادة آلهة كثيرة من دون الله .

وكذلك يصرح بكل شدة وقوة إنه فى حظيرة دين الله وكنفه ، وإن قام أحد يعزوه إلى دين آخر غير الإسلام هجم عليه وناصبه الحرب ، ولكنه يبقى مع ذلك متعلقا بأذيال أديان متعددة ، ولاشك أنه لايدعو أحدا غير الله تعالى ، ولايسميه بالإله أو الرب بلسانه ، لكن تكون له آلهة كثيرة وأرباب متعددة من حيث المعانى التى وضعت لها هاتان الكلمتان ، والمسكين لايشعر أصلا أنه قد أشرك بالله آلهة وأربابا أخرى ، واذا نبهته إلى أنه عابد لغير الله ومقترف للشرك فى الدين لانقض عليك يخمش وجهك .. إلا أنه يكون عابدا لغير الله حقا وداخلاً فى غير دينه بدون ريب من حيث مغزى (العبادة) و (الدين) وهو لايدرى مع كل ذلك أن الأعمال التى يرتكبها هى فى حقيقة الأمر عبادة لغير الله ، وإن الحالة التى قد سقط فيها هى فى نفس الأمر دينٌ ماأنزل الله به من سلطان» انتهى .

وهذه الكلمات تمثل منهجين :

منهج يجهل صاحبه فيخطىء ولايتعمد هذا الخطأ ، بل إن نيته صحيحة وسليمة دون ريب لأنه لايريد شركاً ، وإنما يريد إيمانا بالله ..

ومنهج آخر يتلمس الحقيقة ، ولكنه لايأمن التعسف ، فيقع فى الخطأ ويؤدى إلى الضلال ، .

وهناك الكثيرون الذين يفضلون الجهل على الضلال .

إن أحدًا من الصحابة لم يدع أنه يلم بكل ماجاء فى القرآن الكريم كلمة كلمة ، وقد آثروا الجهل ببعض ماجاء به بدلاً من أن يتكلفوا البحث ويتعسفوا السبل وماقد يؤدى هذا إلى ضلال ، وكلمه عمر بن الخطاب تجاه كلمة «أبا» تمثل ذلك .

وأعاد المودودى سبب هذا الفهم الخاطىء إلى سببين :

«الأول : قلة الذوق العربى السليم ونضوب معين العربية الخالصة فى العصور المتأخرة .

والثانى : أن الذين ولدوا فى المجتمع الإسلامى ونشأوا فيه لم يكن قد بقى لهم من معانى : الإله . الرب . العبادة . الدين ماكان شائعا فى المجتمع الجاهلى وقت نزول القرآن» .

وعرض هذين السببين هو صورة من صور التعسف التى أشرنا إليها ، والإجتهاد الفائق الذى قد يقود صاحبه إلى الخطأ ..

ومن أقرب الأمثلة على هذا أن المودودى ذهب إلى أن عرب الجاهلية ؛ وكذلك قوم نوح ، وإبراهيم ، ولوط ، وموسى ... الخ كانوا يعرفون الله ، ويؤمنون به ، ولكنهم «أشركوا» به عندما آمنوا بآلهة أخرى تشفع .. أو : «تقربنا إلى الله زلفا» ودلل على هذا بآيات كثيره ..

هذا صحيح ، ولكن هناك آيات أخرى صريحة فى أن هناك من ينكر وجود الله كلية : ﴿وقالوا : ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ..﴾(١) .

﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض ، بل لايوقنون﴾(٢) .

والأمر لايقتصر على خطأ أكاديمى يقع فيه باحث ، لكنه استنتاج تترتب عليه عواقب خطيرة ، الأمر الذى أدى لأن يتصدى له كاتبان من أبرز الكتاب الإسلاميين ...

أولهما : الأستاذ حسن الهضيبى المرشد الأسبق للإخوان المسلمين .

وثانيهما : الإمام أبو الحسن الندوى علامة الهند الذى يماثل - علما وكفاحا وفضلا - المودودى .

قال الأستاذ الهضيبى - رحمه الله - فى كتابه المشهور «دعاة لاقضاة» بعد أن أورد الفقرة السابقة من المصطلحات :

«وقد رتب البعض على ذلك الذى قدمناه من كلام الأستاذ المودودى نتائج وبنوا عليها أحكاما زعموا أنها مقتضى شريعة الله تعالى فقالوا :

انه لما كان الناس الآن لا يعرفون حقيقة معنى كلمات الاله . والرب والعبادة ، والدين ، فانهم اذ يرددون شهادة «لا اله الا الله محمد رسول الله» انما يرددون كلاما

---

(١) الجاثية : ٣٤ .   (٢) الطور : ٣٥ - ٣٦ .

لا يدركون حقيقة معناه ، وهم لا ينطقون بالشهادة التى كان ينطق بها العربى حين البعثة لأن هذا كان على بينة من معنى ما كان يشهد به ويقرره . ولذا كان الرسول ﷺ يقبل تلك الشهادة المعلوم مضمونها ومفهومها لمن أداها . ويعتمدها حكما باسلامه . أما الآن فاننا لا نستطيع أن نعتمد اسلام من نطق بالشهادتين ، مادام لا يدرك حقيقة مفهومها ، وواقع الحال شاهد على ذلك ، اذ أن كثيرا ممن ينطقون بالشهادتين يأتون فى نفس الوقت أعمالا هى الشرك بعينه . كما أن واقع حياة الناس يشهد بخروجهم على أحكام الدين فيما يتعلق بأنظمتهم السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وسائر شئون حياتهم ، مع اصرارهم على النطق بالشهادتين ، والزعم بأنهم مسلمون ، وخلصوا من ذلك الى : أنه لايعتبر مسلما تجوز معاملته على هذا الأساس والصلاة وراءه الا من تأكدنا من فهمه لحقيقة معانى الشهادتين ومفهومهما .

وزاد البعض على ذلك انه لابد بالاضافة الى تأكدنا من علم الناطق بالشهادتين بمفهومهما أن يقوم عمله شاهدا على صدق ما نطق به ومؤيدا له حتى يعتبر مسلما . فان لم تكن أعماله مصدقة لشهادته فاننا لا نستطيع أن نحكم باسلامه ، فلا نعتبره مسلما . واحتجوا بالقول المنسوب الى الرسول عليه الصلاة والسلام : «ليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل» .

اعتراض على بعض ماقرره الأستاذ المودودى :

● ونرد أولا على التقرير بأن معانى الألوهية والربوبية والعبادة والدين كانت شائعة معروفة بين العرب من قبل البعثة وانها بعد ذلك قد ضاعت وتبدلت وانحصرت فى معان ضيقة محدودة غير ما كانت تتسع له من قبل .

● فنقول بعون الله : ان هذا التقرير لا يتفق مع الواقع . ذلك انه أيا كانت المعانى التى كانت شائعة فى الجاهلية لتلكم الكلمات فان القرآن الكريم قد جاء محددا ما يقصده من كل منها . معرّفا المفهوم المعنيّ من كل لفظة من ألفاظها . مبينا ذلك غاية البيان ، مجليا المعنى المراد بما لا يدع مجالا للبس أو غموض – وهذا البيان القرآنى قد أغنى عن الرجوع الى أصل تلك الكلمات فى اللغة وما كان لها من معان قبل نزوله ، ولا يستريب مسلم أن بيان القرآن الكريم هو الأحكم والأوضح والأشمل والأجل ، بل هو الذى يتعين الأخذ به والتسليم بمقتضاه سواء وافق ذلك ماكان قبل نزوله أم لا ..»[1] .

---

(١) ص ١٩ – ٢٠ .

واستطرد الكتاب فى ذكر الآيات التى توضح معنى «الإله» و «الرب» ، والتى تكشف كل الأبعاد - ولبس بعض الأبعاد - التى عرضها القرآن الكريم لمعانى الكلمة ، وفعل الشيء نفسه بالنسبة لكلمتى «العبادة» و «الدين» .

أما رد الإمام الندوى فقد ظهر فى كتاب باسم «التفسير السياسى للإسلام فى مرآة كتابات الأستاذ المودودى والشهيد سيد قطب» باللغة العربية[١] ويكاد يكون الكتاب نقدا لفكر المودودى فى المصطلحات الأربعة ..

ولا يخالجنا شك فى أن الدافع للندوى - كما هو بالنسبة للهضيبى إنما هو الإيمان والغيرة على الحقيقة .

وقد أشار العلامة الندوى إلى نقطة دقيقة جدا لم يعرض لها كتاب «دعاة لاقضاة» وغمض فهمها على ناقد الكتاب[٢] تلك هى «الذوق الإسلامى» ونحن لانعرف أصل الكلمة فى الأرديه ، ولعل مترجمها لم يوفق تماما ، وأغلب الظن أن المقصود بها «الحس» الإسلامى .

فبعد أن أشار العلامة الندوى إلى الحاجة إلى عرض الإسلام وتفهيمه وتفسيره حسب مقتضيات العصر قال :

«لكن هذا العمل دقيق وصعب بقدر ماهو واجب ضرورى فيجب على الذين يحاولون أن يقوموا بعملية عرض الإسلام وتفهيمه وتقريبه إلى القلوب والأذهان أن يلازموا الحيطة والدقة على طول الطريق فى تحقيق غايتهم وإكمال مهمتهم حتى لا يتّكون - على غفلة منهم أو عن غير إرادة وقصد لهم - لدى الجيل الجديد الذى يراد تعريفه بحقائق الإسلام وترسيخ عقائده فى قلبه أو بقصد استخدامه لإعلاء كلمة الله ورفع منار الإسلام **ذوق دينى** مختلف عن الذوق الدينى الذى كان يتسم به الجيل الإسلامى الأول بفضل تلقيه التربية فى أحضان النبوة مباشرة» .

لم يفهم ناقد الكتاب ما الذى أراده الندوى بتعبير «الذوق الإسلامى» ، وبدلاً من أن

---

(١) وكان أصله باللغة الاوردية يحمل عنوان «تفهيم الدين وتفسيره فى العصر الحاضر فى مرآة كتابات الأستاذ المودودى والشهيد سيد قطب» .

(٢) لم نقع على كتاب الندوى ولكن على الرد عليه باسم «التفسير الحقيقى للإسلام» تأليف سيد أحمد القادرى رئيس تحرير مجلة زندكى (الحياة) .

يجهد نفسه فى البحث عن معناه ، فإنه مضى فى طريق المودودى نفسه يثبت أن «الذوق الإسلامى» لدى الصحابة كان هو الحذر من الشرك وتوحيد الله تعالى بالعبادة ... الخ .

والذى أراده العلامة الندوى بـ : «الذوق الإسلامى» ، أو «الحس» الإسلامى هو توفر التعرف على : «طبيعة الإسلام» من كافة أبعادها ، وليس من بعد واحد .

هذه الطبيعة التى تضع فى اعتبارها الضعف البشرى ونواميس المجتمع والسنن التى وضعها الله تعالى ، والتى تُجرى المعادلة بين «المثال» و «الواقع» بين «ما يفترض وما يمكن الوصول إليه ، وما تتفهمه من عدم تحميل النفوس بمالا طاقة لها به ، بل وما يجاوز وسعها (والوسع أخف من الطاقة) والتى تضع الآيات عن العذاب بجانب الآيات عن الرحمة ، والتى تهتدى – بمجرد الحس والذوق – إلى أن كل وسيلة من وسائل التشدد فى التكاليف أو القسر فى مجال الإيمان ، أو التعسف فى الفهم تؤدى إلى نتائج مضاده .

وإن الله تعالى – وهذا أصل عظيم – خص نفسه بالفصل فى الخلافات يوم القيامة .

ولو توفر هذا الحس لدى الإمام المودودى لما انتهى إلى أن كل معانى **«المصطلحات الأربعة» تصب فى «السلطة» ، وأن أصل الألوهية وجوهرها هو «السلطة» ، وأن كلا من الألوهية و«السلطة» تستلزم الأخرى ؛ وأنه لافرق بينهما من حيث المعنى والروح .**

فبجانب الآيات العديدة التى استشهد بها المودودى ، والتى تؤدى بالفعل إلى هذا المعنى ، هناك آيات أخرى تعطى مضمونا مختلفا ، فالله تعالى غنى عن العالمين ، وهو سبحانه لايعامل الناس بأعمالهم قدر ما يعاملهم برحمته ، فهو الرحمن الرحيم ، الغفار التواب وهو تعالى «الحق» .

وأنه حتى فى إطار السلطة ، فإن من الخطأ أن نتصور سلطة الله بالمعنى البشرى للسلطة ، أو السلطة بالنسبة للقضايا الدنيوية .

وهناك نبذة صغيرة تجمل رأى المودودى فى الانسان بالنسبة لله تعالى .

«قد سبق لى القول من قبل مره بعد اخرى ان الاسلام يستهدف ان يدخل حياة

المرء بجميع مظاهرها فى عبادة الله ويصفها بصفتها . الانسان خلق عبداً – والعبودية هى فطرته التى فطره الله عليها – فليس له ان يكون حراً لا فى فكره ، ولا فى عمله ،– من هذه العبودية . عليه ان ينظر فى جميع مظاهر حياته وجميع اوقاته ماهو رضا الله ؟ وماهو سخطه ليتخذ ما كان يرضى الله ويبتعد عما يسخط الله – ابتعاده عن النار– ويسلك المسلك الذى يحبه الله ويجتنب الطريق الذى يبغضه . واذا رأيت أحداقد صيغت حياته فى هذا القالب صياغة كاملة فاعلم انه ادى حق عبوديته لسيده ومولاه واتم الغرض المنشود لآية ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون﴾[١] .

* * *

لقد أسهبنا شيئاً ما فى عرض فكرة العلامة المودودى عن «الحاكمية الالهية» و«عبودية الانسان» وما استخلصه منها من أن اى مجتمع لايتحقق فيه هذان هو «جاهلية» . لان هذا الثالوث «الحاكمية الالهية – عبودية الانسان – الجاهلية» تمثل إضافة العلامة المودودى فى الدعوة الاسلامية وعنه اقتبسته كل جماعات «الرافضة الجديدة» بدرجات متفاوته . ولما كان الرجل استاذاً وحجة أمضى حياته كلها لخدمة الاسلام . ولما كان ايمانه واخلاقه ليس محل شك ، فان هذا الثالوث الذى انتهى اليه اكتسب جاذبية كبيرة لجدته ولظاهر الصدق ولمنزلة الداعية . ولما كنا نؤمن ايمانا تاماً لا يتطرق اليه شك ان اجتهاد المودودى فى هذا خالفه التوفيق . وانه بنى على مقدمات خاطئة ، فاننا اسهبنا فى عرض فكرته حتى لايقال اننا ابتسرناها ابتساراً ، فنقلنا من دستور الجماعة ومن كتاب «المصطلحات الاربعة» ومن كتبه الأخرى ..

أما تحفظاتنا على هذه الاضافة كلها فتقوم على :

أولا : ان العلامة المودودى وقع فى «إسقاط» بشرى على الطبيعة الالهية وتصور سلطة الله تعالى وحاكميته كما لو كانت سلطة ملك على شعبه او قائد على جنده . أو مالك بعبيده . وكان من ابرز الادلة على ذلك الأمثلة العديدة التى اراد ان يوضح بها هذا الفهم ، واوردنا بعضها [انظر ايضا ص ٢٩٦] ومثل هذا القياس خاطىء تماماً لانتفاء التماثل فى العلة «كما يقول الاصوليون» ان لم يكن مستبعداً

(١) استشهد بها فى كتاب الرد على كتاب .. التفسير السياسى للاسلام للشيخ ابى الحسن على الندوى . تأليف سيد احمد القادرى ص ٨٣ «دار المنهل جده . والفقرة المستشهد بها من الجزء الثالث من «خطبات» .

أصلاً . فالله تعالى غنى عن العالمين ، لا تضره معصية ، ولا تنفعة طاعة – واى مالك ليس غنيا عن عبيده – ولا هو فى حصانة من معصيتهم ، او غنى عن طاعتهم . وعلم الله تعالى الذى يفصل به بين العباد . ويحكم به على الأعمال يتسامى عن فهمنا المحدود المتأثر بالعوامل الذاتية ونحن يتملكنا الغضب لأنفسنا وتأخذنا العزه عند المخالفة – ونحرص على ذواتنا ، واموالنا ، ومراكزنا وسلطاننا .. ونحاسب تبعا لقواعد الحساب .. وهذا كله شيء لايمكن ان ينسب الى الله تعالى – فرحمة الله اعظم مما نتصورها – وخزائنه لاتنفد . وهو يكافيء بسبعمائة ضعف وأكثر . وعلمه وحكمته تجعله ينظر الى المخالف نظرة العارف المتعال : وهم يقولون عن البشر «من يعرف اكثر .. يغفر اكثر ..» وان معاملة الفيلسوف الحكيم تختلف عن معاملة العسكرى الفظ .. وهذا كله بالنسبة للأدميين . فما بالك بالله رب العالمين . اننى لاخشى إن المودودى رحمه الله فى حماسته لتدعيم وجهة نظره كاد ان يقرب من تجسيم ان لم يكن مادياً – فهو فكرياً .. واراد ان يمحى كل أثارة من أثارات الشرك .. فكاد ان يقعَ فيما يماثل ذلك عندما كيَّف الطبيعة الالهية تكييفا بشرياً .

ثانيا : ان العبودية لله لاتعنى – كما تصور المودودى – انعدام حرية الانسان فى الارض والتصور الذى قدمه المودودى للعبودية الانسانية الذى رتب عليه انعدام الحرية يخالف مخالفة تامة التصور الاسلامى للحياة واستخلاف الانسان على الأرض وارصاد الشياطين لغوايته وارسال الانبياء لهدايته . وما ينبنى على هذا من وجود حرية فى التصدى وعقل للتكييف . وكلمة حرية وعقل هما من المحرمات فى كتابات وآداب الرافضة الجديدة – كما يندر أن نجدهما فى كتابات المودودى . واغفالهما ، مع التركيز على مضمون العبودية يخل بالتصور الذى اراده الاسلام ، ولو أعطت كتابات المودودى الحرية الانسانية . والعقل الانسانى جزءً مما ركزته فى العبودية – لاختلف التكييف – ولكان هذا أدعى لهداية الانسان من تجاهلهما ...

ولما كانت دعوة العمل الاسلامى ، التى تشغل الباب الثانى من هذا الكتاب تعرض بنوع من الاسهاب والتفصيل تصوراً – اسلامياً لوضع الانسان فى الارض يختلف عن تصور المودودى . فاننا نحيل القارىء عليه ..

ثالثا : يختلف الطابع العام لاحكام المودودى ومنطلقاته من الطابع العام الذى نجده فى القرآن وفى الحديث . ففى هذين نجد العقيدة وتوجيهاتها تعرض «كمثال» ونجد الطبيعة البشرية بضعفها والعوامل المحددة لها .. تعرض كواقع . وتتجاوب الأحكام مع تلاقى المثال بالواقع .. ومدى اخضاع الواقع للمثال ، او مدى توصل الواقع الى المثال . ومن اجل هذا يقرر القرآن «لايكلف الله نفساً الا وسعها» وكان الرسول أيضًا عندما يبايع المؤمنين يردف «فيما استطعتم» وهذه اللمسات الالهية والنبوية فى معاملة الانسان والمعرفة بالطبيعة البشرية لانجدها فى أحكام المودودى التى تنزع نحو تطبيق المثال كاملا غير منقوص ، وتميل بصفة عامة للتشدد . والاسلام دين اليسر . وتريد قيام مجتمع كامل لايتضمن نقصاً . فى حين ان الاسلام افترض وجود التقصير والضعف أمام الاغراء ، بل انه إفترض حدوث الكفر . ولم يكن هذا فى حد ذاته ليحنى الاسلام وقد وجه الله تعالى نبيه لان لايحزنه الذين يسارعون فى الكفر . لأنه تعالى – لا تضره معصية – ولا تنفعه طاعة – فمن اهتدى فانما يهتدى نفسه ومن ضل فانما يضل عليها ومن شاء فليكفر .. ومن شاء فليؤمن . وقد اراد الله تعالى لهذه الدنيا أن تضم الكفرة – وعير المؤمنين والمعاندين الخ ،.. ﴿ولو يحاسب الله الناس بما فعلوا مانرك عليها من دابه . ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى .. فاذا جاء اجلهم فان الله كان بعباده بصيراً ..﴾

رابعا : ان الالحاح على فكرة العبودية لله مع استبعاد اى اشارة الى حرية أو عقل يمكن ان يوظف لخدمة الحكام والنظم ويفتح الطريق لهما . لانه مع استبعاد العقل والحرية ، تنبهم العبودية ، ولايمكن التفرقة بين ان تكون لله أو لغير الله ويمكن أن يصبح الانسان عبداً للخرافة ويختلط عليه الحق بالباطل .



بعد العرض السابق لتحفظاتنا على العقيدة الخاصة للجماعة الاسلامية وما قدمته من اضافة فى شكل ثالوث «الحاكمية الالهية العبودية الانسانية الجاهلية» نقول ان مما يثير الدهشة اننا لانجد فى دستور الجماعة . ولا الملاحق التى اضيفت اليه طوال ثلاثين عاماً تصوراً محدداً – او شبه محدد – للدولة الاسلامية . ونحن بالطبع لاننتظر أن يتضمن الدستور أو ملاحقه تصوراً تفصيلياً للدولة الاسلامية ، فهذا بالطبع ما يضيق عنه الدستور – ومالم تجربه العاده . ولكن لما كانت قضية الدولة الاسلامية

محورية فى فكر الجماعة الاسلامية . وانها هى هدفها ، فكان من المفروض ان يقدم الدستور القسمات الرئيسية لهذه الدولة - لان المذاهب الاسلامية تتفاوت فى فهم هذه القضية تفاوتا قد يصل من النقيض الى النقيض وكلها تعتمد على أسانيد من القرآن والسنه . وعدم الاشارة فى الدستور الى الخطوط الاساسية للدولة الاسلامية المنشودة تدع الاعضاء فى عماية عما يمكن ان يصل اليه الاجتهاد ، كما أنه يمكن ان يثير الخلاف داخل دوائر الجماعة نفسها - لانه يتضمن قضايا شائكة وجدلية ، كنظم الانتخابات - والاحزاب ، والحريات العامة والعلاقات الدولية - والعلاقات مابين فئات المجتمع : العمال واصحاب الاعمال . المستأجرون والملاك الخ ..

ان مايمكن ان يقال فى هذا الصدد هو ان العلامة المودودي رحمه الله عالج هذه النواحى على اختلافها بالتفصيل فى كتبه ، بحيث يمكن القول انه اصدر كتابا عن كل ناحية . بل اننا نجد تحت عنوان «الدستور والقانون» أسماء عشرة كتب . وعن التعليم ثلاثة وعن الاقتصاد سبعه الخ .. ولاجدال فى ان هذا اثراء كبير للمكتبة الاسلامية . ويبقى بعد هذا استخلاص القواعد والمبادىء التى تتفق مع فكر الجماعة . وهو عمل ضخم يتطلب تضافر القيادات والخبراء مع القاعدة الجماهيرية العريضة ..

رؤية للديمقراطية فى الثمانينات :

ليس لدينا الكثير من الوثائق والكتابات عن التطورات الاخيرة للجماعة الاسلامية . وهذه الجهالة هى جزء من القطيعة الفكرية بين بلاد العالم الاسلامى ، وعدم احتفال كثير من الهيئات بالاعلام المكتوب - أو الاتصال . خارج أطرها الخاصة . وما تأتينا به أجهزة الاعلام الاوروبية والامريكية مُتهم .

ومعروف بالطبع ان الخطوط قد تقلبت بالجماعة الاسلامية عندما دخلت العمل السياسى . ولكن قله مالدينا من مراجع يحول بيننا وبين اصدار الاحكام . وقد وجدنا بين اوراقنا نشرة سوجزه بالانجليزية اصدرتها الجماعة الاسلامية بعنوان «**الديمقراطية والتضامن القومى : مشروع المودودى للاجماع القومى عن الاسس الفكرية بباكستان**[1]» . وهى بدون تاريخ - ولكنها قطعا بعد ١٩٨٣ لان فى ظهرها

(1) Democracy and National Solidarity «Moudadis plea for natianal consensus on Pakıatanś conceptual foundatıans .

إشارة الى نشرة سابقة عليها تحمل تاريخ ٨٣ . وهى تمثل التطور الفكرى الذى وصلت إليه الجماعة وتكييفها لمفاهيمها للتوصل الى «اجماع قومى» .

وبعد مقدمة موجزة ، تعرض النشرة خمسة مبادىء لازمة لتهيئة مناخ رأى عام ايجابى هى (١) احترام الحق والعدل (٢) التسامح المشترك (أو المتبادل) (٣) تجنب المعارضة للمعارضة (٤) تفضيل الاقناع على القسر (٥) المصلحة القومية فوق المصلحة الشخصية .

وتلاحظ النشرة ان هذه المبادىء يجب ان تعزز بتحديد طبيعة ومادة القاعدة الصلبة التى يمكن ان يقوم عليها الصرح القومى مع الحصول على اعظم درجة من تأييد وتجاوب الاحزاب . وترى النشرة ان **اولى المحددات فى هذا المجال هى الاعتراف بسيادة القرآن والسنة** . وتعتمد النشرة فى تقديرها لذلك ان هذه هى رغبة المسلمين كافة فى باكستان . وان الذين يختلفون فى هذه النتيجة يقعون فى اربع فئات . فهناك المسلمون الذين تشبعوا بالفكر الغربى والحضارة الاوروبية – ولذلك تقشعر جلودهم لمجرد التفكير فى العودة للطريقة الاسلامية للحياة . والفئة الثانية تضم المسلمين الذين لاينكرون انتماءهم الاسلامى ، ولكن استغراقهم فى الحياة الاوروبية جعل هذا الاتجاه مظهراً فحسب . وهاتان الفئتان بحكم ميولهما ومزاجهما يصران على اتخاذ النمط «العلمانى» والفئة الثالثة لا تتنكر لدينها ولكنها تعتمد على القرآن وحده وتستبعد السنة . اما الفئة الرابعة فهي الاقليات غير المسلمة التى تفضل حكما «علمانيا» لايقوم على اساس اسلامى.

وترى النشرة ان هذه الفئات لاتمثل الامجموعة ضئيلة ومحدودة بالنسبة للأغلبية الكاسحة ، وانه لايمكن اقامة الدولة على أساس تتبناه أقلية وترفضه الأغلبية . كما عنيت النشرة انها انما تعنى النص القرآنى نفسه – وليس التفسيرات – عندما تتحدث عن القرآن . وانها تعنى بالسنة ممارسات وتوجهات الرسول ككل – وان من الممكن لكل مذهب من المذاهب الاسلامية بما فيها الشيعة طبعاً الاحتفاظ ، بتفسيرها للقرآن والسنة . وانه فيما يمس الدولة كلها ، فسيؤخذ بالتفسير القرآنى والرواية الحديثية التى تظفر بالأغلبية ، وان سمح للأقلية بان تعرض وجهة نظرها .

وثانية المحددات هى اقامة الديمقراطية وترى النشرة انها تنسجم مع توجيهات القرآن والسنة . كما انها أمل الشعب الباكستانى . والديمقراطية تعنى ان الدولة

لا تنتمي الى شخص بعينة ، أو طبقة ، أو فريق ولكن لكل الناس الذين يعيشون فيها . ومن هنا يكون لهم جميعاً الحق فى انتخاب حكامهم ونفرير نظام الحكومة وطريقة سيرها الخ ...

والفقرة دفاع عن الديمقراطية -- وتفنيد لما يقدمه اعداؤها من مزاعم يريدون بها إقرار صور متفاوتة من الديكتاتوريات . ومثل هذا الدفاع قلما كنا نجده فى كتابات المودودى التى لا تأخذ بمبدأ الاغلبية -- ولاريب ان التجربة الْمَرة للحكم الديكتاتورى كان لها أثرهام فيما قررته النشرة .

وفى فقرة ثالثة تجمل النشرة «**جوهر الديمقراطية فى خمسة مبادىء هى** (١) مبدأ توزيع السلطة . اى التحديد ، والتمييز مابين السلطات الثلاث للدولة (التنفيذية . والتشريعية . والقضائية) . (٢) ضمان الحريات المدنية والحقوق الاساسية وصلاحية السلطة التشريعية لحمايتها . (٣) عقد انتخابات حرة وتبنى الاجراءات القضائية والادارية التى تكفل عدم المساس بالانتخابات . (٤) حكم القانون اى التطبيق الشامل والفعلى للقانون على الحاكم والمحكوم . وان تمنح المحاكم السلطات التى تكفل تطبيق احكامها القانونية دون تمييز . (٥) ان يمتنع موظفو الدولة سواء كانوا فى الخدمة المدنية او فى القوات المسلحة عن التدخل فى السياسة . وان يخدموا الحكومة الشرعية التى تفوضها أغلبية الشعب للحكم .

وترى النشرة أن هذه المبادىء الخمسة هى عُمد نظام الديمقراطية واذا فقد أى منها تعطل عمل النظام -- بل يمكن ان تستغل بقية المظاهر الديمقراطية للتمكين للديكتاتورية ، فاذا سمح لسادة الجهاز الادارى والتنفيذى بالتحكم فى ادارة العملية الانتخابية . فان النتيجة ستكون الاتوقراطية أو الديكتاتورية . وبالمثل ، فاذا كان بسلطة الحكام كبت حريات الخطابة والتجمع دون امكان إقامة دعوى قضائية عليهم -- فان ذلك سيؤدى الى شل الديمقراطية لأن الديمقراطية لايمكن ان تواصل البقاء اذا حرمت من حق نقد حكامها .

وتُختم النشرة بالاشارة إلى الانتخابات الحرة والتطبيق الموحد لحكم القانون والظروف الديمقراطية اللازمة لنجاح العمل الديمقراطى من ايمان رجال الدولة بالمبدأ الديمقراطى ، وان هذه البلاد انما هى ملك لشعبها . وان لشعبها الحق فى

اختيار من يحكمهم – وان الالتزام الادبى والشرعى على رجال الحدمة المدنية هو الامتثال لذلك والتطبيق الأمين له .

بصفة عامة – فان النشرة تتحدث فى هذا القسم عن الديمقراطية بلغة ديمقراطية . ولاتحاول – كما كان دأب العلامة المودودى فى كتاباته ان تقيس كل التعبيرات الحديثة بالمفاييس السلفية .. واننا لانجد فيها شيئا عن الحاكمية الالهية وعبودية الانسان وان أقل تفريط أو تهاون ينقله الى «الجاهلية» . واننا نجد صراحة ان هذه البلاد «ملك شعبها» وكان التقليد المودودى يؤثر ان تكون «ملك لله» .

القضية هى : هل هذا ايمان بالديمقراطيه أو انه مجرد نوع من التكنيك فى معركة ديمقراطية . وماذا يكون الموقف عندما يظهر تعارض مابين الاصول الديمقراطية والأصول السلفية فهل هناك تعارض بين حرية الفكر المقدسة .. وحد الرده ؟ وماهى حريات المرأة تجاه الرجل – وهل الاضراب محظور .. الخ ...

على كل حال فاننا اذا اخذنا النشره كما هى ، فانها تمثل تطوراً كبيراً فى تصور الجماعة الاسلامية للنظام السياسى .

لحق بالفصلين الأول والثانى
مقارنة بين الاخوان المسلمين والجماعة الاسلامية

الاخوان المسلمون – والجماعة الاسلامية هما الدعوتان اللتان أثرتا عميقاً على المجتمع الاسلامى المعاصر ، وعلى بقية الدعوات ، حتى التى أنشقت منهما . أما الدعوات الاخرى فبعضها ضئيل القيمة من ناحية التأصيل النظرى أو الكيان العملى ، كدعوات الرافضة الجديدة بتياراتها المختلفة (الجهاد . الفطبيون – التكفير والهجرة الخ ..) والبعض الآخر وهى الدعوات الجديدة الواعدة فى الجزائر والسودان واليمن وتونس .. لاتزال حديثة العهد ، تنال حظها من المحن والاختبارات – وسنتحدث عنها فى فصل خاص ..

وفى الوقت نفسه ، فلا يفوتنا ان الدعوتين الكبيرتين – بحكم تاريخهما القديم الذى يربطهما الى الماضى ، وما يتملكهما من قصور ذاتى فانهما يقتربان اليوم لان يمثلا «الكلاسيكية» فى الدعوة الاسلامية ، وهو لاينفى انهما كانا منبع النهر الطويل الذى روى تربة الاسلام فترة الجفاف ، وانهما يلقيان بظلهما – وان لم تكن بإشعتهما – على بعض الدعوات بينما يلهمان دعوات اخرى .

فى هذا السبيل ، نرى ان اجراء مقارنة بينهما يمكن ان يبلور عملية استخلاص الدروس والنتائج ، وقد تعرضنا لذلك عند الحديث عن كل واحدة على حدة ، ولكن تقابلهما يعكس نقاط الائتلاف والاختلاف عندما يعرض كل منهما فى مرآة الآخر .

والاسلام – اذا كان هو القرآن الكريم والصحيح الثابت من السنة – أمر واحد لايختلف ، ولكن رؤية هذا الاسلام هى التى تختلف وهذا أمر طبيعى – لان قدرة

العيون على الإبصار تختلف ، وقدره المدارك على الاستيعاب تتفاوت ، ولان زوايا الرؤية تتنوع .. وهذه كلها تؤدى لان تكون الصورة مختلفة ، ولايضير الاسلام هذا لانه يتسع للجميع ، ويتقبل الرؤى داخل اطاره العريض .

وقد تتعقد العملية اذا فهم ان الاسلام لايقتصر على القرآن الكريم والصحيح الثابت من السنة ، ولكنه يضم كل التراث الضخم الذى قدمه الائمة والفقهاء الخ .. لان مجال التفاوت سيزداد وسينتقل من «الكليات» الى الجزئيات ..

أضف الى هذا كله ، ان الذى ينظر ويستوعب ليس عيناً أو ذهناً ، مجرداً ولكنه شخص – ولد فى بيئة معينة ، وتعرض لمؤثرات معينة بعضها يعود الى وراثته الخاصة التى حملها من ابويه وبعضها يعود الى وراثته العامة كمواطن فى بلد معين ، وارض معينة وكذلك فى وقت معين .. **وهذه الاختلافات فى الفرد ، والارض ، والوقت لابد وان تستتبع اختلافات فى الرؤية ..**

ظهرت دعوة الاخوان المسلمين فى مصر ، ومصر بلد مؤمن من اقدم العصور كان الدين فيها هو محور الحياة واتسم الايمان فيها بطابع من الرفق والسماحة والمرونة . بينما ظهرت دعوة الجماعة الاسلامية فى الهند والهند بلد مؤمن ايضاً وللدين ، جذور عميقة . ولكن الايمان فيه يتسم بنوع من التشدد الدنيوى آونة و«النيرفانا» الآخروية آونه اخرى وكان لابد لقائدىً الدعوتين ان يحملابين جنبيهما هذه الرواسب العميقة وان يتأثرا بها ، حتى وان لم يشعرا . فالبنا فلاح مصرى يحمل فى لحمه ودمه تراب مصر ، وماء نيلها . والمودودى مدنى هندى يحمل رواسب الهند وماء «الجانج» وحمل كل منهما الى دعوته هذا الآثر ، فجاءت دعوة الاخوان سهلة ، مرنة ، شعبية ، وجاءت دعوة المودودى عميقة ، شديدة نخبوبه .

ودعمت ملابسات تنشئة كلا القائدين ذلك . فَوُلَد البنا فى بيئة ريفية وتمتع بطفولة سعيدة منطلقة بين الروابى والحقول ، وتواترت العوامل يدفع بعضها بعضاً ، لتحقق له الثقافة الاسلامية ، والمعرفة الدينية ، وليكون دائماً محتكاً بالناس ، حتى يصبح مدرساً فى مدينة الاسماعيلية ومن المقهى – يتجه بدعوته الى عمال شركة قناة السويس . ومن ستة من هؤلاء تتكون الاخوان ، ويتم هذا كله وهو فى العشرين من العمر .

على حين نشأ المودودى فى بيئة مدنية ، وعكف طوال حياته على القراءة والكتابة – ولم يتخذ مهنة اخرى غير الكتابة . واخذ يدقق وينقب ويفكر ويدرس النصوص حتى توصل الى فكرة دعوته . وعندئذ – وكان فى الثامنة والثلاثين من العمر – دعا – من اعماق مكتبه الى تأسيس الجماعة الاسلامية ولبى دعوته ٧٥ شخصا من كل انحاء الهند .

وحتى الاسم الذى حملته كل دعوة من الدعوتين ، والذى يبدو وكأنه ابن اللحظة وعفو التلقائية ، جاء مطابقاً كل المطابقة لمضمون كل دعوة . ففى كلمة الاخوان اشارة الى تعددية تجمعها أخوة وتخالطها عاطفة ، بينما كلمة «جماعة» تعطى المعنى الجماعى الذى تحكمه ضرورات الجماعية وابرزها الطاعة والوحدة ..

وأدت العوامل السابقة كلها لان يفهم البنا الاسلام فهما تخالطه سماحة مصرية ، ولان يفهم المودودى الاسلام فهما تشوبه لكنة هندية ، ويبلور الأمر فى النهاية لان يكون المضمون الاسلامى للاخوان هو «الاسلام للحياة» . وان يكون المضمون الاسلامى للجماعة هو «الحياة للاسلام» ومن هنا جاء تيسير البنا للاسلام لكى يتعايش مع الحياة ، وجاء تكييف المودودى للحياة لكى تتجاوب مع الاسلام . وكانت دعوة البنا أفقية جماهيرية ذات طبيعة عملية ، بينما كانت دعوة المودودى رأسيه . نخبوية ذات عمق نظرى .

كان المودودى علاَّمة ، وكان البنا إماما .

وكان لكل دعوة مميزاتها ، وقصورها ايضاً . فالمودودى فى سبيل المزيد من إحكام نظريته ، استعان فى بعض الحالات بأحاديث ضعيفة – كما حدث فى كتاب «الحجاب» الذى استشهد فيه بأحاديث أكد الشيخ ناصر الالبانى ان بعضها مما لايمكن الاحتجاج به . وأجَّل البنا عملية «الفرز» والتفاصيل ليتم عملية الحشد والكليات ..

ولكن يمكن التماس العذر للاخوان لان مرشدها اغتيل فى وقت مبكر ، وفى ظروف غير منتظره – عندما كان فى الاربعين من العمر ولولا ذلك لقدر له – بحكم حالته الصحية وأسنان افراد أسرته – أن يعيش ثلاثين سنة أخرى ، كان يمكن فيها ان يستكمل هذا النقص . لانه كان يعمل بأسلوب مرحلى . وكان لديه قدرة فائقة للخروج من مرحلة ما والدخول فى مرحلة جديدة دون وقوع خلخلة او تنافر ، ويكفى فحسب مقارنة لائحة الاخوان (فى العشرينات) . بلائحتها فى الاربعينات ليتبين الفرق

الكبير - والانتقال بجماعة تربوية صوفية الى هيئة حياتية سياسية . وكان المفروض ان تأتى مرحلة «الفرز» ومعالجة الجزئيات والتفاصيل . وهذا ماحال دونه الاغتيال .

ولكن المودودى أمضى ضعف ما أمضاه الامام البنا فى خدمة دعوته ، وكان هو الذى طلب فى نوفمبر ١٩٧٢ الاستعفاء من قيادة الجماعة بعد ان جاوز السبعين . فاتسع له الوقت لأحكام التفاصيل ، وفى الوقت نفسه . صعب عليه العدول عنها .. عندما ينضح ان بعضها لم يكن موفقاً . وقد يصور هذا تماماً ان العلامة ابو الحسن الندوى عندما اصدر كتابه «التفسير السياسى للاسلام» الذى أشرنا اليه فى الفصل السابق وانتقد بعض مفاهيم المودودى خاصة ماجاء فى كتاب «المصطلحات الأربعة» أرسل الى المودودى نسخة شارحاً دوافعه الى اصداره . فكتب اليه المودودى .

«يطيب لى أن أشكركم لانكم قمتهم بالنقد والتعليق علىّ ما أطلعتم عليه مما كتبت - والذى يؤدى - فى تصوركم - الى اخطار كثيرة وأرجو منكم أن تقوموا بالنقد بلا تردد أو تكلف لما ترون فى كتاباتى مما يجرّ الضرر أو الخطر على الدين وأهله . و ىى لم أر نفسى قط فوق النقد - ولا انكره . ولكن ليس من الضرورى أن ارى كل نقد صحيحاً - أو اعترف بصدق وصحة الاخطار والمخاوف المشار اليها من قبل ..اقدين» .

فهذا ـطاب الذى ينم عن روح اسلامية تجعل صاحبها لايرى نفسه فوق النقد - ينم ايضا عن ان صاحبه قد انتهى بالفعل من صياغة نظريته بحيث لايكون ضروريا ان يسلم بنقد الناقدين . وبالطبع فان هذا من حقه بعد ان سلخ اكثر من نصف قرن فى التفكير والتحبير ...

وقد يتصور البعض ان الصفات المميزة ا‌ى من الدعوتين اللتين أشرنا اليها يمكن ان يؤديا الى «تكامل» للدعوة الاسلامية ولكن مما يحول دون ذلك أنهما - على اختلافهما - صدرا من مشكاة واحدة ، والتزما باطار واحد هو - «السلفية» حتى وان ضاق الاطار فى حالة الجماعة الاسلامية ، واتسع فى حالة الاخوان المسلمين ولابد للدعوة الاسلامية المثلى ان تتجاوز هذا الاطار ، بل لقد يكون عليها ان تنظر الى الاسلام من خارج الاسلام نفسه لانها ماحصرت نفسها فى الاسلام نفسه ووحده . فلن تدرك بعض اسرار الاسلام التى لاترى الا من ابعاد أخرى أو فى ضوء تطورات حدثت بعد نزول الاسلام . وليست النظرة التى تكشف كل ابعاد الاسلام هى النظرة الاسلامية .. ولكنها النظرة الكونية ...

الفصل الثالث

حزب التحرير

لا يعرف الجيل المعاصر شيئاً كثيراً عن حزب التحرير ، وربما ترامى الى سمعه ماقد تتناقله الصحف بين حين وآخر ، من اشارات عنه . معظمها ، كما هو العهد بها فيما يختص بالاسلام – مشوهة ، والحقيقة ان حزب التحرير كان محاولة جادة لوضع صبغة اسلامية شمولية ، للنهضة بالأمة . وقد أراد ان يتعلم من الدعوات الاسلامية السابقة عليه وان يتفادى اخطاءها ، ويبدأ حيث انتهت .. ولكن الاطار السلفى التقليدى كان اقوى من الملكات الابداعية لمؤسسيه ، كما لم يكن من السهل تجاوز الظروف السياسية – زمانا ومكانا – التى أحاطت به احاطة السوار بالمعصم وكانت جزءاً رئيسيا من استراتيجية وضعت للمنطقة ، وحمتها نظم حاكمة ومصالح مكتسبة عاتيه . وعندما اراد الحزب الفنِّى أن يشق طريقه . وجد هذه الاوضاع كالصخرة في مواجهته ، فحاول أن ينطحها – وانطبق عليه البيت المشهور (كناطح صخرة يوماً الخ ...) وكان أسوأ مصيراً من الهيئات الاسلامية التى انتقدها واراد ان لايقع فيما وقعت فيه .

وانما اكتسب حزب التحرير صفاته الخاصة نتيجة لملابسات ظهوره وشخصيات قادته . فقد ظهر بعد نكبه ١٩٤٨ التى عاشها مؤسسوه الفلسطينيون واصطلوا بنارها ودفعوا ثمنها غاليا فتركوا أرضهم وبيوتهم وشردوا فى البلاد . وكانت هذه الملابسة

الدامية هى الدافع المباشر لتكوين الحزب ، ومن ناحية اخرى فان المؤسسين الثلاثة الذين أشرفوا على تكوينه ووضعوا فكرته ، تميزوا بإحكام للفقه الاسلامى ومن ثم فان اثر الفقه كان بارزاً فى فلسفة وتنظير الحزب . وفى الوقت نفسه فان متابعاتهم للحركات الاسلامية ، وغيرها التى شاهدتها المنطقة وقتئذ جعلتهم يجددون ، فعلى سبيل المثال ، لعله كان الهيئة الاسلامية الاولى التى تحمل اسم حزب وتعلن ان عمله هو النشاط السياسى ، وانه ليس تكتلاً خيرياً أو ثقافياً الخ ..

التكوين والسنوات الاولى :

قام الحزب بفضل جهود مشتركة من ثلاث شخصيات فلسطينية نابهة جمعتها وحدة الثقافة والميول . والابتلاء . **هم الشيخ تقى الدين النبهانى والشيخ داود حمدان والاستاذ نمر المصرى .**

وقد عايش هؤلاء الثلاثة الاحداث الجسام التى تعرضت لها المنطقة وقوى التغيير التى تحكمت فيها ، فلمسوا آثار الاخوان المسلمين التى كانت بارزة فى فلسطين خلال هذه الفترة وألموا بنقط القوة والضعف فيها . وشاهداوا تعثر الحزب القومى الذى اسسه فى الثلاثينات أنطون سعادة للعمل على تحقيق «الدولة العربية» فى اطار البيئة الجغرافية (سوريا الكبرى) ومحاولته التلفيقية فى ايجاد مكان «للمحمدية» – كما اطلق على الاسلام – فى دولة القومية – ثم شاهدوا ميشيل عفلق واخوانه – الذين لم يكونوا أفضل من انطون سعادة الا قليلا – وهم يكونون على انقاض الحزب القومى ومن اشلائه حزب البعث ، من امشاج عربية واشتراكية واسلامية لتحقيق الوحدة العربية واكتشف الثلاثة ما فى هذه التكوينات من ضعف أو تلفيق .

وأهم من هذا انهم شاهدوا الاخطبوط الاسرائيلى وهو يمد أذرعه ليطوق بلدهم المحبوب ، ورأوا أفواج الهجره تتوالى ، والمستوطنات تزحف : والمحاولات العربية المتعثرة ، لصدها . حتى دقت الساعة فى ١٥ مايو سنة ٤٨ ، عندما اعلن قيام دولة اسرائيل وتسابقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى للاعتراف بها . وما اعقب هذا مباشرة من خروج سبعمائة وخمسين الفاً من الفلسطينيين من دورهم ،

وارضهم وأموالهم الى سوريا ولبنان والاردن . وغيرها . كان منهم الثلاثة الذين كوّنوا .. الحزب .

كان الأول من هؤلاء الشيخ تقى الدين النبهانى (١٩٠٩ – ١٩٧٩) من اسرة اسلامية عريقة ، ولد فى أحدى قرى قضاء حيفا وكان والده قاضياً شرعياً . بينما كان احد اجداده من الشخصيات الاسلامية المعروفة فى تركيا ، والعالم الاسلامى .

وبعد أن حفظ القرآن ، وتلقى علومه الأولى تحت إشراف والده ، سافر الى القاهرة وانتظم فى الازهر حتى حصل على إجازة العالمية كما انتسب الى دار العلوم ايضاً وحصل على شهادتها . وعاد الى فلسطين واشتغل بالتدريس فى حيفا ثم انتظم فى سلك القضاء الشرعى حتى نكبة عام ١٩٤٨ التى نزح فى اثارها الى بيروت ..

وكان للشيخ تقى الدين شخصية قوية . وعرف بصلابة الارادة ، وغزارة المعرفة ، وإحكام الفقه الاسلامى .

وكان الثانى الشيخ داود حمدان عن مواليد مدينة اللد . ودرس فى الازهر ، وبعد ان عاد عمل كمحام شرعى . وكان واسع الاطلاع وكتب عدداً من المقالات فى مجلة «الرسالة» المشهوره التى كانت منبراً لكبار الكتاب العرب وقتئذٍ .

اما الثالث – الاستاذ نمر المصرى . فقد كان أقل الثلاثة حرصاً على الدراسة الاكاديمية ، وفى الوقت نفسه أكثرهم نشاطاً فى المجالات العامة والسياسية فكان عضوا بارزاً فى كثير من الهيئات والمؤتمرات التى عقدت مابين الثلاثينات والاربعينات – وكان وثيق الصلة بالاخوان المسلمين وعندما اعتزل الحزب – كماسيلى – نقل نشاطه للاخوان واصبح من الشخصيات المسوؤله فيها .

وعندما وقعت النكبة هاجر الشيخ داود والاستاذ نمر الى سوريا واستقرا بدمشق ..

وفى دمشق تلاقى الثلاثة «وأخذوا يتدارسون اسباب النكبة . ووضع وقتئذٍ الشيخ تقى الدين اصول كتاب «انقاذ فلسطين» .

ولم يحمل «انقاذ فلسطين» طابعاً ايديلوجياً ولكن مقدماته كانت تنتهى اليه . فالنكبة كانت نتيجة قرن من التخطيط الاسرائيلى .. والتدهور العربى . وكان لابد لمجابهة ذلك من إقامة امة ذاك مبدأ يبلور الغاية الواحدة .

وقد وجد الثلاثة ان مبدأ الامة الواحدة هو «الاسلام» فالمجتمع العربى هو «امة اسلامية حياة ودستوراً حتى لغير المسلمين من العرب» وبهذا أصبح المطلوب هو توظيف الاسلام للقيام بهذه المهمة التاريخية ، بل وتجاوزها الى دور عالمى مؤثر فى حياة العالم بأسره ..

واتفقوا على أن تكون طريقة الدراسة هى الحلقة ، فكل واحد يأتى بما انتهى اليه فكره ليعرضه على الآخرين ويكون موضوع نقاش منهم جميعاً . وكان الثلاثة يكوِّنون الحلقة الاولى . ولكن تكونت حلقات أخرى لمعالجة جوانب من المواضيع لم يكن الثلاثة يحكمونها ، من ناحية ، وبفضل نشاط الشيخ تقى الدين ، الذى اصبح بضغط من رفيقيه - متفرغاً ، من ناحية آخرى .

وتحدث احد الذين الموا - الماما دقيقاً - بنشاط هذه الفترة عن دور الحلقات فقال(١) : «فأصبح الحوار فى الحلقات يتركز على مناقشة ودراسة هذه المسودات وتنقيحها ، بل ان من الحلقات ماكان يواكب عملية الكتابة نفسها لهذه المسودات وعلى الاخص تلك التى كان يقوم الشيخ تقى بكتابتها . فقد كان كثيراً مايلازم حلقة تتفرغ لهذه المواكبة ، ويحاور حول مايريد كتابته ، فضلاً عن عرضه لما يكتبه عليها أولا بأول حيث تناقش ماكتبه ، ويعدل فى ضوء المناقشات» ويرى الكاتب ان بعضاً من اهم وثائق الحزب مثل «التكتل الحزبى» و«نظام الاسلام . نظام الحكم . النظام الاقتصادى النظام الاجتماعى خضع لهذه الممارسة .

ويضيف الكاتب ان مناقشة حلقة ما ، كانت تعرض بعد ذلك على الحلقات ككل «وهو ماينطبق على كتابات الشيخ تقى الدين جميعها ، و على ماكتبه غيره مثل كتابى الشخصية الاسلامية والدولة الاسلامية اللذين كتب مسودتيهما الشيخ داود .

«وشيئاً فشيئاً أخذت الحلقات تزداد عدداً ، والحوار يزداد غنًى ، وقد سمح ذلك لافراد الحلقة الاولى ان يكاشفوا آخرين من اعضاء الحلقات الذين «تتفاعل الدعوة معهم» اكثر من غيرهم بانهم يرون نشاط الحلقات جزءاً من عملية اعداد فكرى قائمة بالفعل . تستهدف تكوين حزب . وبذلك اخذ هؤلاء «الاخرين» يقومون ايضاً

---

(١) الاستاذ سعيد خالد الحسن فى رسالة منسوخة بالآلة الكاتبة عن حزب التحرير .

باالاشراف على حلقات حوار مماثلة ، مكونين بذلك «الكتلة» التى سينمو بها الحزب . وسرعان ماتجاوزت دائره الحوار مدينة دمشق ، حيث بدء نشاط الحلقات ، وامتدت الى آخرين من المقيمين فى الضفتين الشرقية والغربية» .

وقد عزز امتداد الحلقات هذا تنقل الشيخ تقى الدين ، رائد الحوار وشخصيته الاولى ، مابين القدس وعمان ودمشق وبيروت ، فبعد الحاق الضفة الغربية عام ١٩٥٠ بامارة شرق الاردن ، ليظهر ماعرف عندئذٍ بالمملكة الاردنية الهاشمية - ذهب الشيخ تقى الى القدس - ونجح فى ان يعين عضواً فى محكمة الاستئناف الشرعية - ثم انتقل من ذلك الى عمان ليعمل مدرسا فى الكلية الاسلامية - غير أنه مالبث ان تفرغ للمشروع بناء على الحاج رفاقه ، فاستقال من عمله وعاد الى دمشق حيث اقام بها مع والدته ، واخذ ينشغل انشغالاً تاماً بمشروع الحزب . متخذاً من مخصص مالى محدود وفره له رفاقه ما يستعين به على الانفاق الضرورى من حاجياته ، وحاجات أسرته ، وأصبح يقضى الجانب الاكبر من وقته فى دمشق حيث نشأت «الحلقة الاولى» وحيث ظلت فيها كتلة الحزب اما الجزء الاخير من وقته فقد كان يقضيه متنقلاً ما بين الاردن ولبنان حيث امتدت حلقات الحوار.. .

وهكذا نرى أن الحلقات كانت تؤدى وظائف متعدده ، فهى اداه لبلورة الفكرة ، كما كانت وسيلة لاجتذاب العناصر المتعاطفة ، واخيراً فقد كانت بوتقة لصهر الشخصيات طبقا لمقتضيات الحزب :

وفى عام ١٩٥٢ نشر الحزب عدداً من الرسائل والكتب ا لتى تمت مناقشتها دون ان تحمل اسم الحزب لأنه لم يكن قد تقدم الى المسئولين ، وحملت هذه الكتب اسم الشيخ تقى الدين كمؤلف لها .

وفى ٥٣/٣/١٤[١] ارسل مؤسسو الحزب اخطاراً الى الحكومة الاردنية «بتأسيسهم حزبا سياسياً» وبين اسمه ومركز ادارته وعنوانه ومقاصده والمفوضين بالتوقيع عنه ، وارفقه بالنظام الاساسى .

وفى ٥٣/٣/٢٢ ردت الحكومة بان الحزب غير قانونى ومنعت القائمين عليه من أى عمل وبررت ذلك بان الحزب «يحصر الروابط بين أفراد المملكة برابطة الدين مما يدعو للتفريق بين ابناء الوطن الواحد ويخالف حكم قانون الجمعيات ، ويلحق بالوطن أفدح الاضرار .. »

وفى ٥٣/٦/١ رد الحزب بأنه يعتبر نفسه شخصية معنوية ، قامت بالفعل ولاتزال قائمة قانوناً ، بغض النظر عن عدم اقرار الحكومة لمشروعية الحزب .

وتعرض الحزب لمضايقات الحكومة . وسجن اعضاؤه البارزون اكثر من مرة . ولكنهم اثبتوا شجاعة وتصميماً . واكتسبوا تأييد قطاعات عديدة . واستطاعوا أن يكسبوا لاحد أعضائهم كرسى النيابة عن منطقة طولكرم فى الضفة الغربية ..

ولكن هذه البداية المشرقة ، الواعدة بنجاح وانجاز لم تستمر طويلاً ، ومع الستينات بدأ الحزب يتقلص . وتضافرت العوامل الخارجية ، والعوامل الداخلية (اى من داخل الحزب) على ان يفقد الحزب جماهيره ويتقوقع فى بضعة افراد ..

---

(١) هناك من يرى أن الحزب قد قدم اخطاره «للحكومة فى ٥٢/١١/١٦ باسم خمسة من اعضائه هم تقى الدين النبهانى . داود حمدان . منير شقير . عادل النابلسى . غانم عبده . ولم تتضمن الاسماء . اسم الاستاذ نمر المصرى لانه لم يكن يحمل الجنسية الاردنية .

من الناحية الخارجية ، فان كل نظم الحكم فى المنطفة أعلنت عليه حرباً شعواء ، وهو نبته صغيرة ، وقبل ان يمد جذوره عميقاً فى ارض المنطقة . وكان الحزب يعلن عن هويته الاسلامية بكل قوة ، وعن الحل الاسلامى كالحل الوحيد . وعن الطابع السياسى له .. وكان هذا كله يهدد النظم القائمة ، وينذر بزعزعتها اذا سمح له البقاء ، فتضافرت كل القوى عليه ، وألصقت به الأنهامات المزيفة ، وزج بقادته الى السجون .

ولعل هذه الحقيقة المؤسفة تبرز الفارق بين «تكنيك الحزب» و«تكنيك الاخوان» . فقد استطاع الامام الشهيد حسن البنا رحمه الله تحت مظلة النُكر . وبفضل العمل فى القرى القاصية ، وبعدم تحدى النظم والمصالح تحدياً معلناً ، ان يتوصل الى غرس بذرة الاخوان فى خمسمائة قرية على الاقل ، وموالاة هذه البذرة حتى نمت واصبح لها جذور يصعب اقتلاعها . وعندئذٍ فحسب ابدى الجانب السياسى لدعوة الاخوان . ومع انه كان يقول دائما ان الاسلام دين ودولة الا ان هذا الكلام لم يؤخذ مأخذ الجد الا فى السنوات الخمس الاخيرة من حياة الامام الشهيد .

أما ماتعرض له حزب التحرير من الداخل ، وكان بلا ريب من العوامل التى ادت الى تقلصه ، فهو ماظهر من خلاف بين الشيخ تقى الدين من ناحية وزميليه الاستاذ نمر المصرى والشيخ داود ..

فمع ممارسة الحزب لنشاطه بدأت تظهر بعض الخلافات مابين الشيخ تقى الدين والاستاذ نمر المصرى حول كيفية تحديد دور الحزب فى مواجهة التطورات السياسية . فالشيخ تقى الدين كان يرى ان كل حدث يتطلب من الحزب عملاً فورياً ويبدو أن هذه الفكرة ماكان يمكن أن تطبق عمليا بطريقة «الحلقة» أو الشورى ، أو ان الشيخ وجد أن من حقه – بصفته – ان يقوم بذلك دون الرجوع ضرورة الى

زميليه .. عصري القيادة . ولكن هذا لم يكن رأى الاستاذ نمر . وتكدم الاستاذ نمر هذا الخلاف بحيث كان محصورا مابينه وبين الشيخ تقى الدين ولكن الشيخ تقى الدين نفسه ، عندما لمس ضيق الاستاذ نمر بمنهجه كتب تعميما الى الحزب يشير فيه الى ان الاستاذ نمر يعمل لايجاد تكتل داخل تكتل الحزب . ومن ثم انتقل الخلاف الى العلن . وبذلت جهود لتطويق هذا الخلاف كان منها ان نقرر ان ينتقل الشيخ داود من الاردن حيث كان يقيم الى دمشق ليكون معهما كعنصر توفيق وتهدئة . ولكن ذلك لم يُجْد فقد نشر الشيخ تقى الدين فى ١٩٥٥/١٠/١٥ عقب اعلان مصر لابرام صفقة السلاح التشكية فى ٥٥/٩/٢٦ بيانا يتهم فيه عبد الناصر بالعمالة للولايات المتحدة . وحتى لو كان التحليل الذى قدمه الشيخ تقى يؤدى لهذا . فما كان يجوز اعلانه فى فتره وصل الحماس فيه لعبد الناصر الى قمته . وامام هذا لم يجد الاستاذ نمر المصرى بدأ من تجميد نشاطه .

وما يلقى بضوء على مسلك الحزب إزاء هذه الازمة ان تنقل هنا ماكتبه الاستاذ سعيد الحسن «عند ذلك بدا لقيادة الحزب انه من الضرورى ان يتم تحديد مهمة القيادة . وهل هى – فى حزب يقوم على الاسلام – جماعية أو فردية . وما هو الدليل الاسلامى على ذلك ، ولتحديد هذا فقد انهمك الشيخ داود فى اعداد مسودة دراسة يعرض فيها أدلة التشريع الاسلامى التى تتصل بالمشكلة التى اثارها الخلاف . اى كيف يجب ان تتم عملية تبنى الاراء ، والترجيح بينها فى الحزب . وهل تفيد هذه الادلة ان من صلاحيات الامارة (أو الرياسة) – ونستطيع ان نضيف عمادة الحزب – ان تحدد للحزب ما يتبناه من اراء ، أو أن يكون العنصر المرجح بينها ان كانت ترجح رأى الاقلية[١] .

ويبدو أن دراسة الشيخ داود انتهت الى أن الإمارة فى الاسلام مهمة تنفيذية بحتة ،

---

(١) مرجع سابق ص ٧٥ .

وان تبنى جماعة معينة لحكم شرعي معين تتفق عليه مجموعة من الاراء المبنية على اجتهاد صحيح وفق علم أصول الفقه هو المقدم شرعاً على تبنى هذه الجماعة لما يصل اليه الاجتهاد الفردى ، اى ان تبنى الحزب لما يتفق عليه اجتهاد لجنة القيادة مجتمعه يكون مقدما على اجتهاد فرد منها . وان الترجيح بين الآراء التى لاتتطلب اجتهاداً فى فهم نص تشريعى معين أو القياس عليه انما هو ادعى قطعاً الى ان يؤخذ فيه برأى الاكثرية - وليس واحدً أو ثلاثة .. أو عشرة ..

على أن هذه المذكرة لسبب ما ، لم تحسم الموضوع ، ورفض الشيخ تقى الدين مناقشتها معتمداً على حديث «إذا كنتم ثلاثة فى سفر - فأمروا أحدكم» ومن ثم لم ير مبرراً لاثارة هذا الجدل - ثم اتبع ذلك بنشر تعميم حزبى قال فيه ان بعض الاعضاء قد سقطوا خلال مسيرة الحزب واعتزل الاستاذ نمر والشيخ داود وعدد آخر من القيادات الشابة . وظن الشيخ تقى الدين انه استراح منهم ، خاصة وانهم لم يحاولوا اذكاء الخلاف أو متابعته فى الحزب . ولكن النتيجة التى لامراء فيها ان الحزب خسر عدداً من افضل قياداته التى كان يمكن لو بقيت ان تثرى الحزب[1] .

على أن هذه الأزمة اثارت فى نفس الشيخ تقى الدين واصدقائه قضية الشورى . ومدى الزاماتها وعندما صدرت طبعات جديدة بعد اعتزال المخالفين - لكتاب نظام الاسلام . اضيف اليه فى باب الحكم الشرعى نص يجيز للمجتهد ان يترك اجتهاده ويقلد غيره من المجتهدين .

كما استحدث مادة جديدة فى دستور الحزب تفرق بين الشورى والمشورة اعتبرت الاولى ملزمة رئيس الدولة - ورئيس الحزب - بالتعرف على الاراء المختصة - دون الزامه باتباع مايتفق عليه منها . اما الثانية (المشوره) فهى ملزمة للرئيس - ولكنها لاتجب الا فى الامور التى ليست من «التشريع ، ولا التعريف ، والامور الفكرية ، ككشف الحقائق وكالأمور الفنية والعلمية» .

---

(١) اصبح الاستاذ نمر من ابرز قيادات منظمة التحرير كما لعب دوراً حاسماً فى تمكين «حركة فتح» من السيطرة على المنظمة عام ١٩٦٨ . كما قام الاستاذ خالد الحسن . الذى كان من أقرب القيادات الشابة الى قلب الشيخ تقىّ الدين ، بدور رئيسى فى تكوين «فتح» وفى عام ١٩٦٨ أصبح رئيس الدائرة السياسية بها .

دعوة حزب التحرير :

كانت الفكرة التى فى ذهن المؤسسين للحزب هى كيف يمكن إنهاض الأمة لكى تجابه التحديات - والتحدى الاسرائيلى أحدها - وتنتصر عليها . وقد انتهى المؤسسون الى ان ذلك لايمكن ان يحدث الا بروح جديدة ترفع الأمة فوق حاضرها التعس ومشاكلها واوضاعها ، وتفجر فيها قوة الايمان . وبدون ذلك لن تستطيع الانتصار على أعداد اشد قوة واكثر عدداً ، أو اختزال سنوات التخلف أو مجاوزة العقبات والعراقيل .

واستبعد المؤسسون كل افكار الاصلاح الجزئية (اصلاح الاقتصاد - اصلاح التعليم الخ) .. لان المجتمع كل واحد ولن يمكن النهضة بجانب منه على حدة .

وانتهى المؤسسون ايضاً الى ان هذه الروح لن تكون سوى - الاسلام فهو «مبدأ الأمة» .

ولا تخلو هذه المقدمات والنتائج من سلامة موضوعية ، وقد يفضل تشخيص الحزب فيها تشخيص هيئات اسلامية أخرى .

ولكــن ...

القضية كلها تصبح توظيف الاسلام كروح انتهاضية ، روح تغيير وتطوير ، روح اكتساح ، كتلك التى تملكت المسلمين أيام الخلافة الراشدة وجعلتهم يكتسحون العالم القديم .

كان المفروض ان يجهد المؤسسون أنفسهم ليقدموا الاسلام ثورياً ، انتهاضياً ، ولكنهم قدموا الاسلام فقهياً سلفياً . فالثقافة الفقهية المتغلغلة فى نفوسهم والروح السلفية التى هيمنت عليهم بحكم دراساتهم في الازهر ، جعلت ارادتهم الثورية تبعاً للفهم السلفي . وبالتالى حُبست فى قفص الفقه ، ووجد المؤسسون انفسهم مختارين أو بحكم الأمر الواقع يتخبطون فيه ..

وعندما كانت تحدث فرجة فى هذا القفص أو عندما كانوا يسمحون لأنفسهم بالتحرر من الفهم السلفى ، كانوا يأتون بتجديدات تشذ عن السياق ، ولكنها كانت الاستثناء ..

وما من حالة تظهر فيها مأساة الفهم السلفى ، وكيف يمكن ان يجهض اى محاولة انتهاضية ، اذا تطرق اليها كحالة حزب التحرير . فالرغبة المحرقة فى الانتهاض والتصدى لقوى القهر والطغيان تقولبت فى القالب الفقهى ، وفقدت كل ضِرامها وحرارتها وأصبحت ترجيحات واجتهادات مذهبية ..

ومن خصائص حزب التحرير انه عُنِّى ببحث كل القضايا من زاويته – فى عدد كبير من الكتب وبروح من التفصيل والمعالجة التى يغلب عليها الطابع الفقهى ، مما لانجده فى غيرها . وعَدَدَ الكتاب الذى نشره الحزب فى ٢٠ من شعبان ١٤٠٥ الموافق ٨٥/٥/٩ اسماء هذه الكتب فكانت كالآتى :

١ – كتاب نظام الاسلام .
٢ – كتاب نظام الحكم فى الاسلام .
٣ – كتاب النظام الاقتصادى فى الاسلام .
٤ – كتاب النظام الاجتماعى فى الاسلام .
٥ – كتاب التكتل الحزبى .
٦ – كتاب مفاهيم حزب التحرير .
٧ – كتاب الدولة الاسلامية .
٨ – كتاب الشخصية الاسلامية فى ثلاثة أجزاء .
٩ – كتاب مفاهيم سياسية لحزب التحرير .
١٠ – كتاب نظرات سياسية لحزب التحرير .
١١ – كتاب مقدمة الدستور .
١٢ – كتاب الخلافة .
١٣ – كتاب كيف هدمت الخلافة .
١٤ – كتاب نظام العقوبات .
١٥ – كتاب أحكام البينات .

١٦ – كتاب نقض الاشتراكية الماركسية .
١٧ – كتاب التفكير .
١٨ – كتاب سرعة البديهة .
١٩ – كتاب الفكر الاسلامى .
٢٠ – كتاب نقض نظرية الالتزام فى القوانين الغربية .
٢١ – كتاب نداء حار .
٢٢ – السياسة الاقتصادية المثلى .
٢٣ – كتاب الأموال فى دولة الخلافة .

كما أصدر الحزب آلاف النشرات والمذكرات والكتيبات الفكرية والسياسية .

والنقطة الهامة ليست هى عدد الكتب ، أو موضوعاتها ، ولكن طريقة المعالجة . فانها تتسم بطابع تحليلى وفقهى وقد حمل الحزب نفسه عناء اصدار كتاب كبير عن «التفكير» عالج فيه مشكلة المعرفة ، والتفكير ، والجوانب الفسيولوجية له – داخلاً اليها جميعاً من مداخل اسلامية ومستخلصا أحكاماً من المقدمات التى وضعها تتفق مع منهجه فى فهم الاسلام . ولكن الأصالة لاتكون بتجاهل الابحاث الحديثة – وما انتهت اليه ، وانما بالافادة منها فيما نريد ، اما التجاهل فخطأ جسيم ، والمفروض فى المسلم ان يكون أحرص الناس على المعرفة والحكمة اينما كانت ، وان يعترف لاصحابها بالشكر حتى لو قام بيننا وبينهم شنآن العداوة .

★ ★ ★

ويوضح كتاب «حزب التحرير» ان الحزب هو حزب سياسى مبدؤه الاسلام ، فالسياسة عمله ، والاسلام مبدؤه . وهو يعمل بين الأمة ومعها لتتخذ الاسلام قضية لها ، ويقودها لاعادة الخلافة والحكم بما انزل الله الى الوجود .

وحزب التحرير هو تكتل سياسى ، وليست تكتلاً روحياً ولا تكتلاً علميا ، ولا تعليميا ولاتكتلاً خيريا ، والفكرة الاسلامية هى الروح لجسمه وهى نواته وسر حياته ..» .

وهذه الفقرة الاخيرة تمثل موقف الحزب تجاه احدى «اشكاليات» العمل السياسى الاسلامى . وأنه وقد جوبه بالفهم المتأصل لدى الاسلاميين عن ان السياسة ماهى الا صورة أخرى من العبادة فانه أثر ان يجبههم بهذا «التصريح» القاطع .

وكما أشرنا فى فقرة سابقة ، فان هذا التحديد مطلوب ، على ان يكون مفهوماً ان طريقة الاسلام فى الاصلاح لا تقتصر أبدأ على الاسلوب السياسى واصلاح النظم : ولكنها تضم الى ذلك اصلاح النفس والقلب . وهذا هو الفرق بين الاسلام والنظم السياسية الأخرى ، ولكن اصلاح النفس والقلب ليس هو تخصص الحزب ومجاله ، ويمكن استكماله عن طريق هيئات أخرى ، أو بالوسائل الخاصة للعضو . وقد كان من الخير – مع هذا – الاشارة الى ان السياسة الاسلامية تستلهم القيم الاسلامية وانها تختلف عن السياسة «الميكيافيلية» ولعله اعتبر ان نصه على أن «الفكره الاسلامية هى الروح لجسمة وهى نواته وسرحياته» يكفى .

وعن أسباب تكوين الحزب عرض الكتاب ثلاثة أسباب أولاها هو **الاستجابة لقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، اولئك هم المفلحون﴾** .

وقد شرح الكتاب هذه الآية بنوع من التفصيل وبين أنها تدعو لتكوين مثل هذا الحزب .

ولعل وضع هذا السبب اولاً يوضح عمق المعنى الاسلامى وأولويته فى الحزب ، وبدون ذلك لايمكن تقديمه على السبب الثانى . وهو **إنهاض الأمة الأسلامية وتحريرها من أفكار الكفر وأنظمته واحكامه** ، ومن سيطرة الدول الكافرة ونفوذهم ، برفعها فكرياً عن طريق تغيير الأفكار والمفاهيم التى ادت الى انحطاطها تغييراً أساسيا شاملا . وايجاد أفكار الاسلام ومفاهيمه الصحيحة لديها حتى تكيف سلوكها فى الحياة وفق أفكار الاسلام ، واحكامه ..

ويرى الكتاب ان اسباب هذا الانحدار هى «**عوامل التغشية**» على فكرة الاسلام وعوامل التغشية هذه نتجت عن امور ابرزها .

١ – نقل الفلسفات الهندية و«الفارسية» ومحاولة **التوفيق بينهما والاسلام . مع** وجود التناقض .

٢ – دَسّ الحاقدين على الاسلام **أفكاراً وأحكاماً ليست من الاسلام** لتشويهه .

٣ – اهمال اللغة العربية التى لايُفْهَم الاسلام إلا بها .

٤ – الغزو التبشيرى والثقافى والسياسى من الدول القومية الكافرة ..

ويشير الكتاب الى المحاولات والحركات التى اريد بها انهاض المسممين واخفاقها ، ويعيد سبب الاخفاق الى :

١ – عدم فهم الفكرة الإسلامية من قبل القائمين على انهاض المسلمين فهما دقيقاً لتأثرهم بعوامل التغشية ، **وكانوا يدعون الى الاسلام بشكل عام مفتوح** ، دون تحديد للأفكار والأحكام التى يريدون انهاض المسلمين ، ومعالجة مشاكلهم بها ، وتطبيقها ، لعدم وضوح هذه الأفكار والأحكام فى أذهانهم ، وجعلوا الواقع مصدرا لتفكيرهم ، يستمدون منه تفكيرهم ، وحاولوا ان يؤولوا الاسلام ويفسروه بمالا تحتمله نصوصه حتى يتفق مع الواقع القائم ، مع أنه مناقض للاسلام ، ولم يجعلوا الواقع موضع تفكيرهم ، ليغيروه حسب الاسلام وأحكامه .

لذلك نادوا بالحريات والديمقراطيات ، وبالنظام الرأسمالى والاشتراكى ، واعتبروها من الاسلام ، مع انها تتناقض مع الاسلام تناقضاً كلياً .

٢ – عدم وضوح طريقة الاسلام لديهم فى تنفيذ فكرة الاسلام وأحكامه وضوحاً تاماً ، فحملوا الفكرة الاسلامية بوسائل مرتجلة ، وبشكل يكتنفه الغموض وصاروا يرون أن دعوة الاسلام تكون ببناء المساجد واصدار المؤلفات ، أو بإقامة الجمعيات الخيرية والتعاونية ، أو بالتربية الخلقية واصلاح الأفراد ، غافلين عن فساد المجتمع ، وسيطرة أفكار الكفر وأحكامه وأنظمته عليه ، **ظانين ان اصلاح المجتمع يكون باصلاح أفراده ، مع أن اصلاح المجتمع انما يكون باصلاح أفكاره ومشاعره وأنظمته واصلاحها سيؤدى الى اصلاح أفراده ، فالمجتمع ليس أفراداً فقط ، وإنما هو أفراد وعلاقات ، أى أفراد وأفكار ومشاعر وأنظمة ، كما عمل رسول الله ﷺ لتغيير المجتمع الجاهلى الى مجتمع اسلامى ، إذ أخذ يعمل على تغيير العقائد الموجودة بأفكار العقيدة الاسلامية ، وعلى تغيير الأفكار والمفاهيم والعادات الجاهلية بأفكار الاسلام ومفاهيمه وأحكامه ، ومن ثم تغيير مشاعر الناس من الارتباط بعقائد الجاهلية وأفكارها وعاداتها ، الى الارتباط بالعقيدة الاسلامية ، وأفكار الاسلام وأحكامه ،**

أو بالأعمال المادية ، وحمل السلاح غير مفرقين بين دار الاسلام ودار الكفر ، وبين كيفية حمل الدعوة وانكار المنكر فى كل دار منهما ، والدار التى نعيش فيها

اليوم هى دار كفر لأنها تطبق أحكام الكفر ، و هى تشبه مكة أيام بعثة الرسول ، ويكون حمل الدعوة فيها بالدعوة والأعمال السياسية لا بالأعمال المادية ، كما حمل الرسول الدعوة فى مكة ، اذ اقتصر على حمل الدعوة ، ولم يستعمل الأعمال المادية ، لأنه ليس المراد تغيير حاكم حَكَمَ بغير ما أنزل الله فى دار اسلام ، بل المراد تغيير دار كفر بأفكارها وأنظمتها ، وتغييرها يكون بتغيير الأفكار والمشاعر والأنظمة فيها ، كما فعل رسول الله ﷺ فى مكة .

● **أما العمل لإعادة دولة الخلافة والحكم بما أنزل الله الى الوجود وهو السبب الثالث لتكوين الحزب** ، فلأن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على المسلمين التقيد بجميع الأحكام الشرعية ، وأوجب عليهم الحكم بما أنزل الله ، ولا يتأتى ذلك الا بوجود دولة اسلامية ، وخليفة يطبق على الناس الاسلام .

وكلام الحزب هذا لاغبار عليه فى حد ذاته ، ولكنه ، **لايلم بكل ابعاد القضية** ، كما ان فكرة الخلافة لابد ان يتغير مفهومها من المفهوم السلفى القديم الى مفهوم يتجاوب مع الاوضاع الحديثة . وهو أمر نشك فى استساغة حزب التحرير له .

وقد بَّين الحزب طريقته فى تبنى الأفكار وهى تقوم على «دراسة واقع الأمة وما وصلت اليه وبواقع عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين وعصر التابعين من بعده ، وبالرجوع الى سيرة الرسول ﷺ وكيفية حمله الدعوة منذ ان بدأ فى اقامة الدولة فى المدينة ، ثم دراسة كيفية سيره فى المدينة ، وبالرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله والى ماارشدا اليه من اجماع الصحابة والقياس وبالاستنارة بأقوال الصحابة والتابعين واقوال الأئمة المجتهدين» .. وبعد كل ذلك تبنى حزب التحرير **أفكاره وهى** افكار «اسلامية ليس غير ، وليس فيها أى شيء غير اسلامى بل هى اسلاميه فحسب لاتعتمد غير اصول الاسلام ونصوصه» .

ان هذه السطور هامة لانها تمثل «سياسة تقرير الاحكام » **وأن تكون مصادر هذه** الاحكام اسلامية بالمعنى المقرر (القرآن . السنه - الاجماع - القياس) **وان لاتعتمد** شيئاً أحد غيرها - وسنورد شواهد على ذلك - تحصر فكر الحزب فى الفكر السلفى وترى ان اى شيء غير ذلك «غير اسلامى» .

مع ان الاسلام لا يمكن ان يكون «منغلقاً» فهو يعترف بكل الديانات ومن الفقهاء من يقول «شرع من قبلنا شرع لنا» وقال الرسول ان «الحكمة ضالة

المؤمن ينشدها أنا وجدها» . ووضع مبدءاً هاماً «نحن أولى به منهم» أراد «به» موسى ، أما آيات القرآن الكريم التى تحض على النظر والتدبير فى احوال السابقين والتماس العظة والعبره منها ، فلا حد لها . فحصر الاسلام فى احاديث بعينها ، أو اقوال الائمة والفقهاء والمجتهدين تعسف يغفل مبدءاً أساسياً فى الاسلام هو ان كل ما يثبت صلاحه ونفعه – كائناً ماكان – يمكن ان يكون اسلاميا فما يراه المسلمون حسناً ، فهو عند الله حسن .

وانه لمن المؤسف ان يرى المرء كيف ان الحماسة للاسلام تدفع فريقاً من دعاته للتضييق ولاصدار أحكام جائره . فحزب التحرير يرى ان الديمقراطية كفر (ص ٥٦ – كتاب حزب التحرير) لان الله وحده هو المشرع» ويقرر :

الديمقراطية الرأسمالية :

هى مبدأ الدولة الغربية وأمريكا وهى مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وفصل الدين عن الحياة ، «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» وبناء على ذلك كان الانسان هو الذى يضع نظامه فى الحياة .

. وهذا المبدأ هو مبدأ كفر يتناقض مع الاسلام لأن الله هو المشرع .

وهو وحده الذى وضع النظام للبشر ، وجعل الدولة جزءاً من أحكام الاسلام ، وأوجب أن تعالج جميع شؤون الحياة بالأحكام الشرعية التى أنزلها . لذلك يحرم على المسلمين أن يعتنقوا المبدأ الرأسمالى أو أن يأخذوا أفكاره أو أنظمته ، لأنه مبدأ كفر ، وأفكاره أفكار كفر ، وأنظمته أنظمة كفر تتناقض مع الاسلام .

رأى الاسلام فى الحريات :

ومن أبرز أفكار المبدأ الرأسمالى وجوب المحافظة على الحريات للانسان ، وهذه الحريات هى حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرية الملكية ، والحرية الشخصية . وقد نتج عن حرية التملك النظام الاقتصادى الرأسمالى المبنى على النفعية ، التى أدت الى الاحتكارات الضخمة ، والتى دفعت الدول الغربية الكافرة الى استعمار الشعوب ونهب ثرواتها .

وهذه الحريات الأربع العامة تتناقض مع أحكام الاسلام ، فالمسلم ليس حرًا فى

عقيدته فانه اذا ارتد يستتاب فان لم يرجع يقتل ، قال ﷺ «من بدّل دينه فاقتلوه» ، والمسلم ليس حرّاً فى رأيه ، فما يراه الاسلام يجب أن يراه ، ولايجوز أن يكون للمسلم رأى غير رأى الاسلام .

والمسلم ليس حرّا فى الملك ، ولا يصح له أن يتملك الا ضمن أسباب التملك الشرعية ، فليس حرّا ان يملك ما شاء بما شاء بل هو مقيد بأسباب التملك فلا يجوز أن يتملك بسواها مطلقاً فلا يصح أن يتملك بالربا ، أو بالاحتكار أو ببيع الخمر أو الخنزير ، أو ما شاكل ذلك من طرق التملك الممنوعة شرعا . فانه لايجوز أن يملك بأى طريق منها .

والحرية الشخصية لا وجود لها فى الاسلام ، فالمسلم ليس حراً حرية شخصية ، بل هو مقيد بما يراه الشرع ، فإذا لم يقم بأداء الصلاة أو الصيام مثلا يعاقب واذا سكر يعاقب واذا زنا يعاقب ، لذلك فالحريات الموجودة فى النظام الرأسمالى الغربى لا وجود لها فى الاسلام ، وهى تتناقض مع أحكام الاسلام تناقضاً كلياً» .

واذا كان هذا هو حظ الديمقراطية ، فلا ريب ان النظام الشيوعى اسوأ فهو «مبدأ كفر وافكاره كفر ، ونظامة نظام كفر ، وهو يتناقض مع الاسلام تناقضاً كليا وجذريا فى كليانه وجزئياته» والنظام الملكى فى الحكم ليس نظاماً إسلاميا وكذلك النظام الجمهورى سواء كان رئاسيا كالولايات المتحدة . او نظاماً برلمانيا كما هو حاصل فى المانيا الغربية . والنظام الاسلامى الوحيد هو «الخلافة» .

ولا يخالجنا شك ان هذه ليست هى أحكام الاسلام ، ولكنها أحكام الغباء وضيق الافهم وسوء الفهم ، وهى تسىء الى الاسلام اكثر مما يسىء اليه أشد اعدائه .

وكقاعدة عامة . فان الحزب اما ان يتبع – اتباعاً اعمى ودون ملاحظة للملابسات – اى نص يثبت لديه ، سواء كان حديثا ، أو حكما فقهياً أو ان يجتهد فيما وراء ذلك واجتهاده يميل للتعسف ، والتضييق ، باستثناء فلتات سنشير الى بعضها فيما سيلى ، وقد وضع عام ٦٣ شرحاً لمواد الدستور بعنوان «مقدمة الدستور – أو الأسباب الموجبة له» فى ٤٥٧ صفحة (المواد ١٨٢ مادة) نجد فيه لكل مادة سنداً من حديث أو سابقة من احكام الخلفاء الراشدين ، دون اى نظر الى متغيرات – ودون أى احتفال باظهار المبرر الموضوعى ومافيه من دواع تقتضيه الخ .

ومن الفلتات التى تشذ عن هذا الحكم مناقشة طويلة لتحريم كنز المادة ١٣٠ ولو

أديت زكاته ، وكذلك تحريم موآجرة الأرض المادة ١٢٣ ، وفتح باب التعليم للجميع «ويفتح مجال التعليم العالى مجانا للجميع بأقصى مابتيسر من امكانيات (مادة ١٦٥) . وقد اعترف الدستور بالقرآن والسنه واجماع الصحابة واستبعد القياس من ان يكون مصدراً للاحكام ورفض اجماع المسلمين ، وجلب المصالح ودرأ المفاسد ورفض العقل لأن الكلام هو عن الحكم الشرعى اى ماغلب على الظن أنه حكم الله ، وهو لايكون الا مما جاء به الوحى والعقل لم يأت به الوحى ولذلك لايوجد دليل لاظنى ، ولا منطقى على ان العقل من الادلة الشرعية على الاحكام الشرعية فلا يعتبر من الادلة الشرعية مطلقاً . ص ٥٧ مقدمة الدستور وكذلك رفض الاستحسان والمصالح المرسلة .. وقد اثبت هذا كله بحرارة وقوة وبطريقة توحى ان ماذهب اليه هو الصواب الذى لامراء فيه !!

ورأى كتاب «الفكر الاسلامى» وهو من تاليف استاذ مصرى فى الجامعة المصرية ، ولكنه من كتب الحزب . ان الرأى الذى يستنبطه المجتهد حكم شرعى على اساس ان الحكم الشرعى هو الرأى الذى يؤخذ من النص ، وهو الذى يعتبر خطاب الشارع ومن هنا كان رأى المجتهد خطاباً شرعيا مادام يستند فيه الى الكتاب والسنة ، او الى مادل عليه الكتاب والسنة من الادلة الشرعية . وندد الكتاب بالذين يَدعّون ان الحكم الشرعى هو نص القرآن او الحديث فقط . ورأى ان ذلك سيوجد مسائل كثيرة لايوجد لها حكم شرعى واشفق ان «يتحكم فيها العقل فيضع الحل الذى يراه والحكم الذى يوافق هواه ! «مسكين . » ومرة اخرى يحذر «من ان يترك للعقل ان يقرر ماهى المصلحة ، بل يجب ان يقرر ذلك الشرع وحده لانه هو الذى يقرر المصلحة الحقيقية والمفسدة الحقيقية» ورأى الكتاب انه «لايجوز فى حق الرسول ان يكون مجتهداً» ورفض كل ما أورده الفقهاء أو المفسرون من اجتهاد للرسول يخطىء فيه فيصحح الوحى له ذلك .



ان مأساة حزب التحرير ان هذا الحزب الذى خرج من احشاء النكبة ، وتعرض لمخاض عسير ، وحمل صفة «التحرير» ، ولم ينقص دعاته الحماسة والاخلاص ، أصبح قفصاً محكماً تسجن فيه الجماهير ، والافكار ، والارادات وكل ما يمت بصلة الى «التحرير» لان دعاته لم يعملوا عقولهم ، ولكن استخدموا نقولهم . ولم يعمدوا الى روح الاسلام الحرة الطليقة ، العادلة السمحة «العقلانية» فى كل شيء ، باستثناء

ذات الله – وإنما لجئوا الى فهمٍ فقهى عقيم كان هو نفسه وراء استخذاء الجماهير .. وضلال القاده ..

ومع ان الحزب كان من الذكاء بحيث يستبعد فكره العمل «الارهابى» أو «الجهادى» من وسائله ، قياساً على أنه يعمل فى «عهد مكى» فان هذا لم يشفع له فى البقاء . فتحلله كان محتوماً ، وكان خيراً ايضاً ، فان حزباً يستبعد العقل من تفكيره الشرعى ، عدمه خير من وجوده .

ولكن يظل مع هذا ان المشكلات التى أثارها لاتزال هى مشكلات الساحة والساعة وان الحلول التى عرضها تراود البعض لانها ، على خطأ معظمها . لم تعالج المعالجة الموضوعية من الآخرين . فقد انتقد كتيب[1] ماذهب اليه حزب التحرير عندما أباح تقبيل المرأة الاجنبية ومصافحتها .. فبدلاً من ان يظهر الخطأ الموضوعى فى ذلك ، فانه اورد للرد عليه كلمة لابن تيميه . «**من استحل النظر فقد كفر بالاجماع !!**» فعرض صورة اخرى من صور الشطط ، ووجهاً ثانياً للعملة نفسها .. فقد يكون اجتهاد حزب التحرير خطأ . ولكن اجتهاد ابن تيمية أسوأ ويفتح باباً للشرور أشنع مما يمكن ان يفتحه خطأ حزب التحرير .. فما أسوأ ان نفتح ابواب محكمة التكفير ، على مصراعيه ولكلٍ صغيرة وكبيرة ! .

---

(١) نعنى به كتيب «الدعوة الاسلامية . فريضة شرعية وضرورة بشرية» ص ١١٠ [دار التوزيع والنشر الاسلامية] وفتوى ابن تيمية مقتبسة من «منار السبيل فى شرح الدليل على مذهب احمد ٢/٤٢١» . اما فتوى حزب التحرير فكان نصها «ومن قبّل قادماً من سفر رجلاً كان او امرأة ، او صافح أحداً رجلاً كان أو امرأة ، ولم يقم بهذا العمل من اجل الوصول الى الزنا أو اللواط فان هذا التقبيل وهذه المصافحة ليسا حراما ، ولذلك كانا حلالين لاشىء فيهما» وجاء فى تبرير ذلك «الدخول تحت عموميات الادلة المبيحة لأفعال الانسان العادية» ..

الفصل الرابع

دعوات الرافضة الجديدة

مقدمـــة :

تحت هذا الإسم سندرج عددا من الدعوات وضعت بذورها فى الخمسينات ، وأثمرت فى الستينات ، واستشرت فى السبعينات ، وانتقلت من مصر إلى معظم الدولة الإسلامية .

وقد رأينا فى عرضنا لفكر الجماعة الإسلامبة أنها تقوم على «العبودية لله» ، وتدعو إلى : «الحاكمية الإلهية» ، وتَصِم المجتمعات التى لاتحكم بما أنزل الله بوصمة : «الجاهلية» .. وهذه هى أصول الرافضة الجديدة ..

والفرق بين الرافضة الجديدة التى ظهرت فى مصر وقامت على هذه المبادىء وبين الجماعة الإسلامية أن الجماعة الإسلامية لم تعتبر أن هذه المبادىء «مقدمات» تستخلص منها «الجهاد» أو «الثورة» ولم تر أن تورية فكرتها تتطلب ممارسة ثورية تقوم على عنف ، أو جهاد ، أو حتى هجرة ، ولم ترأن النتيجة المنطقية لمبادئها هى تكفير «أئمة الجاهلية» .. إلخ مما انتهت إليه الرافضة الجديدة .

لأن الجماعة الإسلامية كجماعة نظامية معلنة كان لابد لها أن تعمل بالطرق المشروعة ، كما كان العلامة المودودى مفكراً راسخاً ناضجا لايتأثر – بحكم السن

والثقافة – بالاندفاعات العاطفية والاتجاهات الثورية ، ومن أجل هذا لم نأخذ فى باكستان الطابع العنيف الذى أخذته فى مصر ..

وجاءت نقطة التحول لنا فى الخمسينات عندما ترجمت إلى العربية «كتابات المودودى» فساندت وتجاوبت مع فكر كاتب إخوانى ذائع كان له دور فى فترة «الفراغ الأيديلوجى» التى أعقبت اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا ، وهو الشهيد سيد قطب رحمه الله الذى صاغ فكره فى كتاب «معالم فى الطريق» ..

وصدر الكتاب فى أوائل الخمسينات ، وطبع فى دار شبه حكوميه ! ، وعندما قام انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م كان بعض ضباطه من المعجبين به والمروجين له ..

فكتاب «معالم فى الطريق» وأفكار العلامة المودودى التى ترجمت إلى العربية فى هذه الفترة استقبلا وقتئذ استقبالاً «أكاديميا» كوجهة نظر جديدة فى الفكر الإسلامى دون أن يؤدى الإلمام بها إلى رد فعل فورى .

فهل كان ذلك يعود إلى ضرورة انقضاء فترة من «التخمر الثورى» أو أنه يعود إلى أن أثر فكرٍ ما إنما يحدث عندما يأتى ظرف مناسب ؟

سواء كان هذا أو ذاك ، أو هما معا ؛ فإن أثر فكر المودودى الذى استخلصه كفقيه إسلامى من النصوص ، ثم جاء سيد قطب ككاتب ضليع فصاغه فى أسلوب فنى بليغ ينضح بالحرارة والحماسة والقوة لم يصبحا مصدر الإلهام وأساس الفكر لمجموعات من الشباب إلا فى فترة الستينات عندما احتدمت الخصومة بين الإخوان وعبد الناصر .

وزج عبد الناصر بالألوف من الإخوان فى المعتقلات ، وفتحت تلك الصفحة المفينة الكريهة التى لم يسبق للمجتمع المصرى بها عهد : تعذيب صلاح نصر والبسيونى ، ومحاكمات جمال سالم والدجوى .

أ - جماعة التكفير والهجرة

قدمت كتابات المودودى وسيد قطب الأساس الفكرى لتلك المجموعات التى أطلقنا عليها «الرافضة الجديدة» .

وحدث هذا فى معتقلات عبد الناصر ورفع رايتها «شكرى مصطفى» ..

وتحدث أحد رفاقه فى السجن عن تطوره الفكرى خلال فترة الاعتقال فقال :

...«فهذا الشاب الطالب فى كلية الزراعة جامعة اسيوط قد جاء صدفة إلى السجن الحربى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وعذب مثل الآخرين ، وكنت أراه أيام الحربى لماما ومن بعيد فلم نتجاور فى زنزانة ، ولم يشملنا تحقيق واحد ، ولكنه كان يلفت انتباهى بكونه واحد من أصغر المعتقلين سنا . لم أقترب منه إلا بعد إعادة التصنيف عقب توعية نوفمبر وفوجئت به فى عنبر الزعماء وهو الغلام الحدث ، وفوجئت أنه لايعرف الكثير أو القليل عن الإسلام اللهم إلا الصلاة ، أما الإسلام كبعد عقائدى يجاهد من أجله فلم يكن عند هذا الشاب كذلك حتى يوم التقينا فى عنبر ١٢ ، وإن أردت أن أكون أكثر دقة أقول إنه لم يكن يبدو كذلك . وكان يسكن فى العنبر على مقربة منى ، وكان هذا أدعى للأحاديث الكثيرة بيننا ، كنت فى أغلبها المتحدث الذى يجيب على أسئلته الكثيرة النهمة ، فهو يريد أن يعرف قصة الإخوان المسلمين وكيف اعتقلوا ؟ ولماذا؟ وما هو الجهاد فى سبيل الله ؟ وكيف قامت دولة الإسلام فى سالف عهدها ؟ وما معنى دين ودولة ؟ مصحف وسيف ؟ كان يسأل ويسأل ولا يفعل أكثر من ذلك وفيما عدا ذاك فهو مهرج مع المهرجين ، ضاحك من الضاحكين فى مرح بالغ ، ولا يظهر اهتماما كثيرا بشئون السياسة . وكانت ظروفه الأسرية شديدة فقد طلقت أمه ، وتزوج أبوه امرأة أخرى ، وتزوجت أمه رجلا آخر ، وهو لايدرى أين يذهب بعد الإفراج عنه ، وكان كثيرا ما يتندر بهذه الحالة ، ويقول ضاحكاً :

– هذا الاعتقال قد حل لى الكثير من المشكلات .

وكانوا قد سمحوا لنا مرة بعمل حفل ترفيه احتفالاً بذكرى انتصارنا فى السويس عام ١٩٥٦ ، وطلبنا أن نمثل مسرحية ، ووافقت الإدارة ، وكتبت المسرحية وقام بإخراجها الأستاذ محمد حسن ومثل فيها شكرى مصطفى دور التلميذ العبيط المدلل من أبيه المعلم الجاهل ، وكان اسم المسرحية أشمونى أفندى وقد أعجب بها محمد قطب كثيرا وبيِّن لنا مافيها من إسقاط سياسى ، وكتبت بتشجيعه مسرحية «البعد الخامس» ولكن هذه قصة أخرى .

كان شكرى مصطفى من غير المهتمين بالسياسة رغم كونهٔ معتقلاً معنا فى قضية سياسية ، ولم يكن أيضا من المهتمين بالإسلام كبعد جهادى رسالى ينبغى التضحية فى سبيله ، وكان يسأل ليعرف ، ثم انتابته حالة لم تلفت نظر أحد فهى كثيرا ما تحدث ، ولا نفسرها إلا بسوءِ الحالة النفسية ، فهو يصمت ويستمر فى الصمت حتى أنه لايتبادل الحديث مع أحد بالمرة ، واقتربت منه أيامها وكنت وأنا الذى أجيب على أسئلته الكثيرة أسأله عن سبب صمته المريب فلا يجيب ، ويكتفى بالقعود على بطانيته محدقا فى لاشىء ، ويأكل فى موعد الطعام ، ويصلى مع المصلين ، وإذا خرجنا إلى طابور الفسحة لايخرج معنا ويكتفى بالجلوس وحيدا فى العنبر متأملا محدقا حتى يعود الناس ، وتطور الأمر معه فصار يصلى فى الليل ، وكان فى العنبر كثير يفعلون هذا ، وانضم إليهم وصار واحدا ممن يقيمون الليل .

وكففت عن سؤاله عن سبب صمته واكتفيت بملاحظته عن كثب أحاول أن أدرك مايفكر فيه بلا فائدة حتى جاء اليوم الذى رفض فيه التوقيع على التأييد ، وانحلت عقدة لسانه وصار مرحا ثرثاراً كما كان من قبل .

وصرت انظر إليه ولا أتحدث متأملا متعجبا أحاول أن أفهم فينغلق علىَّ الفهم ، ورآنى واقترب منى وجلس بجانبى .

وكان عنبرنا يسمح بهذا لقلة عدد من فيه – وقال لى بشوشا :

– لعلك تعجب من عدم توقيعى على التأييد[١] .

---

(١) هذه كانت خطابات أو تلغرافات تطلب ادارة المعتقل من المعتقلين ارسالها للحكومة تأييداً لها فى مناسبات ما . ولم يكن ليرى بعض المعتقلين ضيراً فى هذا . بينما يرفض البعض الآخر ومنهم شكرى مصطفى ، ذلك رفضاً قطعياً .

- فى الحقيقة نعم .
- تريد ان تعرف السبب .
قلت له ملحاً : لو سمحت .

وتنهد شكرى مصطفى تنهيدة طويلة ملأت عينيه بالحزن وفارقه مرحه وبدا جاداً صارما .

قد رأيتِ ماحل بنا ، وما فعلته حكومتنا معنا ، استباحت ابناءها وضربتهم بالسياط ، وقتلتهم واغتصبت الفتيات والاطفال ، قد رأيت بنفسك هذا هنا فى هذا المكان ، فى السجن الحربى كنا سويا ، وضعونى مع الزعماء ولستُ كذلك قد عرفت هذا بنفسك ، لقد سمعتُ منكَ قصة الاسلام بالتفصيل ، لم اسمعها من قبل - وكلما أزددت معرفة ازددت غبظاً . واظن انه ان لم تؤاتنى هذه الفرصة للمعارضة واعلانها لمت كمدا . اقل ما نفعله لحكومة مثل هذه التى تحكمنا أن نظهر احتقارنا لها . هذا أقل ما ينبغى علىَّ فعله . ولو استطعت اكثر من هذا ماترددت »[1].

وبعد هذا بمدة نرى شكرى مصطفى ، وهو لايقف عند هذه الدرجة . لان سياسات الحكومة وتصرفات السجانين تدفعه نحو التطرف ، ونحو الاصرار .. والمضى الى آخر المدى .

وقد يصور ذلك هذا المشهد الذى رواه مؤلف «البوابه السوداء» .

« .. وجاء حسن طلعت ببذلته «الموهير» اللامعة وساعته الذهبية وقميصه الحريرى ، وبحذاء «ساكسون» وجورب لعله اشتراه من المريخ فقد كان يجلس على كرسى أنيقا جميلا بهى الطلعة ، كأنه مصنوع فى مصنع ، وبدأ حديثا سقيما سخيفا ، تحدث فيه عن عظمة الإله - إلهه هو - الزعيم الذى لايقهر ، وكيف نجاه الله من المهالك ، وكيف تغلب عليها ومازال يحكم ويأمر وينهى ويقتل ويحيى ويميت ويفعل بالعباد مايشاء .

كنا جلوساً أمامه على الأرض بملابس الاعتقال المصنوعة من «الخيش» والكل مستغرق فى افكاره وقال :

- تآمرتم عليه بتحريض من الاستعمار عام ١٩٥٤ فلم تفلحوا فجاء غزر سنة ١٩٥٦ لانجاح مافشلتم فيه ونجاه الله وتآمرتم عليه فى ١٩٦٥ ولم تفلحوا فجاء غزو

(١) احمد رائف «البوابة السوداء» ص ٣٩٩ - ٤٠١ .

يونيو ١٩٦٧ لإنجاح مافشلتم فيه ، ونجاه الله . ألا يعطيكم هذا العظة والعبرة بأنه خالد باق لايموت ؟

وتمتم الشيخ محمد عبد الفتاح عارف :

– سبحان الحى الذى لايموت .

وقال حسن طلعت الذى سمع تمتمته :

– ماذا تقول ؟

وانفجر الشيخ عارف :

– ألا تستحى أيها الرجل من هذا الكلام الفارغ الذى تقوله ؟ .

واستعد الحرس الذين يحيطون بنا إحاطة السوار بالمعصم بالفتك بمن يتمرد ، وصوبت الرشاشات ، وكل من الجالسين أعزل لايحمل سلاحا إلا «شبشب» قديم متهرىء يضعه فى رجليه ، ويصعب استخدامه فى الضرب . وأشار حسن طلعت إلى الحرس فى شجاعة أن كفوا ، فكفوا واستأنف الشيخ عارف كلامه :

– ظلمتم الإخوان عام ١٩٥٤ فعاقبكم الله عام ١٩٥٦ ، وظلمتموهم فى عام ١٩٦٥ فمسح الله بكم الأرض عام ١٩٦٧ ، وجعلكم سخرية العالم ، ولو كان عند الرئيس كرامة لا ستقال ولضرب نفسه بالرصاص . ولو كان عندكم إحساس ماقلتم هذا الكلام .

وقال أبو بكر الصديق وهو شاب من المعتقلين كلاما شبيها من هذا ، كل هذا وجمهور المعتقلين ساكنين قد تربعوا الأرض تحت تلك الشجرة الضخمة بين مبنى المستشفى ومبنى الملاحظة كشيوخ أثينا الحكماء ، يرقبون مايدور ولا تخلوا نفوسهم من راحة لما يسمعون .

ثم قام إليه شكرى مصطفى ووجه الكلام إليه كلاما سريعا حاسما قاسيا كطلقات نارية من مدفع أتوماتيكى حديث الصنع :

أنت كافر . ورئيس جمهوريتك كافر . ولئن أحيانى الله وخرجت من المعتقل لأقاتلنكم قتالاً شديداً ، ولئن مت فسوف يأتى من بعدنا من يقضى عليكم ويدين دولتكم . ولئن هربتم من عقابنا فى الدنيا فلن ينجُ احد منكم يوم القيامة »

قضى الأمر . ومن هذه اللحظة لم يعد هناك رأفة أو مهادنة ، واستقر رأى شكرى مصطفى وأصبح اللشىء الوحيد الذى يكرره .

«والله لئن كتب الله لى الخروج من هذا الجب لأقاتلنهم قتالاً ضروساً بما استطيع حتى أغيرهم أو أموت شهيداً ..»[١] .

وقد كان ...

فعندما خرج شكرى مصطفى . أسس الهيئة الرائدة فكرياً وعملياً من هيئات الرافضة الجديدة .

إذا كانت هذه هي المرحلة الأولى فى تطور شكرى مصطفى ، فلابد أنه بعد أن خرج من الاعتقال عكف على المطالعة والتفكير بحيث أضاف إلى مبادىء المودودى وسيد قطب مبدأ «التكفير» ، و «مجاهدة الجاهلية» أو «الهجرة» كما تعلق بفكرة «الخلافة» وكتب كتابا عنها ., وفى النهاية أسس الجماعة التى أطلقت عليها جريدة أخبار اليوم «جماعة التكفير والهجرة» ومع أن «أخبار اليوم» قلما تصدق وإنما تبغى الإثارة دائما ، إلا أنها فى هذه التسمية رزقت الصدق وكيَّفت الهيئة تكييفا حقيقيا ..

ولما لم يكن لهذه الهيئة ، ولا لأى هيئة من هيئات الرافضة قواعد جماهيرية ، أو فكر أصولى حقيقى فنحن لانتابع التطور أو ننقصى التاريخ ، وإنما نلم بأبرز القسمات والتطورات فى كل هيئة .

ومن أبرز ما اتسمت به «جماعة المسلمين» كما أطلق عليها شكرى مصطفى من واقع أقواله[٢] أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا (القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧) والتى نشرت فى الصحف يوم ١٩٧٩/١٠/٢١ م .

– إن كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعا .

– إننا نرفض ما يأخذون من أقوال الأئمة والإجماع وسائر ماتسميه الأصنام الأخرى كالقياس .

– إن الالتزام بجماعة المسلمين ركن أساس كى يكون المسلم مسلما ، ونرفض ما ابتدعوه من تقاليد ، ومارخصوا لأنفسهم فيه ، وقد أسلموا أمرهم إلى الطاغوت وهو : الحكم بغير ما أنزل الله ، واعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلما .

---

(١) احمد رائف «البوابة السوداء» . ص ٥٧٣ – ٥٧٤ .

(٢) من كتاب ذكرياتى مع جماعة المسلمين (التكفير والهجرة) : عبد الرحمن أبو الخير . دار البحوث العلمية الكويت ص ٩ .

– إن الإسلام ليس بالتلفظ بالشهادتين ، ولكنه إقرار وعمل ، ومن هنا كان المسلم الذى يفارق جماعة المسلمين كافرا .

– الإسلام الحق هو الذى تتبناه «جماعة المسلمين» وهو ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط – وبعد هذا لم يكن ثمة إسلام صحيح على وجه الأرض حتى الآن .

وبطلان بعض هذه المبادىء ظاهر لايحتاج إلى دفاع فلا يدعى فرد لم يضم سوى عشرين أو ثلاثين شابا أن جماعته هذه هى وحدها -- دون كل الجماعات الإسلامية ، والمسلمين عامة – هى التى تمثل الإسلام حقا ، وأن كل ماعداها ضال بمافى ذلك جماعة «الإخوان المسلمين» التى تعلم فيها أول ماتعلم ، و«الجماعة الإسلامية» فى الهند التى يتفق هو نفسه معها فى كثير مما ادعاه ، وجماعة «الفنية العسكرية» التى سبقتهم على الطريق .

نقول لايدعى هذا إلا إذا وصل به الغرور درجة أعمته عن كل أثارة من أثارات الاتزان أو الموضوعية .

وقد كان شكرى مصطفى له شخصية قوية ونفوذ مؤثر على أتباعه .. وكان يهيمن عليه هو نفسه مزاج عصبى جعل معاييره ذاتية خالصة .

من ناحية أخرى فإن فكرة رفض أقوال الأئمة (أئمة المذاهب) ورفض الإجماع والقياس هى أفكار معقولة وقابلة للدراسة ، ولم ينفرد بها شكرى مصطفى .

– إن كل الظاهرية (داوود وابن حزم) يرفضان القياس ..
ومن أئمة المسلمين من قال إن أول من قاس هو إبليس !..
ومن أئمة المسلمين من رفض الإجماع ..

ولكن من يتصدى لهذا لابد أن يمضى سنوات وسنوات فى الدراسة والتمحيص خاصة إذا لم يكتف بالنقد بل إذا أراد أن يضع بديلا فيجب عليه أن يتثقف ثقافة عميقة فسيحة ويعيش عمرا طويلا .

ونحن أنفسنا نضع خطوط «فقه جديد» يستبعد منه القياس والإجماع ، ولكننا نفعل هذا بعد خمسة وأربعين عاما متصلة فى الدراسة والبحث منذ أن ظهر أول كتاب لنا عام ١٩٤٥ ، وبعد أن جاوزنا السبعين من العمر .

وأفكار التكفير ، وإقامة الخلافة ... كلها أطياف من الهوس والهذيان ..

وقد فهمت سلطات الأمن نفسية شكرى مصطفى ونقط الضعف فيه والعوامل المؤثرة عليه ، وتبينت أن المبدأيه المزعومه والتى هى طابع دعوته إنما هى دلالة على السطحية ووسيلة ليحكم بها السيطرة على أتباعه .

أما فى الحقيقة فإنه على نقيض شدته وتعصبه وشنآن عداوته مساوم لايرفض أى صفقة إذا تصور أنها تحقق مصلحة .

وقد توصلت سلطات الأمن إلى هذا إما عن دراسة لنفسيته أو نقلا عن بعض أعوانها الذين غرستهم فى صحابته .

وجاءت أول إشارة إلى هذه الطبيعة عندما سأل شكرى مصطفى أحد صحابته : هل لو وجد اليهود [الذين يسيطرون على العالم فى رأيه] مصلحة لهم فى إقامة الخلافة فهل يقيموها .. فرد عليه : إنهم إذا وجدوا الرجل الذى يحقق لهم أغراضهم عن طريق الخلافة فإنهم يقيموها ..

ومن هذه الفكرة نبتت فكرة : **«العمل من خلال خطة العدو» .. وتضخمت حتى** وصلت إلى مستوى «الحسابات الدقيقة للمصالح المشتركة بين الجماعة المسلمة وبين الجاهلية» ، وأنه إذا كانت هناك عملية يمكن أن تقوم بها الجماعة بالاشتراك مع العدو بحيث تكسب الجماعة ٥٤٪ فيها ويكسب العدو ٤٦٪ منها فيجب أن تؤدى !..

وعندما حاول أحد الأعضاء الاعتراض وإيضاح أن هذه لن تكون سوى صفقة خاسرة ، فضلا عن مخالفتها لأسس الجماعة التى ترفض التعاون مع الجاهلية ، وأنهم فى النهاية سيستثمرون قال أحدهم : **«قبلنا أن نُسْتثمر .. قبلنا أن نُسْتثَمر !»**[1] .

وكان الطعم الذى قدمته السلطات أنها فى حاجة لمثل هذه الهيئة التى تدعو إلى الهجرة وتصرف الشباب عن المناهج الانقلابية ، وأنها مستعدة لدفع تعويض عما نال أعضاءها فى الماضى وطلبت إليهم رفع قضية للحصول على التعويض المناسب ، وفى مقابل ذلك يقوم شكرى مصطفى وصحابته بالقضاء على بقية «الفنية العسكرية» خاصة بعد أن أوقعت بينهما فتنة .

وبهذه الطريقة شنت الجماعة حملة على عناصر معينة فى المعصرة

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩ .

والإسكندرية .. وقبض إثر هذه الغارة على سبعة عشر من أعضائها البارزين ؛ ولكن هذا لم يثن الجماعة عن أن تمضى فى خطتها لتقع فى الطعم الأكبر ..

هذا الطعم هو اختطاف الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف الأسبق والشيخ العالم الجليل ، ومطالبة السلطات بمبلغ مائتى ألف جنيه والإفراج عن المسجونين ..

وكان الشيخ الذهبى على وجه التعيين هو آخر من يجوز لهذه الجماعة المساس به لأنه كان أحد العاملين على إصلاح جهاز الدعوة والدعاة والمنتقدين للوسائل التى تقوم عليها ..

ولكن كان هناك عامل غلب على أى عامل آخر لدى شكرى مصطفى ذلك هو رغبته المحرقة فى «البلاغ» .

أى توصيل دعوته وفكرها إلى الجماهير بأى ثمن ..
ويمكن لعملية الاختطاف أن تحقق له هذا ..

وبالفعل فإن كل أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون ؛ لا فى مصر وحدها بل فى العالم كله أذاعت النبأ ، وتحدثت بالفعل عن هذه الجماعة :

ولكنها تحدثت عنها كعصابة مهووسة .. مجنونة ..!! خاصة بعد أن قتلوا الشيخ وعذبوه فيما قيل ..

وقد أكد هذه الفكرة (فكرة أنَ اختطاف الشيخ الذهبى كان لكى يتم البلاغ !!) أحد صحابة شكرى مصطفى المقربين[١] ..

فهل هناك سفاهة أكثر من هذه السفاهة ؟!

إن شكرى مصطفى فى فعلته تلك أسوأ من مجنون الشهره الذى أحرق المعبد لكى يشتهر ، فقتل إنسان .. أسوأ من إحراق معبد .

الغريب والذى يصور مدى انفصام شخصية شكرى مصطفى وغلبة الهوس على عقله أنه كلف أحد أتباعه بكتابة بحث عن الإخوان جاء فيه أن حسن البنا ماسونى !..

---

(١) المرجع السابق ص ١١٤ .

وقدم شكرى مصطفى هذا البحث بكلمة اتهم فيها «بالخيانة العظمى» ! قادة الإخوان المسلمين الذين قادوا رجالهم إلى التهلكة وفرطوا فى أعناقهم وأسلموهم لجلاديهم والمشانق والسجون .

فهل تذكر شكرى ذلك عندما أودى بنفسه وبخاصة رجاله إلى المشنقة يوم التاسع والعشرين من مارس عام ١٩٧٨ م .

وطويت صفحة «جماعة المسلمين» التى رأت أنها دون بقية الهيئات هى التى تمثل «الإسلام» ، ويغلب أن تكون كل هذه الهيئات أقرب منها إلى الإسلام

ب – القطبيون
وكتاب معالم فى الطريق

يمثل «الفطبيون» كما أطلق عليهم تيارا فكريا نبع فى الإخوان المسلمين ، وقد ينسبه البعض إليهم ، كما قد يراه البعض انحرافا عن فكر الإخوان المسلمين كما عرضه مؤسسها ..

ولكن القطبيين لا يمثلون تشكيلا أو تنظيما له قيادة وعضوية ..

وإن كان الشهيد سيد قطب كان المرشد الروحى لمجموعة من الإخوان فى الستينات ..

وكانت هذه الواقعة هى أساس محاكمات عام ١٩٦٥ الجائره ، التى حكم فيها على زعماء هذا التيار وسيد قطب نفسه بالإعدام .

ولكن عدم وجود تنظيم لاينفى وجود «كتاب» يمكن أن يقدم الإلهام الفكرى والنظرى لتنظيم ما هو كتاب : «معالم فى الطريق» .

ولما كان سيد قطب – رحمه الله – كاتبا محترفاً ، فإن صياغة الكتاب جاءت بصورة يمكن أن تكون ملهمة بصرف النظر عن سلامة المضمون ..

وهذا المضمون يقوم على أركان ثلاثة كانت الجماعة الإسلامية هى التى قدمتها وهى :

العبودية لله ..

والحاكمية الإلهية ..

والجاهلية ..

فليس فى هذا المضمون جديد ، ولكن الجديد هو تقدبمه وصياغته والبرهنة عليه . لا بأدلة منطقية أو علمية فهذا ما يستبعد فى مثل هذا الكتاب ..

ولكن بأدلة «نقلية» .. أو من الإيمان الذى تملك المؤلف فصاغه وتيفة ملتهبة ..

والنقد الرئيسى الذى يوجه لفكرة «الحاكمية الإلهية» – وهى واسطة العقد فى فكر سيد قطب – هو أنها تجريد للعقيدة عن مضمونها العملى ، واعلاء لهذا التجريد ، بحيث يأخذ معنى آخر يختلف عن المعنى الذى تقدمه العقيدة فى مضمونها العملى .

«فالحاكمية الإلهية» دعوى جذابة تبدو وكأنها ثورة كاسحة ، وتغيير شامل ..

فإذا قلنا : وماذا تعنيه الحاكمية الإلهية «عملياً» ؟ أو : كيف يمكن لها أن تحقق ثورتها الكاسحة ؟ لما وجدنا شيئا فى مائتى صفحة من صفحات «معالم فى الطريق» إلا هذه السطور :-

«ودين الله ليس غامضا ومنهجه للحياة ليس مائعا فهو محدد بشطر الشهادة الثانى «محمد رسول الله» فهو محصور فيما بلغه رسول ﷺ من النصوص فى الأصول ، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ، ولا اجتهاد مع النص ، فإن لم يكن هناك نص ، فهنا يجىء دور الاجتهاد ، ومن أصوله المقررة فى منهج الله ذاته ، لاوفق الأهواء والرغبات : «فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول» (النساء ٥٩) .

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك – ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة – فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه هذا شرع الله ،.. إلا أن تكون الحاكمية العليا لله ، وأن يكون مصير السلطات هو الله سبحانة لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أى البشر» انتهى .

فإذا كان هذا هو دين الله ومنهجه فى الحياة على ماقال فإن كل الفقهاء المسلمين السلفيين يقولونه ، وليس فيما جاء به أى تجديد .

بل من الفقهاء من عرضوا القضية بأفضل من هذا ..

والنتيجة العملية : أن ليس فى كل الحماسة والعاطفة والثورة أى إضافة أو تجديد عن المذهب الإسلامى التقليدى ..

وقد يسأل سائل : إذا كان الأمر كذلك فلماذا ننقد فكره ؟..

السبب : أنه لم يشر إلى هذا التطبيق التقليدى إلا خلال عشرة سطور وسط مائتى صفحة ، وأما الباقى كله فكلام يوحى بأن تطبيق الحاكمية غير ذلك البته ..

وإلا فلماذا لم يكف نفسه مؤونة الحديث الطويل ، إذا كانت النهاية هى هذه النتيجة .

إن «الحاكمية الإلهية» لأنها «شعار» و «تجريد» يمكن أن توحى بما هو أكثر ، بل بما هو خلاف ما انتهت إليه عندما اضطر للحديث عن الفحوى والمضمون .

وعمليا فإن كلمة «الحاكمة الإلهية» كانت وراء استغلال الدهاة .. وضلال السذج : فقد استغلها أدهى الدهاة عمرو بن العاص عندما رفع المصاحف على أسنة الرماح ليعلى باطل معاوية على حق على . وانخدع بها الخوارج فخذلوا عليا وهو أتقى النقاه ومكنوا معاوية من الانتصار بحجة «لاحكم إلا لله» .. «حكمت الرجال فى دين الله» !! .

وعندما بعثت هذه القالة تكررت المأساة واستغلها بعض الأفراد الأذكياء للسيطرة على شراذم من السذج وتحكموا فيهم ..

لأن القالة لاتتضمن حدودا عملية تحكمها ..

وإذا كان الخوارج الذين أطلق عليهم القرّاء – لمواظبتهم على قراءة القرآن ، ومواصلة الصلاة – انساقوا لقتل أحد الصحابة وبقر بطن زوجته .. فى الوقت الذى تورعوا فيه عن أكل رطبة ساقطة من نخلة !!! .. بدعوى هذه القالة فليس من العجب أنها دفعت مهووسا بها لأن يطلق مسدسه فى عين أحد الشيوخ الأجلاء ...

فإذا كانت الشعارات من نوع «الحاكمية الالهية» .. «العبودية لله» تكسب الجموع وتثير الحماسة فإنها عمليا لاتعنى إلا الضلال والانحراف عندما يأتى الأمر للتطبيق . ولو انتصرت دعوة سيد قطب رحمه الله لأوجدت أسوأ الطغاة الذين يفرضون ضيق الأفق والغباء والتعصب و «اللاعقل» على الناس جميعا .

وإذا كانت «الحاكمية الإلهية» تعنى : تحريم ماحرم الله ، وتحليل ما أحل الله ، والحكم بما أنزل الله .. فمن الخير أن يقال هذا .

قد قالتها أم الدعوات الإسلامية فى العصر الحديث «الاخوان المسلمون» فى مقدمة شعاراتهم «الله غايتنا .. القرآن دستورنا .. الرسول زعيمنا» .

وقد قالتها الجماعة الاسلامية بمنهجية وتحديد فى لائحة نظامها الاساس التى اوردناها من قبل [أنظر الصحفات من ٤٨ الى ٥٣] .

كما أنه هو الذى يقول به كل الفقهاء المسلمين بلا استثناء ..

وقالة أخرى مضلة هى «العبودية لله» فما المقصود بها عمليا ؟..

لأنها عقيديا ليست محل خلاف ..

فإذا أريد بها ألا يكون هناك أرباب من البشر يحلون ويحرمون .. فهذا ماتضمنته دعوة الاخوان وماأشرنا إليه .

وإذا كانت تعنى ألا يكون هناك «شفاعة» أو «ولاية» مع الله .. فهذا ما قالته الوهابية وماأقامت عليه دعوتها ..

وإذا كانت تعنى أن تتأصل فكرة العبودية فى النفوس وتتغلغل فيها وتكون دائما نُصْبَ العيون .. فهذا شىء أقرب إلى الرجاء مما هو إلى التحقيق ؛ لأن الله تعالى أوجد فى نفوس البشر مايشغلها من شهوات وغرائز ، وسلط عليها الشياطين ، وحرمها من نقاء وصفاء الملائكة ..

وقد استشعر هذا المعنى الصحابى حنظله وظن أن النفاق قد تطرق إليه فذهب إلى الرسول ﷺ ، وفى طريقه قابل أبا بكر الذى سأله عن حاله فقال : «نافق حنظله» ولما استفهم منه أبو بكر عن الحقيقة ذكر له أنهم يكونون عند رسول ﷺ وقد تملكهم التقى ثم يئوبون إلى زوجاتهم فتتملكهم الشهوات ، وعندئذ أقر أبو بكر بأن هذا مايحدث له ، فذهبا إلى رسول الله ﷺ وعرضا عليه الأمر فقال : «لو تكونون عند أهلكم كما تكونون معى لصافحتكم الملائكة ! ولكن ساعة .. وساعة ..» .

وليس ماهو أكثر دلالة من هذا الرد المعجز البليغ ..

فالنفس الإنسانية لايمكن أن تخلص تماما من شواغل الدنيا ..

وحسبها أن لاتبعد عما سنه الله تعالى لها ..

أو أن توجه مشاغلها لخدمة الأهداف الإسلامية ..

وهذا هو ما كان يحدث لعمر بن الخطاب عندما كان يحسب فى صلاته «عطاء البحرين» ، وقيادة الجيوش .. إلخ مما كان يهيمن على نفسه من قضايا المجتمع الإسلامى .

ولم أجد فى كتاب «معالم فى الطريق» بأسره إشارة واحدة إلى «العقل» !..

وهى سمة يتسم بها دعاة «الحاكمية الإلهية» ..

أما العلم ؛ فإن الإشارة التي تضمنها الكتاب : هل نحن أعلم أم الله تعالى !، ﴿والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾ .

أما الآية : ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذيين لايعلمون ؟﴾ التى يحتج بها أنصار العلم ، فإنه أعادهم إلى صدر الآية : ﴿أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل : هو يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟! إنما يتذكر أولو الألباب﴾ [الزمر : ٩] .

فنسفت حجتهم نسفا ..

أما الشعب ، فقد صب عليه جام غضبه ، ورفض أن يكون له من الأمر شيء .. لأن الأمر كله لله ..

ونتيجة لهذه التصورات عرض لنا سيد قطب مجتمعين :

مجتمع إسلامى .. ومجتمع جاهلى .

ولاتوسط بينهما :

وكل المجتمعات الحديثة - إسلامية وغير إسلامية - جاهلية .

لأن المجتمعاتُ الإسلامية لاتحقق عمادىَ دعوته : الحاكمية الإلهية .. والعبودية لله .

فهى جاهلية .. حتى وإن ادعت الإسلام ..

★ ★ ★

إن هذه الأحكام الساذجة : المسطحة .. المتعسفة .. ليس لها نصيب من الحقيقة والواقع . لأن المجتمعات الإسلامية .. وإن تخلفت فعلا عن اتباع كثير من التوجيهات الإسلامية الرئيسية - فلا يمكن الادعاء أنها جاهلية .. ولايمكن القول إنها كافرة .. ولايمكن أن نجردها من الإسلام .

أما المجتمعات الأوروبية التى ندمغها بوصمة الكفر والجاهلية .. فهل أحسنا دعوتها إلى الإسلام ؟! هل بلغناها الدعوة بمثل مابلغ محمد ﷺ الدعوة لعرب مكة وبمثل الأسلوب الحكيم الرصين ، المثابر ، المتصل ، الذى اتبعه ؟!..

يحضرنى فى هذا الصدد إجابة الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله عندما سأله أحد الإخوان : «هل سيحشر كل هؤلاء الأوروبيين الكفرة فى جهنم» .

فرد عليه الإمام البنا قائلا : «لا أدرى هل سيحشرون فى جهنم أم سنحشر نحن لأننا قصرنا فى تبليغهم دعوة الإسلام» ..

ونحن أول من يندد بما اتسم به الحكم الأوروبى من وحشية ، ولكن عندما نتحدث عن «الوقائع» وليس عن «المذاهب» فإن المجتمعات الإسلامية لم تخل أيضا من كثير من اللوثات التى نعيبها على المجتمعات الأوروبية ..

وإذا كان الحكم السياسى الأوروبى قد خضع لضراوة الأستعمار أو نَهَم الرأسمالية ، فإن بعض المثل والقيم لهذه المجتمعات سليمة وحسنة .

ومن الظلم أن نحكم عليها ببعض صور الانحراف والشذوذ التى تنقلها الصحف ، والتى لاتمثل صميم هذه المجتمعات وأغلبية الناس ، إلا كما تمثل السينما المصرية المجتمع المصرى .

وقد خضع المجتمع البريطانى فى حكم الملكة فيكتوريا لصور من التزمت الخلقى تشبه مايفرضه الوهابيون على الناس ..

إن المسلم الذى تشرب روح الإسلام ، التى تقوم أول ماتقوم على العدالة ، والتى تلتزم بتوجيه القرآن : ﴿ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلو هو أقرب للتقوى﴾ لابد وأن يعترف بالمآثر الباهرة للحضارة الأوروبية وعلومها وفنونها واكتشافاتها واختراعاتها والألوف من المفكرين والعلماء والفلاسفة والأدباء ..

إن النظر إلى مايسود العلاقات من ضبط ودقة وصدق وأدب واحترام وإعلاء كرامة الفرد يوحى أنهم يطبقون مبادىء الإسلام المفقوده عندنا و ما أخطأته معظم النظم السياسية التى تدّعى الإسلام .

فالمواطنون هناك آمنون من أقل افتيات عليهم ، لايزعجهم تدخل السلطة ، ولايعرفون «زائر الفجر» ولا يُمَسْ أى واحد بسوء إلا إذا انتهك القانون ، وحتى فى هذه الحالة لاتساء معاملته ولايجرد من لقبه ، ويُلقن إن كان ماسيقوله يمكن أن يؤخذ عليه .

ويمكن أن يقاضى الدولة إذا أساءت إليه ..

وكل شخص يمكن أن يعارض النظام السياسى أو يصدر صحيفة أو يكوّن حزبا أو هيئة أو نقابة .

ناهيك عن خدمات الرعاية الطبية والصحية التى تقدم مجانا أو شبه مجان لمواطنيها ويحرص كثير من الشيوخ على الاستفادة منها ويسافرون إلى أوروبا أو أمريكا للعلاج على أيدى هؤلاء «الكفرة» .

فهذه كلها صور من التقدم يتعين علينا الاعتراف لأوروبا بها ، ويكون علينا أن نشكرها لهم لأننا استفدنا منها وانتفعنا بها ..

ولا يخالجنا أقل ريب فى أن دعوى : «الحاكمية الإلهية» .. «الجاهلية» ..

«العبودية لله» بمثل ماعرضها سيد قطب إنما هى صورة من صور الانحراف فى الدعوات الإسلامية .

إن الإسلام على نقيض مايصورونه : فسيح ، ومرن ، ويقوم فيما يقوم عليه على العقل ، ويستصحب فيما يستصحبه الشعب .

وأى دعوة إسلامية تتجاهل العقل والشعب والحرية فإنها تعمل لحساب الجهل وتقع تحت رحمة الغباء والاستغلال .

وقد حدثت المأساة لأن سيد قطب – رحمه الله – كاتب وفنان وأديب يصدر عن عاطفة وخيال ..

وقد كانت محنة الإخوان أيام الملك فاروق لاتزال ماثلة ، وسياسة قادة الانقلاب العسكرى مبهمة ، فلعله أراد أن يوجههم أو يحذرهم ..

فأطلق قلمه السيال ، وسخر خياله الجياش للحديث عن مجتمع يبرأ من الشرور ولما لم يكن رجل العمل والعلم ، ولكن الأدب والفن فقد شط به إلى عالم أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع .

وقد كان خيراً لسيد قطب لو أنه كتب فى الصور القرآنية كما فى : التصوير الفنى فى القرآن» و «مشاهد القيامة فى القرآن» أو سخر نزوعه للمثل الأعلى لمثل مافعله فى «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» .

وعندئذ كان من الممكن أن يصدر لنا كتابا عن «الديمقراطية فى الإسلام» لعله يتناقض تماما مع ماذهب إليه فى دعوى «الحاكمية» .

بل لقد كان من المحتمل لو أنه دخل مجال الدعوة الإسلامية فى غير الظروف

المأساوية التى تعرض لها والتي فرضت الغشومة والجهالة العسكرية على البلاد أن يكون داعية للجهاد الإسلامي بالقلم ، ورائدا لنشر الفكر الإسلامى بالكتابة .

إذ لن يدق عليه وهو الذى عاش مع القرآن لفترة طويلة توجيه القرآن للرسول :

«.. **وجاهدهم به**» أى بالقرآن .. أى بالكلمة ، والفكر ، والبرهان ..

وماكان أسهل عليه أن يكتشف أن رسالة الإسلام قامت على : «الكتاب والميزان» أى العلم والعدالة ، وأن دور السيف إنما جاء فى ظرف خاص فحسب .

وكان من الممكن لسيد قطب – رحمه الله – وهو من رواد النقد الأدبى أن يفعل مثل ما فعل الشاعر الناقد س . إليوت الذى تبنى دعوة مماثلة تماما لدعوة سيد قطب :

دعوة ترى أن المجتمع الأوروبى مجتمع وثنى ، وأن المجتمع المنشود هو المجتمع المسيحى وهو يعنى بالمسيحية : «تجسيد شريعة الله على الأرض» .

ويقول بحث عنه : «إن قضية إليوت متبلورة فى فكرة واحدة : الدينى ضد العلمانى ، أو المسيحية ضد العلمنة ، وهو يقسم العالم قسمين : عالم مسيحى ، و عالم وثنى .. والاشتراكية والرأسمالية لديه سواء ، وهو يرى أن الأدب الحديث قد أفسدته العلمنة ، ويدعو إلى وضع معايير نقدية تختلف عن المعايير الموجودة ، وتنبأ إليوت بالسقوط الحتمى للحضارة اللامسيحية ، والانتصار الساحق للمسيحية .. ولاتنال منه مظاهر التقدم ، لأن قوى الضبط والربط تتهاوى وبالتالى ينفسح المجال للتفسخ والتحلل»[١] .

★ ★ ★

كان من الممكن لسيد قطب – رحمه الله – أن يسلك هذا المسلك ، وأن يسلخ بقلم كالموسى تلك المهازل الأدبية والفنية .

وكان يمكن أن يضع معايير للنقد الأدبى والفنى مستلهمة من الإسلام ..
ولكن الأمر ليس بأمانينا ..
وقد أراد الله لسيد قطب أن يظفر بتاج الشهادة ..
وأن يرجح هذا خطأه فيما أراد به خدمة الإسلام .

---

(١) مجلة أدب ونقد العدد ٢١ (ابريل ومايو ١٩٨٦) ص ١٢٧ : بحث بعنوان : «المطلق فى فكر س . إليوت) بقلم د . منى أبو سنه .

ج - جماعـات الجهـاد
وكتاب «الفريضة الغائبة»(*)

اشتهرت جماعة الجهاد عندما نجح خالد الاسلامبولى وزملاؤه فى اغتيال السادات وسط حرسه وفى إحدى مناسبات الاحتفال واستعراض القوة .

وبقدر ما رزق هذا الحدث من إذاعة ونشر لما اتسم به من جرأة وشجاعة و «دراماتيكية» ، ولما انتهى إليه من مصرع «آخر فراعنة مصر» وصاحب «الصدمات والتحولات» .. إلخ بقدر ماذاع وانتشر الحديث عن جماعة الجهاد ، .

وسالت أنهار الصحف أحاديث بعد أحاديث عن هذه الجماعة وشيخها الكفيف عمر عبد الرحمن وكتابها الغامض : «الفريضة الغائبة» الذى اعتبر ونيفة إعدام السادات ووضعه المهندس محمد عبد السلام فرج .

ولم يعرف عن جماعة الجهاد أو عن الفريضة الغائبة شىء يذكر قبل حادث «المنصه » كما أطلق عليه .

لأن الجماعة نفسها أحرقت نسخ الكتاب ، ولم يبق منه إلا نسخ معدودة ، ضمت إحداها إلى أوراق التحقيق فى قضية اغتيال السادات ..

وتمكن بذلك المحامون من الاطلاع عليه .

وقدمت إلينا إحدى دور النشر صورة الكتاب المأخوذه من أوراق التحقيق .

وطلبت أن نعلق عليه ونشرته فى كتاب باسم «الفريضة الغائبة جهاد السيف أم جهاد العقل»[1] ..

(★) الحديث فى هذا الفصل هو عن جماعة الجهاد فى مصر ، ولا ينطبق بالصرورره على هيئات أخرى تحمل الاسم نفسه .

(١) جهاد السيف ام جهاد العقل - جمال البنا دار ثابت القاهرة .

وتعرض تعليقنا عندما طبع لمضايقات ، أدت إلى حذف الكثير منه .، وظهرت اثار ذلك فى عدم انتظام السياق ، وماتحلل الصفحات من بياض ..

وقلنا فى مقدمة الكتاب :

«غفر الله لصاحب «الفريضة الغائبة» لقد أحاطت به وتحكمت فيه فتنة يضل فيها العليم ، ويضيق بها الحليم ، وتنبهم فيها المعالم ، وتنمحى المراسم .. فلا عجب إذا زلت الأقلام وطاشت الأحلام .

ومن قبل قتل لفيف من المسلمين «عثمان» وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ،

وكفروا عليا ، وهو من هو ، وتقربوا إلى الله بدمه !..

وقد كان العهد قريبا بالنبى ﷺ والقرآن غضا طريا والألفة والمحبة أقرب إليهم وأمثل بهم ..

ومن أجل هذا فإننا كرجال فكر نتصفح التاريخ ، ونستعرض الأحداث فى القديم والحديث لانرى فيما رآه صاحب الفريضة الغائبة ، وما انتهى إليه إلا فصلا من مأساة التعقيد الاجتماعى عندما تتراكم الأخطاء ، وتتشابك التصرفات من حل سقيم أو إرجاء عقيم ..

ولايعد هناك إلا القطع ..

ونحن نعذره ، ونلتمس له المغفرة ، ولانرى فيما ذهب إليه فكره - على خطئه - شرا محضا ، ولا فى سبيله - على شططه - سوءا خالصا .

وإن كنا نختلف معه جملة وتفصيلا ، ونؤمن أنه لوقدر له ولجماعته النصر لاستحلوا دماء كل معارض ، ولأخرسوا أصوات كل مخالف ولما رأوا فيه إلا فاجرًا كفارًا .

ولكننا نستلهم أدب الإسلام وتوجيهه : «صل من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك» .

كما نؤمن بحرية الفكر ، وحق كل كاتب فى أن يكتب مايمليه فكره كائنا ما كان» .

وليس فى كتاب الفريضة الغائبة إلا القليل جدا الذى يعد جديدا على فكر جماعات الرفض فهو يضم - تقريبا - مقدمة وثلاثة فصول ..

ففى المقدمة يشير الكتاب إلى أهمية الجهاد وأنه : «السبيل الوحيد لعودة ورفع صرح الإسلام من جديد» وأن : «طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف» وان الاسلام مقبل ، وأنه سيفتح روما كما فتح الفسطنطينية ».

وتبدأ الفصول وهى باختصار -

الفصل الأول :

يعالج الفصل الأول «إقامة الدولة الإسلامية» وهذه الإقامة «فرض أنكره بعض المسلمين وتغافل عنه البعض» والكتاب يثبت وجوب إقامتها بأن الدولة الإسلامية هى أداة الحكم بما أنزل الله ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب ولاخلاف أن الحكم بما أنزل الله واجب ..

ويرى الكاتب أن إعلان الخلافة الإسلامية يعتمد على وجود النواة وهى الدولة الإسلامية . ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية .

ويتساءل الكاتب «هل نحن نعيش فى دولة إسلامية» ويرد بفتوى للإمام أبى حنيفة وبعض أصحابه حول دار الإسلام ودار والكفر ، ويجزم بأن «الأحكام التى تعلو المسلمين هى أحكام الكفر ، وضعها كفار وسيروا عليها المسلمين» وأن حكام المسلمين فى ردة عن الإسلام «لأنهم تربوا على موائد الأستعمار سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية ، فهم لايحملون من الإسلام إلا الأسماء ، وإن صلوا وصاموا وأدعوا أنهم مسلمون وقد استقرت السنة على أن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلى . وأن علماء المسلمين قد اتفقوا على أن الطائفة إن امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها إذا تكلموا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلاة والزكاة وصيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق ..» .

ويجرى الكاتب مقارنة بين التتار وحكام اليوم يستشهد فيها بكلام لابن تيمية فى هذا الصدد . بل هو يورد «مجموعة فتاوى لابن تيمية فى هذا العصر» تتضمن حكم مساعدتهم ، وحكم الجنود المسلمين الذين يرفضون الخدمة فى جيش التتار ، وحكم أموالهم ، وحكم قتالهم ، وأن قتالهم ليس قتال بغى وحكم من والاهم من المسلمين ، وحكم من يخرج للقتال فى صفهم مكرهاً إلخ ...

الفصل الثانى :

يعرض الفصل الثانى «آراء وأهواء» بعض الآراء «لإزالة هؤلاء الحكام وإقامة حكم الله» ويفندها ، فهناك من يرى إقامة الجمعيات الخيرية ، أو يفضل الأنشغال بالطاعة والتربية وكثرة العبادة ، أو إنشاء حزب إسلامى ، أو الاجتهاد للحصول على المناصب بحيث تملأ المراكز بالطبيب المسلم والمهندس المسلم إلخ .. ومنهم من يقول إن الطريق لإقامة الدولة هى الدعوة فقط وإقامة قاعدة عريضة ، وهناك من يرى الهجرة أو الانشغال بطلب العلم ..

والكاتب يفند هذه المذاهب كلها بمختلف التأويلات .

الفصل الثالث :

يدلل الفصل الثالث على أن «أمة الإسلام تختلف عن الأمم الأخرى فى أمر القتال» ومفتاح الفصل أن «هذه الأمة تختلف عن الأمم الأخرى فى أمر القتال . ففى الأمم السابقة كان الله سبحانه وتعالى ينزل عذابه على الكفار . وأعداءَ دينه بالسنن الكونية ، كالخسف وَالغرق والصيحة والريح . وهذا الوضع يختلف مع أمة محمد ﷺ . فالله سبحانه وتعالى يخاطبهم قائلا لهم ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخذهم وينطركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين**﴾ أى أنه على المسلم أولا أن ينفذ الأمر بالقتال بيده ، ثم بعد ذلك يتدخل الله سبحانة وتعالى بالسنن الكونية ، وبذلك يتحقق النصر على أيدى المؤمنين من عند الله سبحانه وتعالى .

وبصدد تفصيل ذلك . يشير الكتاب إلى «الخروج على الحاكم» وهو يستشهد بما ذهب إليه ابن تيمية «كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين» . ثم يناقش الفصل نقطة هامة هى «التفرقة بين العدو القريب والعدو البعيد» – وبعبارة أخرى أيهما أولى بأن توجه إليه الحرب أولا الاستعمار .. أو الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ؟ وهو يرى الثانى . ويرد الفصل على من يقول «إن الجَهادَ فى الإسلام للدفاع فقط» وإن الإسلام لم ينتشر بالسيف ويرى أنه «قول باطل» ويستدل على ذلك بخطابات النبى ﷺ إلى الملوك وكذلك بآية السيف التى نسخت ١١٤ آية من آيات الموادعة والصفح والسماح ..

ويفند الفصل بعض الدعاوى التى تثبط عن القتال كدعوى أننا نعيش فى مجتمع مكى ، ويرى أن «القتال الآن فرض على كل مسلم» وأن الجهاد مراتب وليس مراحل . أما خشية الفشل فإن الله تعالى يعدنا بالنصر وادعاء عدم وجود القيادة يستدرك بأن توكل إلى الأحسن إسلاماً ...

وفى صدد تعزيز موضوع الفصل يورد الكتاب فقرات عن البيعة على القتال أو الموت والتحريض على الجهاد فى سبيل الله ويرد على بعض الشبهات الفقهية كوجود جنود مسلمين فى جيش العدو ولو من باب الاسكراه بما ذكره ابن تيمية .

وينقل الفصل فقرات عن الأساليب القتالية مثل «مخادعة الكفار من فنون القتال فى الإسلام» ويورد أمثلة تاريخية للمسلمين ، وجواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير إنذار ، وجواز تبييت الكفار ورميهم .. وقطع أشجارهم وقتل ذراريهم إلخ .. ويختم الفصل بنقل مختصر لأحمد والبخارى وأبى داود عن تنظيم الجيش المسلم ..

* * *

من هذا العرض لكتاب «الفريضة الغائبة» يتضح أنه ليس فيه جديد عن مفهوم جماعات الرافضة الجديدة ..

فهو – مثلا – يهيم بالخلافة ويرى أنها ركن من أركان الإسلام . «فمن مات وليس فى عنقه بيعه مات ميته جاهلية» .

والكتاب يكفّر المجتمع الحديث كبقية جماعات الرفض ..

ويرفض صور العمل الإسلامى البديلة كاقامة الجمعيات الخيرية ، أو التربية .. إلخ .

وهذا ماانتهى إليه قبلهم حزب التحرير ، وأشرنا إليه ..

وربما كان الجديد فى الفريضة الغائبة هو تعميق قضية «الخروج» على الحاكم ، وأن «الحكام المسلمين أولى بالقتال من المستعمرين» .

ولا يتسع المجال لتفنيد هذه الدعاوى ، فهذا ماقمنا به فى الكتاب ، وحسبنا الإشارة إلى النقطة الرئيسية فى جماعات الجهاد وهى «الجهاد» :

فحتى لو قصرنا التعبير على أضيق معانيه وهو «القتال» ..

فهل يتصور استخدام القتال للقضاء على الحكام الذين لايحكمون بما أنزل الله !..

هل سيمكن لأى هيئة أن تؤسس جيشا كجيش الدولة فيه دبابات ومدافع وطائرات ؟!

أو هل سيأخذ القتال شكل الاغتيالات ؟..

إن أى دارس لتاريخ الحركات السياسية يتبين استحالة تكوين جيش .. ويتبين كذلك عقم أسلوب الاغتيالات ..

«فالقتال» لايجدى كأسلوب فى اقتلاع الحكام البغاه ..

وإذا أرادو أن يتجهوا بقتالهم نحو الكفره ، وأن يفتحوا روما ..

فهل سيمكنهم تحقيق الانتصار بالسيف فى عصر الصواريخ والطائرات .. إلخ ..

إذا أرادوا حقا الانتصار فعليهم أن يدرسوا «التكنولوجيا» الحديثة ، وأن يعكفوا عليها ..

وأن يعلموا أن النصوص وحدها والعكوف عليها دون العمل لن تفيدهم فتيلا ، وإنما تفيدهم علوم واكتشافات الأوروبيين والأمريكان الكفره وأهل الجاهلية .

★ ★ ★

مع إن هذه الكلمات المحدودة تكفى لنسف فكر جماعة الجهاد ، فإن الجماعة واصلت البقاء ! ..

واكتسب شيخها (الشيخ عمر عبد الرحمن) الذى أفلت من قضية اغتيال السادات شهرة مدوية ..

لأن العملية عملية مناخ يتغذى على الأخطاء ..

ولأن فساد النظم لايقل عن فساد الأفكار ..

وماظلت النظم الحاكمة فاسدة ، تتسلح بالإرهاب والديكتاتورية فستظهر أمثال دعوات الرفض على اختلاف صورها ..

رغم ماتتسم به من بطلان ..

لانها رد فعل للفساد ، والفساد لايولد إلا فسادا ..

لحق بالفصل الرابع
أزمة الرافضة الجديدة

اوقعت الرافضة الجديدة - بتياراتها الثلاثة (القطبية - التكفير والهجرة - الجهاد) نفسها فى مأزق لم تجد طريقة للخروج منه . فقد رفضت النظم والاوضاع القائمة ، وكفرت بها جميعاً .. الديمقراطية . الاشتراكية . البرلمانات . النقابات . الفنون . الاداب الخ .. فسدت على نفسها المنافذ واصبح وضعها حرجاً فكيف تتصرف - عمليا - ازاء هذا المجتمع الجاهلى - الكافر :

تتقبلـــــــه ؟ بالطبع لا مادامت قد حكمت عليه بالكفر والجاهلية .

تصلح فيه ؟ هذا مستبعد . لانها مادامت قد حكمت عليه بالكفر والجاهلية ، ورفضته ، فلا معنى للاصلاح فيه ، فضلاً عن ان فكرة الاصلاح تجافى طبيعة الرافضة الباترة كالسيف ويمكن ان تميعها وتدخلها فى دوامة الاصلاح . والتدريج . والجزئيات ..

تتآمر عليه؟ . **هذا ما فعلته بعضها . وهو سلوك ليس فحسب عقيماً وفاشلاً ولكنه يقضى عليها وينم عن «هوسها» لأنه اذا اعتقدت مجموعة من عشرين أو مائة انها تستطيع لو توفرت لديها أسلحة (مدافع وبنادق ، وحتى طائرات) ان تسيطر على دولة كمصر ، لها مؤسساتها ، فلا ريب ان هذه المجموعة قد اصيبت بما يمكن أن نسميه «هوس الجماعات» وستقضى على نفسها بنفسها ..**

تهاجر منه ؟ . هذا مافكرت فيه بعض فصائل الرافضة الجديدة والعجيب ان شكري مصطفى ارتأى ان تكون الهجرة للسعودية أو اليمن ! ولو انه اختار باريس ، أو هوليود لوجدت مجموعته حرية لممارسة عقائدها ، والدعوة لها اكثر مما ستجد في السعودية أو اليمن . وستتلقفها السعودية لتضعها في «الجب» . وعلى كل حال فهذا الحل مستبعد لمجموعات فمن الصعب عليها ان تخرج من بلدها . واصعب منه ان تدخل بلداً آخر ، ولابد ان معظم الدول ستغلق ابوابها في وجه هؤلاء المجانين ..

تتجاهله ؟ : وهذا فعلاً ما حاولته بعضها ، وما الجأ بعض المهندسين أو الاطباء

وتعتزله ؟ لان يبيعوا «بطاطا» بدلاً من ان يعملوا في وظائفهم فيعينوا المجتمع الكافر ويتلقوا مرتبات ملوثة بالربا ..

ولا يقتصر هذا الموقف على جماعة التكفير والهجرة «المتشنجة» فان سيد قطب يدعو الى اعتزال هذا المجتمع «فلا تجوز المشاركة في النشاطات السياسية كالانتخابات والاحزاب ولايجوز قبول المناصب في ظل نظام لايحكم بشرع الله ويدين بالاسلام ، بل لايجوز مداهنته او الالتقاء معه بأى صورة من الصور (راجع تفسير سورة المائدة ويوسف والكافرون في ظلال القرآن) .

☆ ☆ ☆

ولايمكن الرافضة الجديدة ان تخلص من مأزق «الوجود» ضمن مجتمع كافر جاهلي بالحل الذي اقترحه سيد قطب والذي ظن انه طريق الانبياء .. «ذلك الطريق الطويل الشاق الذي سارت فيه دعوة الاسلام في كل مرة والذي يبدؤه فرد ثم تتبعه طليعة ثم تتحرك هذه الطليعة في مواجهة الجاهلية لتعاني ماتعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكن لها في الارض ثم يدخل الناس في دين الله افواجا» في ظلال القرآن – سورة يوسف .

ذلك لان مسلك الرسول ﷺ في الدعوة وتوجيهاته لصحابته في الأيام الاولى للدعوة لم يتسم بالانعزال الذي يدعو اليه سيد قطب . وما يتبعه من رفض ومقاطعة ، ولكنه كان الايجابية والمشاركة فكان الرسول يعرض نفسه على القبائل ، ويدعو كل

من يتوسم فيه ، ويذهب الى ثقيف ، ولم يعتزل الكعبة بأصنامها ، ولكنه كان يدخلها ويصلى فيها . وكان اصحابه يعايشون مجتمعهم ، ويبيعون ويشترون ويعاملون المشركين بالخلق الحسن ، ويحسنون الى من يسيء اليهم . وكانت «العزلة» هى لُب مؤامرة قريش على المسلمين ، عندما قاطعوهم وكتبوا الصحيفة المشهورة وحصروهم فى الشعب ..

وعملياً فكيف سيمكن لهذه «النواة» أو «الطليعة» أن تؤثر على المجتمع .. وهى تقاطعه ؟ فلو ارادت ان تصدر صحيفة لكان عليها ان تتعامل مع «النقابة» و «شركات التوزيع» ودور الطبع الخ .. واذا كانت لن تلى مناصب ولن تدخل انتخابات الخ .. فكيف ستقيم جسوراً بينها وبين المجتمع – ولو لتبليغ دعوتها ؟ .

اذا ارادت طليعة أن تشق طريقها . فلا يكون ذلك بالاعتزال أو السلبية – ولكن بالمشاركة والايجاب . وقد انتشر الاسلام فى الصين وماليزيا واندونسيا والفيلبين بفضل التجار والصوفيين المسلمين الذين عايشوا هذه المجتمعات وقدموا المثل بالخلق الحسن فإما ان تعايش هذه الطليعة المجتمع .. واما ان تقنع بوضع الرهبان «فى الاديار» ..

وهناك مثل عملى وواقعى وفى مجال الدعوة الاسلامية المعاصرة ، على ذلك .

فإن أفكار الرافضة الجديدة ودعائمها الثلاث : الحاكمية الالهية ، العبودية لله . الجاهلية هى ما أنتهى إليه المودودى رحمه الله قبل ان يكوِّن الجماعة الاسلامية سنة ٤٧ وسجلها فى عدد كبير من كتبه – وبوجه خاص المصطلحات الاربعة . وترجمت هذه الكتب الى العربية وقتئذ . وكان هناك مكتب صغير فى شارع راتب باشا فى مواجهة المركز الرئيسى للاخوان المسلمين بالحلمية باسم «الشباب المسلم» تولى ترجمة كتب المودودى وعرَّف الاخوان بها . وكان هذا كله قبل الحل الأول للإخوان (آخر ١٩٤٨) وقبل ان يدخل سيد قطب مجال الدعوة الاسلامية . ولا جدال انه تعرف عليها وتأثر بها بعد عودته من امريكا فى مستهل عام ١٩٥٠ .

الشاهد فى هذا ان المودودى رحمه الله ، بحكم كونه مفكراً اسلامياً عكف على المراجع والكتب ، وأعمل الذهن والنظر (مثل سيد قطب تماما) انتهى الى دعائم الرافضة الجديدة . وكان لديه من الايمان والاخلاص مالا يقل عن ايمان واخلاص

سيد قطب . ولذلك فانه حاول فى الأربعينات ان ينفذ الفكرة التي انتهى اليها سيد قطب – إما لتوارد الخواطر أو لان المراجع واحدة .. وطريقة التفكير واحدة فداول المودودى فى الأربعينات يوجد «طليعة» تلتزم باداب الاسلام ، وتعامل المجتمع من هذا المنطلق . وقد اوردنا كلمة للاستاذ مسعود الندوى عن المتاعب ووجوه الحرج التى تعرضت لها هذه الطليعة بما فيها اعتزال وظائفهم ، أو قطع تعاملهم مع البنوك الخ [انظر ص ٤٥] ..

ولكن :

ظهر عمليا ان هذا الاسلوب غير مجدى . وان أمواج المجتمع لاتدع هذه الطليعة وشأنها فإما ان تكسحها كسحا وتطويها طياً ، أو يكون على الطليعة ان تتعامل مع هذه الامواج وتبدع القوارب التى تعلو وتهبط معها . ووجدت «الطليعة» نفسها وهى تعيش فى ثبج الامواج ، وصميم الاحداث وتشارك فى حياة المجتمع ووظائفه ، وانتخاباته الخ ..

وانتهت تلك الصفحة التى حاولها الفكر والنظر .. وطواها الواقع والعمل . وفى آخر تطور للجماعة – الذى عرضناه عن «مشروع المودودى للاجماع القومى» لاترى كلمة من «شنشنة الرافضة» التى سادت كتابات المودودى الاولى ..

وقد شاهد المودودى نفسه ، بل ونولى هو ، بدايات هذا التطوير . وقد كان من الفطنة . والذكاء بحيث رأى ان الأفكار التى أداه اليها اجتهاده النظرى عن «الحاكمية الالهية . والعبودية لله . والجاهلية» لاتتطلب إتجاهاً انعزالياً . وان الهيئة ، كهيئة عامة لابد وأن تمارس «الطرق الدستورية والقانونية للقيام بالاصلاح الذى تنشده» ثم كان من الذكاء بحيث تجاوب مع التطور الذى حول «الطليعة المنعزلة» الى الجماعة المشاركة .. ولم تفسح لسيد قطب فرصة تكوين هيئة .. حتى يجد نفسه امام ضرورات العمل التى وجد المودودى نفسه امامها . ومن هنا فان أفكاره – وحدها – ودون ملاحظة الاعتبارات العملية خاصة يمكن ان تضلل كثيرا من الناس خاصة الشباب . وتكلفهم القيام بتجربة محكوم عليها بالفشل ماظلت ملتزمة بأحكامه ..

وقد نشأت أزمة الرافضة الجديدة بتياراتها الثلاث أصلاً لأنها كانت مغرقة فى التجريد بحيث تجاهلت ضرورات العمل ، بعيده كل البعد عن العصر بحيث خفيت عليها طبيعته وواقعه . والتجريد يجب ان يحكمه العمل ، وإلا شط وأصبح نوعاً من

شطحات الصوفية أو هيام الشعراء أو هوس المهوسين وهذا بالفعل ما نجده فى بعض كتابات الرافضة ..

وسوءة التجريد انه يقدم شعارات مجهلة ، اما لان معناها غير معروف . أو لانها تحتمل اكثر من معنى ، كشعار الحاكمية الالهية . والعبودية لله .

ومن الايام الاولى للاسلام وقد ثار الصحابى الجليل ابو ذر على معاوية عندما رآه يقول عن المال العام «مال الله» ووجهه لان يقول «مال المسلمين» لانه عندما يقول هذا يتعين من هم أصحاب المال وينغلق باب التحايل الذى كان يريده معاوية «المال مال الله ونحن عباد الله» ، إن «نحن» هنا هى معاوية فى حقيقة الحال وكأنه استحوز على «مال الله» لأنه الحاكم ويتكرر الشيء نفسه فى الحاكمية الألهية .

وهذه الشعارات لا تأبه مطلقا لا لضرورات العمل أو لطبيعة الواقع كأنها فى عالم سحرى من الحروف والكلمات .. وأسوأ من هذا انها لا تأبه بالعقل وكما أشرنا فالعقل الذى هو بتعبير الغزالى **«ميزان الله فى الارض»** يكاد يكون عندها سُبَّة ، ولا يذكر الا باعتباره مزاحما للحاكمية الالهية ..

واى دعوة تسلك هذا المسلك ، اعنى انها تنحى العقل والواقع جانبا تقضى على نفسها . فاذا كانت مخالفة للعقل فسيكون مآلها مستشفى المجانين .. واذا تجاهلت الواقع . فانها تعيش فى فراغ ، أو عالم وهمى وتدخل مرحلة انعدام الوزن ..

وفى النهاية لانجد الا حبراً على ورق . او دخانا فى الهواء ، أو شطحات وتهاويم و«توسمات» بتعبير شكرى مصطفى ...

★ ★ ★

وقد حاول بعض انصار الرافضة الجديدة ان ينالوا من الاخوان المسلمين ، ورأى بعضهم ان حسن البنا «توفيقى» .. وحاول آخرون اجراء مقارنة بين البنا وقطب .

وهؤلاء كخابط ليل يهرفون ، بما لا يعرفون ..

فحسن البنا لم يكن توفيقيا ، ولكنه نظر الى جانب المرونه واليسر فى الاسلام، ورأى انهما ابرز جوانبه ، ومن السمات التى تميزه عن الشرائع الاخرى ، فوظفهما فى تعامله مع الاحداث وأتخاذه المواقف . وكان فى هذا أفضل من الذين يؤثرون

التشدد . وأقرب الى مسلك الرسول الذى «ماخُيِّرَ بين امرين الا اختار أيسرهما مالم يكن حراما» .

واما المقارنة بين حسن البنا وسيد قطب ، فهى المقارنة بين مؤسس الاخوان المسلمين العالمية .. ومؤلف «معالم فى الطريق» فقد أسس البنا هيئة عظيمة عاشت رغم مقاومة اربعة حكام ، وصمدت لكل ما وجهه اليها هؤلاء من اضطهاد واثبتت اخلاصها بدم شهدائها فى فلسطين ، وفى المعتقلات وكل من حاول ان يهدمها «هدته» ثم انتقلت من مصر الى العالم الاسلامى والاوروبى والامريكى . فبصمات البنا على الاخوان عميقة ، وبصمات الاخوان على الدعوة الاسلامية المعاصرة واضحة وضوح الشمس . وهذا كله لاينفى نقط القصور التى وقعت فيها الجماعة وأشرنا اليها .. ولكنها لاتذهب بتاريخها ، ولاتهز مكانتها العامة ..

ونحن لانقلل من أهمية كتاب .. يمكن ان يؤدى الى ثورة . ولكن معالم فى الطريق يعرض حلما فى يقظة .

قد يقول البعض و«فى ظلال القرآن» .

اجل ، وفى ظلال القرآن ايضاً . وهو تفسير خلا من الاسرئيليات والحشو واللغويات الخ . التى حفلت بها معظم التفاسير القديمة ، ولكنه يظل تفسيراً بالرأى ، ولم يكن عبثاً ان قال الرسول «من قال بالقرآن برأية فأصاب فقد اخطأ» ذلك لانه يُحمِّل القرآن معنى قد يكون صائباً من ناحية . ولكنه خاطىء من ناحية اخرى ، او ليس هو بالمعنى الوحيد ، فالقرآن حَّمال ، وهو لكل الشعوب .. ولكل العصور ولكل الافهام ..

الفصل الخامس

قسمات مشتركة بين الدعوات الاسلامية

قسمات الائتلاف بين الدعوات الاسلامية اكبر من قسمات الاختلاف . لان الاولى «اصولية» والثانية طارئة . **والطابع الاعظم الذى طبع الدعوات الاسلامية وجعلها ماهى عليه انها جميعا سلفية . وهذا هو الأصل العظيم الذى يجمع بينها – على اختلاف اوقاتها وبلادها – ويجعل الفروق بينها ثانويةّ .**

السلفية :

السلفية منهج وطريقه قدر ماهى مزاج ونفسية وهى تمثل تطور الفكر الاسلامى خلال مرحلتين :

الاولى : مرحلة الازدهار الاسلامى الاولى خلال القرون الأربعة التى تلت الهجرة وشاهدت وضع الأساس المعرفى فى الحديث والتفسير والفقه . ورموز هذه المرحلة الأئمة الأربعة ، ومن هم فى طبقتهم .

والثانية : مرحلة الازدهار الاسلامى الثانية خلال القرنين السابع والثامن التى تنت عهد التخلف والتقهقر واحتدام الصراعات المذهبية وظهور الطرق الصوفية بإنحرافاتها ودعاويها . وحاولت ان تعيد الاعتقاد الى ما كان عليه فى المرحلة الأولى ورموزها بالدرجة الاولى ابن تيمية وابن القيم . فأئمة المذاهب الاربعة «سلف» بالنسبة لابن تيمية . وابن تيمية سلف بالنسبة لمحمد بن الوهاب الذى يعد فى بعض المراجع رأس السلفية الراهنة ..

وكان للسلفية دور تاريخى خاصة فى مرحلتها الثانية التى أصلحت فيها من فساد وتدهور الفكر الاسلامى . ولكنها بعد ان كانت قوة تأسيس اولاً وعامل اصلاح ثانيا –

فانها أصبحت بالنسبة للعصر الحديث عاملاً من عوامل الحفاظ وحائلا دون الابداع او التكيف مع المتطلبات الجديدة والاوضاع التى استحدثها العصر .

وفى حقيقة الحال فان التراث الضخم الذى خلفه العلماء المسلمون خلال هذه الفترة كان هرماً لايمكن لاى مفكر أن يتعداه لانه يمثل جهود الآف العلماء النابهين المجددين الذين ارادوا القربى الى الله بعلمهم وعملهم من كل العالم الاسلامى . من سيبيريا «جنة المحدثين» التى خَرَجَّت البخارى ومسلم والترمذى والنسيابورى والسجستانى والمروزى والطبرى ، والاندلس التى خرجت بن رشد وبن حزم والقرطبى حتى العراق ومدنها الثلاث المنجِّبه كل مدينة كأنها دولة : البصرة والكوفة وبغداد ممن لايمكن حصرهم ، ومصر التى أوى اليها الشافعى واتجبت الليث بن سعد . ومكة والمدينة مهبط الوحى ومثوى الرسول ومقر الصحابة واليمن وعلمائها الأفذاذ المجددين .

ونحن لاننكر هذا بل نعترف ونفخر به ، ونشعر نحو هؤلاء الاسلاف العظام بالتقدير والتوقير والاحترام والاعزاز ولكن وجهة النظر التى سيدور عليها نقد السلفية فى هذا الفصل هى ان فكر هؤلاء الاسلاف اصبح تراثا ضخماً اطلق عليه السلفية . فرض نفسه على المفكرين واعتبر انه هو التفسير الرسمى الوحيد – اذا جاز التعبير – للاسلام وان اى مخالفة له تعد مخالفة للاسلام أو خروجا على الجماعة . مع ان هؤلاء الاسلاف لم يدَّعو لأنفسهم هذا ، بل دعوا الاجيال التالية لكى لا يقلدوهم . **ولكن السلفية غير الاسلاف** ، وقد قَوَّلت السلفية الاسلاف ما لم يقولوا بل ذهبت نقيض ما ارادوا . فالشافعى يقول «اضربوا بقولى عرض الحائط وخذوا بالحديث الصحيح» ولكن الكرخى يقول «كل أية تخالف قول اصحابنا فانها تُحمَل على النسخ او على الترجيح والأولى ان تحمل على التأويل من جهة التوفيق» والعمل هو بما قاله الكرخى وليس بما قاله الشافعى . ولو شاهد السلف ما احيطت به قبورهم من زخرف وزينة وما يعلوها من قباب لتبرأوا منها ولكنهم لايملكون هذا وتبقى قبورهم شاهدة على مخالفة السلفية للسلف وقل مثل هذا عن المتون التى وضعها بعض الاسلاف فجاء الاتباع وأتباع الاتباع واضافوا اليها تلالاً من الحواشى والشروح عليها بحجة ايضاحها . والله يعلم أنها تشوش الفهم وتدخل على المتون مالم يدر بخلد اصحابها . وقد تضطر السلفية لاجتهاد يخالف صريح الحديث النبوى . فالرسول يعطى لكل من يقول لا اله الا الله محمد رسول الله صفة المسلم الذى يعصم ماله ودمه ولو قالها متعوذاً فى حين ان السلفيين جميعاً يحكمون بالكفر على

من «يجحد معلوما من الدين بالضرورة» ولابن تيمية فى هذا باع طويل ربما حكمت عليه به ظروف الفترة التى عاشها ومن ثم صدرت مثل هذه الفتاوى «من استحل النظر فقد كفر بالاجماع»[1] «من دعاميتا ، ولو كان من الخلفاء الراشدين فهو كافر ، ومن شك فى كفره فهو كافر»[2] «ومن اعتقد فيمن لايفعل الفرائض ولا النوافل انه من اولياء الله المتقين ، إما لعدم عقله او جهله او غير ذلك فمن اعتقد فى مثل هؤلاء انه من اولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين فهو كافر مرتد عن دين رب العالمين . واذا قال انا اشهد ان لا اله الا الله محمد رسول الله كان من الكاذبين»[3] وهناك المئات من امثال هذه الفتاوى لابن تيمية وغيره تجعل المسلم كافراً «حلال الدم» تُطَلق امرأته ويحل ماله ولايدفن فى مقابر المسلمين .. الخ .

وقد يقول قائل حسنا ، فلندع السلفية ولنأخذ بالأسلاف وهذا لايستقيم أيضاً لاننا نرفض المبدأ وان لم نعترض على الاسلاف فالاسلاف يصبحون سلفية فى مرحلة تالية وهم متقدمون على من يأتى بعدهم متأخرون عمن قبلهم ، فلابد انهم - مادامو ا سلفا - متأخرون عن قبلهم - فلماذا نأخذ بالتخلف ولا نأخذ بالتقدم بالاصل الذى ليس قبله متقدم ان السلفية يمكن ان تكون نقيصة وليس مفخرة لانها شراء الذى هو ادنى بالذى هو خير ولان الأصل الذى بنى عليه القرآن الكريم هذه القاعدة هو ان الاسلاف ليسوا معصومين والمعصوم هو القرآن والرسول فيما هو مبلغ عن ربه ومن هنا لايخلو الاتباع للاسلاف من خطأ وقصور والاتباع الوحيد الذى يسلم من ذلك هو اتباع القرآن الكريم .

وقد أصبحت السلفية اليوم كالجبل الشامخ ، تقف العيون فى السفح محملقة فيه ، لامطمع لها أكثر من ان تتسلقه وتبلغ قمته . وكان أصحابه يعايشونه اما الذين جاءوا من بعدهم فما كان يمكن لاحد ان يتجاهله او يجاوزه فكيف يمكن ان نفهم القرآن دون تفسير المفسرين من ابن عباس حتى الطبرى والقرطبى وابن كثير وكيف يمكن النظر فى الحديث دون معايير يحيى بن معين واحمد بن حنبل حتى ابن الصلاح . وكيف نبدع فقها بعد إبى حنيفة ومالك والشافعى فضلا عن حقيقة فرضت نفسها على الفكر الاسلامى تلك هى اغلاق باب الاجتهاد الذى ادى اليه تطور الاحداث وغزارة

---

(١) منار السبيل فى شرح الدليل على مذهب احمد ٢/١٤٢ .

(٢) استشهد بها الشوكانى فى الدر النضيد فى اخلاص كلمة التوحيد ونسبها الى الاقناع ص ٤٦ .

(٣) ابن تيمية الفتاوى الكبرى - المجلد ٢ ص ٢٢١ .

هذا الفكر الى درجة هددت وحدته واتساقه وسمحت بظهور التناقضات والاختلافات مما لايمكن لاى قانون (والفقه هو اوسع صور القانون) ان يحتمله وقد بدا لكل العلماء بعد ان بلغ الفكر هذه الدرجة من الخصوبة والانتاج ان ليس فى الامكان ابدع مما كان فأغلقوا باب الاجتهاد .

وقد قيل لنا مراراً وتكراراً ان هؤلاء السلف – السلف الصالح – من الآئمة الاعلام قد وصلوا من التجرد والورع ومن العلم والتمكن ما لايمكن لاحد من المعاصرين ان يبلغه ، وهناك دائما سؤال يُشهر كالسيف على المعارضين هل انت أفقه من ابى حنيفة ؟ هل انت أعلم بالحديث من احمد بن حنبل ؟ ونحن لايخالجنا شك فى تجرد وورع وتمكن هؤلاء الاسلاف ولكن هذا لايعنى ابداً انهم معصومون أو انهم وصلوا الى ما لايمكن لاحد ان يصل اليه أو انهم استوعبوا المعرفة فلم يتركوا شيئا لمن يأتى بعدهم . ان المعرفة كالبحر ولايمكن لاى بحار ولا لمجموعة من البحارين الادعاء استيعاب البحر وضمه بين جنبيهم . وقد وضع العصر الحديث فى ايدى الاخلاف ما لم يضعه فى ايدى الاسلاف من مطبعة وفهرسة وتصنيف يمكن بها لهم ان يصلوا الى ما لم يصل إليه اسلافهم .



وكان من الصعوبات التى حالت دون مجاوزة السلفية انه لايمكن تجاوزها الا بعد إحكامها ويغلب على من أحكمها ان لا يفلت من إسارها . أو لايجد الوقت للبدء من جديد ، وكان هذا هو مأزق الشيخ محمد عبده . وعندما كان ينقد مناهج الازهر ذكَّره احد سامعيه بأنه ازهرى فلمس هذا جرحا غائرا واعترف بأنه امضى عشرين عاما لينظف فكره من «وساخات الازهر» .

لم يكن بوسع أحد ان يتجاهل السلفية وتراثها الضخم وفى الوقت نفسه لم يكن الرد على السلفية ممكنا بالسلفية نفسها ، كانت السلفية اشبه بقصر ضخم له قيمة أثرية كبرى ولكن لايمكن استخدامه للسكنى فلايمكن هدمه لقيمته الاثرية ولايمكن استخدامه عمليا وفى الوقت نفسه فانه يشغل المكان الوحيد لدينا .

وفى بعض الحالات يكون لدينا الشجاعة لان نقول «الحى ابقى من الميت» ، لكننا فى هذه الحالة نقول الموتى أبقى .. ونفرضهم على الاحياء ..

ولم يتبين السلفيون انهم فى تمسكهم بالسلفية حفاظا على الاسلام كما ظنوا ورداً

للغارات عليه انهم يخالفون فى الحقيقة توجيهات الاسلام وانه مما لايستقيم ان نحمى الاسلام بما نهى عنه الاسلام ، لم يتبينوا هذا لتأصل فكرة قداسة الاسلاف والايمان بان علمهم وصلاحهم يفوق علمنا وصلاحنا ، ولان القضية أخذت طابع المصلحة المكتسبة والوضع القائم بالفعل فأين تذهب تلك المؤسسات الاسلامية الكبرى من جامعات ومعاهد وحوزات تدرس الفقه والتفسير والحديث على الاصول السلفية هل تغلق ابوابها ويشرد علماؤها وتطوى مراجعها ..

وأهم من هذا كله .. حتى لو استطعنا هذا فبماذا نأخذ .. وماهو البديل للسلفية .

هذا شيء لم توضع خطوطه .. او ترسى أسسه .

وهكذا لم يعد هناك معدى من السلفية ومن التأثر بخصائصها .. ووقعت الدعوات الاسلامية كلها فى إسار السلفية والخلاف هو فى الدرجة وليس فى النوع فالاخوان فى حقبة البنا كانت اكثر صور السلفية مرونة واتساعاً بينما كانت الوهابية ولاتزال اشدها ضيقاً وتزمتا .

والحقيقة ان السلفية وصلت من القوة والتغلغل بحيث :

(أ) من غير المنتظر ان يظهر من رجالها من يستطيع التحررمن اسارها او مجاوزة إطارها ولو جاز هذا لأحد لجاز للشيخ محمد عبده ولايمكن لأكثر خريجى الأزهر استناره مجاوزة درجة معينة داخل الاطار السلفى .

(ب) ان نفوذها والايمان بها لم يعد مقصوراً على اعضاء الدعوات الاسلامية فهم جمهورها او قياداتها فهم سدنتها ولكنه وصل الى معظم فئات المجتمع (بما فى ذلك الفنانين والفنانات) بحيث لم يعد خيار لها سوى التسليم بها . او ابعاد الاسلام من الحياة العامة . وقصره على الحياة الخاصة اى العلاقة بين الانسان والله . واذا كان هناك عذر للذين يقعون فى هذا الخطأ الفاحش فهو انهم لم يروا بديلاً عن السلفية ولعلهم لو رآوا هذا البديل لصححوا خطأهم ، وهذه الظاهرة توضح لنا ضرورة وأهمية معالجة تلك القضية . وخطأ تجاهلها .



وكما قلنا فى مستهل الفصل ، فان السلفية منهج وطريقة قدر ماهى مزاج ونفسية وقد نقلت هذا كله الى الدعوات الاسلامية المنهج والطريقة والمزاج والنفسية بالتفصيل التالى :

● **قدمت السلفية للدعوات الاسلامية المضمون الاسلامى او التصور** الاسلامى المقرر والذى اعتبر انه هو الذى ىبرأ من النَحَل والاهواء والتخبط وانه ما عليه «الجماعة» سواء كان هذا المضمون فى الفقه والاصول التى يقوم عليها من قرآن وسنة واجماع وقياس او تفسير يقوم على اسباب النزول والناسخ والمنسوخ وعلوم اللغة او حديث يعتمد على معايير للرجال وجرح وتعديل ودرجات الاحاديث التى تعد أصلا فى الفقه ... الخ .

ولم تلحظ السلفية ان مضمونها هذا تأثر بالزمان والمكان تأثراً يمس موضوعية وصلاحية المضمون فهى مثلاً فى المجال السياسى تؤثر الطاعة على الفتنة بينما هى فى المجال الاقتصادى تفضل الحرية على التدخل اما فى قضية المرأة فقد سلطت مبدأ سد الذريعة ليشل الحريات والحقوق التى اعطاها الاسلام للمرأة سداً للذريعة ولعل السلفية لم تستهدف صراحة وقصداً ممالاه السلاطين والتجار والرجال . وانها عندما وقفت فى صف هؤلاء وليست فى صف المحكومين والمستهلكين والنساء انما كانت تعبر عن روح عصرها . ولايخالجنا شك ان قاسم أمين رحمه الله كان اقرب الى روح الاسلام .. ولكن ما نادى به كان بعيداً كل البعد عن السلفية . وكان هذا مبرر الثورة عليه .

وقد أصبح المضمون السلفى هو المضمون المقرر ولم يعد جائزاً لأحد إن يقول ان الطريقة التى انتهجتها السلفية ، والنتائج التى انتهت اليها بحكم إعمالها لهذه الطريقة ليست بالضرورة افضل الطرق او أفضل النتائج وأن قصارى ما يمكن ان يُحمد لها انها كانت افضل طريقة وافضل نتيجة فى مكانها وزمانها وبحكم ملابساتها وانه عندما ينتهى هذا الوقت وهذا المكان وهذه الملابسات فليس هناك مايبرر الاخذ بها او الادعاء بأفضليتها ، **هذا غير جائز ولايسمح به .**

● **الاخذ بالسلفية يعنى الاعتماد على النقل فى التعرف على الحقائق والاحكام . فاذا عرفنا بالضبط ماوضعه السلف الصالح فليس علينا الا الاخذ به** وفى هذه العملية لايكون هناك حاجة لاعمال الذهن او استخدام العقل وشيئا فشيئا يصدأ هذا العقل ويصبح النقل هو الوسيلة المستخدمة ومن سوء الحظ أن قدراً كبيراً من الخزعبلات والخرافات والاسرائيليات اقتحمت الفكر الاسلامى فى وقت مبكر للغاية وتقبلها الائمة واثبتوها فى كتب التفسير والحديث والفقه ، وأصبحت جزءاًمن التراث السلفى ولم يعد من الممكن التمييز ما بينها وما بين الحقيقة لانها دخلت فى

المضمون السلفى فتعين الأخذ بها . ولانه من غير المسموح إعمال العقل – اذا كان قد بقى منه بقية – فى التمييز والغربلة واستبعاد هذه الخرافات .

ولنضرب المثل بواقعة معينة تمثل تمام التمثيل عمق فكرة النقل عند السلفيين . ففى اليوم الثانى من رمضان عام ١٩٨٥ نشرت الاهرام (ص ١٢) لمفتى جمهورية مصر الشيخ عبد اللطيف حمزة وهو بقية السلفيين المعروفين كلمه تحت عنوان مفسدات الصوم نصها . .

● ماهى مفسدات الصوم ؟

● يفسد الصوم بالجماع فى أحد السبيلين على الفاعل والمفعول به والأكل والشرب سواء فيه مايتغذى به او يتداوى به . وابتلاع مطر داخل فمه وأكل اللحم النيىء الا اذا دود وأكل الشحم وقديد اللحم بالاتفاق واكل الحنطة وقضمها الا أن يمضغ قمحة فتلاشت وابتلاع سمسمة أو نحوها من خارج فمه فى المختار وأكل الطين الأرمنى مطلقا والطين غير الأرمنى كالطفل ان اعتاد أكله وقيل الملح فى المختار وابتلاع بزاق زوجته أو صديقه لاغيرهما . اذا فعل الصائم شيئا من ذلك طائعا متعمدا غير مضطر لزمه القضاء والكفارة . وكذا أكل الصائم عمدا بعد غيبة او حجامة أو مس قبله بشهوة أو بعد مضاجعة من غير انزال أو دهن شاربه ثم أكل متعمدا أو طاوعت مكرها على وطئها لأن سبب الكفارة جناية افساد الصوم لا نفس الوقاع وقد تحققت من جانبها بالتمكن من الفعل كما لو علمت بطلوع الفجر فمكنت زوجها وهو غير عالم به ومن مفسدات الصوم أيضا . اذا أكل الصائم أرزا نيئا . أو عجينا أو دقيقا بدون سكر أو ملحا كثيرا دفعه أو طينا غير أرمنى لم يعتد أكله او نواة او قطنا او سفرجلا لم يطبخ او ابتلع حصاة او حديدا او ترابا» .

●

واثارت هذه الكلمة ثائرة الكُتَّاب ، فانتقدها بقسوة ومرارة الاستاذ جمال بدوى فى «الوفد» وعقب عليها الاستاذ احمد بهاء الدين (٨٥/٦/٢) بما هو أشد وانكى وندد بما تكاد تصرح به من فحش وشذوذ مما لم نشأ ان نورده رحمة بالشيخ .

ولكن للشيخ منأى عن هذا ولكنها العقلية النقلية التى جعلته ينقل من الحواشى والشروح وانما فعل هذا لأنه – رحمه الله – كان رمز السلفية والبقية الباقية وقتئذ من شيوخها فى مصر .

وتنسحب جريرة هذا المنهج النقلى على كافة مجالات الحياة وعندما يتعطل العقل فلابد أن تسود الخرافة ولابد للانسان الذى لا يملك هذا العقل او ان هذا العقل اصابه الصدأ والتأكل ان ينزل الى مستوى الانعام لان ما يميزه عنها هو العقل . ويصبح لدينا ملايين المواطنين الذين لايعرفون الخطأ من الصواب ولايميزون مابين الحق والباطل . ولايفرقون بين الخير والشر .. وكلما تحل بهم مشكلة يهرعون الى كتبهم دون ان يطرأ لهم التفكير فى المشكلة وإعمال عقولهم لحلها . فاذا لم يجدوا فيها حلاً احتاروا وتاهوا و «تورعوا» عن تقديم الحل او قدموه وهم يتعوذون من الشيطان الرجيم .

● **من اعمق آثار السلفية على الدعوات الاسلامية انها نقلتها من «الموضوعية» التى هى طابع الاسلام الى «الذاتية» التى هى فى أصل الوثنية .** ولم ينسب القرآن الكريم المسلمين الى نبيهم فيقول «المحمديين» رغم ان هذه النسبة تزيدنا تشريفاً ، لان الرسول بالنسبة لله تعالى – ليس الا مبلغاً يبلغ ما يوحى اليه – ولا يأت بشىء من نفسه وليس له من الامر شىء **فالمنهج القرآنى يركز على الموضوع – والموضوع هو الاسلام وليس على الشخص حتى لو كان النبى ..** وواضح بالطبع ان السلفية نقيض ذلك لان النسبة فيها الى السلف . وعندما يطبق هذا لاتصبح الحكمة ضالة المؤمن ينشدها انا وجدها ولكن الانتماء الى الاسلاف وأقل ما يقال فى هذا انه حجر على الحقيقة اما الخطر الاكبر فهو احلال الذاتية محل الموضوعية كمنهج لان هذا يخالف مخالفة جذرية لمنهج الاسلام إذ هو يسمح بعودة الوثنية والشرك بالله والتمحور حول اشخاص . ولم يكن عبثا ، فى هذا المجال بالذات ، حملة القرآن الشعواء على الذين قالوا بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا .

ونعتقد ان هذا الاثر لم يعط ما يستحقه من الاهمية – وانه من اكبر اسباب إنحراف بعض الدعوات الاسلامية والمجتمعات الاسلامية بصفة عامة .

● **من ابرز قسمات «السلفية» التركيز على العبادة وهذا** يعود الى سبب تاريخى وليس الى سبب موضوعى . وقد لايتسع المجال لشرحه هنا – خاصة واننا عالجناه بالتفصيل فى كتاب نرجو ان يصدر قريبا – وما يمكن ان يقال هنا هو ان العبادة هى الوسيلة التى تنفرد بها الاديان لتهذيب النفس وللقربى الى الله ومن هنا فان لها أهمية وخصوصية لاتنكر ويمكن القول ان دينا لا عبادة فيه لايمكن ان يكون دينا وانما يكون مذهبا فلسفيا ومن هنا وجدت فى الاديان كلها صنوف مختلفة للعبادة .

وجاء الاسلام ايضا بعباداته . ولكن عبقرية الاسلام انه لم يقتصر - كبعض الاديان - على هذا الجانب الخاص جدا والهام جدا الا وهو اصلاح نفس الفرد وروحه بالصلاة والصيام والقربى الى الله ، ولكنه جاء أيضا بعدد من الخطوط والضوابط فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع . وانه جعل العمل مصداقا للايمان ومعياراً للحساب من ثواب او عقاب في الآخرة . بل كاد ان يحقق تجديداً ثورياً فى عالم الاديان عندما جعل المسلم يدرك بحسن خلقه وطيب معاملته درجة الصائم القائم بل وفضل العمل الصالح على العبادة . ولكن التطور السياسى للاسلام جعل الملك العضوض بعد اربعين سنة من الهجرة يقاوم هذا الجانب من جوانب الاسلام : العدالة فى الاقتصاد . والحرية فى الفكر والشورى فى الحكم وتعرض الائمة الأربعة لاضطهاد الخلفاء وفى النهاية لم يجد الفقهاء مجالاً حراً لعملهم الا الجانب العبادى الذى لم يجرؤ الخلفاء على المساس به ولان المساس به لا يحقق لهم مصلحة .. فتوسع الفقهاء فى العبادات توسعاً جعل «الصلاة» مثلاً تستغرق عدداً من المجلدات فى موسوعات الحديث والفقه .

ونقلت السلفية هذا التركيز الى الدعوات الاسلامية بحيث أصبحت اولاً وقبل كل شىء هيئات عبادية العبادة فيها هى مفتاحها وهى ما يميزها عن غيرها ولايقتصر على العبادة نفسها . ولكن ما اصطحب بها فى الإذهان . من زى او هيئة - وحركات وسكنات والتزام بالنوافل بعد الفرائض والادعية والاذكار والاوراد وقد كانت الوصية الاولى من الوصايا العشر للاخوان المسلمين «قم الى الصلاة متى سمعت النداء» ..

وكان هذا الاثر من القوة بحيث ان الدعوات الاسلامية التى استكشفت حقيقة الاسلام وانه دين ودنيا مصحف وسيف .. الخ لم تفهم من هذا **الا فرض الجانب العبادى على الجانب الحياتى .**

ونشأ فى كثير من الدعوات الاسلامية ازدواجية بين الدين والدنيا ، العبادة والسياسة ، الجانب التربوى الروحى والجانب العملى الحياتى .. ويمكن القول انها ركزت على الأول وان هذا حال دون احكامها للثانى . وحدث هذا فى بعض الهيئات بحيث جاز التساؤل الم يكن من الأفضل لو وجدت هيئات اسلامية متخصصة فبعضها يعنى بالجانب الروحى النفسى الفردى والعبادى وينفض يديه تماما بين النشاط العام والخارجى - ويوجد بجانبها هيئات اخرى فى مجالات النشاط العام - تعنى بجانب معين من هذا النشاط (اقتصاد - عمل - سياسة - صناعة - تجارة .. الخ) تاركة

الجانب العبادى لمن هم اقدر عليه منها فلا تحاسب عليه كما لاتحاسب جمعية للمعلمين على انها لاتحكم الهندسة او اتحاد للاطباء انه لايفهم فى المحاسبة .. الخ .

ان العامل الذى لايجعلنا نأخذ بهذا الحل باعتباره حلاً وحيداً هو أنه يحول دون وجود الهيئة ذات الدعوة الاسلامية العامة التى تدعو لاصلاح المجتمع . ولكن مثل هذه الهيئة لن توجد ماظل الطابع العبادى مسيطراً على الهيئة العامة . والحل الأمثل ان توجد مثل هذه الهيئة على ان تضع نصب أعينها الحديث النبوى «الدواوين عند الله ثلاثة : ديوان لايعبأ الله به شيئا وديوان لايترك الله منه شيئاً وديوان لايغفره الله . فأما الديوان الذى لايغفره الله فالشرك بالله واما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها – فان الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز عنه ان شاء . واما الديوان الذى لايترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً : القصاص لامحالة»[1] فاذا طبقنا هذا لوجدنا ان محل عناية الهيئات الاسلامية الاول يجب ان يتركز فى الحيلولة دون ظلم العباد بعضهم بعضا .. اى القضية العامة والاجتماعية لان هذا الظلم يعم الحاكم والمحكومين الاغنياء والفقراء الاقوياء والضعفاء وأس البلاء فى القضية الاجتماعية هو الظلم . ومحور الاصلاح هو العدل .

● **الدعوات الاسلامية – على اختلافها من انشاء السنة ذلك لأنها تأثرت بالفقه الذى يقوم بالدرجة الاولى على السنة والفقه** مبوب تبويبا دقيقاً ، ويكاد يكون واحداً فى المذاهب المختلفة وهو يتناول الاقوال والافعال والحركات والسكنات . فضلاً عن الأحكام . فوجدت فيه الدعوات الاسلامية الاسلامية بغيتها . وكان هذا هو احد اسرار «سلفية» الدعوات الاسلامية .

والسنة هى الأصل الثانى للاسلام بعد القرآن وهذا أمر لا خلاف فيه . ولكن الخلاف انما يكون فى قضايا عديدة اوردتها كتب الحديث والفقه . منها ما يتعلق بالسنة . وقد وضعت مجلدات عديدة عن علم الرواية واحوال الرجال ودرجاتهم والجرح والتعديل . ومع هذا – او بمعنى آخر لهذا ، حدث نوع من الاجتهاد فى اصدار الاحكام فقد يحكم بعض علماء الحديث على راو بأنه ثقه ، فى حين يراه

---

(١) الحديث رواه احمد فى مسنده وأخرجه الحاكم وصححه وفيه مقال ولكن له شواهد تعضده والمقصود بالدواوين صحائف الأعمال انظر (الفتح الربانى فى مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى ص ٢٨٨ ج ١٩) .

الآخرون واهيا او ضعيفاً لان العملية اصبح لها ضوابط عديدة ومختلفة ، وبالتالى فان الاحكام تختلف . وقد يمكن الارتفاء بهذا الى مثل عمربن الخطاب وعائشة (وليس الى المستشرقين او الذين يريدون هدم السنة) فى نقدهما لابى هريره واكثاره وسرده .

ومن قضايا السنة مايتعلق بالمتن ويدخل فيه النسخ والرواية بالمعنى – كما يدخل فيه تحقيق ملابسة صدور النص لان هذه الملابسة قد يكون لها أثر فى الحكم وهو أمر عُنى بتحقيقه علماء أصول الفقة . فعندما يقول الرسول – على سبيل المثال – «فى الغنم السائمة زكاة» فان هذا القول اذا كان قد صدر من الرسول إجابة لسائل سأل الرسول «هل فى الغنم السائمة زكاة» فانه يكون قد خصص الوصف بالذكر لأنه المسئول عنه ليكون الجواب مطابقاً للسؤال . وقد يدل هذا على نفى الحكم عن الذات عند انتفاء الصفة «السائمة» وقد يدفع لعدم إعمال – مفهوم المخالفة الخ .. وقد يروى الراوى عجزاً من حديث فاته صدره ، ويؤدى هذا الى خلل فى المعنى .

ومن قضايا السنة ان الفقهاء يميزون مايعد ملزماً من اقوال او تصرفات الرسول . وما لايعد فالقرافى وهو من ائمة المالكية يميز بين تصرفات الرسول ﷺ بالفتيا والتبليغ وبين تصرفه بالقضاء وبين تصرفه بالامامه ، وان آثار هذه التصرفات ومدى الزامها مختلف . فتصرفه بالفتيا هو اخباره عن الله تعالى بما يجده فى الأدلة من حكم الله تبارك وتعالى . وتصرفه عليه السلام بالتبليغ هو مقتضى الرسالة . والرسالة هى امر الله له بذلك التبليغ . فهو عليه الصلاة والسلام فى مقام الرسالة ينقل عن الحق للخلق ماوصل اليه من الله تعالى . فهو فى هذا المقام مبلغ وناقل عن الله تعالى . اما تصرفه ﷺ بالحكم اى بالقضاء – فهو مغاير للرسالة والفتيا لأن الفتيا والرسالة تبليغ محض وأتباع صرف والحكم انشاء وإلزام من قبله ﷺ بحسب مايسنح من الأسباب والحجاج ولهذا قال ﷺ «انكم تختصمون الىّ ولعل بعضكم ان يكون الحن بحجته من بعض . فمن قضيت له بشىء من حق اخيه فلا يأخذه انما أقتطع له قطعة من النار» دل ذلك على ان القضاء يتبع الحجاج وقوة اللحن بها» واما تصرفه عليه الصلاة والسلام بالامامة . فهو وصف زائد على النبوة والرسالة والفتيا والقضاء – لان الامام هو الذى فوضت اليه السياسة العامة فى الخلائق وضبط معاقد المصالح ودرأ المفاسد»[١] .

(١) استشهد بها كتاب السنة تشريع لازم ودائم دكتور فتحى عبد الكريم ص ٧٠ (مكتبة وهبة) .

ويذهب ابن قتيبه فى تأويل مختلف الحديث «والسنن عندنا ثلاث : سنة اتاه بها جبريل عليه السلام عن الله تعالى كقوله ﷺ «لاتنكح المرأة على عمتها وخالتها» و«يحرم من الرضاع مايحرم من النسب» و«لايحرم المصه ولا المصتان» و«الدية على العاقله» وأشباه هذه الاصول ، وسنة اباح الله فيها لنبيه ان يسنها وأمره باستعمال رأيه فيها فله ان يرخص فيها لمن شاء حسب العلة والعذر ومن ذلك اذنه فى لبس الحرير لعبد الرحمن بن عوف لعلة كانت به واستثنائه الاذخر من شجر مكة وامثال هذه الأمور ، والسنه الثالثه ماسنه رسول الله ﷺ تأديباً لنا فان نحن فعلناه كانت لنا الفضيلة فى ذلك وان نحن تركناه فلا جناح علينا ان شاء الله» .

وقال الشيخ محمود شلتوت فى كتابه المشهور «الاسلام عقيدة وشريعة» .

«كل ماورد عن النبى ﷺ ودوِّن فى كتب الحديث من اقواله وافعاله وتقريراته على اقسام .

احدهما : ماسبيله سبيل الحاجة البشرية كالأكل والشرب والنوم والمشى والتزاور والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية والشفاعة والمساومة فى البيع والشراء .

ثانيها : ماسبيله سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية كالذى ورد فى شئون الزراعة والطب وطول اللباس وقصره .

ثالثهم : ماسبيله التدبير الانسانى أخذاً من الظروف الخاصة كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية وتنظيم الصفوف فى الموقعة الواحدة والكمون والكر والفر واختيار أماكن النزول وما الى ذلك مما يعتمد على وحى الظروف والدربة الخاصة .

وكل مانقل من هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعاً يتعلق به طلب الفعل او الترك . وانما هو من الشئون البشرية التى ليس مسلك الرسول فيها تشريعاً ، ولا مصدر تشريع»[1] .

ولولا ان المقام لا يتسع لمزيد من الشرح لعرضنا ماقاله الدهلوى فى حجة الله البالغة وما اشار اليه بعض المحدثين كالدكتور سليم العوا . وقد عالجنا هذا الموضوع فى كتابينا «الأصلان العظيمان» و«العودة الى القرآن» .

---

(١) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٤٢٧ طبعة الادارة العامة للثقافة العامة بالازهر .

المهم ان الدعوات الاسلامية لم تسلك مسلك المحققين . ولكنها أخذت السنة كلها بل لعلها ركزت على مايتعلق بالأكل والشرب والزى والعادات الخ ...

وقد اراد الله تعالى الكمال للاسلام عندما أوجد قرآنا وسنة ليحقق تكاملاً . ولابد لكى يلحظ هذا التكامل من وضع القرآن والسنة كل فى موضعه . وهو مايقضى جعل القرآن الأصل فائما يعود الالزام بالسنة الى القرآن نفسه ووجود قرآن وسنة يعنى اختلافاً فى الطبيعة . كما قد يلحظ الاختلاف فى الاسلوب والقرآن ينحو نحو الاطلاق والانتهاض ويمثل القيم والكليات والاصول العامة بينما تعنى السنة بالتطبيق وتلحظ الحفاظ وتتناول الجزيئات كما قد تلحظ اعتبارات آنية تتعلق بالمجتمع العربى ، وما كان عليه وقت الرسول وانه «حديث عهد بجاهليه» .

وكما اشرنا – فان الدعوات الاسلامية اعتبرت ان كمال الاسلام هو الاخذ بالسنة كلها – حتى ماكان منها ضعيفاً فى الرواية . غير ملزم فى الموضوع ، وليس هذا هو الحماس للاسلام أو تحقيق الكمال فيه . كما سبق الى ذهنها .

● **من القسمات المشتركة فى الدعوات الاسلامية أنها بدرجات متفاوتة – وقعت فى يد الطبقة الوسطى التى يطلقون عليها «البورجوازية»** صغيرة او كبيرة فقاعدتها الجماهيرية تضم صغار الفلاحين والتجار والحرفيين والطلبة – بينما تضم قمتها نسبة من كبار التجار ورجال الأعمال والاقتصاد الأسلامى .

ونحن لانتفق مع الشيوعيين فى اهتمامهم المسرف بالتأثير الطبقى . ونرى انهم فى معظم مايوردونه فى هذا الصدد . انما يزجون به بحكم الشعارات المعلنه . فلم يكن احد افراد الطبقة العاملة من منظِّرى الاشتراكية ، ولا أحد منظرى الاشتراكية من العمال . وكل إشاراتهم الى «ادب الطبقة العاملة» «وكفاح الطبقة العاملة انما» يقحم اقحاما عليها فالكفاح الحقيقى للطبقة العاملة هو الحركة النقابية التى تضيق بها الاشتراكية .

وقد اثبت التاريخ وجود افراد من الطبقة المميزة كفروا بشرعة التميز الطبقى ومنحوا ولاءهم للدعوات الشعبية سواء كانت اشتراكية او اسلامية كما ظهر افراد من الطبقات القاعدية خانوا طبقتهم لكى يحققوا مطامعهم .

مع هذا – فان تأثير الوضع الطبقى هو امر يقرره علم الاجتماع.وطبقاً له – فان وعى الطبقة الوسطى وعى فردى . بمعنى ان الفرد النمطى فى الطبقة الوسطى

يستهدف رفع مستواه المعيشى بوسائله الخاصة – وطبقاً لما ينتهى اليه اجتهاده وعادة مايسمح المجتمع البورجوازى للنابغين والاذكياء بتحقيق طموحهم وهذا هو سر المبادءات العديدة التى يحفل بها هذا المجتمع – وهناك خيط دقيق يربط مابينه وبين الحرية والطموح والمنافسة والقوة الخ .. ويكون هذا اثراءً للمجتمع . **ولكن يغلب ان يتم هذا على حساب الآخرين – او دون ملاحظة الآخرين . وقد اوجد الاسلام معادلة مابين حرية الافراد وعدل المجتمع . وعندما تضع الدعوات** الاسلامية هذه المعادلة نصب أعينها . فان غلبة الطبقة الوسطى عليها لاتثمر أثراً سيئاً ولكنها اذا غفلت عنها فسيغلب الوعى الفردى عليها ويمزقها . او يجعلها تسير فى أذيال المصالح الفردية لمجموعة القمة .

وهذا احد المخاطر التى يكون على الدعوات الاسلامية التنبه اليها . خاصة وانها مستهدفة لهذا الخطر بحكم نزعة السلفيه نحو الذاتية التى اشرنا اليها آنفا .

وقد يكون من الخير لها ان تجتذب العمال وتجعل الحركة النقابية من قواعدها ونحن نعالج هذه النقطة من ناحية الوعى . لا من ناحية كسب جمهور فعال للحركة ، وتأمينها من غدر الحكام ، فتلك نقطة اخرى تنبهت اليها الجهة الاسلامية فى السودان وكان لها تأمينها من انقلاب نميرى عليها . كما ان اغفال الاخوان المسلمين لها ادى الى نجاح ادعاء عبدالناصر تأييد العمال له فيما سمى اضراب مارس ١٩٥٤ ، رغم انه كان اضراب مفتعلا ، نحن هنا نشير الى ان ضم التكتلات العمالية سيوجد توازناً طبيعياً فى بنيان الدعوة الاسلامية وبهذا يؤمنها من النزعات الفردية – فضلاً عن ان العمال هم جماهير اصيلة فى الدعوة الاسلامية لانهم «المستضعفون» فى الارض الذين ينصرون الاسلام .. وينصرهم الاسلام .

● **والدعوات الاسلامية «ماضوية الروح»** ولا غبار بالطبع على الاعجاب بالماضى العظيم للاسلام او استلهام ثوابته . ولكن الدعوات الاسلامية **تريد ان تعيش هذا الماضى . وهذه مغالطة تاريخية فهى – عمليا – لا تعيش القرن الاول الهجرى ولكن القرن الخامس عشر وعليها ان تعايش هذا القرن والا فانها تلغى وجودها . كما ان عليها ان تفهم ان الاعجاب بالماضى لا يتنافى مع الاعجاب بالحاضر او العمل للمستقبل .**

فما اعظم مايحفل به هذا الحاضر من منجزات رائعة **للتقدم فى مجالات الحياة .**

وعلى كل . فان الله تعالى يحكم بالاعمال لا بالازمان . واذا كان هناك حديث يفضل «قرن الرسول» ثم الذى يليه ، فالذى يليه فهناك احاديث عديدة فى تمجيد الذين أمنوا بالرسول دون ان يروه . ويصلحون عند فساد الزمن . ولابد للدعوات الاسلامية ان تتأكد ان حماسها للماضى لن يكسبها الماضى . وسيخسرها المستقبل .

وهناك مفارقه اورثت الدعوات الاسلامية احدى سماتها المشتركة . فالايمان بالسلفية وحصر مداركها وثقافتها فى السلفيه من ناحية ، وعجز هذه السلفية عن معايشة الحاضر ، وهو أمر لا ينطلب برهنة فيما نرى – **جعل فكرها وثقافتها واحاديثها فى واد .. وعملها وممارساتها واهتمامها فى واد اخر .** وقبلت الدعوات الاسلامية هذا الوضع الشاذ كأمر مقرر لا غرابة فيه ، وتحدث الامام الشهيد حسن البنا رحمه الله عن طلبه بعض المعاهد الأزهرية يدرسون أحكام الصلاة ثم تقام الصلاة فلا يصلون . وانما يستمرون فى قراءاتهم !! . ويدرس كثير من الدعاه الاسلاميين أحكام الطهارة والرقيق والغنائم كما كانت عليها منذ خمسة عشر قرنا ، وبعدها مباشرة يركبون العربات الفارهة وكل مايفعله الواحد منهم هو ان يقول «سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين» وينسى انه يركب عربة لا دابة وقد تمر به عربته على النساء العجائز والمرضى الذين ينتظرون الاتوبيس المزدحم الذى لاموطأ فيه لقدم فلا يذكر الحديث «من كان عنده فضل ظهر فليركب اخاه» وقد يدعو الى الزكاة – هو لايدفعها ، ويستحث الناس على الانفاق وهو من ابخل خلق الله .. وقد يرى فى الشارع من يلبس الاسمال المهلهة فى الشتاء فلا يثير فى نفسه شيئاً وهذا المنظر جعل وجه الرسول يحمر «كانما فقىء فيه حب الرمان» ولكن «سيدنا الشيخ» لا يتصور ان منظر فقراء فى اسمال امر يدفع بحمرة الخجل الى الوجه .

ان الشقة الواسعة ما بين العلم والعمل فى الدعوات الاسلامية تخالف نهج الصحابة الذين كانوا لا يجاوزون حفظ عشر آيات حتى يعلموا مافيها من العمل . وعندئذ فحسب ، وبعد إن يروا أثر هذه الآيات التى حفظوها على سلوكهم ينتقلون لحفظ عير ما .

● **و؛ ن السمات المشتركة فى الدعوات الاسلامية أنها تضيق بحرية الفكر** – ولاتؤمن بها واذا كان دعاتها يقولون غير ذلك – فانهم يخادعون انفسهم والناس . فما يقصدونه بالحرية التى يؤمنون بها حريتهم أنفسهم . او مفهومهم الخاص لحرية

الفكر ، وأية ذلك انها ترى من البديهات مصادرة كل كتاب يخالف مايعتقدون و «تعزير» كل من يذهب غير مذهبهم واقامة الحد على المرتد – وعلى كل من يجحد معلوماً من الدين بالضرورة وهذه كلها قيود واصفاد واغلال على حرية الفكر فأية حرية يؤمنون بها بعد ...

وهم يلصقون بحرية الفكر كل نقيصة او تدهور أو تحلل . ولا يفهمون ان الحرية ان فتحت بابا لاراء شاذة فانها تفتح ابوابا تدعو الى الحقيقة . وان ادت الى فساد واحد معلن . فانها تقضى على عشرات من المفاسد غير المعلنه ..

وقد قرآت مقالاً يصور هذه النزعة فى صحيفة تصدرها باللغة الانجليزية جمعية اسلامية باكستانية فى انجلترا . يدور المقال حول دهشة سكان الكواكب الاخرى من كفر اهل الأرض وعدم ايمانهم بالاسلام . وان هذا دفعهم ليرسلوا رائد فضاء ليرى ماذا يعبد اهل ألأرض . وعاد هذا الرائد بعد ان قام بمهمته وقال لهم ان اهل الارض يعبدون اوثاناً . منها وثن يسمى «الديمقراطية» وهناك وثن يسمى «الأشتراكية» ولكن أقبح الأوثان جميعاً التى يعبدها اهل الارض هو وثن يدعى «الحرية»(١) !! .

● **يعسر على الدعوات الاسلامية ان تتقبل إعادة المرأة الى المجتمع بعد ان استطاعت السلفية ان تعزلها وان تحقق نوعاً من الفصل العنصرى يأباه الاسلام .** وان تجعل من النقاب جزءاً من الشعائر الاسلامية . وقد وضعته حينا احدى حركات المقاومة الافغانية فى شعاراتها التى اقتبستها عن الاخوان كما كانت هذه القضية من اسباب انفصال مجموعة من اعضاء الاخوان وتأسيسهم «شباب محمد» وكانت مجلتهم «النذير» حافلة بمقالات الحجاب وجاعلة من كلمتىً «وليضربن بخمرهن» شعاراً لها .

وحقيقة الحال ان ليس هناك فرق كبير بين زى الرجل وزى المرأة فى الاسلام فما من زى «رجالى» يكشف عن الصدر او الظهر او «يشِف» او «يصِف» والزى الرجالى التقليدى الذى يلبسه كل الرجال فى العالم انما يكشف عن «الوجه والكفين» والمفروض ان يوجد غطاء للرأس يغطى به الشعر هى القبعة عند الاوربيين والعمامة عند الشرقيين وهذا هو مايطبقة الاسلام على النساء مثلهن فى هذا كالرجال سواء بسواء اما ما يجاوز هذا فانه يعود الى عادات واعراف خاصة .

---

(١) قد تكون هناك استثناءات سنشير إليها فى أماكنها ولكنها تظل استثناءات .

وقد شاع الحجاب في الفترة الاخيرة ، واعتبر ذلك انتصاراً للاتجاه الاسلامي كما اعتزلت النشاط بعض الفنانات من المغنيات والممثلات والراقصات . ولا جدال في الدلالة الاسلامية لهذا . كما ان من المحتمل ان يكون من أسباب نجاح هذا ان الحجاب زى عملى وانه يريح المرأة من عملية تصفيف الشعر المكلفة والمتعبة .. ولاتزال القضية تنتظر حلاً يفصل بين قضية «التبرج» الذى نها عنها القرآن وبين قضية الزى والاختلاط التى تخضع للمبادى من ناحية ، وضرورات العصر من ناحية اخرى ومثل هذا الحل لابد ان يأتى من «مابعد السلفية ..» .

وكل واحد درس مكانة المرأة فى العهد النبوى يعلم حق العلم ان المرأة كانت تحضر الصلوات وتخرج ايام العيد الى الصلوات . وعليها ان تحج كما على الرجل . ويعلم ان المرأة كانت تحارب مع الرسول ﷺ وان الرسول منح بعضهم من الغنيمة . وتعلم طبعا ان اول من اسلم كان من النساء ، واول من استشهد كان من النساء ويعلم ان من النساء من كان يجير غير مسلمين فيجيز الرسول فعلهن . ويعلم ان الرسول امر بان لا تمنع النساء من الصلاة بالمساجد ويعلم نبأ تلك المرأة التى تصدت لعمربن الخطاب في المسجد وعارضته . وأخذ هو بقولها .

كل من يدرس الاسلام يعلم هذا ، ويعلم ماهو اكثر . ولكن القضية لم تكن – اوانها لم تعد – قضية اسلام . انها قضية تقليد او فهم معين . وقد أصبحت قضية المرأة اكبر مثال لعدم تمييز الدعوات الاسلامية مابين الاسلام .. ومابين التقليد وتفضيلها التقليد على الاسلام . وكاد التعصب لها ان يجعلها «عقدة» فى الهيئات الاسلامية . وقد دعينا الى ندوات ولقاءات اسلامية فى الولايات المتحدة وبريطانيا ، وفرنسا وانجلترا والمانيا . وفى كل هذه الاجتماعات أبعدت النساء فى مكان قصى غير مرأى او غير معروف وقيل ان دائرة تليفزيونية مغلقة تربط النساء بما يدور فى الجلسة . وفى احدى هذه المؤتمرات فى مدينة مانشستر كان من بين المدعوات شخصيات عامة فى مناصب العمل السياسى او العمل الجامعى ، ولكن هذا لم يشفع لهن . فقد أبعدن مع المبعدات . وحُرم المؤتمر من أرائهن وإضافتهن .

● **ويماثل هذا موقف الدعوات الاسلامية من الفنون ، ففى الوقت الذى يمكن ان يكون** ، بعضها دور اسلامى يعزز ، او يثرى ، الفكر الاسلامى . فلا مناص من النظر الى بعض الآخر منها على اساس انها من «حرث الدنيا» او هى «لهو الحديث» التى لاتلتزم ضرورة بالمقاييس الصارمة ، لانها انما تمثل الساعة الأخرى فى حديث

الرسول «ساعة .. ساعة» وليس معنى هذا ان تشجع الدعوات الاسلامية ذلك ، لكن ان تنظر اليه كجزء من ضرورات الابتلاء والاختبار فى الحياة ، او «اللمم» الذى يلم بالنفس الانسانية ساعة ضعفها .. وتكفر عنه الحسنات وانه بالنسبة لبعض الفئات – كالشباب يقوم بامتصاص جزء كبير من زخم الغريزة والشهوة التى يفرزها الجسم فى هذه الفترة ، وبدون هذا البديل يمكن ان يقعوا فيما هو أسوأ .

فلا معنى للضيق به او محاولة استبعاده لأن له دوراً فى المجتمع ، فضلاً عن ان محاولات استبعاده ستؤدى الى مفاسد اكبر من المفاسد المظنون ترتبها عليه .



لابد من الأشارة فى نهاية هذا الحديث عن القسمات المشتركة فى الدعوات الاسلامية الى ظاهرة جديدة **تلك هى تسرب نفوذ السعودية ودعوتها الوهابية الى الدعوات الاسلامية – واختراقها لبعضها . وتعود هذه الظاهرة الى نفوذ ودعم رابطة العالم الاسلامى ووجود فائض من خريجى الجامعات السعودية** وجهوا الى الدول الاوربية والامريكية والاسيوية الخ .. لنشر الدعوة الاسلامية . ومن الطبيعى ان يكون لهذا الاختراق اثر سىء وفى كثير من الحالات أدى هذا التدخل الى تمييع الدعوة او تفوقعها . او دخولها فى متاهات ، او غلبة العناصر الذاتية والعوامل المادية عليها . ولو أحسنت السعودية وارادت بمعوناتها وجه الله . لقدمت مساعدتها دون تدخل فى ادارة او سياسة الدعوة ولوجهتها نحو اقامة المبانى او تدعيم النشر والترجمة . وقد يكون هذا عسيراً ، ولكنه على الأقل حدث فى حالة نعلمها قدمت فيها رابطة العالم الاسلامى مساعدتها لهيئة اسلامية . وانتهت علاقتها دون اى تدخل او متابعة ، لنشاط الهيئة .



فى ختام هذا الفصل عن جريرة السلفية التى هى القاسم المشترك الاعظم على الدعوات الاسلامية ...

قد يتساءل قارىء «لماذا هذه المرارة أو الحدة فى نقد السلفية ..

والرد أولاً : إنه لحساب الحقيقة . وهى بعد أقل من النبرة التى يستخدمونها تجاه من يخالفونهم ، إن لم يحكموا عليهم بالردة ويستحلوا دماءهم ..

وثانيا : لانه لحساب الفكر والعقل ، فمن الغباء ان تكون سلفيين نسير وراء ابن تيميه ، فى حين ان من الممكن ان تكون قرآنيين ، محمديين نستلهم القرآن ونأخذ الاسوة عن الرسول.والغباء يجب ان لايدلل ويتسامح معه ..

وأخيراً فلأنى تابعت بنفسى انتشار وشيوع الدمامة والغفلة والاستخذاء والعقلية النقليه جنباً الى جنب انتشار وشيوع السلفيه .

ونحن نؤمن انه حيث يكون الاسلام ، يكون العقل والحرية ، والجمال والاقدام ، والخير والسلام .

الفصل السادس
دعوات اسلامية صاعدة

تمهيد :

شهدت الثمانينات ظهور دعوات إسلامية وثابة تتسم بقدر من الحيوية والفعالية ، ويقف بعضها مابين الدعوات الإسلامية الكلاسيكية (الإخوان والجماعة الإسلامية) ، ومابين الصورة المنشوده للدعوة الإسلامية ، وقد يبدأ بعضها حيث انتهى الإخوان ..

وقد لانعدم خيوطا من التأثر بأفكار الرافضة الجديدة أو بقايا أدعياء السلفية تجرى بين أنسجة بعضها .

ومعظم هذه الدعوات تخوض معركة مريرة مع الدعوات الأخرى أو مع النظم الحاكمة ..

وسنعرض هنا لخمس دعوات منها اخترناها لأنها أبرز الدعوات على الساحة ، ولأن لنا معرفة ببعضها يخول لنا الحديث عنها بحكم اللمس والخبره ، وهذه الدعوات الخمس هى :

- الجبهة الإسلامية فى السودان
- جبهة الإنقاذ فى الجزائر
- دعوة الشوريين التعاونيين فى اليمن
- دعوة النهضة الإسلامية بتونس
- الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل

☆ ★ ☆

أ – الجبهة الإسلامية القومية فى السودان

تعد الحركة الإسلامية فى السودان التى تقودها الجبهة الإسلامية من أهم وأرجى الحركات الإسلامية المعاصرة ، فضلاً عن الأهمية الخاصة للسودان بصفته الدولة التى تحمل الإسلام والعربية إلى أعماق القارة الأفريقية .

وقد تضافرت عوامل عديدة لأن تنجح الحركة ، ولأن تقطع شوطا لماتقطعه معظم الحركات الإسلامية الأخرى ..

من هذه العوامل مايتعلق بالسودان نفسه ، ومنها مايتعلق بظروف الدعوة ، ومنها مايتعلق بقيادتها .. فالسودان بلد مسلم .. ظهر إلى الوجود كدولة مستقلة بفضل ثورة المهدى وتحت رايات تحمل شعار : «لا إله إلا الله» وهو نفسه الشعار الذى دوى بعد ذلك بمائة عام تقريبا عندما أراد السودان أن يعلن هويته الإسلامية فى المسيرة «المليونية» كما أطلق عليها ابتهاجا بتطبيق الشريعة[1] .. وعلى أعلام المهدية – كما فى هتافات المسيرة – لم يكتب أو يرتفع سوى : «لاإله إلا الله محمد رسول الله» .. رأينا ذلك بأعيننا وسمعناه بآذاننا[2] .

وكان من حسن حظ السودان أنه لم يعرف «البيروقراطية» والمركزية التى تأثلت فى جارته الشمالية ..

فقد حال دون ذلك انفساح الأرض ، والاعتماد على الامطار ، وأن الرعى كان أغلب من الزراعة ..

---

(١) وهى المسيرة التى نظمها النميرى احتفالاً بمرور عام على تطبيق الشريعة ، واطلقت عليها الصحف السودانية هذا اللقب . بعد ان قيل انها ضمت مليونا من السودانيين .

(٢) رأيناه على رايات المهدية المحفوظة فى المتحف ، وسمعناه خلال حضورنا للمسيرة .

فلم تظهر النظم المركزية ، أو طغيان السلطة وإنما : العرف ، والعفو ، والتلقائية .

كما لم توجد في السودان «الموسسة الدينية» التي تبسط نفوذها على الإيمان ، كالأزهر في مصر ، والمراجع والحوزات في إيران ، وإدارة الفتوى في السعودية .. إلخ .

وإن كانت قد رزقت أسرتين اكتسبتا قداسة دينية وطاعة صوفية ..

وكان يمكن أن يقفا في طريق الدعوة الإسلامية الناشئة ، ولكنها - بكياسة - حيدتهما كما يقولون ..

أو أن الأسرتين لم يريا من الحكمة أن يناطحا الحركة أو يدعاها تنطحهما .

ومن الظروف الخاصة بالحركة الإسلامية في السودان أنها وإن تخلفت شيئا عن الحركة في مصر ، إلا أنها رزقت وجودا متصلا ونشطا من الخمسينات حتى الآن .

وكانت في فترات المحن «تكمن» وتعمل تحت الأرض ولاتسمح للسلطة بضربها ، وكانت في هذا تشبه الشيوعيين الذين يعملون تحت الأرض أكثر مما يعملون فوقها ، ولعلها تعلمت هذا الدرس منهم .

وكان وجود حركة شيوعية نشطة في السودان من العوامل المؤثرة على الحركة الاسلامية السودانية ، ولم يكن هذا الأثر سيئا كله .

وتميزت الحركة الإسلامية في السودان بأنها وهبت قائداً عمل منذ أن كان طالباً في الصفوف حتى دفعته مواهبه لأن يكون «الربان» الذي يمسك بدفتها ويديرها بحكمة واقتدار ، وتوفرت فيه الثقافة المدنية والفقهية ، فضلاً عن التجارب الطويلة والمريرة مع الأحزاب والحكام والشيوعيين والهيئات الإسلامية الأخرى .

وندعو الله أن يوفقه في مهمته بحيث يخلص من (الغرور) و(السراب) وهما اللذان يوقعان بكل ربان لم يرزق الحنكة والتوفيق .

وقد سجل مسيرة الجبهة في كتابه «الحركة الإسلامية في السودان» الذي استعنا به في بعض ماجاء في هذا الفصل .

☆ ☆ ☆

ظهرت بداية الحركة فى الخمسينات - كثمرة من ثمرات الإخوان المسلمين - على أيدى طلبة كانوا يدرسون بالقاهرة ، وبفضل الدعاة الذين أرسلهم الإخوان المسلمون إلى السودان ، وحملت الحركة اسم «الإخوان المسلمين» وكان هذا نوعا من التوفيق ، إذ قدم نواة سليمة (وكان يمكن أن تتخبط الحركة الوليدة قبل أن تصل إليها) وأضفت عليها بعض صفاتها : كالمرونة ، والاعتماد على الطلبة ، والتأثر بعاطفة «الحب فى الله» ..

وأدى ذلك لأن لا تتأثر الدعوة الناشئة بهواجس الاستقلال ولابنوازع الاستتباع فهذه لم تكن واردة .

ولكن الوارد كان تكييف هذه النواة بما يتطابق مع أوضاع السودان لأنه هاجس موضوعى يتطلبه الوضع .

وقد ادى الاختلاف فى الاجتهادات لظهور مجموعتين :

أقلية : تمسكت بالصورة والمضمون الإخوانى .

أغلبية : سارت بالنواة والبداية بحيث حققت قدرا من الحفاظ على الثوابت والتجاوب مع المتغيرات ، وانتهت بعد تجارب عديدة لأن تحمل اسم «الجبهة الإسلامية» مما قد نعرض له فيما سيلى .

وكانت المراجع الفكرية للدعوة الناشئة هى كتابات «حسن البنا» ، و«المودودى» . وعندما وصل فكر «سيد قطب» لم تستسغه الحركة السودانية واكتشفت - بتلقائيتها - مافيه من تعسف فى تكييف الدعوة وفى أسلوب حملها فلم يرزق شيوعا .

وعندما ابتلى السودان بأول حكم عسكرى[1] تداعت إلى ذهن الحركة السودانية انعكاسات الحكم العسكرى فى مصر رغم الاختلاف الكبير بينهما : فالفريق عبود (دُعِىَ) تفريبا للقيام بانقلابه من السلطات الدستورية الحاكمة .

وأدى هذا لأن : (تكمن الحركة كمونا حادا لأول عهد حتى كادت تجمد نفسها) ..

ولكن الانقلاب لم يكن ضاريا ؛ فترك الحركة فى كمونها ، وسمح للطلاب بقدر من الحركة والعمل بحكم الحصانة الجامعية ، وكان روادها من طلاب الخمسينات قد تخرجوا وأصبحوا يشغلون المناصب فى الحكومة والادارة والجامعات فتولوا قيادتها .

---

(١) الفريق عبود عام ٥٩ - ١٩٦٤ .

وكانت قيادة شبه جماعية بحكم تساوى القدرات ، وعدم وجود «شيخ» كبير يفوقهم سنا وتجربة .

وتبدت أمام الحركة للمرة الأولى قضايا مثل : جدوى الأسلوب التربوى - ماهية الحركة وهل هى هيئة للضغط السياسى أم حزبا يطلب السلطان ؟- العلاقة بالسياسة وبالقوى السياسية .

وانتهت هذه القضايا المختلفة إلى مراجعات دستورية فصلت فيها القضايا المختلفة(١) .

وفى عهد ثورة أكتوبر (٦٤ - ٦٩) وعودة الحكم الحزبى انطلقت الحركة من كمونها وجاءت الانطلاقة من الطلاب ، وطمحت الحركة لأن تصبح محورا لولاء شعبى منتظم لأول مرة : فأقامت «جبهة الميثاق الإسلامى» مؤسسة على منهاج مكتوب وضعته الجماعة وجمعت حوله الجماعات الإسلامية والأفراد فى حركة سياسية موحدة ، كما أقامت تنظيمات للشباب والنساء ، واحتفظت فى الوقت نفسه بقدر من الاستقلال .

وحدث فى هذه الفترة ماأراح الحركة الإسلامية - مؤقتا - من عدوها اللدود (الحزب الشيوعى) : ففى ندوة أقيمت لمناقشة موضوع البغاء توقح أحد الشيوعيين فقال : إن البغاء كان يمارس فى بيت الرسول !!

فاندلعت ثورة الجماهير ، ولم تهدأ حتى اقتلعت الحزب الشيوعى وتوصلت إلى حله .

«وفى أخريات هذا العهد استفحلت الثنائية فى الحركة بين التنظيم الداخلى وبعض جبهاته الخارجية ، ولاسيما بين مافى الجبهة من معان تربوية وسياسية متقابلة ، أو من قيادات مشهورة وأخرى مغمورة ، وأدت هذه الثنائية إلى خلافات حادة اتخذت صورا تنظيمية وشخصية هزت كيان الجماعة هزًّا شديدًا وانتهت بها إلى الجمود فى الحركة العامة فى أواخر العهد ، ولكنها على الأقل أثارت قضايا القيادة مرة أخرى بين قيادة جماعية أو فردية وأثارت قضية التوازن بين التركيز التربوى لقاعدة جماهيرية - وكيفها والانتشار الدعوى والسياسى لصفها وولائها وكمّها - وأثارت

---

(١) «الحركة الإسلامية فى السودان» للدكتور حسن الترابى ص ٢٨ ومابعدها .

قصبة الاجتهاد الذاتى للحركة وعلاقاتها بالحركة الإسلامية العالمية ، وقد استقرت الأمور فى النهاية إلى مراجعات فى الدستور فى آخر هذا العهد توحدت بها الجماعة وحسمت خلافاتها» .

واتسمت الفترة من ٦٩ – ٧٧ بقدر من المجاهدة مع حكم نميرى (أو نظام «مايو» كما يقول السودانيون) الذى جاء على أسنة الرماح وبدعم شيوعى .

وتحالف هذان على الإسلام وظنا أنهما سيقضيان على الحركة ! وهيهات فقد أبدت الحركة معارضة قوية تجلت فى اعتصامات جامعة الخرطوم والتعاون مع الأنصار عندما أغار عليهم «نميرى» وسلط عليهم الطيران فى مجزرة «جزيرة أبا» ..

وأعقب هذه العداوة مصالحة خلال الفترة من ٧٧ –٨٤ :

فقد كاد نميرى أن يفشل وانقلب عليه الشيوعيون وكادوا أن يودوا به ؛ فتذكر الحركة الإسلامية التى أراد أن ينكل بها وما أبدته من صلابة ، فأقام معها نوعا من المصالحة – كانت مصالحة على دَخَن – فالجبهة لم تنس ماضيه ، وهو – أيضاً – لم يبتغ بها وجه الله .

فأصبح كل واحد حليفا لدودا للآخر يتربص به .

وإن كان كل واحد قد كسب منها : فاستبقى نميرى نظامه المنهار لفترة ما ، بينما انتهزت الحركة الإسلامية الفرصة فمكنت لنفسها ، وأحسنت استغلال الوقت والإمكانيات . وكان ابرز ذلك : إقامة اقتصاد إسلامى ساند الحركة دون ريب ، وترسيخ الحركة وتدعيمها بقطاعات من التنظيمات الطلابية والنسوية والعمالية .

«وأعدت نظم لامركزية ، ورتبت سياسات التطبيق وأولياتها ، ودربت العناصر لتولى تبعاتها ، سوى أن الخطة لم تنفذ إلا فى هذا العهد لأنها كانت تحتاج لبعض حرية ولتهيئة القاعدة وتوسيعها لاحتمالات اللامركزية»[١] .

وكان الفصل الأخير والحاسم فى هذه الفترة هو : «تطبيق الشريعة الإسلامية» .

وقد انساق نميرى إليها نتيجة لازدياد المد الإسلامى ، فأراد أن يكسب الشعبية ويجرد حلفاءه (الجبهة الإسلامية) من ورقتهم الرابحة .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٤ .

وكان النكث بحلفائه من خصائص حكم نميرى : فأعلن تطبيق الشريعة وسكب في النيل زجاجات الويسكي النمية وأقام محاكم الشريعة الناجزة ولم يشرك حلفاءه في هذه المبادءات .

ولم يكن حلفاؤه (الجبهة) حريصيين على الظهور ، لأن التجربة – وإن كانت من المطالب الرئيسية لهم و حققت بالفعل بعض أهدافها : فاستتب الأمن وأغلقت تلك المحال التى كانت تبيع الخمور الرخيصة الضارة وكانت تكتظ بروادها – إلا أن تطبيقها اتسم بشىء من العجلة فوّت بعض مقاصد الشريعة التى يعلمها الفقيه ويجهلها الحاكم .

وبعد مرور عام على التجربة أقام نميرى مؤتمرا دوليا دعا إليه ممثلى الدعوات الإسلامية فى العالم ليشهدوا شعبيته فيما أطلق عليه «المسيرة المليونية» .

وكانت دليلا لايدحض على تمسك الشعب بتطبيق الشريعة وحماسه لها ..

ولعل نميرى قد تطرق إلى نفسه شىء إذ لم يسمع هتافا واحدا له ، أو كتابة على يافطة سوى :

«لا إله إلا الله ، محمد رسول الله»

وتبين بعد هذا أن هذه المسيرة الرائعة لم تكن من تنظيم اتحاده الاشتراكى ، ولكن من الإسلاميين .

فجُن جنونه ، وانقلب على الجبهة الإسلامية ، وأشبعها تنديدا وتقريعا أعاد إلى الأذهان تعبيرات عبد الناصر وحاشيته على الإخوان ..

ثم انقض على قادة الجبهة وزج بهم فى السجون ، متصورا أن يفعل فى السودان مافعله عبد الناصر بالإخوان فى مصر !

ويأبى الله ، ويأبى شعب السودان ...

فقد كانت الحركة قد دعمت قواها بقواعد شعبية منظمة تحركت فورا وتفاقمت المظاهرات والاضرابات .

وقادتها نقابة الأطباء ذات التوجه الإسلامى .

وكان نميرى قد عين المشير عبد الرحمن سوار الذهب قائدا عاما للجيش قبل أن يمضى لإحدى جولاته الخارجية ، ولما جوبه المشير سوار الذهب بالجماهير الهادرة وأريد منه قمعها رفض أن يأمر الجيش السودانى بضرب شعب السودان .

وكانت تلك نهاية نميرى :

فقد أعلن سوار الذهب فترة انتقالية لمدة سنة يشرف فيها الجيش على السلطة حتى ينتخب الشعب ممثلين له .

وأجريت بالفعل انتخابات عامة حرة فى الميعاد المحدد ، وسلَّم المشير سوار الذهب السلطة للممثلين الشعبيين فى سابقة لم تعهد فى العسكريين ..

ومن سوء الحظ أن رأس هذا العهد زعيم حزبى اشتهر بالمناورة والسياسة الحزبية ، ولم يكن الوقت هو وقت المناورة الحزبية ...

فساءت الأمور حتى اضطر الجيش للتدخل فيما سمى «ثورة الإنقاذ الوطنى» بعد أن تدهورت الأمور تدهورا لايمكن السكوت عليه .

وقد عرض الدكتور حسن الترابى لبعض ماتعرضت له الحركة الإسلامية بالسودان من مآزق وكيف خلصت منها فقال :

« .. من بعد الوقوف عند المطلقات والمجردات والعموميات والعالميات فى دعوة الحركة وفكرها ، تطور بها الأمر نحو الواقعية ، فالتطور المضطرد فى وظائف الحركة نحو التحامها بشأن المجتمع تطور بها من الهموم الخاصة إلى هموم المجتمع وإلى التفاعل مع قواه الفاعلة فتطور خطابها من الالقاء به مجرداً عاماً من بعيد الى تصويبه على حاجات المجتمع وأوضاعه وقطاعاته .

ومن بعد التعويل على الفكر الوارد من الادب الاسلامى العالمى ، اضطرت الحركة الى التفاعل الفكرى مع الواقع المعين ، فغدا فكرها من ثم موصولاً بالمكان والزمان ، أى بالسودان وبقضاياه المحلية أو بالقضايا العالمية كما تنعكس أصداؤها فيه . ومن ثم غدا فقهها للدين علموياً واستقرائياً يتبصّر الواقع ويرسم فى ضوئه الخطط والتدابير العملية ، بل يعتمد التجريب ليتبينَ ما هو أوفق فى سياق ذلك الواقع .

وبدأ الفقه لديها – من بعد التنطع النظرى والتحكم القطعى والعموم – ما هو ميسور فى طرح قواعد الدين الكلية ، يتجه نحو المرونة ويتصوب نحو الأوضاع الراهنة والأقضية الحادثة ويتكيف حسب وجوه تطوراتها ووقائع تقلباتها وينزل على دقائقها مفصلاً تفصيلاً . وإذ لم يعد كله خطاب دعوة وجدل يورث الإقناع أو وعظ يجيش عاطفة الإيمان – اكتسب صفة من الموضوعية ومن خطاب البيان الذى يشرح ليهدى العمل وليمهد لتطبيق الأحكام .

فمن القضايا العملية التى أثارها تاريخ السودان وتناولها فكر الحركة متفاعلاً بتوجهه ومنهجه مع الواقع : تصور دستور إسلامى للسودان [١٩٥٦ - ١٩٦٥ م] ، وكيفية تحرير المرأة المسلمة ونهضتها بالسودان [١٩٧٤ م] ، ومشروع نظام للمعاملات الاقتصادية الإسلامية [١٩٧٧ م] ، وسياسة تطبيق القوانين الشرعية [١٩٨٣ م] ، واقتراح لعلاقات الجنوب السودانى وأوضاع أهله من غير المسلمين [١٩٨٦ م] ، والتصور الدينى لتعاطى الفن الحديث [١٩٨٢ م] ، وفقه السياسة الشرعية فى العلاقات الخارجية وفى شئون الأمن والدفاع فيما يخص السودان [١٩٨٧ م] .

ولعل من آثار اتجاه فكر الحركة نحو الواقعية والفعلية أنه أصبح فكراً حركياً لايعنى كثيراً بالمناظرات . فمهما ظل محتاجاً للحوار النظرى مع اليساريين والليبراليين فى القطاع الحديث من الحياة ، وأصبح بعد أن اتصل بسواد المجتمع مواجهاً بشىء من الإنكار والجدال من التقليديين – إلاّ أنه عزف تماماً عن الدفاعيات والتبريرات والإعتذاريات الاولى حتى ان بعض المراقبين لاحظوا ان الحركة فى السودان اشتطت زهداً فى الحوار النظرى مع الاطروحات التى تشاركها الساحة العامة . ومن تفهموا اجتناب المراء مع السلفيين والصوفيين والعلماء فى سبيل تأليف الجبهة المسلمة الحساسة للنقد لهم لم يفهموا كيف تكفّ الحركة عن التيارات المتجهة للمروق من الملّة كالشيوعيين المنكرين للدين وبعض العلمانيين المنكرين للشريعة وأتباع محمود محمد طه المتنبىء برسالة ثانية ناسخة لشريعة الرسول ﷺ . ولكن الحركة استخفّت بهذه التحديات مهما كانت مثيرة فى ذاتها – تقديراً لكونها فى الواقع لا تمثل كبير خطر ولا ضرر ولا تستحق أن تنصرف إليها الحركة بالجدل وتنشغل عما يجدى من تجاوزها بالحركة العملية فى واقع المجتمع .

ومن صور المنحى الواقعى فى فكر الحركة أنها آثرت التفكر على التفيهق ، والمشاورات على إلمجادلات . فهى لاتجنح للتشفيق النظرى للقضايا الخلافية ولا لإلقاء الفتاوى الفقهية الحاسمة ، بل تطرح أحكام الشرع كأنها خيارات موازين متراجحة ثم تبسط حقائق الواقع بتقديرات استقرائية مرنة ثم تدير الشورى حول ماهو مقتضى الدين فى الموقف الراهن أو الأمر الحادث .

وقد سلمت الحركة الإسلامية بالسودان من علة التنظيرية المفرطة التى أصيبت بها بعض الحركات التى تقل مفعولاتها وتكثر مقولاتها فتكاد تعيش إسلامها كله نظراً وفكراً . وقد تعرضت الحركة ثم سلمت من اتجاهات كثيرة راودتها نحو الإيغال فى التفيقه والولع بتعاطى الفقهيات التقليدية لأكثر مما يستدعى العمل . ومن أمثلة ذلك أنه عندما كُبت النشاط السياسى والتنظيمى فى عهد مايو فرغت عناصر من طلبة الحركة للتتلمذ على آخرين فرغوا للعكوف على كتب الفقه والتبحر فيه اختصاصها ، حتى زُيّن لهم أن الدين كله فى احتمال الفقه المكتوب وتناقله ، وأن تدبير شأن الحركة جميعاً يرجع إلى فتاوى من نصوص ذلك الفقه ، وأن ماخرج[1] من المتن والشارح ليس يُرجى منه صالح ، وأن ماليس فى حرف النص الظاهر ليس وراءه طائل . فنشأت مدرسة فقهية تقليدية بمشيختها وتلمذتها وأنماطها وآدابها المعهودة ، وبلغ بها العجب بأمرها أن تمثلت نفسها السلطة الدينية الحقة التى يمكن أن تتحدى مختلف الأطر التنظيمية فى الجماعة وأن تزدهر سائر المهام الحركية الراتبة ، ولكن أمرها تلاشى بعد سنوات الكبت .

وفى تقييمه العام للحركة قال :

ويمكن أن يحُاسب المرء الحركة بعمرها الممتد لنحو أربعة عقود فيحكم بأنها قصرت عن بلوغ ماكان يمكن من التمكن . ويمكن أن يتعزى عما فاتها بما أدركته من كسب يقدر حين يقاس إلى مبلغ القوى المنافسة لها فى الساحة الوطنية أو إلى نيل القوى الإسلامية المثيلة فى الساحة الإسلامية العالمية .

فقد عمرت الحركة أصول التدين ومدتها فى السودان قصوبت ونشرت المفهومات والمعلومات الدينية ، وأحيت شأن القرآن والسنة ، وعمرت المساجد وأقامت الشعائر ، وقومت الأخلاق وأشاعت الالتزام فى السمت والسلوك ، ونشرت الدعوة إلى ملة الإسلام . ولا يُضارع وقعُ الحركة فى ذلك بالطبع رصيد حركات العلم

---

(١) كذا بالأصل ولعلها عن .

والتصوف والجهاد السالفة في المجتمع التقليدي . ولكن مغزى الحركة كان كبيراً جداً في حفظ التدين في القطاع الحديث المتعرض للفتنة والرائد لنشاط النهضة . فقد ثابت الحركة بغالب طلاب العلم الحديث إلى الدين وصرفتهم عن مصير المسخ والاستلاب والفسق والانتهاء إلى الأصالة والاستقامة والجد والعطاء . كما آبت بالنساء إلى الدين بعد الغفلة وعتقتهن من أسر الأعراف وألهمتهن استقامة ورسالةً إيجابيةً في الحياة بعد خطر الفتنة والضياع . وقد هيأت الحركة عامة المجتمع لوجوه من حياة التدين في الإطار الحديث . فقومت من أصول الولاء الديني التي أفسدته الطائفية ، ووحدت بالإسلام شيئاً ما بين العامة والمثقفين الذين كادوا أن يغتربوا عن مجتمعهم ويغادروه شقين متجانسين . وطورت الحركة صوراً جماعية منهجية حديثة تجسد التقاليد السابقة في فعل الخير وعمل الصالحات على صعيد الفرد والإطار المحدود ، ووجوها حضرية متطورة لأنماط التدين وأعرافه الساذجة القديمة . وقد بسطت الحركة ثقافة عامة بعلوم الإسلام ، وطرحت فكراً توحيدياً تجديدياً واجتهادات نظرية وعملية مؤصلة . **ولكنها ما انفكت عاجزة أن تقاوم عقابيل الموروثات الجامدة والمجلوبات الفائتة** ، ولم تبلغ من آثار تعميق فكرها وتعميمه مثل شأن المذاهب الفقهية في ماضي المسلمين أو المذاهب الوضعية في حاضر العالم . بل إن مستوى النظر التجريدي والتطبيقي في فكرها ما زال قاصراً ، ومدى التحرير والنشر ما زال حاسراً بالنسبة إلى المنافسة الفكرية والحاجة العملية القائمة . وقد سبقت الحركة في الاهتمام بشئون الاقتصاد بينما انحبست غالب حركات الإسلام في الثقافة والتربية السياسية أو زهدت وفرطت لغيرها من القوى في تصريف العامل المادي في التاريخ . لكن الحركة لما تولد من همومها الاقتصادية فقهاً وافياً وافياً لمسائل التنمية والعدالة ، ولا قدرة كافية على الاستصلاح والاستغناء والاستقلال الوطني . وربما عد كسب الحركة السياسي حافلاً بما طورت من أساليب الدعوة والتعبئة والمناصحة والمنافسة والمشاركة والمعارضة والمصالحة والمجاهدة والتدبير الأمني والتخطيط السياسي . بل يمكن أن يدعي لها المرء أنها كسبت من الخبرات وبسطت من السياسات وبلغت من النضج والنفوذ مالم تقاربه حركة إسلامية أخرى . ويمكن أن نذكر بعض ما تحقق بذلك الجهد السياسي الفعال . فأول تصدياتها السياسية كانت للحركة الشيوعية واليسارية التي كانت تستشري بقوة مخوفة أن تتمكن من قيادة السودان كما تمكنت من بلاد مثله . ولكن الحركة الإسلامية إستخلصت ناشئة السودان من الشيوعية

واستنقذت البلاد من غائلة التسلط الشيوعي . ثم تصدت الحركة للنظام اللاديني الموضوع على السودان فزلزلت أصول اللادينية السياسية التي يستصحبها وفرضت شعار الإسلام في الدستور والقانون والنظام العام مهما أعياها الى الآن أن تجعل الشريعة الإسلامية هي فعلاً أساس السلطان والحياة العامة . وقد قامت الحركة في أواخر عهدها تحاول إرساء أساس جديد للوحدة الوطنية في وطن مزقته العصبيات العرقية والطائفية والجهوية ، وتُحاول حماية هويته الدينية والثقافية وحرمته الإقليمية من هجمة شرسة تستهدف ملته ولغته وقونه ووحدته واجتياح أطرافه واستلاب سيادته . ولم ينحسم بعد مصير السودان توحداً واستقلالاً ، ولكنَّ الحركة لم تركن كغيرها للغفلة والعجز ، بل قدمت مشروعها لإنقاذ البلاد بمد قاعدة للولاء القومي الجامع واقتراح معادلة للتوفيق بين الوحدة والتعدد واتخاذ مواقف للعز والدفاع الوطني .

ولم يحتبس أثر الحركة في أفقها المحلي ، بل تعداه إلى آفاق العالم . فقد كانت تقتدى بنماذج الدعوة والتربية والتعبئة والفكر والتنظيم والجهاد في صحوة الإسلام العالمية وتعتبر بتجاربها ، فأصبحت بعد الاجتهاد مثالاً مستقلاً بين الحركات الإسلامية في العالم يُنكَر منها ويُرضى ، ثم انقلبت بعد الاستواء قدوة مقدرة صلاتها عامرة وتأثيراتها ظاهرة في كل الساحة الاسلامية . ولئن لم تصبح بعد دولة كاملة تضارع الدول ، فإن تفاعلاتها العالمية ميزتها عن كثير من الحركات وجعلت لها وزناً وحساباً محسوباً لدى الدول» . انتهى

هذا تقييم عادل بذكر الإيجابيات والسلبيات .. ومقارنة موقفها من الفقه الاسلامي بموقف حزب التحرير يوضح الفرق الشاسع بين موقف «يتفهم» روح الفقه ويحسن توظيفه ، وموقف يلتزم بنص الفقه ، ويسمح له بتقييده .

ونرى أن الحركة الإسلامية في السودان قد وصلت — بقيادة الجبهة الإسلامية — إلى آخر ماتسمح به السلفية الأصولية ، ولو جاوزت هذا المدى لماظفرت بالتفهم .

والتنظير المجرد الذي يستهدف المستقبل لا الحاضر هو الذي يضع المعالم للحركة لتبدأ مرحلة جديدة لايكتفي فيها «بإصلاح» أصول الفقه ، ولكن بالبحث عن فقه جديد للواقع الذي نعيشه أمتنا كما عاش الأئمة والصحابة ظروف وواقع أزمانهم ..

(١) المرجع السابق ص ٣٠٤ — ٣٠٦ .

وهذا كله لايسمح به الفهم السائد الآن ..[١] .

مقارنة :

ومقارنة «عمل «الجبهة الإسلامية» فى السودان بعمل المدرسة الأم «الإخوان المسلمين» فى مصر توضح لنا كيف أنقذت الجبهة الإسلامية بإيجابياتها وفعاليتها المجتمع السودانى من التدنى إلى درك الفساد والتحلل بينما سمحت سلبية واستخذاء الإخوان فى مصر بازدهار الفساد وسيادة الادعاءات والزيوف من كل نوع وفى كل ناحية ، وظهور «مافيا» تحميها ، وهيئات ضغط ، ومنتفعين كلهم يعملون لمصلحتهم الخاصة بحيث تقطب المجتمع المصرى بين قاعدة شعبية مطحونة لاتبلغ أجهزة الإعلام ولاتسمع صوتها وليس لها قواعدها المنظمة التى تتحرك ..!

وبين «شللية» المصالح المكتسبة التى وضعت أيديها على مراكز النفوذ فى المجتمع وترفع زيوفها فى جرأة وصفاقة ! ..

صحيح ان مصر ليست كالسودان ؛ فمصر فى وسط العالم وملتقى ثقافاته ، وقد ابتليت بالناصرية التى أفسدت كل شىء ، وخلفت ديولاً وقلبت المعايير والمقاييس .. إلخ .

مع تقديرنا لهذا فإن الإخوان كانوا يستطيعون على الأقل كبح جماح الفساد المستشرى والمفترى ..

---

(١) نعتقد أن من الأمور الهامة أن تنشر الجبهة الإسلامية فى دراسات مستقلة معالجاتها للقضايا التى تعرض لكل الدعوات الإسلامية حتى تفيدها بثمرات تجربتها وخبراتها خاصة وأن معظمهما لم يحسم ، كقضية التربية ودورها فى الدعوة ، وقضية هل الحركة الإسلامية هيئة ضغط أو حزب حكم ؟ ، وقضية العلاقات فيما بينها وبين الأحزاب الأخرى أو الحكم وهل تدخل فى تحالف ومصالحة أو ترفض ، ثم أخيرا قضية تطبيق الشريعة وما أسفرت عنه التجربة السودانية ..

هذه كلها قضايا خاضتها الحركة الإسلامية فى السودان وعانتها وتصدت لها بأكبر مما حدث فى معظم الحركات الإسلامية الأخرى .

الجبهة ونظام الحكم القائم :

لا يمكن إنهاء الحديث عن الجبهة الإسلامية دون الإشارة إلى علاقتها بنظام الحكم القائم ..

ولاجدال فى أن هناك علاقة وثيقة بين الجبهة وبين ضباط «ثورة الإنقاذ الوطنى» ..

وقد كان لدى الجبهة الحنكة التى أوجدت هذه العلاقة قبل الانقلاب ، واحتفظت بها ، وتسترت عليها بعده ولمدة عامين تقريبا من قيامه .

وبالتالى فإن نظام ثورة الإنقاذ الوطنى محسوب عليها إلى حد كبير ..

فهل يمكن اعتبار هذا الحكم إسلاميا ؟

وقد يقال قبل الحكم عليه بمعيار إسلامى : هل كان من الضرورى أن تأتى «الثورة» فى صورة انقلاب عسكرى يقوم به ضباط ؟ .. رغم المَثُلات السيئة التى مربها المجتمع الإسلامى من حكم الضباط .

هذه ناحيه لا نعالجها لأنها أقرب إلى الأكاديمية التى لايتسع لها المجال ..

وقد يكون هناك من الظروف ماألجأ الجبهة إلى هذا الخيار الصعب ..

والمهم – فى الملاذ الأخير – هو سياسة الحكم ، وليس زى الحكم : وهل هو «عباءة فضفاضة» أو «بدلة كاكى» ! ..

وفى نظام الحكم السودانى القائم إيجابيات كثيرة ، وقد أنقذ السودان من حكم المناورات الحزبية التى لاتستفيد منها سوى «شلة الحزب» على حساب مصلحة البلاد .

ومع هذا يثور التساؤل :

هل أغرقت ضرورات الحكم مثاليات الفكرة ؟ ..
هل طغا الواقع على المثال ؟...

إننا فى الوقت الذى نقدر فيه الموقف الصعب الذى تقفه الحكومة إزاء المؤامرات الدولية ، والظروف السيئة التى تكتنف السودان ، فليس من السهل على السياسى

المسلم أن يتقبل تقييد الحريات خاصة حرية الصحافة التى يمكن أن تحل محل «التكتلات» وتقوم بدورها فى عرض وجهات النظر دون السوءات العملية لقيام التكتلات[1] .

كما أن تجربة النظام الاقتصادى تستحق وقفات عديدة :

فمع أن الضباط القائمين بالسلطة فعلا علي جانب من التقشف والتجرد فإن النظام احتفظ بمجموعة كبيرة من أصحاب الأموال والأعمال من تجار أو مصرفيين ولم يمسهم بفكرة أنهم يمثلون الاقتصاد الإسلامى ..

ولم نر فيهم «عثمانا» ! أو «عبد الرحمن بن عوف» ! دع عنك «أبابكر» !! الذى تبرع بماله كله ..

وقد اضطرت الحكومة إلى اللواذ بصور من الإجراءات التى تكاد تصل إلى المصادرة ..!!

وكان يمكن «بالإيمان» الوصول إلى النتائج المطلوبة ..

ولعل التحدى الأكبر أمام النظام والجبهة هو إبداع اقتصاد إسلامى له «الوجه الإنسانى» الذى يجب أن يميز الاقتصاد الإسلامى عن الاقتصاد المادى فى الرأسمالية ، والاقتصاد الصارم فى الاشتراكية (الذى ثبت فشله رغم كل الادعاءات) .

أما قضية تطبيق الشريعة فقد كان لدى الجبهة من الحنكة والنضج ماتعلم معه أنها ليست بالقضية المستعجلة ، على نقيض نميرى الذى أراد المزايدة بها وكسب الشعبية ..

وقد كان رأينا – الذى عبرنا عنه لبعض الإخوة السودانيين – أنه : إذا كانت قضية تطبيق الشريعة ستؤدى فعلاً إلى انقسام السودان فمن الخير تأجيلها .

---

(١) كان يمكن للنظام السودانى الحاكم ان يتعلم من تجربة مصر ، ففيها حرية صحافة أصبحت متنفساً ، ولعلها حالت دون الانفجار ولعل النظام كسب منها اكثر من خسر .

ب – الجبهة الإسلامية للإنقاذ
فى الجزائر

إذا لم تستطع الجزائر أن تفخر بماض إسلامى عريق مثل جارتيها (المغرب وتونس) ، فإنها تستطيع أن تفخر أنها اليوم تقود أكبر وأكثر الحركات الإسلامية طموحا ، وأن شعبها – الذى احتله عدو أوروبى / صليبى لأكثر من مائة وخمسين عاما ظن أنه قد قضى بعدها على مقومات الشعب – يعَبِّر اليوم أكثر من أى شعب من شعوب الشمال الإفريقى عن تمسكه الوثيق بالإسلام والعربية .

تلك هى معجزة الجزائر ، وقد عودتنا الجزائر أن تقوم بالمعجزات ...

فلندع الله تعالى أن يبارك مسيرتها وأن يكلل غايتها بالنجاح والتوفيق .

وعندما احتلت فرنسا الجزائر بنعلةٍ كاذبة وبكيد يهودى / صليبى عام ١٨٣٠ م فإنها لم تخف منذ البداية أن هدفها هو القضاء على الجزائر كأمة إسلامية وتحويل شعبها إلى المسيحية ولغتها إلى الفرنسية ! .. وحضارتها إلى الحضارة الأوربية ! ..

وأنها لما كانت أرضا مفتوحة فلم يعد لشعبها فيها شىء ! وعليها أن تكون مستعمرة يحكم فيها سادة فرنسيون ! .. ويخدمهم فلاحون وعمال جزائريون جهلة !! .. ولكنهم يتكلمون الفرنسية ويدينون بالمسيحية ويكون وضعهم كوضع السود فى الولايات المتحدة قبل حرب التحرير !!! ..

وبهذا ستحوز فرنسا على كل الحسنات والمزايا .. وتأمن المتاعب والقلاقل ...

لقد كان من الممكن أن تنجح المؤامرة الفرنسية الصليبية لو لم يقف فى وجهها سدان هما : الإسلام والعربية :

فحاولت فرنسا أن تهدم أضعف السدين وهو العربيه ، وكادت أن تصل إلى ذلك فعلا لولا أن اللغة العربية نفسها مرتبطة بالإسلام .

فاللغة العربية لاتساوى شيئا لولا القرآن .

بل أنها ما كانت لتوجد اليوم لولا القرآن .. ولحلت محلها لهجات إقليميه كان يمكن أن تصبح لغات كما حدث بالنسبة للاتينية ..

ولو انقطعت العلاقة مابين العربية والإسلام لما استطاعت صمودا أمام إغراء اللغات الأوروبية الحية .

فاللغة الفرنسية تتيح للجزائرى أن يتكلم مع الفاتحين ، ومع أوروبا بأسرها وما يعنيه هذا من مكاسب أدبية ومادية عديدة .

ومن هنا فإن فرنسا – وإن استطاعت أن تجعل اللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية فى التعامل والتخاطب – فإنها لم تستطع أن تستأصل العربية التى لاذت بجيوب حصينة لم تكن يد فرنسا لتطولها ..

تلك هى الزوايا والمساجد والمدارس القرآنية ..

فهذه الجيوب ، أو قل الحصون ، حافظت على نور الشمعة ، وحمتها من رياح التغرب العاصفة ..

ومن هذه الجذوة المقدسة اشتعلت حرب التحرير ..

ذلك أن مؤامرة فرنسا فى القضاء على مقومى الشخصية الجزائرية – ألا وهما : العربية والإسلامية وبالتالي إذابة الجزائريين وجعلهم فرنسيين من درجة ثانية أو ثالثة لم تخف على ذوى الوعى الإسلامي من الجزائريين فحرصوا على إبقاء هذين المقومين ..

لأن فى ظلهما وبفضلهما يمكن أن يظهر الوعى السياسى ، ويمكن أن تزدهر دعوة المقاومة .. ولكنهما إذا فقدا فلن يكون هناك نضال .. ولكن الاستسلام ..

هكذا كان يفكر الشيخ عبد الحميد بن باديس عندما أسس جمعية العلماء ، وعندما جعل هدفه حراسة : الإسلام والعربية .

عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس فى الرابع من ديسمبر عام ١٨٨٩ م فى قسنطينة من أصول تعود إلى المعز بن باديس كبير قبيلة صنهاجة البربرية .

وهكذا أراد الله لداعى العربيه والإسلام أن يكون من أبناء الأمازيغ ، وأن يمهر مقالاته بلقب الصنهاجى .

وأتم حفظ القرآن وهو فى الثالثة عشرة ، وأمّ المصلين فى صلاة التراويح فى شهر رمضان لثلاث سنوات متوالية فى المسجد الكبير .

وبعد أن تلقى العلم على يدى الشيخ حمدان الونيسى سافر إلى تونس ، والتحق بجامع الزيتونة ، وكان من أساتذته الشيخ الطاهر بن عاشور زميل وتلميذ الشيخ محمد عبده .

ونال شهادة العالمية عام ١٩١٣ م بعد أربع سنوات وكان سنه ثلاثة وعشرين عاما . وعاد إلى قسنطينة ، ولكنه غادرها ليؤدى فريضة الحج حيث التقى هناك بشيخه القديم الشيخ حمدان الونيسى الذى عرض عليه الاستقرار بالمدينة المنورة ، والتفرغ للعلم والأمن من مضايقات الفرنسيين فرد بكلمته المأثورة :

نحن لا نهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية فى هذا الوطن :

وتعَرف هناك أيضا على صديق سيصبح زميل كفاحه ، وخليفته هو الشيخ البشير الإبراهيمى .

وخلال لقاءاتهما العديدة من بعد صلاة العشاء حتى صلاة الفجر طوال ثلاثة أشهر اختمرت الخطوط الأولى لكفاح الشيخ .

وزار عند عودته مصر وسوريا ولبنان .. ويغلب أن يكون قد تأثر بأفكار الشيخ رشيد رضا ومجلة «المنار» التى كانت قد بدأت مسيرتها الطويلة فى نشر علم وتفسير الشيخ محمد عبده .

عاد إلى الجزائر فوجد الاستعمار قد عاث فيها فسادا : فأغلق المدارس ، وهدم العربية ..

والهيئة الوحيدة التى شجعها كانت : الطرق الصوفية التى ركنت إليه .

فوجد قرابة ثلاثمائة وخمسين زاوية يؤمها مائتان وخمسة وتسعون ألف مريد سعارهم جميعا ..

« من ليس له شيخ فالشيطان شيخه !! ؟ ! »

بدأ ابن باريس بالدراسة فى المسجد الأخضر ، وتفرغ للصبيان مساء يعلمهم فى سرية تامة اللغة العربية والعقيدة الاسلامية ..

كان ابن باريس يريد موطأ قدم ينطلق منه إلى هدف ..

وكان تدريس الإسلام هو أفضل المنطلقات فهو الغاية وهو الوسيلة فى ذات الوقت ، وقد كفل له قدرا – ولو محدوداً – من حرية العمل ..

فالإسلام بطبيعته يتضمن أساسيات العمل السياسى ، والإجتماعى ، والاقتصادى .. وكذلك يتضمن : مبادىء الحرية ، والعدالة ، والكرامة ..

وبهذا يمكن أن يقوم بدور سياسى مؤصل اسلاميا دون أن يقع تحت حظر وتحريم العمل السياسى ..

وفى إحدى المناسبات قال :

«إننا اخترنا الخطة الدينية عن علم وبصيرة على غيرها ، وتمسكنا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا ، من النصح والإرشاد وبث الخبر والثبات على وجه واحد والسير على خط مستقيم ، ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسى لدخلناه جهرا ، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا ، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها ، ولكننا اخترنا ما اخترناه لما ذكرنا وبينا» ..

وهو منطق يدل على سلامة التفكير ، فهو يأخذ بما يتفق مع فطرة الشعب ، ولو نادى بغير الإسلام لما وجد تجاوبا فطريا ..

ثم إن العمل العام – سياسيا كان أو غير سياسى – لابد أن يقوم على أساس إيمانى لاتتأتى إلا بدراسة العقيدة .

وإذا أرسينا العقيدة فقد أرسينا أسس العمل السياسى ، حتى وإن كانت هناك مراحل عديدة يسلم بعضها لبعض : «فطور للتمهيد ، وطور لإزالة الأنقاض ، وطور فى البناء والتشييد» .

وكدليل على مقدرة الشيخ ابن باديس على ترجمة نص في موطأ مالك ترجمة سياسية رفيعة ترجمته لخطبة ابي بكر الصديق رضى الله عنه في أول خلافته :

« إني وُليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق ....الخ »

فإنه استخرج منها ثلاثة عشر اصلا من أصول الولاية هي :

الأصل الأول : لا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة إلا بتولية الأمة . وهذا مأخوذ من قوله : «وليت عليكم» أي ولاني غيري وهو أنتم .

الأصل الثاني : الذى يتولى أمور الآمة هو آكفؤها لا خيرها (في سلوك الشخص وتقواه) وهذا مأخوذ من قوله : «ولست بخيركم» : ويعززه قبول أبي بكر ، وعمر ، وأبي عبيدة إمارة عمرو بن العاص في سرية (ذات السلاسل) ؛ وكذلك قبولهم إمارة أسامة .. وهم جميعا خير من أسامة وعمرو .

الأصل الثالث : لايكون أحد بمجرد ولايته خيراً من الأمة ، وإنما يكفل له ذلك أعماله . وهو مأخوذ من قوله أيضا : «ولست بخيركم» .

الأصل الرابع : حق الأمة في مراقبة أولي الأمر لأنها مصدر سلطتهم .

الأصل الخامس : تأييد الأمة الحاكم عند السداد مأخوذ من قوله «إذا رأيتموني على حق فأعينوني» .

الأصل السادس : توجيه الأمة للوالي ونصحه وتقويمه إذا زاغ في سلوكه . «وإن رأيتموني على باطل فسددوني» .

الأصل السابع : حق الأمة في مناقشة أولي الأمر ومحاسبتهم مأخوذ من قوله أيضا : «وإن رأيتموني على باطل فسددوني» .

الأصل الثامن : على من تولى أمرا من أمور الأمة أن يبين لها الخطة التي يسير عليها ليكونوا على بصيره ، ويكون سائرا في تلك الخطة عن رضا .

من قوله : «أطيعوني ما أطعت الله فيكم» فخطته طاعة الله ، وهم قد عرفوا ماهي طاعة الله في الإسلام .

الأصل التاسع : لاتحكم الأمة إلا بالقانون الذى رضيته لنفسها .

وهذا أيضا مأخوذ من قوله «أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعه لي عليكم» فلا يطيعوه لذاته ، وإنما لاتباعه الشرع .

الأصل العاشر : الناس كلهم أمام القانون سواء لا فرق بين قويهم وضعيفهم .

الأصل الحادى عشر : صون الحقوق .

الأصل الثانى عشر : حفظ التوازن بين الطبقات .

وهذه الأصول الثلاثة مأخوذة من قوله «ألا إن أقواكم لضعيف حتى آخذ الحق منه وأضعفكم عندى لقوى حتى آخذ الحق له» .

الأصل الثالث عشر : شعور الراعى والرعية بالمسئولية المشتركة بينهما وشعورهما دائما بالتقصير ليستمرا على العمل بجد واجتهاد ، فيتوجهان بطلب المغفرة من الله الرقيب عليهما وهو مأخوذ من قوله : أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم» .

★ ★ ★

وقرر ابن باديس أن يدخل مجال الصحافة فأصدر فى عام ١٩٢٥ م (١٣٤٣ هـ) مجلة «المنتقد» تحمل شعارا [الحق فوق كل أحد ، والوطن فوق كل شىء] ، ولكن السلطات الفرنسية أوقفتها بعد ثمانية عشر عددا .. فأصدر بعدها «الشهاب» .

وفى عام ١٩٣٠ م احتفلت السلطات الفرنسية بمرور مائة عام على احتلال الجزائر ، وأصدر ابن باديس بيانا باسم لفيف من العلماء يوجه الشعب إلى مقاطعة هذه الاحتفالات (بكل هدوء) واستجاب الناس فقاطعوها دون شغب يؤاخذون عليه ، وإنما بكل هدوء .

وفى العام الثانى أسس عبد الحميد بن باديس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ، وعقد الاجتماع التأسيسى لها فى الخامس من مايو عام ١٩٣١ ، وانتخب رئيسا لها .

وفى الجمعية كما فى دروسه كان الاستعمار يحرم عليه الاشتغال بالسياسة ، ولكن لم يكن لهذا التحريم معنى بالنسبة لابن باديس الذى مضى بكل همة يقضى على ضلالات «الطرقية» ويجلى الاسلام الحقيقى ، ويهاجم الظلم والطغيان والقمع

والتسلط ، ويحى العزائم والهمم . حتى نجحت الجمعية نجاحا باهرا وانتشرت مدارسها ، وتعرضت خلال ذلك لكثير من صور الاضطهاد ..

وفى عام ١٩٣٨ م خاطب الشيخ ابن باديس الاجتماع العام للجمعية قائلا : «سلام عليكم ياأعضاء جمعية المسلمين الجزائريين أجمعين ، سلام على مساجينكم فى المساجين ، وسلام على متهميكم فى المتهمين ، وسلام على منكوبيكم فى المنكوبين : سجون ، واتهامات ، ونكبات .. ثلاث لاتبنى الحياة إلا عليها ؛ ولاتشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على أسسها ..؛ فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث ، أثبتت الجمعية فى تاريخ الإسلام وجودها» ويتضح من هذه الخطبة أن الجمعية لم تكن جمعية وعظ وإرشاد ؛ وإنما إيقاظ وإنهاض ، ومعالجة لروح وجوهر السياسة والتغلغل فيها .. لا من باب الحزب ، ولكن من باب المسجد . وجعل ذلك لجمعية العلماء صلاحيات الحزب دون ملاحقاته ..

لأن جوهر السياسة الفرنسية فى الجزائر كان إذابة الإسلام ، وقد تصدت جمعية العلماء المسلمين لهذا بحكم أنها جمعية علماء مسلمين .

ومع هدوء ابن باديس وحكمته ، فإنه لم يكن هيابا ولم يخش الدخول فى صراع ..

غاية مافى الأمر أنه كان يقدم معارضته فى قالب إسلامى موضوعى يفوت على السلطات أن تجد عليه مأخذا أو فيه منفذا بحيث يظهر مدافعا عن الإسلام وليس متحديا للحكومة .

وعندما سافر إلى باريس عام ١٩٣٦ م وقابل مع أعضاء المؤتمر الجزائرى الإسلامى العام - الوزير دلاديه ، قال هذا لهم : «إن لفرنسا مدافع طويلة» .

فرد ابن باديس : «إن لدى الجزائريين مدافع أطول» . فلما تساءل عنها دلاديه قال ابن باديس «إنها مدافع الله» .

ورد ردا خشنا صريحا على مراسل جريدة «التامب» «Le Tempe» قائلا له : «اسمعوا إننا لن نرضيكم أبدا ، ولن نعمل على إرضائكم .. إننا لانخشاكم ابداً ، ولن نعمل عملا يوقعنا تحت طائلة أيديكم .. نحن سائرون على منهاجنا وفى طريقنا ، لايضرنا صراخكم ، ولاينفعنا سكوتكم ، فقولوا ما شئتم .. وإنما ننصحكم نصيحة خالصة أن لاتعودوا لمثل هذا العمل الممقوت ، فسياسة وخز الدبابيس تنتهى غالبا

بفقد الشعب لصبره ، وإخراج الحليم عن حلمه ، وإننا لنسد فى أوجهكم هذا الباب ، إلا إن كسرتموه ، والأمر بعدئذ لله» .

وشيئا فشيئا مع رسوخ قدمه وتطور الأحوال كان يصرح بهدفه الحقيقى وهو الثورة على فرنسا وتحقيقه الاستقلال .

وبعد قيام الحرب العالمية الثانية قال لبعض إخوانه :

«والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقوننى على الثورة لأعلنتها» وأخذ العهود على الجنود الجزائريين .. «سأعلن الثورة على فرنسا متى أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا» وكان يرى فى جبال الأوراس معقلا منيعا يمكن أن تعلن منه الثورة .

ولكن المرض الذى أصابه ولم يفرغ لمعالجته تسبب فى وفاته فى السادس عشر من أبريل عام ١٩٤٠م .

ويعود نجاح ابن باديس بالإضافة إلى شخصيته ، وإيمانه ، وذكائه ، وعقله المرتب : إلى إحكامه للقرآن ..

إن القرآن كان نصب عينيه دائما ..

وكان قد حفظه من طفولته الأولى .. وشرع فى تفسيره ..

ونلمس فى الكثير من خطاباته المعانى القرآنية واضحة ..

وفضلا عن هذا كله فقد كان رجلاً حركيا ميدانيا نشطا لايكل ولايمل .

وروى أخوه (عبد المجيد) أنه كان يلقى فى اليوم ثلاثة عشر درسا بين فقه وتفسير ، وكان لاينام إلا ساعة أو ساعتين على الأكثر ..

فحتى لو اعتبرنا أن هذا الكلام فيه مبالغة ، فإنه ينم عن همة قوية ، وعزيمة ماضية ، وإقبال على العمل .

لقد كانت الروح المتقدة للشيخ ابن باديس هى «الآتون» الذى صقل سيوف الثورة وصنع بنادقها ، وماهو أهم : حفظ لقادتها وجنودها الايمان»[١] .

---

(١) رجعنا فى هذه الفقرة عن ابن باديس الى عددى مجلة - المنهل فى ١٤/١٢/٨٩ و ٢٨/١٢/٨٩ بقلم ل . س . سيفوس .

وقد ذبلت الأحزاب التى قامت بينما أصابت جبهة التحرير سكرة السلطة ، والذى بقى وملأ المسرح ، وفجر طاقات الشعب هو الروح الإسلامية التى عمل لها ابن باديس .

من جمعية العلماء إلى جبهة الإنقاذ :

ليس من شأن هذا الفصل أن يستعرض الثلاثين عاما التى أعقبت ظهور جمعية العلماء ، وكللت بنيل الاستقلال فى الستينات ، ولا الثلاثين عاما التالية التى بدأت بالاستقلال عندما كانت الناصرية فى أوجها فجرا كاذبا يكاد يكسف بأضوائه المفتعلة الفجر الصادق حتى التسعينات التى نعايشها ، فهذا شأن كتب التاريخ .

وحسبنا أن نقول إن الجزائر انتزعت استقلالها من براثن وأنياب الاستعماريين العتاه خلال حرب استمرت قرابة ست سنوات ضحت فيها الجزائر بأكثر من مليون شهيد .

وأن هذا الاستقلال – أمنية الأجيال السابقة – لم يكد يتحقق حتى أصبحت الجزائر حقل تجارب مجموعة من الشباب الأغرار الذين لم تتوافر فيهم الحنكة ، والتجربة ، والنضج ، والعمق الإيمانى ، فوقعوا تحت تأثير عبد الناصر الذى كان قد ساعدهم فى معركة الاستقلال مساعدات جسيمة ، وانساقوا فى «موضة» هذه الفترة : اليسارية والشيوعية والاشتراكية العربية ... إلخ .

فذبلت الورود التى تفتحت غداة الاستقلال ، وأُنسِّيت العهود التى أعطيت خلال المعركة ، وتهاوت الآمال التى علقت على النصر ، وتملك الأمر «بن بيلا» حتى ثار عليه «هوارى بومدين» الذى لم تغنه دراسته السريعة القديمة فى الأزهر شيئا ، فلم يستبن الطريق ، واختلطت عليه المعالم حتى مات مخلفا تركة ثقيلة .

وجاء خلفاؤه فزادوا الطين بله حتى أصبح سجل المرحلة هو بتعبير كاتب إسلامى : «سجل الفشل الكبير»[١] .

وتفشت خلال تلك الفترة كل السوءات التى عرفتها المنطقة نتيجة لسياسات الطغمة الحاكمة سواء كانت جندا بالأصل ، أو ساسة بالاحتراف .

---

(١) الاستاذ فهمى هويدى – الاهرام العدد الصادر فى ٩١/٧/١٦ – ص ٧ .

فطير الفساد ، واستغلال النفوذ والرشاوى ، والديون ، والعمولات ، والتدهور والتبعية للاقتصاد الخارجي ، والبطالة والأزمات ..

والهاء الجماهير بما يشغلها ويستهلك فراغها من تشجيع للفنون والسينما الهابطة ورياضة كرة القدم على حساب العلم والمعرفة والبناء ..

واستخدام أجهزة الإعلام - وفى مقدمتها التليفزيون - فى ذلك بالإضافة إلى استخدامها فى تضليل وخداع الشعب .

ومحاربة الاتجاه الاسلامى الذى وقع عليه عبء المعارضة وإعلاء صوت الشارع .

ولئن ساد هذا فى دول عربية أخرى دون انبعاثه مدوية ، فإن الوعى الإسلامى الجهادى الذى كان يتململ فى أعماق الشعب الجزائرى انفجر مرة واحدة فى انتفاضة أودت بالعهد وقضت على البناء الذى شادته جبهة التحرير خلال ثلاثين سنة من الحكم ، ودفعت بالتيار الإسلامى إلى الصدارة وبوأته - مرة أخرى - المكانة التى كان يشغلها عندما كان رمز الصمود فى مواجهة الاستعمار الفرنسى .

انتفض الشعب الجزائرى عام ١٩٨٨ م وأعلن الرئيس الشاذلى بن جديد (وهو بمقاييس الواقع يعد سياسيا معقولا ويتسم بقدر من الحكمة والاعتدال) التخلى عن سياسة الانغلاق والديكتاتورية وحكم الحزب الواحد ، وأطلق حرية الصحافة ، وأباح التعددية الحزبية ..

وتأسس مايقرب من خمسين حزبا ..

ونحن نرى أن هذا أمر طبيعى - بعد طول الكبت - وعلى كل حال فلا يضير وجود هذا العدد لأن مايحدث هو أن تتقطب الأغلبية فى عدد محدود (أربعة أو خمسة أحزاب) ، ولايكون للأحزاب الأخرى خطورة على استقرار النظام .

وكانت الأحزاب والجماعات الإسلامية هى أبرز الجديد التى كشفت عنه الحرية ..

فالاخوان المسلمون الذين لم يكن لهم وجود محسوس تبلوروا فى هيئة قوية أخذت أخيرا اسم «حماس» وظهر على رأسها زعيم قدير هو الشيخ «محفوظ نحناح» استطاع أن يجمع ستين ألف سيدة ليسمعن خطاباً للسيدة زينب الغزالى .

ونُفِضَ التراب عن تراث «مالك بن نبى» المفكر الجزائرى المظلوم الذى تعذب فى القاهرة ، وتعذب فى باريس ، وتعذب فى الجزائر وأرخيت على أعماله أستار النسيان ..

ولكن أبرز الهيئات الإسلامية وأكثرها شهرة هى «جبهة الانقاذ الإسلامية» التى أعلن عن قيامها فى مسجد ابن باديس بالقبة بعد صدور دستور الثالث والعشرين من فبراير عام ١٩٨٩م نتيجة لجهود سابقة استهدفت جمع الجهود الإسلامية المشتتة وكللت فى النهاية بتكوين الجبهة وانتخبت الدكتور «عباس مدنى» رئيسا لها، والشيخ «على بلحاج» نائبا للرئيس . وجمعت الجبهة أشتاتا من الإسلاميين ، وتيارات سلفية وجهادية ومتعاطفة ..

وقد كان الدكتور «عباس مدنى» عضوا بجبهة التحرير عام ١٩٦٩م ، وعضوا بالمجلس الولائى ، وسافر عام ١٩٧٦م إلى لندن وحصل هناك على دكتوراه فى التربية ، وعاد عام ١٩٧٩ ..

وأخذ يلقى المحاضرات فى مسجد ابن باديس بالقبة وفى عام ١٩٨٢م اعتقل إثر الاضطراب الذى حدث فى الحى الجامعى «ابن عكنون» بين الإسلاميين واليساريين .

والعنصر السلفى هو العنصر البارز فى مجموعة الجبهة ، ولا نعدم عناصر جهادية تؤمن بكثير من أفكار «الرافضة الجديدة» وبوجه أخص أفكار الشهيد «سيد قطب» وكتبه وكتب أخيه «محمد قطب» من الكتب الذائعة وذات التأثير فى الجزائر .

وجاءت المفاجأة عندما أجريت الانتخابات البلدية فى يونيو ١٩٩٠م ، إذ اكتسحت الجبهة الأحزاب الأخرى وظفرت بأغلبية كبرى فى معظم الولايات (٣٢ من ٤٨ مجلسا) .

وقامت قيامة جبهة التحرير التى كانت تنفرد بالحكم ، كما قامت قيامة بقية الأحزاب والمتفرنسين واليساريين .. الخ .

كما ضخمت الصحف الأوروبية - وبوجه أخص الفرنسية - أنباء هذا الانتصار ، وذهبت ما شاءلها الخيال أو العداوة فى التكهن بمعانيه وما تحمله للجزائر ..

وكما نقول دائما إن النجاح تجربة صعبة ، وقد يكون نعمة كما يكون نقمة ..

«ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئا» .

ويبدو أن هذا الانتصار أثر عميقا على كل الأطراف :
أثر على قيادة الجبهة ، كما أثر على قيادة المعسكرات المضادة لها ..

وأحدث الحكومة تضع الخطط للحيلولة دون اكتساب الجبهة مثل هذا الانتصار في الانتخابات النيابية السياسية التي كانت ستجرى في يونيو ١٩٩١م .

وكانت وسيلة الحكومة إلى ذلك تعديل نظام الانتخابات – في ضوء نجاح الجبهة – بما يحول دون تكرار مثل هذا النجاح ..

وقيل إن خبراء فرنسيين اشتركوا في ذلك بحيث وضعت تعديلات جذرية وقدمت حجج وتعللات لتبريرها .

ورأت الجبهة أن هذه التعديلات إنما تهدف في الحقيقة إلى استبعادها ووضع العراقيل أمام نجاحها . فتحركت ونظمت مسيرات عديدة احتجاجا .. كما أعلنت الإضراب العام ..

وكانت الجبهة قد دخلت في أعقاب انتصارها في يونيو عام ١٩٩٠م المجال النقابي وأسست «النقابة الإسلامية للعمل» التي انثالت عليها جماهير العمال ، حتى ظن أنها ستحل محل «الاتحاد العام للعمال الجزائريين» ..

المهم أن الجبهة استدرجت إلى معركة لم تكن قد تهيأت لها ..
لا من ناحية الزمن : فلم يكن قد مضى على قيامها أكثر من عامين ..

ولا من ناحية «الهيكلة» أو التنظيم وغربلة العناصر ووضع النظم التي تحول دون حدوث تنافر أو انشقاق ..

وبحجة هذا الصدام ألقت الحكومة القبض على الدكتور عباس مدني ، وقيادات الجبهة ، والعناصر النشطة فيها .

ونحن وإن كنا نتابع مشفقين هذه الأحداث فإننا لم نعش في أعماقها ، ويكون من العسير إصدار الأحكام وقد يمكن القول أن الجبهة تسرعت وكان عليها أن تدرس البدائل ، فإذا لم تجد إلا العمل الجماهيري من مسيرات ، ومظاهرات ، وإضرابات ، فقد كان عليها أن تضع الخطط الدقيقة لهذه المعركة .

ولكن من الظلم لها أن يُلْصَقَ بها أنها خالفت الشرعية ، فالحرية التى سمحت بها التعددية الحزبية الجزائرية تسمح بما قامت به الجبهة التى تملك الشارع .

ولئن لم تفعل الأحزاب مثلها فذلك لأنها ببساطة لاتقدر على ذلك .. لأنها لاتملك الشارع . ولكنها تفعل ماهو أسوأ : فحزب العمال التروتسكى كان يضع صورة الشاذلى على الأرض ويطؤوها بالأحذية ويبصقون عليها ولو كان هذا الحزب يملك ربع ما تملكه الجبهة لما تردد فى تنظيم المسيرات وإعلان الإضرابات .

فالخطوة التى أخذتها الجبهة تحاسب عليها بمعيار الفشل أو النجاح .. التريث أو التعجل .. التشاور بدلاً من الانفراد ؛ ولكن ليس بمعيار الشرعية لأنها لاتخالف الشرعية .

وماقيل فى هذا الصدد إنما أريد به تلويث الجبهة ، أو تبرير الإجراءات التعسفية التى اتخذتها الحكومة وكأنها ندمت على ما منحته من حرية ، وحنت إلى العهد القديم .

واستطاعت الحكومة أن تلعب لعبتها بمهارة ، وأن تستغل التكوين «التراكمى» للجبهة فى استخلاص بعض العناصر لإيجاد قدر من البلبلة .

كما «حَيَّدتْ» الأحزاب الإسلامية الأخرى التى كانت قد انتقدت سياسة الجبهة . والحق أن مستقبل الاتجاه الإسلامى يتعرض اليوم لامتحان عسير سيكون له مابعده ، لأن انتصارات العام الماضى ١٩٩٠ م قد أصبحت مهددة بعد أن نجحت الحكومة والأحزاب اليسارية والمتفرنسة .. الخ ، ومن ورائها الرأى العام الأوروبى فى استنفار كل القوى المعارضة للاتجاه الإسلامى وهى لاتزال قوية خاصة فى المدن - وقد شاهدنا دلائل ذلك بأنفسنا - ولاحظ مراسل الشعب[١] أنه لم يجد «فتاة واحدة من اللائى يلبسن البنطلون والزى الأوروبى تتحدث باللغة العربية ، فكلهن يتحدثن الفرنسية : فى العمل ، وفى الطريق ، وفى التاكسى» !

وروى واقعة لها دلالتها :

«ففى لقاء الحكومة والأحزاب هناك العديد من رؤساء الأحزاب ممن تحدثوا

---

(١) مجلة الشعب : عدد ٢ سبتمبر ١٩٩١ ص ٧ مقال «المصير الذى ينتظر الديمقراطية فى الجزائر» للأستاذ أحمد السيوفى .

باللغة الفرنسية فقط ، وبعضهم تحدث بالعربية والفرنسية معا ، وبعضهم عندما كان بتحدث بالعربية كان يقول كلمات بمعان تختلف عن المضمون الذى يريده ، وكان من أبرز الطرف فى هذا الشأن ما قاله السيد «علالو» رئيس أحد الأحزاب : أن الأديان سوف تخرب البلاد !! فهاج عليه كل من فى القاعة .. ثم تبين أنه يقصد «الديون» وليس «الأديان» ! وفى الحقيقة الوحيدون الذين تكلموا بالعربية فقط وبفصاحة هم زعماء الأحزاب الإسلامية وعلى رأسهم الشيخ محفوظ نحناح ثم الشيخ عبد الله جاب الله»(١) .

☆ ☆ ☆

فهذا الوضع يدل على أن القوى المعارضة للاتجاه الإسلامى تتجمع للقضاء على الجبهة ، ولو استطاعت ذلك - لاقدر الله - فسيأتى دور الإخوان وبقية الأحزاب الإسلامية .. فهل فكروا فى هذا ..؟

البرنامج السياسى للجبهة

وضعت الجبهة مشروعا لبرنامجها السياسى نشر بمجلتها «المنقذ» فى العدد الذى صدر فى النصف الأول من ربيع الأول عام ١٤١٠ هـ ، وإن كان يحمل تاريخا أقدم هو التاسع والعشرين من رجب ١٤٠٩ هـ الموافق السابع من مارس ١٩٨٩م .

كما طبعته الجبهة فى كتيب مستقل فى قرابة أربعين صفحة ، ولايسمح المجال لعرضه كاملاً ، ولكننا سنعرض معظمه حرصا على إيضاح وجهة نظر الجبهة كاملة وفيما يلى هذا العرض :

---

(١) المرجع السابق .

مدخـــل :

من أهم خصائص العمل الاسلامى الهادف الجدية ولتحقيقها فهو منضبط شرعا وعقلا ومصلحة وواقعا مراعاته للفطرة البشرية التى يتعامل معها وحتى لا نقع فى الضلال والزيغ او الشطط فى الافراط والتفريط عولجت المحاور الرئيسية للعمل السياسى للجبهة الاسلامية للانقاذ على اساس الضوابط التالية :

١ - الالتزام بالشرع الاسلامى ومنهجه فى العدل والاعتدال والكفاية والشمول حتى يتسنى لنا معالجة جميع القضايا المطروحة وعلى اختلاف اهميتها لقوله تعالى : «ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولاتتبع اهواء الذين لايعلمون» .

٢ - توظيف العلم ومعارفه واستخدام منهجيته فى ضبط المسائل وتحديد المشكلات وتحليلها وكشف الحلول لها وطرق انجازها واستخدام التقنيات وفنياتها لتتوفر لدى المحاور شروط الخبرة والكفاءة من حيث هى شروط لازمة لكل عمل قويم صالح هادف ، وكل هذا تحقيقا لقوله تعالى : «ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا» . وقوله تعالى : «وقل رب زدنى علما» .

٣ - ضرورة اعادة الاعتبار الى طموح الشعب الجزائرى المسلم التائق للمعالى ، الراغب فى الخروج من ورطة الاستعمار للتخلص من التخلف بكل اشكاله بفضل ايمانه وقوة قناعته باسلامه وثقته فى ربه عز وجل ذلك الذى يساعده على القفز خارج دائرة التبعية واشكال الاستعمار الحديث ، فلا تكون المحاور الا مجالات لارادته ومهدا لعبقريته ومحكا لتجربته واستمرارا لرسالته ...

وحتى لاتثبط عزيمته تنبسط المراحل ضبطا منهجيا مراعيا نفسية الشعب كى يستعيد ثقته بنفسه فى اشواط تاريخية تحدد مراحلها حسب شروط او حيثيات القدرة والواقعية والفعالية وباختصار اننا ننطلق بعون الله وحده من احترام مشاعر شعبنا وطموحاته .

٤ - حفاظا على مشروعنا السياسى من ان يبقى حبرا على ورق ، لابد من استحضار الشروط المنهجية لتطبيق النماذج او البدائل والحلول باعتبارها خطة عملية سياسية تبقى حافزا لعمل الجبهة الاسلامية للانقاذ باعتباره عملا سياسيا واعيا وجهدا للارادة الكلية للشعب الجزائرى عبر اجياله الى ان يتحقق المراد بعون الله وتوفيقه .

ان الجبهة الاسلامية للانقاذ من خصائص منهجيتها انها لاتعمل فى معزل عن الشعب بل تنطلق دوما من مبدأ العمل معه فى كل خطوة اجرائية تاريخية فتكون المنجزات ثمرة لجهده وجهاده وهو منهج الصحابة - رضى الله عنهم عندما قالوا له :- لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ولا يتخلى منا أحد .

٥ - التزاما من الجبهة الاسلامية للانقاذ بروابطها السابقة تحدد علاقاتها ومواقفها بكل ما بالساحة من الهيئات والجمعيات والمؤسسات فى ضوء الوضوح المنهجى لرؤياها العقائدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية فى النطاق الاسلامى الشامل والمصالح الكبرى للشعب الجزائرى وثوابته ، وذلك حسما للمواقف الارتجالية ومنعا للتصرفات الشخصية وتلافيا للمواقف غير المدروسة الفاقدة للوعى السياسى المطلوب والالتزام بالمنهجية والشرعية من ضوابط الجبهة .

بنا على ذلك يتم ضمان العدل والاعتدال والدقة والشمول لمحاور العمل السياسى للجبهة الاسلامية للانقاذ حسب الترتيب التالى :

أ - الاطار العقائدى :

ان الشعب الجزائرى شعب مسلم عريق فى اسلامه ويمثل رسالته التاريخية الحضارية وبناء على ذلك فإن الاسلام

هو النطاق العقائدى والضابط الايديولوجى للعمل السياسى فى جميع مجالات الحياة . واذا كانت الازمة التى تجتاح عالم وتهز الحضارة من اقوى الادلة على القصور الايديولوجى الذى آلت اليه النظم والامم ، فإن الاسلام هو النطاق العقائدى الاقوم للمشروع السياسى الذى يقوى على مواجهة الازمة لقوله تعالى : ﴿ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن﴾ . وقوله تعالى : ﴿ان الدين عند الله الاسلام ومن يبتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الاخرة من الخاسرين﴾ . وقوله تعالى : ﴿ولا تموتن الا وانتم مسلمون﴾ . وقوله تعالى : ﴿وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل اليك﴾ .

ب - المحور السياسى :

السياسة فى مفهوم الجبهة الاسلامية للانقاذ هى السياسة الشرعية والتى تتمثل فى حكمة التدبير وجودة التنسيق واحكام التوقع ومرونة الحوار للوصول الى الحق والحقيقة وعدل الالتزام واعتدال فى المواقف بمنهج الصدق لانها تقوم على الاقناع بدلا من القهر ،قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين، وقوله تعالى : ﴿فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ وتتبنى بالاختيار دون الاجبار لقوله تعالى : ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ . وقوله تعالى : ﴿ولو شاء ربك لامن من فى الارض كلهم جميعا افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ . وتلتزم الشورى تفاديا للاستبداد لقوله تعالى : ﴿وامرهم شورى بينهم﴾ وقوله : ﴿وشاورهم فى الامر﴾ . ولتجاوز تناقضات سياسية الايديولوجيات المستوردة يعمل البرنامج السياسى للجبهة الاسلامية للانقاذ على تحقيق ما يلى :

اولا : للقضاء على الاستبداد تتبنى الشورى ولازالة الاحتكار السياسى والاقتصادى والاجتماعى تتبنى المساواة ومبدأ تكافؤ الفرص السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولتفادى قمع الحريات العامة تعمل الجبهة على افساح مجالها للعبقرية والارادة الكلية للامة فى جميع مجالات الحياة واكفالها للناس على السواء وللتخلص من سياسة الحضوة والحرمان تعمل على وضع معايير للمسؤوليات وضمان الامانات واداء المهام فى تشجيع روح العمل الجماعى والقضاء على الانانية والمحسوبية والنزعات الفردانية وكى لاتقع الجبهة فى ذلك تضمن حرية التعبير وتشجع على النقد الذاتى وتحدد طرق المحاسبة الادارية والسياسية والاقتصادية فى كل المؤسسات والنظم وتوعية الشعب واشعاره بالمسؤولية حيال ذلك وتحيى نظام الحسبة الاسلامى وتطبق مبدأ من اين لك هذا فى حدود الشرع .

ثانيا : ولتحقيق ذلك يصير لزاما او مطلوبا من الجبهة الاسلامية للانقاذ العمل على تصحيح النظام السياسى ابتداء من الميادين التالية :

أ - جعل التشريعات السياسية خاضعة لاحكام الشريعة لقوله تعالى : ﴿أم لهم شركاء ، شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ . وقوله تعالى : ﴿افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ مع مراعاة مستجدات مرحلة التعددية الحزبية ليساهم كل طرف بحقه فى الاصلاح ابتداء من المجلس الوطنى وسائر المجالس الولائية والبلدية حتى يصبح جميعها قائما على الشرعية التى يتبناها الشعب الجزائرى المسلم من خلال قناعاته .

ب - اصلاح الجهاز التنفيذى فى الرئاسة والوزارة والولاية والدائرة والبلدية .

ج - اصلاح المنظومة العسكرية قصد الرقى بها الى حماية البلاد والعباد من أى خطر يمس بالسيادة أو الحريات والحقوق والواجبات ومصالح الأمة الكبرى

د - اصلاح السياسة الامنية حتى تخلو من كل قهر أو تعسف وتؤمم لمصلحة الامة فى ضوء رسالتها وفى نطاق حرياتها . التى أقرها الشرع وتحديد مهام كل المصالح والمؤسسات لضمان العدل والاستقرار والسلام .

هـ - اصلاح المنظومة الاعلامية فتوظف الموسسات بما تقتضيه رسالتها الثقافية والتربوية وشروط نهضتها الحضارية بوعى سياسى ثقافى حضارى يجنب البلاد التبعية الثقافية ويحفظها من الغزو الثقافى الذى مازالت هدفا له .

و - اصلاح المنظومة الاقتصادية توزيعا وظيفيا سياسيا واقتصاديا وحضاريا لاعادة النظر فى سياسة الطاقة والمحروقات وتصدير المعادن وسائر الثروات .

ز - اصلاح السياسة التجارية الداخلية والخارجية لوضع حد للاحتكار والربا والرشوة والتبذير والضياع .

ح - اصلاح المنظومة الادارية لتسيير المهام وضمان سير المصالح وكفالة الحقوق وازالة عقبة البيرقراطية كما يقال .

ط - اعادة النظر فى السياسة الزراعية بكفالة الدعم الفلاحى وضمان العلاقة الوظيفية بينها وبين الصناعة التحويلية لضمان الاكتفاء الذاتى والتصدير المناسبين لكل من السوق الداخلية والخارجية .

ى - اصلاح المنظومة التربوية لوضع حد للفاقد التربوى واستيعاب جميع الاعمار وكفالة حقهم فى الحد الاعلى من جودة التحصيل او النوعية التربوية التى يطمحون اليها لتجعلهم بحق ورثة حضارة ومساهمين فى حمل الرسالة وعاملين على الاستمرارية نحو الأفضل .

وهكذا باصلاح جميع النظم وهياكلها ومؤسساتها يتم الاصلاح الشامل للنظام السياسى فى نطاق الحل الذى يمثل سياسة التغيير كما تحدده الجبهة الاسلامية للانقاذ .

ك - اصلاح المنظومة القضائية باعادة الاعتبار الى استقلالية القضاء وحصانة القاضى كما حددته الشريعة الاسلامية لتوفير مناخ العدل الربانى الذى لاتشوبه شائبة الظلم ولاتشينه شائبة الجور من حيث العدل هو اساس السياسة الشرعية ومبرر الحكم وغاية النظام السياسى

ل - ضمانا لحرية الامة وحق التعبير عن ارادتها بأصح الطرق وأسلمها شرعا وشرعية يعاد النظر فى قانون الانتخابات فلا توكل لغير الراشد كالسفيه والصغير وفاقد العدالة الشرعية ولايجبر أحد على الانتخاب سواء فى خدمة عسكرية أو فى وظيفة أمنية أو ادارية أو غيرها فينتخب جميع الناس بمحض الحرية .

وتحفظ الصناديق بالطرق الشرعية القضائية ولاتوضع إلا أمام شهود عدول يجمع الناس على أمانتهم وتنظم طرق عد الاصوات وجمعها ونقلها الى الرأى العام الوطنى والعالمى مما يضمن شرعيتها ولايترك سبيلا الى الشك فى صحتها وعدم تزييفها بحال من الاحوال وحضور مراقبين ممثلين للهيئات المعنية مع حق الطعن بواسطة القضاء .

بالاضافة الى تحديد طرق الترشيح للعادل الممثل للامة والمناسب للتعبير عن المشاركة الفعالة فى تسيير أمور البلاد بإخراج الممثلين الشرعيين فى مختلف المجالس والهيئات التشريعية والتنفيذية والسياسية وغيرها .

ج - منظور السياسة الاقتصادية :

تقوم السياسة الاقتصادية للجبهة الاسلامية للانقاذ على مفهوم يكون بمقتضاه ضمان التجاوب بين الحاجات الاستهلاكية الضرورية وشروط الانتاج والتكامل بين النوعية والكمية ومراعاة نمو الحاجة إليهما فى ضوء النمو السكانى والتطور الحضارى والعمل على تحقيق الاستقلال الاقتصادى . بالاضافة الى التوازن بين الصادرات والواردات لحماية البلاد من التضخم والمديونية اللتين أمستا تشكلان أخطر التناقضات التى تواجهنا أمام العمل الجاد

من أجل تحقيق العيش الكريم ووضع حد للتبعية الاقتصادية والسياسية والحضارية ولما تعرضت البلاد لفترة طويلة من النهب لثرواتها لمدة قرن وربع من الاستعمار كما تعرضت للضياع في فترة النظم السابقة التي أوقعت البلاد في أزمة اقتصادية تعذر فيها التوازن بين الاستهلاك والانتاج حتى في أكثر الامور ضرورة كالدواء والسكن فزاد الاستهلاك وقل الانتاج وزادت الحاجة الى استيراد المواد الاستهلاكية والامعان في التبعية الاقتصادية .

ولتعرض البلاد الى سياسة خنق الحريات والقضاء على روح المبادرة بدعوى التخطيط وتأخر الخطط الانمائية وتخلف المنظومة التربوية ، تعرضت لفاقد همش الطاقات البشرية ولانخفاض مستوى التحصيل وسذاجة الخبرات وتعطيل المشاريع الانتاجية ومنع المؤسسات الصناعية الصغرى . فقلت وظائف الشغل وكثرت البطالة ، ونمت العطالة مما زاد التضخم استفحالا والتناقضات الاقتصادية تفاقما ، وجعل النظام الحالي يفقد القدرة على السيطرة على أوضاع اقتصاد متدهور .

ان سياسة التصنيع التي انطلقت من المركبات الصناعية الكبرى والمصانع التي تعتمد على مواد أولية واصطناعية مستوردة ، وخبرات عالية مستعارة وانتاج غير كاف في جودته وفي وفرته ، جعل هذه السياسة تؤول بالبلاد الى افلاس اقتصادي خطير ، فاذا لم تكن الصناعة مبنية على الاكتفاء الذاتي سواء في التشغيل او الاستهلاك أو التصنيع فإن هذه الصناعة لن تزيدنا إلا فقرا وامعانا في التبعية وهو ماجعل الصناعة عندنا عالة على الاقتصاد بعدما كان مبررها كفاية البلاد وتشغيل الطاقات من الشباب والخبرات ، بالاضافة الى ما سبق سوء التسيير وضياع التسويق .

ان الاستثمار من أهم الوسائل العملية لتطبيق الخطة السياسية الانمائية الشاملة خاصة في شعب يعيش طفرة سكانية جعلت ثلثي السكان شبابا - أقل من ثلاثين سنة - فاذا لم تكن السياسة الاقتصادية قادرة على التكريس المالي في ميزانية الدولة مما يجعل الاستثمار في مستوى الحاجات المستقبلية لاعداد شروط الاستقبال في مختلف مستويات مناصب التشغيل والوظائف يصبح الامر من الخطورة مايجعل أجيال الامة تخشى من المستقبل الذي يتهددها بالبطالة والفقر المفضيين الى الهامشية الحضارية .

لهذه الاسباب كلها تتلخص الجهود السياسية الاقتصادية في المحاور التالية

١ - وضع سياسة رشيدة للزراعة .

٢ - اعادة النظر في سياسة التصنيع الحالية كي تصبح ذات مردودية مناسبة للمطلوب .

٣ - اعادة النظر في التجارة وهياكلها وسياستها الاستهلاكية ونظام التسويق ووسائل التوزيع الى غير ذلك .

٤ - اعادة النظر في السياسة المالية والنقدية لضمان استقلال القرار السياسي سواء في الداخل أو في الخارج .

ان الجبهة الاسلامية للانقاذ وهي تنطلق من منطلق اسلامي لانقاذ الانسان والحضارة تعتبر الاقتصاد سواء في انتاجه أو استهلاكه وسواء في استثماره الاستهلاكي أو الحضاري الاشمل ، ماهي إلا عامل من عوامل خدمة الانسان والرقي به الى مايطمح إليه من سعادة في الدارين ومكانة وظيفية تاريخية وحضارية ، من هذا المنطلق العقائدي والايديولوجي الاقتصادي تعالج المحاور التالية في نموذج اقتصادي اسلامي في جميع مجالات الحياة كالزراعة والصناعة والتجارة والسياسة المالية والخطة الانمائية الشاملة .

١ - الزراعة :

الزراعة من اهم موارد البلاد وذلك لما منحها الله من سعة في المساحة واعتدال في المناخ وتنوع في

التضاريس .. بالاضافة الى ان الجزائرى بطبعه مرتبط بارضه ارتباطا نفسيا وعضويا جعله من انجح الفلاحين انتاجا نوعا وكما مما در على البلاد ارزاقا دائمة وجعلها تعرف بالتصدير لاشهر الاسواق العالمية استهلاكا . هذا بالنسبة لما تم اصلاحه واستغلاله فى الشريط الشمالى وفى عمق الهضاب العليا من الاراضى الخصبة اما الهضاب العليا والاراضى الصحراوية الصالحة للزراعة التى لم تستصلح بعد لافتقارها الى سياسة واعية للرى جعل البلاد لاتستغل كميات الامطار التى ادرها الله على البلاد مما جعل المياه الجوفية لم تستخرج والاودية والانهار تهدر فتكب فى الشطوط فى عمق الصحراء وفى البحر من الناحية الشمالية .

ان السياسة الزراعية التى اخلت الاراضى من فلاحيها وضيعت الوقت على الامة والبلاد بعدم انجاز السدود وتحويل الثروة المائية الى الاراضى التى تطلبها ، ورط البلاد فى تخلف زراعى لم تعرفه فى تاريخها القديم والحديث .

ان المعطيات الطبيعية المذكورة آنفا تتوقف ثروتها على سياسة رشيدة تعد المشاريع الكبرى لاحسن استفادة بالمياه واجود استغلال للاراضى وذلك باصلاحها حسب الطرق العلمية والتقنيات ذات الكفاءات والفعاليات التى قد تجعل الصحراء ترتوى بامطار الشمال وتجعل اسواق الشمال تغنى بغلال الصحراء . فاذا تكاملت الطبيعة فى تنوعها ، كيف لا تتكامل السياسة فى انتاجها وفق الحاجات الاستهلاكية والاسواق العالمية ، فعندما تتوفر الجودة للمنتوج الزراعى تقوى الحظوظ للتفوق فى الاسواق العالمية للمنتوج الزراعى .

وتتلخص الجهود السياسية الزراعية للجبهة الاسلامية للانقاذ فى الاجراءات التالية بعون الله وتوفيقه :

أ -تصاغ السياسة الزراعية فى السياسة الشرعية العادلة لوضع حد لأخذ الارض غصبا من أصحابها وعملية توزيعها بالطرق الاقطاعية لقوله عليه الصلاة والسلام : «من ظلم شبرا من الارض طوقه الله من سبع ارضين» رواه البخارى ومسلم عن عائشة .

ب - جدية استصلاح الاراضى بالطرق الفنية التكنولوجية وتوزيعها على ذوى الاستحقاق بشرعية خالية من المحسوبية والحظوة وسائر حالات التعسف والظلم اى ان يكون توزيع الاراضى عادلا وفق المعايير التى تحدد بعد فى نطاق الشرع .

جـ - العناية بتربية المواشى حيث تستغنى البلاد فى أقرب وقت ممكن عن استيراد اللحوم والالبان ومشتقاتها .

د - اعادة النظر فى سياسة التوزيع والتسويق فى الداخل والخارج .

هـ - تدعيم الزراعة والصناعة التحويلية وتشجيع المركبات الانتاجية الصغرى والمتوسطة حسب حاجات الزراعة كى لا يتعرض منتوجها الى اتلاف .

و - انشاء المخازن الكبرى لخزن المنتوجات الزراعية احتياطا وتحسبا للازمات والحروب والعاهات .

ز - وضع خطة زراعية ضامنة للمصالح حتى لا تكون الحاجات الآجلة على حساب العاجلة ولا العكس .

ان السياسة التى لا تأخذ بعين الاعتبار سنين القحط فى سنين الرخاء سياسة عمياء ليس لها من الحكمة شيء قال تعالى : «تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون» .

ح - انشاء مراكز للبحوث العلمية الزراعية فى مزارع نموذجية لتطوير علم الزراعة وتقنياتها .

ط - ارجاعا لثقة الجزائرى بنفسه ومساعدة له على رفع مستواها فى الخبرة تصلح المؤسسات التربوية الزراعية وفق حاجات البلاد الى ارقى الخبرات التقنية والزراعية ، وفى حالة ما اذا كانت وسائل الاستقلال غير كافية تدعم وتثرى وتساند بما يكون محققا للمراد

ى - وضع خطة صناعية زراعية لتطوير العتاد الزراعى حتى تكون الزراعة فى بلادنا فى مستوى التطور العلمى والتكنولوجى للبلدان التى تنافسنا فى الاسواق العالمية باعتبار ان نوعية الانتاج مرتبطة بنوعية التقنية ومستوى تفوقها ، مع ضرورة تلبية الحاجات الوطنية المحلية بدلا من تسويقها فى الخارج فلا تكون التجارة على حساب الزراعية .

هذا وان الجبهة الاسلامية للانقاذ ان تحدد العوامل الاساسية المؤثرة فى الميدان الزراعى سلبا أو ايجابا فذلكم فقط فى مجال عالم الاسباب وهى تدرك ان توبة الشعب الجزائرى التى تجسدها هذه الروح التى انطلقت من اعماق ضميره فى شوق الى العودة للاسلام فان الله سبحانه وتعالى قادر بذلك ان يدر علينا خيراته وانعمه وافضاله لقوله تعالى : «ولو ان اهل القرى أمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض» وقوله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ . على ان ذلك لايبرر الاتكالية وعدم الجد فى توفير الاسباب لقوله عليه الصلاة والسلام : «اعقلها ثم توكل» .

٢ - الصناعة :

فى بلد يطمح شعبه الى وضع حد للتبعية ويأمر دينه باعداد العدة من القوة المطلوبة على مستوى الفعالية الحضارية الكونية لقوله تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة» تعتبر الصناعة من الشروط الضرورية للنهضة الحضارية .

غير ان الصناعة فى منظور الجبهة الاسلامية للانقاذ على اهميتها لا تكون على حساب الزراعة كما حصل بالماضى ، بل بالعكس تعمل على مساندتها والتكامل معها ، لا تكون على حساب الانسان المسلم فى قيمته وقيمة نفسيته ومكانته كالذى يحدث فى البلدان الرأسمالية فى امريكا وغيرها او الذى يحدث فى البلدان الشيوعية كروسيا ومن على شاكلتها ، وانما هى صناعة للانسان الصانع اداتية حضارية كونيه ذات فعالية سواء اكانت للمجالات السلمية او للضروريات العسكرية لحماية حمى امة لا اله الا الله محمد رسول الله ، وحماية الحق والحريات فى العالم

وتتلخص السياسة الصناعية فى المحاور التالية :

١ - جعل الصناعة فى الجزائر تتكامل فيها قوى الانتاج الصناعية وغيرها .

٢ - لمواجهة مشكلات البطالة ضرورة الاكثار من مناصب الشغل ، عن طريق تشجيع المعامل الصغرى والمتوسطة ، على ان توظف هذه المراكز فى ضوء حاجات البلاد الاستهلاكية الى حد الكفاية دون ان تفتقر الى المواد الاولية الاجنبية ، التى تتعارض مع مبدأ الاستقلالية الاقتصادية أو بمعنى آخر تكوين صناعة متكاملة فى انتاجها وتصنيعها ، على أن لاتكون على حساب النوعية .

٣ - تشجيع التنوع الوظيفى للهياكل الصناعية والمؤسسات لجعل الصناعة عندنا قادرة على الاكتفاء الذاتى فيشغل بعضها بعضا فى سلسلة محكمة حلقاتها ، منسقة وظائفها متوازنة انتاجياتها متجاوبة ادواتها بالقدر الذى يكفى البلاد مؤونة الحاجة الى الخارج .

٤ - انماء الخبرات التكنولوجية برفع مستوبات المؤسسات التربوية الصناعية من معاهد وجامعات ومراكز بحوث حتى تلبى حاجة البلاد الى النهضة الصناعية .

٥ - مراعاة حاجة تروات البلاد الطبيعية الى صناعة مصنعة متكيفة مع مستجدات التطور الصناعى والتكنولوجى الذى تشهده الحضارة على مستوى السباق سواء فى التسلح أو فى التسويق أو فى الاستهلاك .

٦ - انشاء معامل نموذجية للبحوث العلمية والتكنولوجية تعمل على اعداد ذوى الكفاءات العليا والعبقريات المتفوقة من العلماء والتقنيين وذوى التخصصات الدقيقة سواء فى العلم أو فى التكنولوجيا خاصة فى علوم الصناعة او مالها علاقة بها كالفيزياء والرياضيات والكيمياء ومختلف اشكال الهندسات المعمارية والفضائية وتشجيع الذكاء والعبقرية والميول والقدرات على التفوق والابداع .

٧ - واذا كان تسيير المؤسسات من أهم عوامل ازدهار الصناعة فان منهجيته الاسلامية تقضى بان تسوده روح الجماعة عن طريق الشورى والاحترام المتبادل والشعور بالمسؤولية من طرف جميع العاملين فى المؤسسة وفقا لقوله عليه الصلاة والسلام : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»

٨ - ضرورة اعادة الاعتبار الى العامل ومراعاة نفسيته وكفالة حقوقه وتوفير الشروط النفسية والصحية والاجتماعية والامنية والنقل والترقية والتعويضات والتشجيعات والسكن وسائر متطلبات الحياة الكريمة لقوله عليه الصلاة والسلام : «اعطوا الاجير حقه قبل ان يجف عرقه» وكذلك قوله : «من امسى كالا من عمله امسى مغفورا له» .

٩ - اعادة النظر فى سياسة الجمارك فى ضوء تحقيق وحدة المغرب العربى وتشجيع انشاء سوق عربية واسلامية مشتركة لتخرج من الحصار الجمركى التقليدى الذى صار عائقا لضرورة التبادل الوظيفى للمنتوج الزراعى والصناعى وتبادل المصالح وتكامل الثروات والامكانات والطاقات البشرية والطبيعية على مستوى أوسع عبر البلاد الاسلامية وللتخلص من المضايقات التى تفرضها علينا الدول المنتجة الثرية كالذى حدث لليبيا بسبب الموقف الامريكى والذى حدث لقبرص التركية وللبترول الايرانى ، وهو ما يثبت ضرورة التكامل الاقتصادى سواء فى الانتاج أو فى الاستهلاك على مستوى اوسع مغاربى وعربى واسلامى دون ان نغفل التفتح على جيراننا الافارقة لتعميق سياسة الوحدة الافريقية .

١٠ - انشاء مؤسسات ادارية ذات الاعتمادات المالية لرعاية المبادرات الصناعية للبحث والاكتشاف والتجديد والتطوير فى مختلف ميادين الصناعة والتكنولوجيا مع تسهيل التعامل سواء فى الداخل أو فى الخارج ، وذلك برفع الحواجز الجمركية أمام هذه المبادرات وتخفيف أو اعفاء المشاريع من هذا النوع من الضرائب غير المباشرة .

١١ - اعادة النظر فى سياسة الملكية العامة للحفاظ عليها من الوقوع فى يد الاجنبى أو ذوى الحظوة لقوله تعالى فى شأن المال : «كى لايكون دولة بين الاغنياء منكم» .

١٢ - وضع معايير تحدد مجالات تدخل الدولة فى الملكية الصناعية وحماية مبادرات القطاع الخاص على ان لايتحول هذا الاخير الى محتكر أو يتعدى حدود المصلحة العامة فيصير طفيليا اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا .

١٣ - وضع معايير لحماية الجودة وحق المستهلك هذا وأن الجبهة الاسلامية للانقاذ على ضوء هذه السياسة ستعمل دوما بعون الله وتوفيقه على مراقبة وتجديد هذه السياسة وفق المستجدات ومطالب الصيرورة الانتاجية والاستهلاكية لمعرفة مدى ما تحقق من الاهداف والمقاصد والحاجات ضمن سياستها الاسلامية الشرعية الشاملة حتى تكون الصناعة متجاوبة مع غيرها من المحاور المكونة للبرنامج السياسى المتكامل ، واكتشاف المعوقات

والموانع التى تظهر فى الميدان عند التطبيق قصد معالجتها وتحقيق الخطة الانمائية الشاملة فى اوانها ومكانها بالدقة العلمية السياسية الشرعية التى تنتهجها الجبهة .

٣ - التجـارة :

التجارة كما تتصورها الجبهة الاسلامية للانقاذ هى شرايين الاقتصاد فيها يوظف الانتاج وعن طريقها توجه الثروات وبواسطتها تتكامل المصالح وبفضلها يكون التوازن المفضى الى تحديد القيم المادية فى نطاق الشرعية الاسلامية والمصالح المتبادلة فلا تكون مصلحة المنتج على حساب المستهلك كما لايكون العكس ويكون ربح البائع على الزبون ولا يصح العكس ايضا لقوله تعالى : «ولا تبخسوا الناس اشياءهم» ولقوله عليه الصلاة والسلام : لاضرر ولا ضرار، ولتحقيق هذه المقاصد تنضبط التجارة حسب سياسة للانقاذ وفق الطرق التالية :

اولا : اصلاح المنظومة التجارية بازالة الاحتكار والربا والوسطاء وجميع اشكال الطفيليات الاقتصادية كالغش واخسار الميزان وبيع الغرر .. لقوله عليه الصلاة والسلام : «من غشنا فليس منا» .

ثانيا : اعادة تنظيم التوزيع والعمل على تحقيق لا مركزية المؤسسات .

ثالثا : تغيير سياسة التسويق لتحقيق اللامركزية وازالة السوق السوداء وتشجيع التنافس والوفرة ، وتيسير أو توفير حاجات الطلب الضرورية واعطاء الاولوية للسوق الداخلية عن الاسواق الخارجية فى توزيع المنتجات الوطنية .

رابعا · اعادة النظر فى سياسة التسعير بمقارنة الغلاء والتضخم وفقا للقاعدة - لا ضرر ولا ضرار .

خامسا : التوفيق بين البيع والشراء ، ويتم حسب ما تنص عليه الشريعة الاسلامية لضمان المصالح وصيانة القيم .

سادسا : اعادة الاعتبار الى نظام المساهمة وتشجيع ظهور الشركات التجارية الحرة لتنشيط الاقتصاد وتيسير طرق التوزيع وتحقيق الوفرة .

سابعا : اعادة الاعتبار الى الضوابط الشرعية والمنهجية الفقهية فى ابرام العقود التجارية وتنظيم الشركات وضبط المعاملات فى كل المستويات للحفاظ على المصالح وتأمين الحقوق المبررة للواجبات .

ثامنا : ايجاد المؤسسات الاعلامية الاقتصادية والتجارية لمساعدة التجار والمنتجين والمستهلكين على التعرف على البضائع والمواد الاستهلاكية ومراكز توزيعها وطرق الحصول عليها قصد تسهيل التبادل التجارى بين المستهلك والمنتج حتى يجد كل انسان حاجته على قدر مستواه وكفايته .

تاسعا . وضع جهاز استقبال ادارى تقنى اقتصادى للاشراف على هذه المؤسسات .

عاشرا : وضع سياسة التجارة الخارجية بناء على متطلبات استقلالية الاقتصاد وحمايته بالشروط التالية :

أ - ضبط التعامل التجارى الخارجى وفق الحاجة والوفرة فى الداخل حتى لا يكون التسويق الخارجى على حساب السوق الداخلية او المنتج او المستهلك

ب - منع احتكار التجارة الا فى حالات استثنائية تكون الدولة ملزمة بذلك لضمان المصالح الكبرى السياسية والاقتصادية وغيرها .

جـ – ضرورة مراعاة التدرج في تحقيق حرية التبادل التجاري للمحافظة على الميزان الاقتصادي الضروري الذي يكون بين حجم الصادرات والمستوردات وان تعطى الاولوية في المراحل المبكرة من هذه السياسة الى المواد المصنعة والضرورية صحيا ومعرفيا لفك الحصار عن عبقرية الامة وارادتها للمساهمة في الحظوظ الحضارية والجهود الرسالية لتؤدي مهمتها حيال الانسانية والعمل على اقرار السلم بالمفهوم الاسلامي والعدل ومناصرة الشعوب الضعيفة والامم المتضررة بالسياسة الاستعمارية والتخفيف من وطاة التبعية والتخلف والفقر والجوع والمرض والجهل والضلال وان استلزم ذلكم سياسة الكفاف

يخضع ميزان الصادرات والواردات الى معيار الخطة الانمائية الحضارية البعيدة المدى كي لا تحول المواد الاولية الصناعية الحضارية كالطاقة والمعادن الى مواد استهلاكية انية مما يجعل سياسة الجبهة الاسلامية للانقاذ تنصف الاحفاد وتراعي حاجتهم لزمانهم مما يجعل النهضة الاقتصادية والحضارية ذات النفس الطويل عبر الاجيال في المستقبل .

هـ – وضع ميزان بين الصادرات والواردات من نفس النوع لحماية المنتوج الوطني مع مراعاة ضمان الجودة وان يؤدي ذلك الى دعم الدولة للمنتوج المحلي .

و – يعتبر المنتوج المصدر للخارج من اهم الميادين التي تتبلور فيها ارادة الشعب الجزائري لفرض وجوده بجهده واجتهاده لكسب الثقة بالجودة مع الاعتدال في الاسعار حسب مقتضيات السوق العالمية المبنية على التنافس .

ز – ضرورة اعادة النظر في العلاقات مع الصندوق النقدي الدولي وسائر الهيئات المالية والتجارية المتورطة في الازمة الحالية واثارة مشكلة المديونية في ضوء المستجدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تطرحها سياسة الجبهة الاسلامية للانقاذ .

ومن ثمة فالسياسة التجارية للجبهة الاسلامية للانقاذ تكون مكملة ومتكاملة مع سياستها الزراعية والصناعية في نطاق اقتصاد محقق للاستقلال والوفرة والنماء والتجاوب مع متطلبات النمو الاجتماعي والثقافي والحضاري .

٤ – المالية :

تشكل السياسة النقدية اخطر العوامل التي تساعد على التحكم المنهجي في الاقتصاد قصد حماية الثروات من الضياع لضمان النمو والازدهار كمقصدين من مقاصد السياسة الاقتصادية للجبهة الاسلامية للانقاذ ولذلك تنضبط السياسة النقدية للجبهة الاسلامية حسب الطرق التالية :

أ – اعادة النظر في القيمة النقدية لاعطائها قيمتها الحقيقية الموحدة سواء في الخارج أو الداخل حسب الشروط المالية وحيثيات التبادل التجاري بين الصادرات والواردات مما يشكل الحوافز الحقيقية للانتاج على ان ذلك يخضع الى التحديات الشرعية الاسلامية لسياسة النقدية .

ب – اعادة النظر في تسعير العملة داخليا وخارجيا لحماية القدرة الشرائية لدى المواطن في الداخل والخارج أو تقوية الحافز لجهد المنتج وحماية القيم الاقتصادية .

ولضمان القرار السياسي سواء في الداخل او الخارج تعتمد ميزانية الدولة على المصادر التالية .

١ – الثروات الطبيعية .

٢ – المنتوج الزراعي والصناعي والتجاري والاعتماد على توفير شروط الاكتفاء الذاتي وعدم الاتكالية على الغير مع ضرورة ضمان العدل .

وبناء على ذلك يعاد النظر فيمايلي :

أ - سياسة الضرائب الجمركية .

ب - اعتبار الزكاة والاوقاف من الموارد الشرعية للدولة ما التزمت الدولة بالسياسة الشرعية .

جـ - وفي حالات التأزم الاقتصادي او الاجتماعي يكون صندوق التكافل الاجتماعي والقرض الشرعي . ان الدولة التي تستلف من مواطنيها لعدلها خير من تلك التي تغتصب اموالهم او تعتمد على أسلوب التضخم او المديونية الخارجية .

د - تشجيع الجزائريين وسائر المسلمين من ذوي الثروة في الخارج بما في ذلكم المهاجرين على وضع اموالهم في صالح تحريك الاقتصاد الوطني ليحقق الكفاية المطلوبة وهو من ضروب الجهاد بالمال وذلك سواء عن طريق القرض أو عن طريق التبرع أو الاستثمار على ان الدولة تلتزم بجميع الضمانات للحفاظ على ارزاق الناس .

هـ - اعادة النظر في سياسة البنوك قصد ضمان ثروات الدولة وارزاق المواطنين وسائر المساهمين في اثراء البلاد عن طريق الاستثمار لضمان حرية القرار السياسي سواء في الداخل او في الخارج .

و - انشاء بنوك اسلامية وصناديق للقرض والتوفير الخالية من الربا بكل اشكاله الضامنة للمصالح العاملة على ضمان روح التكافل والتعاون والرقي الاجتماعي والنمو الاقتصادي . وبناء على ذلك تحدد في كل سنة ميزانية الدولة حسب الحاجات العاجلة والاجلة ، بميزان يضمن التحسن التدريجي والنمو الاقتصادي بالسرعة المطلوبة حسب حيثيات المستجدات السياسية والاحداث التاريخية سواء في الداخل او في الخارج ، على ان سياسة الميزانية تلتزم بان تصرف المالية حسب سلم الاولويات الذي يحدد حسب المستجدات باستثناء الزكاة التي تصرف لما حدده الشارع الحكيم لها .

ز - تعديل وسيلة الجباية التي صارت فوق مستوى طاقة المواطنين وصارت عاملا من عوامل الغلاء الفاحش والتضخم وسياسة نهب المواطن واغتصاب ماله باسم القانون والمصلحة العامة وكأن المصلحة العامة في اضرار المواطن وتكليفه مالا يطيق فلابد من وضع حد من هذا التعسف لدفع عجلة النماء العادل .

السياسة الاجتماعية :

تنطلق السياسة الاجتماعية للجبهة الاسلامية للانقاذ من مبدأ تكريم الانسان الذي ورد في قوله تعالى : ﴿ولقد كرمنا بني أدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ ، وذلك بدءا بكفالة الحقوق والحريات التي كفلها الشارع الحكيم المحققة لنموذج خير أمة اخرجت للناس بالتساوي لجميع الناس باعتباره النموذج القائم على التكافل الاجتماعي المانع للصراع الطبقي والطائفي .

ومن ثمة فان السياسة الاجتماعية للجبهة الاسلامية للانقاذ تتمحور في العناصر التالية :

أ - حق الوجود .

من ابعاد التكريم الرباني للانسان ان جعل وجوده نعمة واتخذ مهمته مبررا لوجوده ، فقال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ . فبرر الله الوجود بالعبادة ولم يبرره بالكسب الذي اعتبرته النظريات الحديثة . ابتداء من مالتوس الى ماركس عالة على الاقتصاد وطفيليا في الكون كما ابرز التكريم في علاقته بربه اكثر من علاقته بالاكوان التي سخرها له فقال تعالى : ﴿ان اكرمكم عند الله اتقاكم﴾ .

واذا كان الانسان - بحكم التكريم - هو محور الكون بفضل فعاليته فان هذه الفعالية ليست بالفعالية الحيوانية التى لاتتجاوز حدود الاستهلاك بل هى فعالية كونية تتجاوز الحاجات الفردية والجماعية الانية الى الابعاد الحضارية من حيث هو - اى الانسان - يصير صانعا للحضارة وليس ابدا عالة عليها . ولذلك فان مارفع من شعارات لتحديد النسل ماهو الا مس بكرامة الانسان وهدر لقيمته واستلاب لاستحقاقه للمكانة الاولية فى الكون يقول تعالى : «ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم» على ان الامة مطالبة بكفالة الرعاية والعناية لجميع المواليد بالتساوى فى حظوظها ويعد الحرمان من ذلك مسا بقيمة الوجود

ب - حق الرعاية والعناية :

ان حق الرعاية والعناية فى جميع مراحل النمو من النطفة الى آخر مراحل الرشد والاكتمال وارقى مستويات التحصيل مرتبط بقيمة الوجود باعتباره وجود رسالى تاريخى حضارى . ومن ثمة فان الحق فى التربية حق شرعى يتضمن الواجب الذى يخول المسؤولية التربوية لكل من الام والطفل المعنى بالتربية ولذلك فهى حق وواجب فى أن واحد لقوله تعالى : «اقرأ باسم ربك الذى خلق الانسان من علق» . فربط النص الشرعى بين حق الايجاد وحق التعلم لمضمون الرسالة اشارة الى ان الرسالة من مبررات الخلق وان التعلم المحقق لجدارة حمل الرسالة واجب بحكم ان ما لايتم الواجب الا به فهو واجب .

ولذلك فان سياسة الجبهة الاسلامية للانقاذ تقوم على مبدأ كفالة هذا الحق للجميع بمقتضى مبدأ المساواة فى الاسلام وهو مايتطلب الشروط الاصلاحية التالية للمنظومة التربوية ابتداء من السياسة التعليمية السائدة الآن المتورطة فى كل اوضاع الازمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية ..

١ - السياسة التعليمية :

أ - اذا كانت السياسة التعليمية جزءا من سياسة الدولة عامة واذا كانت السياسة التى تنتهجها الجبهة الاسلامية هى السياسية الشرعية فان السياسة التربوية ملزمة بكل ما ازمتها مقاصد الشرعية الاسلامية من ضرورة كفالة حق التربية لجميع من فى الوطن دون تمييز عنصرى او طائفى او عرقى او دينى او نوعى ..

ب - اعتبار التربية كما هى حق للفرد ، هى حق للامة بضرورة مراعاة جميع مصالحها ..

جـ - تحدد ميزانية التربية فى نطاق ضمان العدل والنوعية معا..

٢ - ميزانية الدولة للتربية :

تحدد لتحقيق التوازن بين الحاجة التربوية و بين التمويل باعتبار التربية من أهم ميادين الاستثمار ..

٣ - التوجية التربوى :

يتقيد بالقيم التالية :

أ - الميول والخبرات للحصول على ارقى الكفاءات ..

ب - القيم الاسلامية كعدم الاختلاط ونظام الاداب والمعاملات الاجتماعية التى ينبغى ان تكون وفق الضوابط الشرعية .

جـ – مراعاة التوظيف على مستوى الكسب وعلى مستوى المهمة الرسالية والحضارية كمجال لمساهمة الجيل المعد لذلك ومواجهة البطالة وتغطية الوظائف المختلفة المستويات فى التعقيد التكنولوجى الوظيفى .

د – ضبط سياسة الامتحانات حسب هذه المعايير كلها للتخفيف من الفاقد التربوى وعطالة الخريجين بعد انهاء مرحلة التربية والتكوين . ولتلافى ما حصل تمنح فرص جديدة للمتواجدين فى الشارع والذين طردوا من المعاهد التربوية إن بواسطة الامتحان وإن بقدره قصد كسبهم للمشروع الاقتصادى والرسالى الحضارى الذى اعد لهم وذلك باعداد مؤسسات خاصة اهم من ثانويات وجامعات شعبية استدراكية قصد ضمان ترقيتهم الاجتماعية .

٤ – المحتوى التربوى أو المنهج .

أ – يعاد النظر فى المحتويات التربوية فى نطاق حاجة البلاد الى النهضة الشاملة وذلك عن طريق ضمان التوعية التربوية المطلوبة فى كل المستويات وجميع التخصصات .

ب – اعادة النظر فى المحتوى التربوى من اجل تصفيته من الايديولوجيات الغازية والمفاهيم التى تحمل قيما تتعارض وقيم الأمة الاسلامية وذلك لصيانة الشخصية وتحقيق الاصالة وتشجيع روح الابداع .

جـ – اعادة النظر فى الطرق التربوية الشائعة عندنا والتى تعمق هوة التقليد الاعمى مما جعل جامعاتنا تستهلك المعارف بدلا من ان تنتجها وصارت تكوّن المتعلمين بدلا من العلماء العارفين . واعطاء الصبغة الاسلامية للتخصصات التكنولوجية مع ضمان اعلى المستويات التربوية للخبرة التكنولوجية لتجنيب البلاد الحاجة الى الخبرات الاجنبية .

٥ – اعداد المعلمين .

اعادة النظر فى وضع المؤسسات التربوية باعداد المعلمين لمختلف المستويات التعليمية وذلك لضمان اعلى المستويات فى الخبرة وابدى النماذج فى المسلكية باعتبار المعلم والمربى قدوة ليس فقط للتلاميذ بل للامة بأكملها . وذلك يقتضى اعادة الاعتبار الى رسالة المربى وقيمته ومكانته فى الامة الاسلامية اقتداء برسول الله ﷺ مع ضرورة الاعتبار المادى ليتكافأ مع الواجبات الجسام المطلوبة منا فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الامة باعتبار ان الواجب يكمن دوره فى الحقوق . فكلما زاد الحافز التربوى فى المؤسسة زاد معها مردودها المادى والمعنوى على صاحبها .

٦ – النظام الاجتماعى فى المؤسسات التربوية :

أ – يعد النظام الاجتماعى فى المؤسسة التربوية من أهم الشروط التربوية لتكوين شخصية التلاميذ والطلاب بحيث يكون المجتمع التربوى نموذجا سليما ممثلا للامة .

ب – ضرورة توفير الشروط النفسية والمادية والاجتماعية فى الحياة التربوية داخل المؤسسة مما يجعل الشخصية الاسلامية تنمو فى شكل متكامل شامل . صحيا ونفسيا وعقليا وثقافيا واجتماعيا واخلاقيا .

٧ – السلم التعليمى من الحضانة الى ما بعد الجامعة :

اعادة النظر فى السلم التعليمى من المدرسة الى الجامعة فى ضوء المستجدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وجعل الانتقال من مرحلة الى اخرى خاضعا الى الشروط التربوية لا غير . مع تعريب كل المراحل الجامعية التى لم يتم بعد تعريبها .

٨ - مرحلة الالزام .

رفع مرحلة الالزام الى التعليم الثانوى .

٩ - الوسائل التعليمية :

اعادة النظر فى الكتب المدرسية بناء على مقاصد الشريعة ومتطلبات التربية الاسلامية .

١٠ - المنظومة التربوية الرياضية :

اعادة النظر فى السياسة التربوية الرياضية بحيث تصير وسيلة لنمو الجسم والرعاية النفسية والاخلاقية مع مراعاة احكام الشريعة الاسلامية .

١١ - التربية الاعلامية :

اعادة النظر فى جميع برامجها ومقاصدها كى تتحول من وسيلة غزو فكر ثقافى الى وسيلة مناعة ثقافية وقناعة ايمانية وجدارة فنية تتبلور فيها عبقرية الاجيال وقدرتها على الابداع والتفوق .

١٢ - سياسة المنح فى الداخل والخارج :

تضبط سياسة المنح بحيث تكون لمن هو اكثر استحقاقا سواء فى الجدارة أو فى الحاجة .

١٣ - النظام الادارى لسياسة تسيير المؤسسات فى كل المستويات :

يعاد النظر فى سياسة التسيير الادارى بحيث يكون ثمة اعتدال فى المركزية واللامركزية على ان تعتمد الروح الجماعية ويجمع بين المعاهد التربوية والادارية مما ييسر مهمة المعلم والمتعلم معا ويخدم مصلحة البلاد .

١٤ - سياسة التوظيف فى الميدان والتسيير والبحث :

يعاد النظر فى سياسة التوظيف فى الحقل التربوى سواء فى التسيير أو الممارسة الميدانية للعملية التربوية والبحث لتحقيق النوعية .

جـ - حق الانتخاب والترشيح والمشاركة فى التسيير :

ان الاسلام دين الحرية باعتبار هذه الاخيرة تقوم على المسئولية من حيث هى تعبير على الارادة الخيرة الواعية القائمة على القناعة الايمانية والمناعة الاخلاقية الوجدانية من ذلكم قوله تعالى : ﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وقوله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة» وقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا» . فالانسان بناء على هذا المنظور العميق الاسلامى للانسان يجعل هذا الاخير مسؤولا وبمقتضى هذه المسؤولية يستحق الحقوق التالية :

١ - حقه فى الانتخاب أو إختيار القيادة .

٢ - ان حقه فى الانتخاب يخوله حقا للترشيح مادام قد توفرت فيه الشروط التالية : الاسلام - العدالة - القدوة - الكفاءة أو الجدارة - الميول الشخصية والاستعدادات النفسية والحيثيات الموضوعية التى تتطلبها المستجدات .

حقه فى التسيير وهو تولى المسؤوليات الادارية والمهنية وهى تقوم على التقوى والجدارة والمسلكية لا غير . فبموجب ذلك يكون الموظف او المعين للمسؤوليات مسؤولا امام الله ومسؤولا امام الامة ومسؤولا امام المصلحة

التى يشرف عليها أو يكون عنصرا مسيرا منها وذلك حتى لاتضيع الامانات بضياع المسؤولية قال تعالى : «ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها» وقال عليه الصلاة والسلام : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» .

٤ - توفر الثقة بموجب اشتمال الشخصية المسؤولة على الصفات السابقة الذكر . والثقة هنا بمعناها الشرعى والاخلاقى المهنى والسياسى .

٤ - افساح المجال للمبادرة :

لتكون الامة فى مستوى مواجهة المستجدات السياسية والاقتصادية ، الثقافية والحضارية ، لابد من فك القيود التى قضت على روح المبادرة فى شعبنا العصامى الذى كاد يحال الى اتكالية خطيرة لابد من الحريات التى تفسح المجال امام المبادرات الانتاجية الابداعية فى جميع مجالات الحياة وهو شرط نفسى تفرضه طبيعة المرحلة لتأهيل الاجيال المقبلة للمهام الكبرى التى تنتظرها على مستوى الرسالة والحضارة والتاريخ .

هـ - ضمان الامن على الدين وعلى النفس والعقل والعرض والمال :

ان الاسلام من مقاصد شريعته ضمان المصالح ومن ضرورياتها كفل الاسلام الضرورات الخمس والتى لا يكون الانسان انسانا الا بها وهى :

١ - كفالة الدين .
٢ - النفس .
٣ - العقل .
٤ - العرض .
٥ - المال .

فكفالة هذه الضرورات توفر شرطا نفسيا لا يكون الاستقرار الا به .

و - اصلاح الاسرة الجزائرية فى نطاق الشريعة الاسلامية :

اعتنى الاسلام بالاسرة عناية لم يعرفها دين ولا فلسفة ولا نظام لا قديما ولا حديثا وذلكم لخطورة وقابليتها فى الامة ونجمل هذه العناية فيما يلى :

١ - الرعاية والعناية بالطفل الى سن الرشد .
٢ - ضمان التكافل الاجتماعى الى حد الايثار .

٣ - ضمان التوازن الاجتماعى بواسطة التماسك الاسرى واذ اشتملت الاسرة على هذه الخصائص وادت هذه المهام فى مختلف العهود والعصور منذ عهد الرسول ﷺ الى اليوم فان ذلك ليعد من اهم نتائج اهتمام الشرع بها ولئن تعرضت الاسرة الى التدهور من جراء ظروف الاستعمار بشكليه القديم والحديث فانها لم تستسلم لسياسته وبفضلها استطاع الشعب الجزائرى ان يواجه فى غياب الدولة وان يثور فى وجه الاعداء . ونتيجة لما تعرضت له الاسرة من سياسة التخريب والتحلل والفقر والجهل فان اصلاحها ليعد من أوسع ميادين سياسة الجبهة الاسلامية للانقاذ ولذلك فهى تقترح ازالة العقبات التالية :

أ - توفير الشغل لاصحاب الاسر لايقاف الهجرة التى اتخذت سبيلا لتفكك الاسرة .

ب - اعادة النظر فى سياسة الاسكان لتوفير المسكن الكريم لبيت الزوجية منعا للتشرد وسائر آفات غياب السكن

التى عرفته البلاد بحظر البناء وتعطيل المجتمع من تشييد عمرانه وفق حاجاته الآنية والمستقبلية التى تمليها ضرورة نموه السكانى فى مرحلة النمو الشامل

جـ - العناية بالمهاجرين وتيسير عودتهم الى بلادهم وذلك بتوفير ما جعلهم يلجأون الى الغربة ويتجرعون مرارتها وغصة الامها ووحشة البعد عن الوطن .

د - العناية بالام ، خاصة التى ترعى الاطفال تسعف - فى حالة الضرورة - بمساعدة توظف لذلك وتعطى منحة للامومة حيث يعتبر عملها البيتى وظيفة اجتماعية وتربوية تتقاضى عليها جراية بنفس المستوى الذى يتقاضاه العامل فى المعمل او فى الحقل أو غيرهما مع مراعاة مستوى الخبرة والكفاءة والجدارة بالنسبة الى التربية البيتية . ويقوم بمهمة التوظيف والاشراف والتوزيع للموظفات جهاز من التكافل الاجتماعى يضمن جميع الشروط الامنية والاخلاقية والنفسية ..

هـ - العناية بالمرأة : نظرا لسمعة المرأة المسلمة التى اكتسبتها فى عهد الرسول ﷺ وبما توصلت اليه فى نموذج امهات المؤمنين ومنهن عائشة رضى الله عنها بعلمها - حتى كانت راوية لاكثر من الفى حديث - ومشاركتهن مع الرسول فى غزواته وموقف ام سلمة بالحديبية - مما دل على وعيها السياسى - وفى عصور النهضة العلمية والفكرية مشاركتها بعبقرية النابغات فى الفكر والادب والفقه والسياسة والطب ، وفى عهود كثيرة كانت استماتتهن فى المواقف الجهادية فى المغرب والاندلس وفى عهد احتلال الجزائر وثورة نوفمبر التى برزت فيها مجاهدات مؤمنات احيت امجاد المرأة المسلمة ، فان مهمتها فى هذه المرحلة - وقد اصبحت تمثل اكثر من ثلثى نسبة الطلبة الجامعيين وتلامذة الثانويات - فان الجبهة الاسلامية للانقاذ تعتبر هذه الطاقة من العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية الجديرة بالاهتمام قصد توجيهها الحكيم وتوظيفها الرشيد فى الخطة الانمائية الحضارية الشاملة وذلك بتخصيص المرأة بالعناية التالية :

١ - رفع مستواها العقائدى وجودة تكوينها المسلكى .
٢ - رفع مستوى وعيها السياسى والتربوى والحضارى .
٣ - اعادة الاعتبار الىّ مكانتها الاسلامية بحفظها من التعسف والانحلال وآفة التقليد الاعمى .
٤ - توعية المجتمع كى يدرك اهمية طاقتها وعظيم رسالتها .

من أجل ذلك كان الاسلام وما يزال الدين الذى لم يميز المرأة عن أخيها الرجل بكل ما كرم به الانسان وشرفه وفضله لقوله عليه الصلاة والسلام : «النساء شقائق الرجال» . وقوله : «استوصوا بالنساء خيرا» .

و - اعادة النظر فى سياسة المنح العائلية خاصة للعمال أو الذين مستوى دخلهم لا يكفى لضمان الضرورى من الغذاء .

ز - رفع مستوى جراية المتقاعدين الذين جمدت جراياتهم وصارت لا تكفى - امام التضخم الذى آلت اليه البلاد - وارامل الشهداء وذوى الحقوق .

ح - العناية بالعجزة والمعوقين بتحديد جرايات تكون فى مستوى كفالتهم الاجتماعية التى تحفظ لهم كرامتهم وتجعلهم فى مأمن من الضياع أو الاهمال او التفريط مما يجعلهم يشعرون بدفء احتضان امتهم لهم . والجدير بالملاحظة ان هذه العناية لجميع المستحقين بدون ميز نوعى او عنصرى او طائفى أو دينى ..

ط - اعادة النظر فى سياسة السجون وطرق معاملة المساجين لضمان كرامتهم ورعايتهم جسميا ونفسيا واجتماعيا وتربويا . اسلاميا ومعرفيا ومهنيا واعدادهم للادماج الوظيفى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بعد خروجهم .

ى - وضع ميزان بين الحراية المناسبة للجهد والخبرة وبين الندرة الشرانية التى تستجيب للحاجات الاستهلاكية عموما .

ز - الاصلاح الاجتماعى الشامل :

يعد نظام الحسبة فى الاسلام من احكم الطرق الشرعية لضبط العلاقات بين الناس فى الميادين التالية :

١ - الشارع .
٢ - السوق .

المحور الثقافى والحضارى ..

إن السياسة الثقافية والحضارية من منظور الجبهة الاسلامية للانقاذ تتلخص فى حماية الأمة من الغزو الثقافى والقهر الحضارى مما يجعل الأمة على أتم استعداد للنهضة بثقافتها الاسلامية وحضارتها خاصة فيما يلى :

أ - الدين وشريعته .
ب - الأخلاق الاسلامية وقيمها .
جـ - الفكر الاسلامى وعبقريته
د - حرية المبادرة الذكية العملية والشرعية وإشراقاتها .

وهى ثقافة تكامل فيها العقل مع الشرع والأخلاق مع الفن والعلم نظر وتطبيق إنها ثقافة خبرة أمة وإرهاصة تاريخها وفعاليتها . انها مجموعة الشروط النفسية والكنوز التاريخية والآفاق المستقبلية حيث تصبح مجالا تترعرع فيها أجيال من العبقرية إنها سر استمرارية ومبرر الوجود الكلى لخير أمة أخرجت للناس ، أمة الرسالة أمة الحضارة .

وخلاصة القول فإن هذه المقاصد النفسية والتاريخية تتحقق بضمان الشروط التالية :

١ - ضرورة مراعاة نفسية الأمة من حيث هى أمة ذات استحقاق لحياة العزة ، حياة المشاركة الفعالة فى الجهد الحضارى على أوسع مدى وذلك بإفساح مجال الحرية أمام المبادرات العبقرية .

٢ - ضرورة رد الاعتبار إلى الدين الاسلامى كنظام حياة ضامن لسعادة الدارين ومحقق لمقاصد ومبررات التكريم الذى سبق ذكره .

٣ - إعادة الاعتبار إلى العلم وتقنيته حتى يعود إلى مكانته فى الأمة تلك التى أعطاها له القرآن الكريم والسنة برد الاعتبار إلى العلماء من حيث هم أهل الذكر وهم أولوا الأمر فلا يبث أمر عظيم من أمور الأمة إلا بعد استشارتهم وفى ضوء حكمتهم وفى نطاق توجيهاتهم ما أطاعوا الله ورسوله وأجادوا وأصلحوا وبينوا .

٤ - تشجيع تعميم استعمال اللغة الوطنية فى سائر أنحاء القطر بدون استثناء لضمان التفاهم بين الجزائريين وحفاظا على وحدة القطر ولأنها لغة القرآن والسنة وهذا لا يعنى نبذ ماسواها مما يساعد على تيسير التجاوب وإثراء العلاقات الثقافية وبهذا تصير الثقافة مانعا من موانع التصدع لوحدتنا وحامى حمى الأمة الثقافى والحضارى من الغزو الفكرى والحضارى ومصدر من مصادر الثروة الايمانية والأخلاقية والفنية والعلمية والتكنولوجية مما يجعل البلاد تضمن لأجيالها مستقبلاً زاهرا تطورت فيه أصالته وتفوقت بالتجديد عبقريته ليكون من ورثة الرسالة وبناة الحضارة ، وتحقيقا لذلك يعاد النظر فيمايلى :

١ - البرمجة الاذاعية والتلفزة ونظام المكتبات وقاعات العرض والمراكز الثقافية والمسرح .

المركبات الرياضية والفنية ودور السينما

٣ - تشجيع المجلات العلمية المتخصصة والعامة .

٤ - توفير الكتاب الاسلامي والعلمي والتقني مما يجعل المكتبات في مستوى حاجة المعاهد والجامعات ومراكز البحوث . إن السياسة الاعلامية للجبهة الاسلامية للانقاذ هي الميدان الذي تتجسد فيه حرية التعبير وحق الامة في استنشاق الهواء النقي من حيث هي نافذة على العالم ناقلة لأخباره معرفة بأحداثه موصلة لعلومه ومعارفه وتقنياته وفنياته في أحدث أطواره . على أن الخناق الذي عانت منه الأمة في البلاد حرمها من حقها في حرية التعبير والاتصال الحر بالعالم كي تعيش ظروفه وتستغل علومه وتقنياته وتوظف أجود فعاليته وتستفيد من ارقى خبراته وثمرات عبقريته وتواكب تطور اكتشافاته وتدرك أرقى مستويات وعيه الحضاري والتربوي مما يساعدها على التجاوب المثمر ويؤهلها للمشاركة الفعالة في حل مشكلات الانسان الحديث ومعالجة قضايا مستجدات العصر ووضع حد لتشويه الاسلام وقمع المسلمين ومنعهم من توصيل بيان الاسلام والدفاع عنه والذود عن كل المسلمين شعوبا وأمة .

ولذلك فإن الجبهة الاسلامية للانقاذ تعتبر المرحلة الراهنة مرحلة من أغلى مكاسبها حرية التعبير عن ذاتيتها الحضارية الرسالية ومن ثمة يعد الاعلام شرايين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية ، الذي تفتح على العالم لكي تصبح علاقتنا به ثرية فعالة لاتعطي إلا من جيد إنتاجها في نطاق رسالتها الربانية ولاتأخذ الا ملامح من علوم وتقنية ولاتستورد إلا ما جد مما يصلح لمواجهة ما استجد من ادعاءات المناسبة للصراع الثقافي والحضاري المعزز للارهاصات التي تجعل عبقرية أجيالنا محققة للمراد من الاستقلالية الثقافية والحضارية ومن ثمة فالاجهزة الاعلامية هي مصفاة الخبرات ومعيار للمعلومات وتمحيص للأخبار والزام للمعرفة الاعلامية وتبليغ لكلمة الله .

ولتحقيق ذلك تعمل الجبهة الاسلامية للانقاذ على إصلاح مايلي :

١ - الصحف على اختلافها من يومية وأسبوعية فالى شهرية أو دورية تشجع على كشف الحقائق والبحث عنها وعرضها للموضوعية تساعد على معرفة واقع البلاد في مختلف المجالات وحتى على مستوى العالم بل تذهب سياسة الجبهة إلى أبعد من ذلك فتشجعها (أي الصحافة) على التخلص من عقدة النقص حيال وسائل الاعلام الأجنبية كي يستعيد ثقة الشعب بها على اختلاف مستويات الثقافة وذلك لضمان حصانة الصحافي . وإعادة الاعتبار إليه بناء على أهمية رسالته المذكورة آنفا .

٢ - تشجيع التخصص في الصحافة في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية سواء في الداخل أو في الخارج . أن العموميات التي تطغى على الأسلوب الصحفي في بلادنا أمسى من أخطر عوامل سيطرة العموميات والمستوى الرديء الثقافي والذهاب بالوعي السياسي والحضاري . إن تجهيل الشعب الجزائري في إسلامه وعملية تشويهه قصد تنفيره وتحريفه لمن أخطر السياسات الاستعمارية التي شنت على الاسلام أيام الاستعمار ومازال إلى اليوم . ولذلك نلفت الجبهة نظر الشعب الجزائري الغيور على دينه إلى ضرورة إنشاء جرائد وصحف تكون في مستوى وظيفة الدعوة الاسلامية المستقلة وترشيد صحوته المباركة وإجلاء الحقائق لجداته في الانقاذ للأمة والانسانية التصدي لخصومه ووضع حد لتضليلهم وتزويرهم وتحذير الرأي العام تأليبه على الاسلام والمسلمين . إن غياب الصحافة الاسلامية الحرة ترك ثغرة خطيرة نفذ منها الغزو الثقافي لعرقلة سير النهضة الاسلامية التي هبت الشعوب لحمل لوائها وانطلقت الامة رجعية لتحقيق آمالها بعد إزالة الأمرها لتضع حدا لسياسة استعمارية تركتها ضحية لخططها الماكرة وأغراضها الحاقدة .

ان من يريد العناء فى كل وقت سيجده ومن يريد الأفلام يلقها وأما من يريد أن يبحث عن دينه كى يفقهه أو ينشد علما كى يتعلمه وينتفع به لايجده ، لأن وسائل الاعلام ضاقت وأوصدت نوافذها أمام طلابي حريته والحقيقة والراغبين فى الاسلام والشرعية والباحثين عن العلم والتقنية

ولتفادى هذه الاوضاع المتردية ترى سياسة الجبهة الاسلامية للانقاذ ضرورة إصلاحها كى تصبح صالحة تربوية ومصلحة إجتماعية ومقنعة عقائديا وفكريا ومشوقة أدبيا وفنيا . فلا يكون الجمال على حساب الخير ولا تكون الاخبار على حساب الحقيقة ولا يكون التوجيه على حساب الأمانة .

فى ضرورة أثراء وتدعيم وكالة الأنباء الجزائرية بالكفاءات وأعلى الخبرات وأرقى التقنيأت كى تكون فى المستوى المحقق للمراد من الحراية الاعلامية .

هذا برنامج طموح يعبر عن رؤية شاملة لمختلف مجالات المجتمع .

لايتسع المجال بالطبع لمناقشة كل ما جاء فى هذا البرنامج – وفيه الكثير الطيب – لكننا سنعرض نقطة أو نقطتين يمثلان معالجة البرنامج لبقية القضايا ، وما ينطبق من حكم عليهما يمكن أن يسرى أيضا على النقط الأخرى . فعندما أشار البرنامج إلى العمال قال : «.. ضرورة إعادة الاعتبار إلى العامل ومراعاة نفسيته وكفالة حقوقه ، وتوفير الشروط النفسية والصحية والاجتماعية والأمنية والنقل والترقية والتعويضات والتشجيعات والسكن وسائر متطلبات الحياة الكريمة لقوله عليه الصلاة والسلام : «أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه» ، وكذلك قوله : «من أمسى كا لا من عمله أمسى مغفورا له» فهذه الفقرة تنم عن نفسية الجبهة وفهمها السلفى لقضية العمل والعمال – وهو فهم لايكفى مطلقا لتعقد المشكلة وما استَجد من علاقات لم يكن للمجتمع الانسانى عهد بها قبل الثورة الصناعية – ويبدو أنه ما لم يكن هناك حديث نبوى فليس هناك حاجة لايجاد حل !.

وصياغة الفقرة توضح أنها من وضع عناصر بعيدة عن العمال أنفسهم ، وأنها إنما تتوخى اكتساب العمال كما تفعل كل الأحزاب بإزجاء الوعود ، ورص الكلمات دون التورط فى تقريرات محددة . ومن عبر المعقول أو المقبول أن لانرد كلمة «نقابة» فى فقرة عن العمال !

فبأى صفة تقيم الجبهة نقابة وتدعو العمال للانضمام إليها إذا لم يكن فى برنامجها إشارة واحدة إلى النقابية .

وكيف تدعو العمال للاضراب دون الاعتراف بشرعيته !..

لقد كان المفروض والجبهة تعيش فى خضم المعركة أن يهديها ذلك إلى النص على حرية تكوين النقابات ، وحرية ممارسة الإضراب كوسيلة للانتصاف .

ونشجيع المفاوضة الجماعية كوسيلة من وسائل السورى فى الإدارة .

ولكن لما لم يكن هناك حديث نبوى مباشر أو إشارة سلفية منطبقة فلم نكلف الجبهة نفسها عناء التفكير .

وفى الفقرة الخاصة بالصحافة ثناء جميل على الصحافة ودورها و .. الخ ، دون إشارة إلى حرية إصدار الصحف دون ترخيص من السلطات ، وحرية إبداء الآراء دون خضوع للرقابة مهما خالفت هذه الآراء سياسة النظم الحاكمة ..

فهذا هو ما يهم الصحافة والصحفيين ، وما يُمَكن الصحافة من أداء دورها ..

فيبدو أن الجبهة تزجى الكلمات المعسولة والثناء الجميل والوعود المشرقة دون أن تشير إلى الطرق العملية للتطبيق ، ودون أن تترجمها إلى إجراءات عملية ، ودون أن تلتزم بحلول معينة محددة وواضحة وليست إنشائية وعامة .

كما أنه ليس لديها الحس بأن كثيراً من القضايا يجب أن تعالج فى ضوء المستجدات ، وليس فى ضوء المأثورات .

إننا نأمل أن يكون فى المحنة التى تعرضت لها الجبهة ما يدفعها لإعادة النظر فى برامجها فتستكمل مافاتها وتعدل فى «التكتيك» و «الاستراتيجية» معا فى ضوء ما تلقته من دروس .

★ ★ ★

من المهم الإشارة إلى أن الأضواء وإن تركزت على الجبهة – فإنها ليست الوحيدة فى مجال العمل الاسلامى :

وقد قال الشيخ عبدالله جاب الله رئيس هيئة «النهضة الإسلاميه» فى حديث له : «.... وجمعيتنا النهضة ، والإرشاد والإصلاح أسستا قبل الجبهة الإسلامية للإنقاذ بسنوات عديدة ، وقادتها يعرفون ذلك كما يعرفون أنفسهم وأبناءهم ، والجبهة الإسلامية تريد أن تكرس الفكر الاستبدادى ، وتنظر نظرة أحادية للأشياء ، وتجعل المسلمين تحت مظلة واحدة !، وهذا الطرح فيه تأثر برواسب الفكر الاستبدادى لدى المسلمين فى عهد الانحطاط !، ومن واجب المسلمين أن يحرروا الفكر الاسلامى من الاستبداد !»[(١)] .

---

(١) محلة الواحة ١٥ جمادى الثانى ١٤١١ هـ – ١٩٩١/١/١٣ م ص ٣ .

وتعد هيئة الإخوان المسلمين فى الجزائر من أقوى التكتلات الإسلامية وأكثرها تنظيما وانضباطا . وقد حملت أولا اسم «جمعية الإرشاد والإصلاح الوطنية» .

ولمناسبة الذكرى الثالثة للانتفاضة الفلسطينية فى ١٩٩٠/١٢/١١ م (وهى توافق الذكرى الثلاثين لانتفاضة الشعب الجزائرى فى ١٩٦٠/١٢/١١م) عقدت الجمعية اجتماعا كبيرا فى هذا اليوم أعلن فيه الشيخ محفوظ نحناح رئيسها ميلاد جمعية سياسية تحمل اسم «حركة المجتمع الإسلامية» ويرمز لها بالحروف الأولى منها (حماس) تيمنا باسم حركة حماس الإسلامية الفلسطينية .

وفى هذا الإجتماع الذى حضره مندوبون من هيئات إسلامية أخرى استعرض الشيخ محمد أبو سليمانى نائب رئيس الجمعية الخطوات التى اتخذت للتوصل إلى «تحالف» مابين التكتلات الإسلامية الرئيسية الثلاث (الجبهة - حماس - النهضة) والتى أشرف عليها الشيخ سحنون .

ويبدو للأسف الشديد أن هذه المحاولات لم تكلل بالنجاح ، رغم أن التحالف هام ، بل حيوى للجميع .

فهم جميعا فى خندق واحد . ومايوهن أى واحد منهم سينعكس على الآخر ، وهى معان يفترض ألا تغيب عنهم .

فصلا عن أن جمع الشمل مقصد إسلامى الطبيعة ، طالبت به الجماهير ، وتولته قيادة هى امتداد جمعية العلماء ، وشخصية تتمتع بالاحترام والتقدير لأنها تربط هذا الحاضر بالشيخ عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمى هى شخصية الشيخ أحمد سحنون .

وفى زيارتنا للجزائر فى يناير ١٩٩١ م كان من أول ما قمنا به زيارة الشيخ والإلحاح عليه فى جمع الشمل ، ولم الصف .. فقال الرجل مخلصا : انه ليس له من عمل سوى هذا ، وأنه يعمل له ليل نهار ..

ونحن نناشد الاخوة : فى الاسلام متسع للجميع ، ولن يضيق بأحد ، ولا أقل من ان نتبع المبدأ الذى كان يكرره الامام الشهيد حسن البنا «نتعاون فيما نتفق عليه ، ويعذر بعضنا فيما نختلف فيه» .

جـ - دعوة النهضة فى تونس

ليس لدينا للأسف الشديد مادة مفصلة وموثقة عن الدعوة الإسلامية الحديثة فى الشمال الإفريقى . إن الاستعمار الفرنسى نجح فى قطع وشائج الأخوة التى كانت تربط مسلمى المغرب بمسلمى المشرق ثم جاءت النظم العسكرية أو الأشتراكية .....إلخ فلم تحاول أن تعيد الجسور .

فظل الأمر كما كان تقريبا ، رغم ان الدعوة الأسلامية فى الجزائر وتونس تمثل نجماصاعدا فى سماء الدعوات الأسلامية .

حركة النهضة فى تونس : كان لتونس وضع إسلامى يميزها عن جارتيها : ليبيا والجزائر فقد كانت القيروان مركزاً مرموقاً للعلم الأسلامى فى القديم ، خلفتها بعد عهد طويل جامعة الزيتونة التى اشبهت الى حد ما الأزهر .

وظهر من تونس رجالات لهم ذكر فى العصر الحديث مثل : خير الدين التونسى الذى ولى «الصدارة» فى الدولة العثمانية ، وحاول أن يحيى رميمها ، ومثل : الشيخ الخضر حسين الذى ولى مشيخة الأزهر فى مصر . ومثل الطاهر بن عاشور .

ولكن من سوء حظ تونس أن ولى أمرها فى الحقبة الحديثة رجل لايؤمن بالاسلام وقيمه وشريعته ، وإنما يؤمن بفرنسا وقانونها وحضارتها ..

وهذا «الحبيب بورقيبه» كان نموذجا هزيلا للبرحوازية الأوروبية ، وأصبح فى آخر عمره معتوها حقيقيا ، وكان مجردا من الموهبة بالمرة .

ومع هذا حكم تونس قرابة ثلاثين عاماً أراد أن يستأصل منها النفوذ الإسلامى الذى كان يقف ضد مايريد من تجديد ..

وإلى حد ما نجح فى ذلك بحيث صدق ماقاله عالم الاجتماع التونسى الدكتور عبد الباقى الهرماسى : «من دون كل البلدان العربية كانت تونس البلد العربى الوحيد الذى هاجمت فيه النخبة المغتربة بشكل مفتوح الإسلام المؤسسى ، وحطمت قاعدته الأساسية باسم برنامج الاصلاح الاجتماعى والثقافى .

فتحت اسم هذا الإصلاح سجل : اجتثاث الزيتونه ، والقضاء على نظام الأحباس ، وإلغاء قوانين الأحوال الشخصية ، وتعطيل دور المجالس الشرعية ..»

ولكن تجربة التاريخ فى المنطقة تثبت أن الإسلام أقوى من كل الطغاة ، ولهذا فقد أخذت بدايات وهنانة تظهر فى مستهل السبعينات فى بعض الدروس فى جامع الزيتونه .. وظهر عندئذ عدد من الأشخاص قدر لهم أن يقودوا التوجه الآسلامى أمثال الشيخ عبد الفتاح مورو الاستاذ أحمد نده ، وغيرهم .. وكان من أبرزهم الشيخ راشد غنوشى الذى كان قد تلقى دراسته فى سوريا فى أواخر الستينات وتعرف هناك على «الفكرة الإسلامية» التى كانت أحد روافد الاخوان المسلمين .

وعاد إلى تونس ممتلئا بالحماسة ، فبدأ عملاً منظما مع مجموعة صغيرة فى جمعيات تحفيظ القرآن .. ولكن السلطات اكتشفتهم وطردتهم منها !!..

فبدأوا دعاية فى الجامعة جذبت عددا من الطلاب ..

وتعرض النظام وقتئذ لهزة نتيجة تحدى الاتحاد التونسى للشغل - وهو أعرق وأقوى هيئة جماهيرية ذات ماض فى الكفاح الوطنى - للنظام .

ولم يستطع بورقيبه أن يسيطر على الأمور إلا بصعوبة وبعد أن تدخل الجيش لسحق حركة الاتحاد وبعد فترة أعلن النظام قبوله للتعددية الحزبية ، وانتهز الإسلاميون الفرصة وأعلنوا قيام حركة «الاتجاه الاسلامى» فى السادس من يونيو عام ١٩٨١ ، وشكلوا مكتبا سياسيا رأسه الأستاذ راشد الغنوشى ، وأعلنوا البيان التأسيسى لحركة الاتجاه الاسلامى .

البيان التأسيسى لحركة الاتجاه الاسلامى

توطئة :

يشهد العالم الاسلامى - وبلادنا جزء منه - أبشع أنواع الاستلاب والغربة عن ذاته ومصالحه ، فمنذ التاريخ الوسيط واسباب الانحطاط تفعل فعلها فى كيان أمتنا

وتدفع بها الى التخلي عن مهمة الريادة والاشعاع ، طورا لفائدة غرب مستعمر واخر لصالح اقليات داخلية متحكمة انفصلت عن اصولها وصادمت مطامح شعوبها .

وكان المستهدف الاول طوال هذه الاطوار كلها هو الاسلام ، محور شخصيتنا الحضارية وعصب ضميرنا الجمعي . فقد عزل بصورة تدريجية بطيئة واحيانا بشكل جرىء سافر عن مواقع التوجيه والتسيير الفعلي لواقعنا ، فهو رغم بروزه عاملا محددا في صنع الجوانب المشرقة من حضارتنا وفي جهاد بلادنا لطرد المستعمر ، قد بات اليوم أو كاد مجرد رمز تحدق به المخاطر ثقافيا واخلاقيا وسياسيا نتيجة ما تعرض له في المرحلة المعاصرة والاخيرة خاصة من اهمال واعتداء على قيمه وعلى مؤسساته ورجاله .

واضافة الى هذه المعطيات التي تشترك فيها بلادنا مع سائر بلاد العالم الاسلامي عرفت تونس في اواخر الخمسينات وطيلة عشريتي الستينات والسبعينات – رغم حصولها على وثيقة الاستقلال – أوضاعا خصوصية اتسمت بالتأزم واحتداد الصراع الاجتماعي وتعطل سبل النمو الشامل . وقد تكرس هذا الوضع نتيجة احادية الاتجاه السياسي المتحكم (الحزب الدستوري) وتدرجه المتصاعد نحو الهيمنة على السلطة والمؤسسات والمنظمات الجماهيرية من ناحية ، ونتيجة ارتجالية الاختيارات الاقتصادية والاجتماعية وتقلبها وارتباطها بمصالح دولية تتعارض مع مصالح شعبنا الوطنية من ناحية اخرى .

في هذا المناخ ظهر الاتجاه الاسلامي بتونس في بداية السبعينات بعد أن توفرت له كل اسباب الوجود ، وتأكدت ضرورته ، وقد ساهم هذا الاتجاه من مواقعه في اعادة الاعتبار للاسلام فكرا وثقافة وسلوكا ، واعادة الاعتبار للمسجد ، كما ساهم في تنشيط الحياة الثقافية والسياسية فادخل عليها لاول مرة نفسا جديدا في اتجاه تأصيل الهوية والوعي بالمصلحة وتأكيد التعدد بتجسيمه واقعيا .

وقد عبر الاتجاه الاسلامي من خلال نشاطه ومواقفه العديدة عن التحامه بذات امته وتجسيده آمال شعبه وتطلعاته فالتفَّت حوله قطاعات عريضة من المحرومين والشباب والمثقفين . وكان نموه السريع مجلبة لاهتمام الملاحظين وترصد القوى والانظمة السياسية في الداخل والخارج . ورغم سعيه الرصين المتعقل لتلمس انجع سبل التطور والتغيير فقد تعرض هذا الاتجاه الى سلسلة من التهم الباطلة والحملات

الدعائية المغرضة نظمتها ضده السلطة الحاكمة ووسائل الاعلام الرسمية وشبه الرسمية بلغت هذه الحملات حد الاعتداء تعسفا على وسائل اعلامه قصد منعه من ابلاغ صوته وتطورت بعد ذلك الى اشكال اشد قهرا فقدمت عناصره الى المحاكمات وتكثفت ضد افراده التتبعات والتحقيقات وفتحت امام شبابه السجون والمعتقلات حيث الضرب والتعذيب والاهانة .

ان استمرار اسباب تخلف الوضع السياسي والاقتصادي والثقافي في مجتمعنا يُرَسخ لدى الاسلاميين شعورهم المشروع بمسئوليتهم الربانية والوطنية والانسانية في ضرورة مواصلة مساعيهم وتطويرها من اجل تحرر البلاد الفعلي وتقدمها على اسس الاسلام العادلة وفي ظل نهجه القويم .

وقد يذهب البعض الى ان هذا العمل هو من باب اقحام الدين في دنيا السياسة وانه مدخل الى احتكار الصفة الاسلامية ونفيها بالتالي عن الاخرين ، ان هذا الفهم فضلا عن كونه يعبر عن تصور كنسي دخيل على ثقافتنا الاصلية يكرس استمرارية (حديثة) لواقع الضياع التاريخي الذي عاشته امتنا .

على ان حركة الاتجاه الاسلامي لا تقدم نفسها ناطقا رسميا باسم الاسلام في تونس ولا تطمح يوما في ان ينسب هذا اللقب اليها . فهي مع اقرارها حق جميع التونسيين في التعامل الصادق المسؤول مع الدين ، ترى من حقها تبني تصور للاسلام يكون من الشمول بحيث يشكل الارضية العقائدية التي منها تنبثق مختلف الرؤى الفكرية والاختيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحدد هوية هذه الحركة وتضبط توجهاتها الاستراتيجية ومواقفها الظرفية . وبهذا المعنى تكون «حركة الاتجاه الاسلامي» واضحة الحدود محددة المسئولية غير ملزمة بكل صنوف التحركات والمواقف التي قد تبرز هنا وهناك – الا ما يقع تبنيه منها بصورة رسمية – مهما اضفى اصحاب هذه التحركات على انفسهم من براقع التدين ورفعوا رايات الاسلام .

وتأكيدا لهذا الوضع من ناحية ، وتكافؤاً مع جسامة المهمة ومقتضيات المرحلة من ناحية اخرى ، فانه يتعين على الاسلاميين دخول طور جديد من العمل والتنظيم يسمح لهم بتجميع الطاقات وتوعيتها وتوظيفها في خدمة قضايا شعبنا وامتنا . ولابد لهذا العمل ان يكون ضمن حركة مبلورة الاهداف مضبوطة الوسائل ذات هياكل واضحة وقيادات ممثلة .

ان «حركة الاتجاه الاسلامي» التي حالت بينها وبين جماهيرها المسلمة العريضة ظروف القهر والارهاب لتأمل ان تكون مساهمة جماهيرها اعمق واشمل في مستقبل الايام .

المهـام :

تعمل هذه الحركة على تحقيق المهام التالية :

أ – بعث الشخصية الاسلامية لتونس حتى تستعيد مهمتها كقاعدة كبرى للحضارة الاسلامية بافريقيا ووضع حد لحالة التبعية والاغتراب والضلال .

ب – تجديد الفكر الاسلامي على ضوء اصول الاسلام الثابتة ومقتضيات الحياة المتطورة وتنقيته من رواسب عصور الانحطاط وآثار التغريب .

جـ – ان تستعيد الجماهير حقها المشروع في تقرير مصيرها بعيدا عن كل وصاية داخلية او هيمنة خارجية .

د – اعادة بناء الحياة الاقتصادية على أسس انسانية وتوزيع الثروة بالبلاد توزيعا عادلا على ضوء المبدأ الاسلامي (الرجل وبلاؤه ، الرجل وحاجته) أي (من حق كل فرد ان يتمتع بثمار جهده في حدود مصلحة الجماعة وان يحصل على حاجته في كل الاحوال) حتى تتمكن الجماهير من حقها الشرعي المسلوب في العيش الكريم بعيدا عن كل ضروب الاستغلال والدوران في فلك القوى الاقتصادية الدولية .

هـ – المساهمة في بعث الكيان السياسي والحضاري للاسلام على المستوى المحلي والمغربي والعربي والعالمي حتى يتم انقاذ شعوبنا والبشرية جمعاء مما تردت فيه من ضياع نفسي وحيف اجتماعي وتسلط دولي .

الوسائل :

لتحقيق هذه المهام تعتمد الحركة الوسائل التالية :–

– اعادة الحياة الى المسجد كمركز للتعبد والتعبئة الجماهيرية الشاملة اسوة بالمسجد في العهد النبوي وامتدادا لما كان يقوم به الجامع الاعظم جامع الزيتونة من صيانة للشخصية الاسلامية ودعما لمكانة بلادنا كمركز عالمي للاشعاع الحضاري .

- تنشيط الحركة الفكرية والثقافية من ذلك : اقامة الندوات ، تشجيع حركة التأليف والنشر ، تجذير وبلورة المفاهيم والقيم الاسلامية فى مجالات الادب والثقافة عامة وتشجيع البحث العلمى ودعم الاعلام الملتزم حتى يكون بديلا عن اعلام الميوعة والنفاق .

- دعم التعريب فى مجال التعليم والادارة مع التفتح على اللغات الاجنبية .

- رفض العنف كأداة للتغيير ، وتركيز الصراع على اسس شورية تكون هى اسلوب الحسم فى مجالات الفكر والثقافة والسياسة .

- رفض مبدأ الانفراد بالسلطة (الاحادية) لما يتضمنه من اعدام لارادة الانسان وتعطيل لطاقات الشعب ودفع البلاد فى طريق العنف ، وفى المقابل اقرار حق كل القوى الشعبية فى ممارسة حرية التعبير والتجمع وسائر الحقوق الشرعية والتعاون فى ذلك مع كل القوى الوطنية ..

- بلورة مفاهيم الاسلام الاجتماعية فى صيغ معاصرة وتحليل الواقع الاقتصادى التونسى حتى يتم تحديد مظاهر الحيف واسبابه والوصول الى بلورة الحلول البديلة .

- الانحياز الى صفوف المستضعفين من العمال والفلاحين وسائر المحرومين فى صراعهم مع المستكبرين والمترفين ..

- دعم العمل الثقافى بما يضمن استقلاله وقدرته على تحقيق التحرر الوطنى بجميع ابعاده الاجتماعية والسياسية والثقافية .

- اعتماد التصور الشمولى للاسلام ، والتزام العمل السياسى بعيدا عن اللائكية والانتهازية .

- تحرير الضمير المسلم من الانهزام الحضارى ازاء الغرب .

- بلورة وتجسيم الصورة المعاصرة لنظام الحكم الاسلامى بما يضمن طرح القضايا الوطنية فى اطارها التاريخى والعقائدى والموضوعى مغربيا وعربيا واسلاميا وضمن عالم المستضعفين عامة .

- توثيق علاقات الاخوة والتعاون مع المسلمين كافة : فى تونس وعلى صعيد المغرب والعالم الاسلامى كله .

- دعم ومناصرة حركات التحرر فى العالم .

وبعد فترة شن النظام حملة من الاعتقالات ضمت الألاف من الأسلاميين خلال شهر مارس عام ١٩٨٧ وقدم قادة الحركة الأسلامية إلى محكمة أمن الدولة التى رأسها قاضى يدعى «الهاشمى الذمال» من نوع «جمال سالم» و «والد جوى» فى مصر و «المهداوى» فى العراق وغيرهم من قضاة السياسة الفجار .

ومورست خلال الاعتقال صور مقيتة من التعذيب أشبهت ما مارسه عبد الناصر فى مصر وحافظ الأسد فى سوريا .

وأصدرت المحكمة أحكامها بإعدام اثنين أتهما فى أحداث انفجارات وعنف ، وسجن قادة الحركة ، وأشتدت حملات البحث عن المحكوم عليهم غيابيا .

واهتزت السلطة ، وتبددت رعونة بورقيبه وتخريفه ، وأقال بعد ذلك وزيره الأول وعين خلفا له وزير الداخلية زين العابدين بن على ، الذى كان أول ما فعله أن قبض على بورقيبه وأودعه فى مكان بعيد أراح تونس من نزواته .. وطويت صفحته كأن لم يغن بالأمس ، وأنزلت تماثيله ولم تسكب عليه دمعة واحدة ، على أن زين العابدين نفسه لم يكن أقل عداوة للإسلاميين من بورقيبه فبعد أن أفرج عن الاسلاميين غداة توليه الحكم ، وبعد أن قدم شيئا من معسول القول والوعود ، حاول أن يبطش بهم ، ولكن بعضهم كان خارج تونس - ومنهم راشد الغنوشى - الذى أصبح يقوم بدوره السياسى من السودان أو فرنسا أو غيرها من الأقطار .

والحرب سجال !.. فقد أباح للشيوعيين تكوين حزب ..

وحرم على الإسلاميين ذلك !.. بحجة أن التونسيين مسلمون ، ولايجوز لحزب واحد أن يكون مسلما !!..

وبناء على هذا القياس لايجوز فى أى دولة تأخذ بالنظام الديمقراطى أن يظهر فيها حزب ديمقراطى حتى لا «يحتكر» الديمقراطية !!!..

★ ★ ★

إن الظاهرة اللافتة فى حركة الاتجاه الإسلامى - أو النهضة كما أصبحت تسمى - **هى تركيزها على الحرية** ..

فهل هى قسمة «تونسية» فى حركة إسلامية ؟..

إن من النادر أن نجد حركة إسلامية تقول :

«.. لذا نحن دخلنا الحياة السياسية فى تونس من أجل تحقيق الحريات فى تونس ، وليس من أجل إقامة حكم إسلامى .

يجب أن نحترم إرادة الجماهير إذا اختارت منهجا غير منهجنا ، فنحن لانشكل وصاية على المجتمع .

فإذا اختار مجتمعنا أن يكون يوما ملحداً أو شيوعيا فما نملك نحن»[1]

هذه نبرة غير مألوفة فى الدعوات الإسلامية ونحن بالطبع نتمنى أن تكون صادقة ، ولايجوز لنا أن نأخذها على غير محملها ، وتكون عندئذ تطورا هاما فى الفكر الدعوى الإسلامى .

---

(١) مقتطف من حوار للأستاذ العنوشى مع مجلة «المجتمع الكويتية يونيو ١٩٨١ ، استشهد بها فى مجلة الفرقان (الدار البيضاء – المغرب) العدد ١٢ جمادى الأولى / جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ ص ١٦ .

د – الشوريون التعاونيون فى اليمن

اليمن : حتى ثورة ٤٨

تتمتع اليمن بمنزلة فريدة فى العالم الإسلامى ، فمنذ عهد سحيق وجد بها مجتمع مدنى ينظم سياسياً على أساس قومى ويتمتع باستقرار ، وحضارة تقوم على الزراعة بصفة أساسية .

وتظهر فيها ملكة مثل «بلقيس» يتحدث عنها القرآن حديثا يستحق أن يجعلها من رواد الديمقراطية إذ يروى على لسانها : ﴿ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ : ناهيك بأنها سيدة تجلس على عرش الملك ..

وهى صفات لانجدها إلا فى مصر القديمة وحضارتها العريقة ..

ولما كانت اليمن مرتفعة – وجبلية – فان مناخها معتدل والأمطار تسقط عليها فتقاوم الجفاف فى المنطقة ، وبهذه الأمطار تروى اليمن زراعة مزدهرة ، وتختزن الباقى فى سدود مثل سد مأرب المشهور .

ولليمن طراز فريد فى العمارة وطريق البناء وطلاء الجدران عرضياً بألوان زاهية تنم عن حاسة فنية كامنة فى الشعب اليمنى .

وكما تميزت اليمن فى تاريخها القديم ، فإنها تميزت أيضا فى تاريخها الحديث :

فهذه هى الدولة الوحيدة التى يعتنق معظم علماؤها – أو أبرزهم – المذهب الزيدى الدى ينسب إلى الإمام زيد بن على (زين العابدين) بن الحسين بن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ويمكن القول أننا نجد فيه أفضل مافى السنة والشيعة على السواء .

ويكفى فى التدليل على ذلك أمران : **الأول** : فتح باب الاجتهاد من العهود الأولى حتى الآن **والثانى** : وجوب الثورة على الأئمة الظلمة واعتبار السكوت عليهم نوعا من الاستخذاء . ولهذا نجد فى سادات اليمن وقادتها دماء الشهداء ممتزجة بمداد العلماء .

وقد انطبق هذا تمام الانطباق على أسرة عريقة عرفت بالعلم والكفاح لستة قرون متوالية هى أسرة «آل الوزير» ، وهى الأسرة التى أرادت أن تضع اليمن على مشارف العصر وأن ترسم مكانا لليمن على خريطة الدول الحديثة .

ذلك أن اليمن كانت قد ابتليت بظروف معينة أدت لأن يحكمها الإمام يحيى حميد الدين الذى كان يؤمن بالانغلاق والبعد عن عالم العصر .

والوجه الحسن لمثل هذه السياسة وقتئذ أنها حالت دون تغلغل نفوذ أجنبى ، أو هيمنة استعمارية كما حدث لمصر أيام (الخديوى) اسماعيل باشا الذى فتح الأبواب على مصراعيها للأجانب ، أو لدويلات الخليج التى اكتسبت كيانها الخاص بمعاهدات مع بريطانيا .

ولكن الجانب السيء أنه أغلق على اليمن الأبواب وأمسك بيده المفاتيح !.

وظلت اليمن تتعامل بعملة «ريال ماريا تريزا» !! وتعيش حياة القرون الوسطى . حتى اضطر الإمام يحيى لإرسال بعض البعثات إلى مصر والعراق وسوريا فدخل بصيص من نور العصر اليمن ..

وتلاقت رغبة هذه النواة التى تعرفت على عالم العصر مع رغبة بعض العلماء الذين ضاقوا بسياسة الامام يحيى الديكتاتورية المخالفة لأصول المذهب الزيدى الذى ينص على الشورى ، ويوجب الثورة على البغاه .

ورزق الاثنان تأييدا من الإخوان المسلمين فى مصر ، وبهذا بدأت خيوط حركة جديدة تظهر وأمسك السيد «على بن الوزير» – وهو شخصية إدارية وسياسية وعلمية بارزة – المجتمع اليمنى ، وإن كان قد دفع إلى الصدارة بأخيه الإمام عبد الله الوزير .

وأدت ظروف المعركة لأن يقتل الإمام يحيى ولأن يهرب ابنه الإمام أحمد ..

بينما أقام الثوار لأول مرة فى العصر الحديث فى اليمن ثورة الميثاق أو «الدستور» ، ووضعوا دستورا لحكم اليمن يتفق مع الأصول الإسلامية الشورية .

كانت ثورة ٤٨ أصدق تعبير عن إرادة شعب اليمن الواعى لأنها تنبعث من أصول وجذور الشعب ممثلا بعقيدته وموروثاته وحضارته وقادته الطبيعيين من علماء أو طلبة .

وفى الحقيقة فان ثورة ١٩٤٨ م لم تكن أمل اليمن فحسب ، بل إنها كانت أمل المنطقة كلها فى قيام حكم شورى اسلامى يحقق أفضل مافى العصر الحديث دون أن يشذ عن أصول وجذور الشعب .

ولعل هذا نفسه هو الذى حفز العروش العربية ، ونظم الحكم والقوى المستفيدة من الأوضاع القائمة للتآمر على الثورة ، واعادة الحكم الفردى مرة أخرى ، وتمكين الامام أحمد من ضرب الثورة ، وإعادة الحكم الفردى والتنكيل بقادة وزعماء ثورة ١٩٤٨م ، فأعدم خيرة علماء اليمن وأخلص رجالها وأكثرهم مروءة وغيرة ، وبالرغم من حملة الاعدام والتنكيل استطاع قلة من أبناء قادة الثورة الهرب من السجون وحمل الفكرة .

لم يكن من السهل على الامام احمد أن يعيد عقارب الساعة الى الوراء ، ولم يكن الله سبحانه وتعالى ليضيع دماء شهداء حكم الشورى هباء ، فاضطربت الأمور ، ثم دخلت المنطقة كلها فى دوامة الحكم العسكرى والنظام الشمولى ، وعمدت النظم القائمة الى خداع الشعب برفع الشعارات المدوية ، وتقديم الوعود المغرية والزائفة ، واصطناع قيادات التنظيمات من نقابات او اتحادات طلبة .. الخ ، وبذلك هيمنت على الأمور واستبدت بالسلطات فاذا وجه اليها نقد رفعت شعاراتها وكررت دعاويها .. كأن الشعارات والدعاوى تغنى عن الحق والواقع شيئا . وقامت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م ضد طغيان بيت حميد الدين ، وتولى العسكر كل شىء ، وبذلك انتقلت عدوى الحكم العسكرى الى اليمن وظهرت كل سوءات هذا الحكم ، فاضطربت الأمور ، وأدى هذا إلى التدخلات الاجنبية التى جعلت أرض اليمن مسرحا لصراع القوى الطامعة فى السيادة ، وزعامة المنطقة .

ظهور اتحاد الشوريين التعاونيين :

عقب فشل ثورة ١٩٤٨ ، خيم على البلاد جو كئيب مثبط من الهزيمة واليأس والقهر وبقى من نجا من السجن حائرا تائها لا يدرى ماذا يعمل ، لكن بصيصا من الأمل شرع يأخذ طريقه فى تبديد ذلك الجو ، تمثل فى أمرين :

★ **أولهما** : تشكيل «عصبة الحق والعدالة» ، وهى أول تنظيم سياسى ثورى عقب فشل ثورة ١٩٤٨ ، أسسها ابراهيم بن على الوزير ومحمد عبد الواسع الواسعى والعقيد طه مصطفى ، والعقيد احمد الجرموزى - معلم الجيش آنذاك - وأحمد الحافى - أحد أبرز ضباط الكلية العسكرية الذين تخرجوا على يد الرئيس جمال جميل - واحمد ابو طالب وعبد الكريم الغسالى وعلى ابو الرجال وعلى محمد مفضل ويحى الوزير ومحمد احمد مفضل ، ومن المشايخ على سبيل المثال لا الحصر : الشيخ المنصورى من بنى جبر ، وحسين قائد سراج والنقيب حمود ابو راس وغيرهم كثير .

★ **ثانيهما** : صدور جريدة «السلام» من كارديف ببريطانيا التى أصدرها المجاهد الكبير الشيخ عبد الله على الحكيمى رحمه الله ، فكانت أول صوت يشق ظلام الليل الرهيب فيبعث فى الأمة روح الأمل ويثبت العزيمة .

وكان كلا الأمرين استمرارا لثورة ٤٨ مضمونا وجهادا .

وقد قامت بين تنظيم عصبة الحق والعدالة وبين الشيخ الحكيمى علاقة مباشرة وسريعة ، أصبح أحد أهم مهام التنظيم هو توزيع الجريدة فى اليمن وموافاتها بالأخبار عبر مركز أقيم فى منطقة البيضاء لهذا الغرض .

أما التنسيق والتعاون السياسى فعبر المناضل المجاهد البارز المرحوم محمد الواسعى الذى كان - بحكم كونه تاجرا - يتردد على عدن .

أزعج هذا التحرك السلطة إزعاجا شديداً فما لبثت أن اعتقلت ابراهيم بن على الوزير ومحمد الواسعى ، وبذلك انتقل النشاط الى السجن نفسه ، وفيما بعد تم اعتقال كثير من أعضاء العصبة وعذبوا ..

بعد هذه الفترة ، كان الاتحاد اليمنى قد انشىء فى مصر عقب وصول الشهيد محمد محمود الزبيرى الى القاهرة بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، من مجموعة من الشباب الذين كانوا يدرسون فى القاهرة ، بالاضافة الى اشخاص من الأحرار الأوائل الذين كانوا فى مصر كالاستاذ يحيى احمد زبارة والدكتور حسين فيض الله الهمداني ، كما ضم أيضا بعض الشخصيات الرسمية مثل عبد الرحمن أبو طالب ويحيى المضواحى وغيرهما ..

ثم التحق به كل من عباس بن على الوزير وابراهيم بن على الوزير بعد التمكن من الفرار من داخل السجن فى رحلة مشهورة ، ثم مالبث أن لحق بالقافلة احمد محمد نعمان عقب حركة ١٩٥٥ .

لم يكن هذا الخليط ليشكل فى الواقع بناءاً متماسكا ، وقد ضاعف من أسباب ذلك تدخل المخابرات المصرية فى شئوون الاتحاد اليمنى الذى مالبث أن أصبح تجمعا لفئات متناقضة .. أضف الى ذلك أن البناء الادارى كان صورة من الأوضاع نفسها ، حيث سادت الارتجالية وعدم التنظيم ، وأصبحت القرارات السياسية تُتخذ بشكل فردى دون مشورة ولا مشاركة ، الأمر الذى أدى الى نشوء معارضة داخل الاتحاد تطالب باعادة التنظيم بحيث يكون صورة للمستقبل المنشود من ناحية ، وقادرا على قيادة السفينة من ناحية أخرى ، وقد تزعم المطالبة بالتصحيح كل من : ابراهيم الوزير وعباس الوزير ، ومحمد الرباعى ، ومحمد أنعم غالب ، واسكندر ثابت وعلى عاصم ... الخ .

ولما رفضت قيادة الاتحاد اليمنى ذلك قرر المعارضون لسياسة الاتحاد اليمنى الفردية تنظيم أنفسهم فعمد البعض منهم الى تشكيل حزب جديد على الأسس التنظيمية التى كانوا يطالبون بها الاتحاد اليمنى وقد مر هذا التنظيم بمرحلتين :

الأولى : حزب الشعب ، تم وضع القانون الأساسى لاتحاد الشورويين التعاونيين الذى أقر من قبل أعضاء حزب الشعب ، وتقرر أن يعلن فى القاهرة وعدن ولكن السلطات الاستعمارية البريطانية رفضت إعطاء التصريح ، بيد أن الشيخ أحمد عبد الرقيب حسان كان لديه ترخيص بحزب أطلق عليه حزب «الشورى» ، فما لبث الشورويون التعاونيون فى عدن ، وعلى رأسهم الاستاذ على عبد العزيز نصر أن اتفقوا معه على استخدام الاسم المرخص به ليشتغل تحت أسمه «الشورويون التعاونيون» ونتيجة لهذا الاتفاق ، وصل عدن كل من : عباس بن على الوزير ، ومحمد الرباعى من القاهرة ، وتم اعلان حزب الشورى الذى اختار الاستاذ على عبد العزيز نصر أمينا عاما له . وقد كان هذا التنظيم نقلة نوعية من التنظيمات السياسية ، ولقى نجاحا طيبا فى المهجر اليمنى ، وتمكن أن يقيم خلاياً فى الداخل (فى الشمال) تحت اشراف قيادة الداخل المشكلة من : أحمد العماد - رحمه الله - وعلى عبد الله الواسعى وطه مصطفى وزيد الوزير وقاسم الوزير وقد ضم كثيراً من العناصر الوطنية كالاستاذ على ابو الرجال واحمد ضيف الله وآخرين .

استخدم حزب الشورى جريدة «الزمان» متخذا اياها منبراً للتعبير عن أفكاره ، كما أصدر نشرة داخلية خاصة بمشاكل ومظالم المواطنيين ، وكانت توزع على نحو جيد .

غير أن اعلان السلطات الاستعمارية عزمها على انشاء ما سمى باتحاد الجنوب العربى قد عجل الصدام بين هذه السلطات وبين الحزب الذى كانت «الوحدة اليمنية» أحد أهدافه ... وعليه فقد طلبت السلطات من الحزب إعلان بيان بتأييد قيام اتحاد الجنوب . وقد رفض الحزب ذلك بصراحة ، فكانت النتيجة أن هجمت السلطات على مقر الحزب وأغلقته وصادرت ممتلكاته ، ولاحقت أعضاءه لالقاء القبض عليهم ، حيث فر عباس والرباعى ، واختفى الاستاذ على ، وتفرق الاعضاء الاخرون ، منهم من عاد الى الشمال ومنهم من بقى فى عدن ..

اذا كانت الضربة الموجهة لحزب الشورى قد أصابته فى عدن ، فان هيكله فى الداخل ظل سليماً نتيجة لأنه كان سريا ، فلم يتأثر من الناحية التنظيمية بالضربة ، وان كان قد تأثر نشاطه وفعاليته نتيجة لذلك ، كما أن وجود «ابراهيم الوزير» فى القاهرة هو ومن معه ، قد كتب أيضا الاستمرار للفكرة ، (للشورويين التعاونيين) وإن لم يكن لحزب الشورى .

وانصرف الشورويون التعاونيون فى الداخل والخارج إلى التركيز على تفجير الثورة ، والانهماك فى الاعداد لها ، وفق تصور شامل وواضح تتضمنه وثائقه ، وحين شعر بالاقتراب من ساعة الحسم رأى أنه من الضرورى أن تتوحد القوى السياسية فى جبهة وطنية واحدة تحقق للثورة عمقها السياسى ..

من ناحية أخرى كانت القوى الوطنية على اختلاف مشاربها ، تمر بمرحلة من التشرذم وعياب القواسم المشتركة التى يمكن أن تلتقى عليها جميعا من أجل انجاز مشروع الثورة ..

بدأت المبادرة من القاهرة حيث طرح ابراهيم بن على الوزير مشروع التقاء القوى الوطنية فى جبهة متحدة ، وكنواة لذلك فقد طرح مشروع اتحاد القوى الشعبية اليمنية ، وقد بدأ الاعداد له عام ١٩٥٩ م بعد فترة قصيرة من اغلاق حزب الشورى ، وقد طرح المشروع على بعض القوى بالقاهرة وعدن والداخل ، ووضع فى نفس الوقت مشروع البيان الاول الذى وافق عليه الذين وافقوا على فكرة الاتحاد

فى القاهرة ، بالاضافة إلى الشورويين التعاونيين ، منهم : المرحوم احمد المطرى ، وعبد القوى العبسى ، واحمد محمد الشجنى وعبده عثمان كما طرح الاستاذ على عبد العزيز نصر على المجموعة فى عدن فوقع عليه سبعون شخصا من العاملين فى الحقل الوطنى منهم : أحمد دهمش (رئيس نقابة الصحفيين) وعبد الله الوصابى وحسن بلكم الذى حمل البيان الى القاهرة ، وأمين هاشم ... الخ .

فى سنة ١٩٦٠ ، بعد أن استكملت التوقيعات على البيان الأول ، شكلت لجنة من : احمد الشجنى ، احمد المطرى ، وعبدالقوى العبسى ، وغيرهم ، لصياغة القانون الأساسى ، اقتباساً واختصارا من القانون الأساسى لاتحاد الشورويين التعاونيين .

ثم صدر القانون الأساسى لأتحاد القوى الشعبية اليمنية وهو يتضمن اهداف الأتحاد ووسائله وهياكله التنظيمية ، واعلن البيان الأول فى ٦٢/٧/١١ وطرح فى كتيب ووزع فى الداخل والخارج .

وهكذا فان اتحاد القوى الشعبية اليمنية ، هو من ناحية ، استمرار لنضال طويل وخلاصة لتجارب غنية تراكمت وصُقلت عبر هذه المسيرة الجهادية الثورية حيث تبلورت عناصرها الديمقراطية والشوروية والعدالة الاجتماعية بشكل واضح فى غايات ووسائل ، من هنا يمكن ، علميا ان ترجع نشأته من حيث الاستمرارية الى أعقاب فشل ثورة ١٩٤٨ ، إلا أنه من الناحية العملية فان اتحاد القوى الشعبية اليمنية بشكله الراهن قد أعلن عنه فى عام ١٩٦٠ م .

ومن ذلك اليوم والاتحاد بقيادته أو أعضائه أو مؤسساته ، على اختلاف الظروف يواصل نضاله الثورى التقدمى من أجل تحقيق أهدافه المعلنة ، على أنه يجب الاشارة هنا إلى خاصية تُميّز الاتحاد عن غيره من التنظيمات ، هى أنه لا يجعل الوصول الى الحكم هدفا من أهدافه ، بل إن هدفه هو أن تصل أفكاره ومبادؤه للناس وأن يحكم الشعب نفسه(١) .

دعوة ومبادىء الشوريين التعاونيين

اتحاد القوى الشعبية اليمنية (الشوريون التعاونيون) حزب اسلامى ، يعتبر نفسه

---

(١) الحركة الاسلامية فى اليمن لاتحاد القوى الشعبية اليمنية تأليف الدكتور عبده سعيد المغلس من ص ٣٥ - ٤٥ (بتصرف) .

جزءا من حركة اليقظة الاسلامية العالمية ويمثل مصالح وتطلعات شعبنا اليمنى العظيم ، وأمتنا الاسلامية المجيدة .

والاتحاد تجمع طوعى لعدد من المجاهدين فى سبيل الله والعقيدة الاسلامية الخالدة ، الملتزمين بكتاب الله وسنة نبينا محمد ﷺ ..

والقاعدة التى يرتكز عليها جهاد الاتحاد هى القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية بوصفهما السبيل الأوحد للعودة كما كنا خير أمة أخرجت للناس ، نؤمن بالله واليوم الآخر ، وندعو الى الخير ، ونأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، ففى هذه القاعدة الربانية خير أداة لفهم الحياة ونواميسها ، ولتحرر الانسانية جمعاء من العوز والمرض ، ومن الخوف وتسلط الطواغيت ، وأحسن منهج عمل وأفضل دليل سلوك للمستغلين والمحرومين والمستضعفين .

وفيها الحلول المثالية لقضايا القهر والتخلف والجهالة ، وعلاج واستئصال بواعث التجزئة والاستغلال المالى والطبقى والعرقى .

والاتحاد بقيامه على أساس العقيدة الاسلامية السمحاء ، وعلى سنة الرسول ﷺ فانما هو يعمل باستمرار على تطبيقهما تطبيقا صحيحا حقا ، وعلى تحقيق الالتقاء والتفاعل الدائمين بين الفكر الاسلامى الحر وبين مختلف العلوم والمعارف المتجددة والمتطورة .

والاتحاد يتعلم ويستفيد من التجارب الانسانية والجهادية لجميع الامم والبلدان التى كافحت ولا تزال تكافح من أجل تحررها الاخلاقى والاجتماعى ، وذلك طبقا للتوجيه النبوى «الحكمة ضالة المؤمن اينما وجدها فهو أحق بها» وذلك فيما لا يتعارض مع الثوابت الاسلامية .

الهدف دولة القرآن :

الهدف الأساسى للاتحاد ، هو تحقيق دولة القرآن ، من حيث تطبيق أحكام كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، والشورى فى الأمر الشورى الملزمة ، والعدالة الاسلامية فى المال والحكم والأهلية للحكم ، واستهداف الخير فى كل شيء ، وبخاصة القضاء على استغلال الانسان لأخيه الانسان ، وعلى كافة أشكال القهر والتمييز ، والعصبية ، والمذهبية البغيضة الجاهلية .

الوسائل :

(١) الحرية للجميع :

حرية جميع أبناء الشعب فى تنظيم أنفسهم والتعبير عن أفكارهم وتأطير قواهم فى أى شكل يريدون (جمعيات – أحزاب – نقابات – اتحادات – هيئات ... الخ) ضمانة لحقوقهم السياسية والاجتماعية باختلاف وجوهها .. ذلك لأن كل حضارة ، أو تقدم هى فى النهاية مجموعة الشروط والضمانات التى يقدمها مجتمع ما لأبنائه حتى يتمكن الانسان من تحقيق نفسه .

(٢) الدعوة والحوار :

امتثالا لقوله تعالى ﴿ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ .

(٣) بناء الانسان اليمنى : وفق منهج الاسلام ، وتربية المجتمع على حماية حقوقه وحماية المؤسسات الديمقراطية وجعل ذلك جزءا من سلوكه وحياته اليومية .

(٤) ارساء السلوك الديمقراطى :

وذلك من خلال :

أ – ترسيخ الثوابت الديمقراطية واحترام الرأى والرأى الآخر ، وتجنب التعصب الفكرى والاساءة الى الاحزاب الاخرى .

ب – احترام الشرعية الدستورية ، وانتقال السلطة سلميا عبر صناديق الانتخاب وفق الضمانات التى تحمى عملية الانتخاب من أى انحراف .

ج – العمل على بناء دولة المؤسسات ، والفصل بين السلطات ، واستقلالية القضاء .

د – الحفاظ على الوحدة الوطنية ، وتماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الطائفية ، والعنصرية والمناطقية .

٥ – تحييد القوات المسلحة والأمن واعتبارهما مؤسستان وطنيتان مهمتهما حماية الشرعية الدستورية ، والديمقراطية ومكاسب الشعب .

و – الفصل بين أموال الحزب الحاكم والمال العام وكذلك بين ممتلكاته وممتلكات الدولة :

ز – عدم تحيز وسائل إعلام الدولة لصالح الحزب بتحويلها إلى وسائل إعلام قومية تعبر عن مصلحة الأمة لا مصلحة الحزب الحاكم .

ح – عدم استخدام العنف أو التلويح به أو الاكراه[١] .

★ ★ ★

وقد حال الحكم العسكرى دون أن يتحرك «الشوريون التعاونيون» بصورة فعالة وملموسة .. فقد حرم عليهم العمل فى الداخل وطوردوا فى الخارج .

ولم يكن العمل السرى أو التآمرى من الممارسات المقبولة منهم ، وظلوا كذلك حتى الفترة المعاصرة عندما أعلنت الوحدة وظفرت البلاد بقسط من الحرية ، فأعلنوا دعوتهم داخل اليمن ، وقاموا بنشر مجلة باسم «الشورى» .

ومن واقع لمسنا الخاص ، يمكن القول إن قادة «الشوريين التعاونيين» هم أشد الدعاة الاسلاميين إيمانا بالحرية مع الحفاظ على السمت الاسلامى وروح وجوهر الاسلام . وهى الصفات التى يتطلبها اليمن كقطر اسلامى عريق يتوق للحرية ..

---

(١) انظر الحركة الاسلامية فى اليمن – مرجع سابق من ص ٣١ – ٥٤ بتصرف .

هـ – الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل

الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل هيئة قريبة العهد فريدة الطبيعة تعد وحيدة من نوعها بين الهيئات الاسلامية وهى تضم المنظمات النقابية وتستهدف اصلاح هذه المنظمات بحيث يمكنها القيام بالدور الذى يمثل التحدى فى المجتمعات الاسلامية اليوم وهو «التنمية» والسباق الصناعى والانتاجى الذى ينتظم العالم وقيام العلاقات ما بين العمال واصحاب الأعمال على سلام اجتماعى والطريق الى تحقيق ذلك هو ان تستلهم هذه المنظمات القيم الاسلامية . وفى الوقت نفسه فان الاتحاد يقوم بدور فى اصلاح الفكر الاسلامى . لانه يدفع بالطبيعة العملية للاسلام جنبا الى جنب النزعة النظرية التى تقوم على مقولات وبهذا يحقق نوعاً من التوازن فى الفكر الاسلامى ويجعله اقرب الى الكمال .

لماذا يجب ان نهتم بالحركة النقابية :

يغلب على الدعوات الاسلامية العزوف عن النقابات وقد قال أحد الأخوان «السودانيين مرة «كنا ننظر الى النقابات كما لو كانت رجساً من عمل الشيطان» » وهو الموقف التقليدى للدعوات الاسلامية بحكم فهمها للاسلام . وقيامها على جمهور البورجوازية الصغيرة .

وهو موقف خاطىء موضوعياً واسلامياً .

فمن الناحية الموضوعية فان النقابات هى اكبر التكتلات الجماهيرية فى معظم – ان لم يكن فى كل – الشعوب لانها تضم الشعب العامل : رجالاً ونساءً تبعاً لأعمالهم ومهنهم ، وهى القَّوامة على العمل والانتاج . فهى الاكبر عدداً والأهم نوعاً بين كل الهيئات .. ومن اجل هذا كانت قبلة انظار الشيوعيين والحكام . فدخلها الشيوعيون

وجعلوها تسير فى اتجاهاتهم وإصطنعها الحكام فأمنوا ثورة الجماهير عليهم بل ضمنوا جمهوراً مؤيداً بأهون الاسباب . وقد حدث هذا وذاك لعزوف الهيئات الاسلامية مما ادى الى وجود فراغ ايديلوجى استغله الشيوعيون والحكام كل بوسائله الخاصة .

وقد نذكر هنا كيف ان المؤتمر النقابى فى عدن كان هو الهيئة التى أسلمت هذا البلد للشيوعية وكيف ان إضراب عمال النقل بالقاهرة فى مارس ١٩٥٤ كان التعلة الرسمية لعودة جمال عبد الناصر وأنقلابه على الاخوان . وكاد السودان ان يقع فى قبضة الشيوعية الحمراء عندما اعتنق اتحاد العمال الشيوعية وساق البلاد حتى كاد ان يوقعها فيها - لولا رحمة الله بالسودان ..

فانظر الى جريرة عزوف وسلبيه الدعوات الاسلامية نحو الحركة النقابية وكيف أدت الى هذه النتائج الحاسمة فى مصير الدول ..

ومن الناحية الاسلامية فان النقابات هى أقرب الهيئات الى الاسلام ..

ان جمهورها هو «العمال» والفقراء والمستضعفون فى الارض وامثال هؤلاء هم الذين آمنوا بالاسلام عندما تجهم له أثرياء مكة وتجار قريش .

واسلوب النقابات فى العمل وهو «الأتفاقيات الجماعية» ماهو الا تطبيق عملى حديث للآية ٢٨٢ من سورة البقرة[١] .

ومطلبها فى أن يكون لها صوت فى ادارة الصناعة ليس الا الشورى التى حض عليها القرآن .

وهدفها وهو العدل والانصاف هو الهدف الذى يدعو اليه الاسلام والمحور الذى يدور عليه .

لقد اثبتت كتابات الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل وبوجه خاص كتاب «الاسلام والحركة النقابية» هذا كله فقلب رأسا على عقب المفاهيم والاتجاهات التقليدية للدعوات الاسلامية نحو الحركة النقابية .

ومن الناحية التاريخية والواقعية ، فان اسلاف النقابات وهى «الاصناف» كانت

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا «الاسلام والحركة النقابية ص ٧٥ - ٨٠ .

دائعة ومزدهرة طوال الحكم العباسى وكان لها صلة بالمحتسب كما كان لكل صنف احد الاولياء من الصحابة او شيوخ الصوفية كشفيع للصنف .. وذهب احد الكتاب الى ان اوروبا نقلت هذا النظام عن المسلمين عندما شاهدوه خلال الحروب الصليبية .

فليس هناك ما كان يدعو الهيئات الاسلامية للعزوف عن النقابات أو التجهم لها لا من ناحية الطبيعة ، ولامن ناحية الاسلام ومبادئه وكان الموقف السليم هو العكس . اى كان واجبا على الدعوات الاسلامية مناصره النقابات ودعمها لتحقيق اهدافها الانسانية الشعبية .

تأسيس الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل :

آمن بهذه الافكار كاتب اسلامى ومحاضر عمالى هو الاستاذ جمال البنا الذى كان فى اوائل السبعينات خبيراً استشاريا بمنظمة العمل العربية بالقاهرة .

وبحكم اتصالاته السابقة ووظيفته أيضاً فانه اتصل بعدد من القيادات العمالية فى دول اسلامية تجاوب معه بعضهم بحيث تهيأت اسباب عقد مؤتمر تأسيسى فى مدينة جنيف فى يونيو سنة ١٩٨١ .

وانما اختيرت جنيف واختير هذا الميعاد لانه مكان وميعاد المؤتمر السنوى لمنظمة العمل الدولية بجنيف والذى يحضره مندوبو العمال فى ١٥٠ دولة . ويعقد خلال شهر يونيو من كل عام . وبهذا الحل تخلص الاتحاد من معظم صعوبات تمويل مؤتمره التأسيسى .

وخلال المدة من ٦ الى ١٠ شعبان سنة ١٤٠١ هـ (٨ الى ١٢ يونيو ١٩٨١ م) اجتمع فى جنيف ممثلون لمنظمات نقابية فى السودان والباكستان وبنجلاديش والمغرب والاردن بهيئة مؤتمر تأسيسى للاتحاد الاسلامى الدولى للعمل بناء على دعوة وجهها اليهم الاستاذ جمال البنا داعية هذا الاتحاد والامين العام للهيئة التأسيسية له .

وتضمن جدول الاعمال :

(أ) مناقشة مشروع دستور الاتحاد .

(ب) انتخاب قيادات الاتحاد .
(جـ) تعيين المقر الرئيسى للاتحاد .
(د) اعلان التكوين الرسمى للاتحاد .

وخلال عدد من الجلسات التى عقد بعضها فى ابهاء وصالات وكافيتريا «قصر الامم المتحدة» بجنيف حيث كانت تعقد اجتماعات مؤتمر العمل الدولى أو قاعة البلدية التى استؤجرت لذلك خاصة ، عقد المندوبون عددا من الجلسات ناقشوا فيها مشروع الدستور الذى كان قد أعد سلفا باللغة العربية والانجليزية . ودارت المناقشات بالعربية والانجليزية وأدخل عدد من التعديلات .

وفى الجلسة الاخيرة للمؤتمر – يوم الجمعة ١٠ شعبان سنة ١٤٠١ (١٢ يونيو سنة ١٩٨١) أنهى المؤتمر أعماله باعلان تكوين «**الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل**» .

وبهذا تحقق – فى جو هادىء بعيد عن الدعايات واللافتات والمظاهر التقليدية التى ترتبط عادة بمثل هذه المناسبة – هذا الانجاز العظيم ، وهذا الامل الذى طالما بدا بعيدا .

وقد تم المؤتمر التأسيسى بسهولة ويسر ، ولولا توفيق الله ما تهيأ هذا لان داعية الاتحاد لم يكن لديه الامكانيات المالية ولاهو قاطن فى جنيف . فقد قيض الله للمؤتمر موظفا كبيراً بمكتب العمل الدولى سورى الجنسية تعاطف مع فكرة المؤتمر واكتسب بحكم اتصالاته استضافة «المؤسسة الثقافية» للمندوبين . كما قام هو نفسه بالاجراءات التمهيدية والاتصال بالسلطات المختصة فى جنيف . ولما كان لايستطيع القيام بذلك باسمه (لانه موظف دولى) فقد تمت كل الاتصالات باسم كريمته ! وعندما وصل الاستاذ جمال البنا جنيف قبل عشرة أيام عن ميعاد المؤتمر لم يحتج الا لإجراء اتصال تليفونى مع احد رجالات الأمن بوزارة الداخلية السويسرية للتأكد من ان الاتحاد ليس له طابع سياسى معين .

وفتح الاتحاد له حساباً فى بنك كريدت سويس وهو أحد اكبر بنوك سويسرا بمبلغ خمسين دولارا قيد له من هذا المبلغ ٤٥ دولارا !!

المفاهيم – الوسائل – الغايات :

للاتحاد الاسلامى الدولى للعمل فهمه الخاص بالنسبة لعدد كبير من القضايا

الاسلامية . ولم يكن ليعقل ان يكتل العمال ليضعهم فى قبضة فهم ضيق للاسلام يجنى عليهم او يجعلهم اداة فى يد الحكام . من هنا فانه عُنى فى دستوره بتخصيص الفصل الثانى للمفاهيم والفصل الثالث للغايات والوسائل .

فتحت عنوان المفاهيم جاء :

المادة (٤)

يقوم هذا الاتحاد على أساس تلاقى وتفاعل الاسلام والعمل طبقا للمفاهيم التالية :

المادة (٥)

١ – الاسلام هو نهاية مسيرة البشرية للتعرف على الله وخاتم الاديان السماوية وبلورتها ، وهو لا يستشعر حساسية نحو الاديان الاخرى ولا يفرق بينها لانه يرى انها كلها من الله وان أنبياءها رسل مكرمون . وقد تحدث نبى الاسلام عن بقية الانبياء كأخوة وعن الدين كبناء متكامل الا ثغرة جاء الاسلام ليسدها .

وانما حدث الخلاف نتيجة لتحريف رجال الدين ورغبتهم فى احتكار الدين واستغلاله لمآربهم .

والاسلام يؤمن تماما بحرية الاعتقاد للمسلمين ولغير المسلمين ويحترم حق كل واحد فيما يعتقده – ويرفض أى تدخل فى مجال العقيدة ، ما لم يؤد ذلك الى اساءة محققة الى المجتمع ويكون التدخل منصبا على العمل وليس على الفكر .

ولا يقر الاسلام أى وصاية بين الانسان والله ولا يعترف بأى صورة من صور الكهنوت .

ب – الاسلام فى مفهوم الاتحاد – هو القرآن الكريم والصحيح الثابت من السنة النبوية – وفهمهما فهما سليما . دون تعسف أو ترخص أو تقيد بمذهب دون آخر .

جـ – المقوم الذى يعنى به الاتحاد بوجه خاص من بين المقومات الاسلامية الاخرى ويتطلب الايمان به كشرط للعضوية هو «العدل الاسلامى» لانه الاساس والمعيار فى تحديد العلاقات وتعيين الحقوق والواجبات بحيث يستبعد التحكم والاستغلال .

والعدل – فيما يرى الاتحاد – هو الطابع الرئيسى للاسلام والقيمة الاجتماعية له

ومهما اختلفت الاجتهادات او تفاوتت الافهام فسيظل هو العدل الذى لا يمكن الخلط بينه وبين الظلم والاستغلال الكريه .

ويتميز العدل الاسلامى بموضوعيته وقداسته الناشئتين من انه منزل من الله . وليس من الدولة أو الافراد . وبهذا يستعصى على التلاعب والتحايل ويصبح ملزما للدولة والافراد على سواء .

المادة (٦)

(أ) المقصود بالعمل فى هذا الاتحاد هو العمل بالمعنى القرآنى وليس العمل بالمعنى التقليدى الضيق أو الاصطلاحى الشائع الذى يحصر العمل فى العمل المأجور أو العمل الاقتصادى . وقد جاءت كلمة العمل ومشتقاته فى القرآن مقرونة فى معظم الحالات بالصالحات أو كمبرر للثواب والعقاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة – مما يدل على شموله وعمومه لكل صور العمل وطبقا لهذا فيمكن من ناحية المبدأ لكل الذين يعملون سواء كان عملهم يدويا أو ذهنيا لقاء أجر أو كسب أو غير ذلك أن يمثلوا عن طريق منظماتهم فى الاتحاد .

ومع هذا فستظل النقابات باعتبارها الهيئات التى تضم بالفعل معظم العاملين هى عماد الاتحاد دون تفرقة بين عمال يدويين وذهنين يعملون فى قطاع عام أو خاص أو حكومة أو خدمات .

وبجانب العضوية العاملة للنقابات . يعمل الاتحاد لتوثيق علاقاته باتحادات الطلاب وجمعيات ربات البيوت والجمعيات التعاونية والروابط الفلاحية والمنظمات الاسلامية الاخرى .

ان هذا التجديد فى بنيان الاتحاد وتنظيمه سيكفل له الخروج من قوقعة البلوريتاريا وعقدتها التى كانت ان تصبح احدى حفريات القرن التاسع عشر وتناقض تطور حركة العمالة فى المجتمع الحديث وسينفى عنه بعض الحساسيات تجاه فئات الشعب العاملة الاخرى وانعزال الحركة النقابية عنها وسيضمن له مشاركة العناصر الشابة المثقفة المؤمنة فى تحقيق المصلحة الواحدة .

(ب) ينبغى أيضا على الاخذ بالمعنى القرآنى لكلمة العمل ان يكون للعمل اخلاقياته فى المضمون والآداء بحيث يكون العمل أداة بناء وخدمة ورعاية واشباعا للاحتياجات

المشروعة ويستبعد منه كل صور الافساد والهدم والتخريب والاستغلال كما يجب أن يؤدى بما توجبه القيم الاسلامية والضمير الاسلامى من اخلاص وأمانة .

ان اليد العاملة المسلمة يد بناءة طاهرة أمينة .

المادة (٧)

الابعاد الرئيسية للعمل هى :

(أ) العمل هو المورد الرئيسى – ويكاد يكون الوحيد – لاعاشة العامل ولهذا فيجب ان يكفل الاجر مستوى معيشيا معقولا للعامل ، فاذا كان مستوى المهارة لا يسمح بذلك فانها لمسئولية الدولة الاسلامية تدريب العمال – واعادة التدريب لبلوغ هذا المستوى . وحتى يتم ذلك تكمل الاجور من الزكاة أو غيرها من موارد الدولة تحقيقا للتكافل الاجتماعى .

(ب) لا يقل عن ذلك أهمية ان العمل اداة اشباع الشخصية واثبات وجودها وطريقها للمساهمة فى حياة المجتمع وتقديمها لاضافتها الخاصة ولتحقيق ذلك يجب ان تتخذ الاجراءات التى تحقق قدر المطلوب التلاؤم ما بين العمل والقابلية بوسائل التوجيه المهنى واعادة التدريب .

وتقدم الحركة النقابية المشورة للجهات المسئولة وتقوم بمسئولياتها تجاه ذلك .

(جـ) العمل هو الاطار الذى ينظم العاملين على أساس المهنة أو الصناعة أو الخدمة أو غير ذلك ليمكن تسوية علاقات العمل تسوية جماعية تتوفر فيها الشورى بالصورة الكاملة أى الشورى ما بين العمال وقياداتهم – وما بين قياداتهم وأصحاب الاعمال وتقوم على أساس **العدل الاسلامى بحيث يمكن ان تؤدى الواجبات بالامانة وتحدد الحقوق بالعدالة .**

(د) العمل هو وسيلة المجتمع الفعلية للبناء ولتوفير الاحتياجات فى مجالات الاسكان والغذاء والكساء والخدمات والرعاية والثقافة ولاستدراك تخلفه كما هو وسيلة تزويد هذا المجتمع بالقوة التى تحميه وتكسبه المنعة وتحول دون الافتيات عليه .

المادة (٨)

يؤمن الاتحاد بوجوب رابطة وثيقة تربط بين الاسلام والحركة النقابية وتحقق نوعا

من التكامل السعيد المنشود – ذلك لان الحركة النقابية ستجد فى الاسلام العقيدة المثلى التى تقوم على الايمان بالله أصل القيم والمثل الموضوعية – وان العدل – وليس الرغبات الذاتية هو أساس العلاقات والحقوق والوجبات . وسيجد الاسلام فى الحركة النقابية الهيئة التى تؤمن به وتنصره عندما يتجهم له الاغنياء والفئات المميزة .

ويؤمن الاتحاد أن من أكبر اسباب تدهور المجتمعات الاسلامية الحديثة ان الاسلام فقد هذه العلاقة وان جمهوره اقتصر على مثقفين نظريين أو فلاحين مشتتين أو طبقة وسطى عنيت بالطقوس والجوانب الفردية اذ أدى ذلك لان يفقد الاسلام جمهوره الطبيعى وان تطمس الجوانب الاجتماعية والتحررية فيه .

وتحت عنوان الاهداف والوسائل جاء :

الاهداف والوسائل

المادة (٩)

يعمل هذا الاتجاه للاهداف الآتية :

(أ) تمثيل قوة العمل المسلمة على الصعيد الدولى وفى المحافل الدولية والعمل لتحقيق مطالبها .

ويدخل فى ذلك العمال المسلمون المهاجرون الذين يعملون فى دول أخرى ، أو يعملون فى بلادهم تحت سيطرة غيرهم ويتعرضون لاضطهاد عنصرى أو دينى .

(ب) مساندة المنظمات المنضمة فى الدفاع عن حقوقها وتحسين ظروف العمل ورفع المستوى المادى والاجتماعى والفكرى لاعضائها وتأمين حاضرهم ومستقبلهم .

(جـ) الدفاع عن الحرية النقابية وحماية قيادات العمل النقابى وتمكينهم من مواصلة القيام بواجباتهم .

(د) مقاومة كل صور التحكم والاستغلال فى أوضاع العمل والدعوة لاستلهام القيم والمثل والممارسات الاسلامية عند تحديد المبادىء التى تحكم قضية العمل ووضع تشريعاته واقامة علاقات العمل على أساس العدل الاسلامى وشعار الواجبات بالامانة والحقوق بالعدالة .

(هـ) نشر واذاعة العلم والمعرفة وتشجيع القيام بمختلف مناشط تعليم الكبار والثقافة العمالية والتدريب المهنى حيث انها السبيل لترشيد العمل النقابى وتنمية شخصية الفرد ومهاراته وحسن تعرفه على الحقوق والواجبات «**ان المعرفة قوة والجهل مهانة والعلم مفضل على العبادة فى الاسلام**» .

(و) الدعوة لمحو الامية والاشراف على تنظيم حملات لذلك تحت شعار الآية الكريمة «اقرأ» والاستعانه فى ذلك بكافة الجهود .

(ح) تشجيع نشر اللغة العربية وتعليمها بين الشعوب الاسلامية حيث انها لغة القرآن والحديث وهى اللغة الام للمسلمين جميعا .

(ز) مناصرة قضايا التحرر فى العالم وتعزيز الاخوة الاسلامية .

المادة (١٠)

يعمل الاتحاد لتحقيق الاهداف المشار اليها فى المادة السابقة بالوسائل الآتية :

(أ) الحكمة والاقناع والموعظة الحسنة كاسلوب عام ودائم ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ .

ويدخل فى هذا استخدام مختلف وسائل الاتصال والنشر والاعلام واصدار الصحف والنشرات واستخدام وسائل الاتصال الجماهيرية وعقد الندوات والحلقات .. الخ .

(ب) فى المرحلة الانتقالية – أى ما بين الاوضاع القائمة والاوضاع الاسلامية المنشودة يمارس الاتحاد الطرق الفنية التقليدية أى الاتفاقيات الجماعية والتوفيق والتعديل التشريعى .. الخ .

ولا يستبعد الاتحاد من نطاق العمل النقابى المشروع مختلف وسائل الضغط على أن لا يلجأ اليها الا بعد استنفاد كل الوسائل الاخرى واتخاذ الاجراءات التى تقلل قدر الطاقة آثارها السيئة على الجمهور .

(جـ) عند انتهاء المرحلة الانتقالية يصبح العدل الاسلامى أى المستمد رأسا من القرآن الكريم والصحيح الثابت من السنة . هو الحكم الذى يلتزم به الجميع حكومات وأصحاب عمال وعمال .

(د) يرفض الاتحاد تماما الدخول فى المهاترات السياسية والحزبية الخاصة بسياسات الدولة الاعضاء أو حكوماتها حيث قد ثبت ان هذا النوع من النشاط يفرق الوحدة ويستهدف هيمنة مجموعة من المنظمات على الاتحاد تحقيقا لمآرب سياسية أو تنفيذا لمخططات حكومية - بعيدة عن اختصاص الاتحاد والمهام التى قام من أجلها .

كما يرفض الاتحاد الدخول فى مناقشات مذهبية اسلامية أو يحاول تغليب أحد المذاهب القائمة على المذاهب الاخرى .

(هـ) مع أن الاتحاد لا يرفض التعاون مع الحكومات والهيئات لتحقيق اهدافه الا انه يظل مستقلا تمام الاستقلال عن كل الحكومات والهيئات وسياساتها الخاصة ويرفض أن يكون لمثل هذا التعاون أثر على حريته واستقلاله .

عناصر الابداع فى الاتحاد[1] :

أولا - ان ربط الحركة النقابية بالاسلام يعنى ربطها برسالة حضارية عظمى أسهمت فى بناء الحضارة الانسانية وقدمت نظاما اجتماعيا واقتصاديا متكاملا وصنعت ارفع النماذج الانسانية بدءا من الرسول العظيم حتى الخلفاء الراشدين .. والصحابة المهديين ثم من تبعوهم باحسان . ولم يخل منهم مصر من الأمصار وزمن من الأزمان .

ثانيا - ان هذا الربط سيقضى على الخواء الروحى والفراغ النفسى الذى تستشعره العضوية النقابية لما تقتصر عليه النقابية التقليدية من طابع مادى - مهنى - ويجعل بعض العناصر النقابية النابهة تنحاز للنظرية الماركسية التى تقدم تأصيلا للتطور الاجتماعى يرتبط بالعمل ، كما سيحصن الحركة النقابية من تسلل الشيوعيين اليها واستخدامهم لها أداة لتحقيق السياسات والمخططات الشيوعية واثارة القلق والاضطراب فى المجتمع . وفى الوقت نفسه فانه سيعصم القيادات النقابية من الاستخذاء أمام الحكومات والاستسلام لما يمكن ان يلوح به الحاكم من ترغيب أو ترهيب ، بحيث لا تكون الحركة النقابية ماهى عليه الآن فى كثير من الدول العوبة

---

(١) ما جاء فى هذه الفقرة مأخوذ عن رسالة الاتحاد بعنوان «الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل يبدأ المسيرة» من ص ٧ الى ص ١٥ .

الحكومة وأداتها لتحقيق السياسة التى تراها ، بصرف النظر عن اتفاق ذلك مع ارادات العمال . أو مقتضيات العدالة .

ثالثا – ان هذا الاتحاد يقدم أساسا للسلام الاجتماعى وفيصلا فى علاقات العمل تتقبله النقابات ولا يستطيع اصحاب الاعمال أو الحكومات رفضه . **ذلك هو العدل الاسلامى . وبهذا تتحول «المطلبية» و «الفئوية» الى «موضوعية» و «مبدئية» وينتفى الصراع الطبقى .**

وللمتخرصين ان يقولوا ان العدل الاسلامى ليس الا كلمة أو شعارا . ان الحرية ليست الا كلمة .. والمساواة ليست الا كلمة وانصاف العمال . وديكتاتورية البلوريتاريا .. ليست الا كلمات وقد وضع الاسلام الضوابط العريضة ، والمُحْكَمة للعدل فى وضوح وتمييز فبعد ان عمق حاسة العدالة بالايات والاحاديث التى لاتحصى لتكون حامية للعدالة وكاشفة لاساءة التطبيق حرم الاكتناز والربا وكافة صور الاستغلال وأوجب الزكاة والانفاق وأقام المجتمع الاسلامى على أساس التكافل الاجتماعى ووضع الخلفاء الراشدون الامثلة والسوابق عند التطبيق ، ولو طبق هذا كله ، أو حتى بعضه لتحققت العدالة ولانتفى الاستغلال – فلا يلومن أحد الاسلام ، وانما يلوم الذين لا يريدون تطبيق الاسلام أو أخذ توجيهاته مأخذ الجد .

ان استكشاف «العدل الاسلامى» وتأصيله باعتباره الطابع الرئيسى للاسلام والمحور الاساسى للعلاقات عامة ، وعلاقات العمل خاصة يمثل تجديدا حاسما وجذريا فى مجالىّ الفكر العمالى والاسلامى ، **فهو فى مجال الفكر العمالى يحل الموضوعية المبدأية محل المطلبية الذاتية . وهو فى مجال الفكر الاسلامى ينقل مركز الثقل من الدائرة التقليدية المقررة . دائرة العبادة أو الفضيلة الى دائرة العدالة .**

رابعا – ان استلهام الاسلام سيعيد الى العمل أخلاقياته التى أهدرها العصر الحديث وضحى بها عندما تعارضت مع الاساس المادى الذى قام عليه المجتمع الليبرالى والاشتراكى على سواء . وستنسحب هذه الاخلاقية على مضمون العمل بحيث لا يكون الا طيبا حلالا تستبعد منه كل الممارسات الشائنة أو الضارة أو التى تقوم على استغلال أو غرر أو غدر او سرف أو قسوة الخ .. كما ستنسحب على الأداء بحيث يتسم بالاخلاص والاتقان وأداء العمل حقه .. وعلى ما يوجده العمل من علاقات بحيث لا تكون لحمته أو سداه الحقد من العمال على أصحاب الاعمال أو الاستغلال

من أصحاب الاعمال للعمال .. لان الاسلام يحرم هذا وذاك **ويجعل حقوق أحد الفريقين واجبات الفريق الآخر** . فاذا لم يتحقق هذا تماما ، فان التحقيق الجزئى يحسم أسوأ مافى الموضوع ، أو يمكن من أداء الواجبات بالامانة .. ونيل الحقوق بالعدالة .

وأخيرا فانه سينسحب على العمل النقابى ، فيقضى على الانتهازية المتفشية فيه .

خامسا – ان الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل – على نقيض الاتحادات العمالية التقليدية يفسر كلمة العمل تفسيرا واسعا ويأخذها بالمعنى القرآنى بحيث تضم كل الذين يعملون سواء لقاء أجر أو كسب أو غير ذلك فيمكن للفلاحين وللجمعيات التعاونية ولجمعيات ربات البيوت ان تنضم الى الاتحاد ، كما انه لايفرق بين عمل يدوى وعمل ذهنى . واتحادنا فى هذا لا يلتزم فحسب بتوجيهات القرآن ، بل هو أيضا يتفق مع سير حركة العمالة واتجاهاتها الحديثة التى تزيد من عمالة الخدمات والياقات البيضاء والتوزيع الخ .. قدر ما يبعد عن الشعارات أو الممارسات التى كانت ذائعة فى القرن التاسع عشر ، ولا مكان لها فى هذا العصر .. ونحن اليوم نسمع عن أحدث حركات التجديد النقابية التى يقوم بها عمال بولندا انها تستهدف تكوين نقابة للفلاحين . فالاتحاد الاسلامى كان فى اتباعه للتوجيه القرآنى أصدق حسا وتمشيا مع العصر من التنظيمات النقابية التقليدية التى تقتصر عضويتها على الأُجَّراء فحسب .

ثامنا – ان هذا الاتحاد رغم حداثة العهد وصغر الحجم ، فانه قد خُدِم فكريا ونظريا بما لم تخدم به اتحادات أخرى أعرق عهدا وأكبر حجما وأكثر مالا . فحتى قبل ان يعلن التكوين الرسمى للاتحاد كان أمام المندوبين ثلاث كتب تشرح فكرة الاتحاد وتعالجها من مختلف المنطلقات والزوايا . الاول الكتيب التعريفى الذى يعرض الفكرة العامة للاتحاد ومبررات تكوينه والوسائل والغايات والعضوية الخ ، والكتاب الثانى هو «أزمة النقابية» وهو يستعرض أزمة النقابية فى المجتمع الرأسمالى باعتبارها النقيض الجدلى للرأسمالية ، الذى يوجب عليها أن تعايشها ، وان تقاومها فى الوقت نفسه . ان تكون «دكتور جيكل» و «مستر هايد» وما ينشئه هذا الدور المزدوج والمتعارض من مفارقة ، وفى المجتمع الشيوعى الذى يجعل النقابات «السير ناقل القوى» وهو التشبيه الرسمى والمقرر للنقابات فى التنظير الماركسى والسوفيتى وهو ما يجرد الحركة النقابية من أى استقلالية أو اصالة أو مبادأة وما يربطها ربطا ميكانيكيا بالحزب ، ويجعلها أداته فى توصيل أوامره للجماهير .. والكتاب دراسة

فنية خالصة تنتهى الى أن العلاج الوحيد لازمة النقابية هو الاسلام ويضرب المثل لدلك بدعوة الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل .. أما الكتاب الثالث فهو «الاسلام والحركة النقابية» وهو يفند ما يدعيه البعض من تعارض ما بين الاسلام والنقابية ، ويثبت ان الاسلام يدعو الى النقابية ، وان الاتفاقيات الجماعية التى هى عماد العمل النقابى فى المجتمعات ذات الاقتصاد الحر ، هى ما توجبه الآية ٢٨٢ من سورة البقرة ، وان المجتمع الاسلامى القديم أقر «أسلاف» النقابات ووكل اليها اختصاصات تفوق الاختصاصات التى تقوم بها النقابات الآن . وُألحِقَ فى آخر هذين الكتابين مشروع دستور الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل .

فأى اتحاد موجود يمكن أن يفخر بمثل هذه الدراسات والمعالجات الفنية والنظرية لفكرته .. رغم ما يتوفر لمعظمها من أموال وخبرات ورجال .

تاسعا – ان قيام الاتحاد على أساس اسلامى لا يثير أية حساسية ولايكون عقبة أمام عالميته ، خاصة فى العالم الاسلامى الذى تكون الاغلبية الساحقة فيه من المسلمين وتكون النقابية الاسلامية فيه مثل الاقتصاد الاسلامى والسياسة الاسلامية والاداب والنظم الاجتماعية الاسلامية لا تثير شيئا لانها تنطلق من دين وعقيدة الاغلبية الساحقة .

وبالنسبة للدول الاخرى التى لا تدين بالاسلام أو تكون بها أغلبيات غير اسلامية ، فمن المحقق ان الاسلام اقرب اليها من «الاشتراكية العلمية» التى لا ترى فى الاديان كافة سوى «أفيون الشعوب» وتعمل جاهدة للقضاء عليها سواء كانت اسلاما أو مسيحية فلماذا تتقبل هذه المجتمعات نقابية ماركسية معادية لدينها ولا تقبل نقابية اسلامية متسامحة مع دينها . ان سماحة الاسلام جزء ثابت من التاريخ الانسانى والعالمى . وقد اعترف به حتى اعداء الاسلام . لانه مما لا يمكن ان يجحد فالتنكر لمثل هذا الاتحاد سواء جاء من نقابيين مسلمين او غير مسلمين لا يمكن ان يعود الا الى الجهالة من ناحية أو الجمود على الاوضاع والعزوف عن كل تجديد من ناحية أخرى .. وهى اعتبارات لا تعنينا . وقد أصدر التاريخ حكمه عليها فى الماضى .. وسيصدر عليها حكمه فى الحاضر .

وقد تضمن دستور الاتحاد مادة تتيح للمنظمات غير الاسلامية الانضمام والحق فى العضوية الكاملة اذا تعهدت باحترام دستور الاتحاد والايمان بالعدل الاسلامى ..

وليس فى هذا مفارقة ، بل انه أمر طبيعى لان الاسلام جاء بعد الاديان الاخرى ، وهو يعترف بها وينسب الخلاف الى التحريف فى النصوص وارادات رجال الدين . والاسلام بعد ليس حكرا للمسلمين انه ارث للبشرية بأسرها .

عاشرا – ان الاتحاد يعلن بصراحة انه لا يتدخل فى سياسات الدول الاعضاء ولا يتورط فى خلافاتها ومنازعاتها لانه لم يقم لتعميق هذه الخلافات والوصول بها الى الجماهير .. انه قام للوحدة ولجمع الصفوف – ولا يمكن ان تجتمع الصفوف والخلافات السياسية قائمة الا بتجاوز هذه الخلافات كلية وليس من اختصاص الاتحاد ، ولا مما يدخل فى سلطته الحكم على هذه الخلافات .. ولا يعنى دخول هذا الميدان الا التمزق والتحزب والخضوع لفريق .. ومعادات فريق .. والسوابق الشاهدة على جريرة التورطات الحزبية والتيارات السياسية على الحركة العمالية الدولية عديدة من أول اتحاد عمالى دولى ظهر مع بداية القرن حتى تمزق الاتحاد الدولى للعمال العرب منذ بضع سنوات .

ومن عناصر الابداع أيضاً ان الاتحاد توصل الى حقيقة غريبة ، فعندما كان بصدد البحث عن الشواهد الاسلامية عن العمل فى الاسلام اكتشف ان معالجة الاسلام نفسه من منطلق العمل يمكن ان يثرى الاسلام بقدر ما يثرى الاسلام العمل . ومن هنا كان استكشافه لفكرة المقاصة التى تقوم على الآية ﴿ ... إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ والحديث « ... واتبع السيئة الحسنة تمحها» وتفضيله لهذه الوسيلة القرآنية النبوية على الوسيلة الفقهية «سد الذريعة» . واستكشافه ايضا ان العمل هو «مصداق الايمان ومعيار الثواب والعقاب فى الآخرة» وتفضيله التيسير والتسهيل بصفة عامة على التعسير والتشدد وايثار منطق العمل على منطق الفروض النظرية التى يقوم عليها الفقه الاسلامى ، ويذهب الفقهاء فيها مذاهب خيالية ، وان اسلوب «الشورى» يجب أن لايقتصر على مجال السياسة كما تفهم الدعوات الاسلامية القائمة ولكن ان يمتد ليشمل الشورى فى الادارة . وأن أى كسب دون عمل فهو ربا حتى وان انتفى الاستغلال الذى ظُن أنه مبرر تحريم الربا وان إضرابا تقوم به نقابة انتصافاً أو لمطالبة وطنية يمكن ان يكون صورة من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر . فهذه أحكام جديدة أمكن التوصل اليها بمعالجة الاسلام من منطلق العمل .

مطبوعات الاتحاد :

العمل فى المجال الثقافى ، وبوجه خاص بطريقة الكتاب هو ابرز اهتمامات الاتحاد ، لان العمل الحركى والتنظيمى يصطدم بالنظم والاوضاع من ناحية ويتطلب نفقات مالية لا تتوفر للاتحاد . ومن ثم فانه ركز على الكتاب . وما ينشره الاتحاد يتفاوت ما بين رسائل صغيرة فى ٤٨ صفحة وكتب متوسطة الحجم ما بين ١٠٠ و ٢٦٠ صفحة .

وفيما يلى بيان بهذه الكتب

١ – الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل (كتيب تعريفى) .
٢ – الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل يبدأ المسيرة .
٣ – الاسلام والحركة النقابية .
٤ – ازمة النقابية .
٥ – رسالة الاسلام .
٦ – اخت الصلاة المهجورة (الزكاة) .
٧ – الحركة النقابية من منطلق اسلامى .
٨ – الخيار الصعب (قضية التنمية)
٩ – الحساسية الدينية .
١٠ – وجوه الائتلاف والاختلاف .
١١ – الدولة العصرية .
١٢ – رؤية لمضمون الحكم بالقرآن .
١٣ – محكمة العدل الدولية الاسلامية .
١٤ – الاتحاد الاسلامى الدولى فى عامين .
١٥ – العودة الى القرآن .
١٦ – لاحرج (قضية التيسير فى الاسلام) .
١٧ – نحن ودعوتنا .
١٨ – لست عليهم بمسيطر قضية الحرية
١٩ – الشورى فى الادارة .
٢٠ – الحركة العمالية الدولية .
٢١ – عمال السودان والسياسة .
٢٢ – الحرية النقابية (٣ اجزاء)
٢٣ – العهد .
٢٤ – تعميق حاسة العمل فى المجتمع الاسلامى .
٢٥ – نحو حركة نقابية مثقفة .
٢٦ – الحركة النقابية السودانية تجد نفسها .

1 - Islam amd Trade Umions .
2 - The In·ternational Islamic Confederation of Labour .
3 - Tow ards Islamic Labour and Unionism .
Three Papers by .
D r . Ismail al Faruqui .
and Gamal al Banna .

وللاتحاد نشرة غير دورية عنوانها «الله اكبر» .

وقد أدت هذه الكتب الى نشر فهم اسلامي لقضية العمل لم يكن موجوداً قبل الاتحاد . وظهرت آية ذلك فى عناية بعض الدعوات الاسلامية بالحركة العمالية وتغيير مسلكها التقليدى القديم . والحق ان الاتحاد وما قام به من اتصالات وندوات ثقافية فى مختلف الدول الاسلامية وهذه الكتب التى بعث بها اليها أوجدت رأيا عاما اسلاميا جديدا حول العمل . ولكن هذا الرأى الجديد يدخل فى صراع مع الفهم القديم والرواسب والأفكار والتقليدية وقد خدم الاتحاد الحركة النقابية فى السودان بوجه خاص وكذلك الى حد ما فى المغرب .

ويضم الاتحاد منظمات واتحادات عمالية فى السودان وباكستان والمغرب والاردن وبنجلاديش ولايهم الاتحاد بوجه خاص كثرة عدد الدول ولكنه يعنى بتعميق الفكرة ، ولو فى بلد واحد . لان تعميق الفكرة فى بلد واحد افضل من نشرها على سطح دول عديدة .

ولم يتوصل الاتحاد بعد الى مقر رئيسى لحساسية دعوته بالنسبة للحكومات العربية ولأنه ظهر مع ظهور احكام الطوارىء فى مصر . ورفض السلطات دخول عمال مصر فى معسكر الدعوة الاسلامية . ولهذا قنع بمكتب اتصال فى جنيف وبمكتب رئيسه فى القاهرة . ويتلاقى مندوبو الاتحاد سنويا فى جنيف خلال حضورهم لجلسات مؤتمر العمل الدولى .

وقد حرص الاتحاد منذ يومه الأول ان لايقع تحت تأثير حكومة أو منظمة . واوصح للمنظمات المنضمة له ان الاتحاد «ملتقى» اسلامى وانه يقبلها جميعاً ، ادامت تمثل اتجاها اسلاميا ولكنه لا يناقش ولايفضل اتجاها على اتجاه داخل الاتحاد ولا يسمح بمجادلات مذهبية فيه .

ولو قدرت الدعوات الاسلامية هذا الاتحاد قدره وتعاونت معه باخلاص لكان ذلك اعظم خدمة تقدمها نحو نفسها ، ونحو بلادها ونحو الاسلام ولكن ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ .

الفصل السابع
دعوات وصلت الى الحكم

الدعوات التى تعرضنا لها فى الفصول السابقة دعوات ذات صفة شعبية تعمل لتحقيق اهدافها بوسائلها ، التى قد يكون منها الحكم ، ولكن لم تسنح لها فرصة الحكم .

وهناك دعوتان سنحت لهما فرصة الحكم ومارستاه بالفعل هما الوهابية التى هى المذهب المطبق فى الحجاز منذ سبعين عاماً تقريباً ، والجعفرية التى هى دعوة الثورة الاسلامية التى تحكم ايران منذ عام ١٩٧٩ . وهاتان الدعوتان من الدعوات العريقة – فللوهابية تاريخ يعود الى مائتى عام وللجعفرية تاريخ يعود الى الف عام . ولكن العراقة بقدر ماتكون ميزة فيمكن ان تصبح نقيصة ، اذا لم تجدد نفسها بما يتماشى مع الاوضاع .

وغرضنا من كتابة هذا الفصل ليس هو الاستعراض الاكاديمى لخصائص الوهابية والجعفرية ، أو تعريف القارىء على دقائقهما ، فهذا مايتطلب كتابا أو اكثر ، ومايخالف نهج هذا الكتاب . ولكن غرضنا – ونحن بصدد دعوات وصلت الى الحكم – ان نثبت بمنطق الوقائع أمرين .

اولهما : ان الحكم فى حد ذاته ليس هو – كما يتصور الكثير من الدعاة الاسلاميين – الوسيلة التى تمكن الدعوة ، وتعمق جذورها وتصل بها الى الأنتشار والنجاح والتحقيق .

ان الحكم يمكن ان يكون بلاءً وخطراً محققا ، وكارثة ، للدعوة ، مالم تكن مؤثلة تماماً . لأنه ما أن تصل الدعوة الى الحكم حتى يقوم صراع مابين الدعوة والسلطة ،

ويغلب ان تنتصر السلطة ، وتتغذى على الدعوة حتى تأتى عليها ولاتحتفظ منها الا بالقشور التى تكفل لها نوعاً من التغطية المذهبية أو «الكاموفلاج» وبهذا تكون الدعوة قد ضحت بنفسها على مذبح الحكم . ولو أنها لم تصل الى الحكم لما تعرضت لهذه المحنة ، ولاكتسبت قوة ولا تسعت قاعدتها بدلاً من ان تدق قمتها ..

وقد تحاول بعض الدعوات استعجال الوصول الى الحكم بالتحالف مع هيئات اخرى قد لا تشاركها الايمان وانما تتفق معها في ارادة الوصول الى الحكم . وهذه الممارسة هى ابعد شيء عن طبيعة الدعوة .. وتكاد تؤدى بها الى الانسلاخ منها ..

ولكن يحدث ان تحالف الدعوة حاكماً يؤمن بها ويقوم نوع من التعاون مابين الدعوة التى تقدم الفكر والحاكم الذى يجرد السيف ، فالى أى مدى يكون حساب الكسب والخسارة ؟ يغلب ان يؤثر هذا التحالف على الدعوة . ويمكن ان تكون الخسارة فى النهاية اكبر من المكسب . لان فترة التحالف ستقتضب مدة العمل مع الشعب ، ومَدّ وتعميق معانى وافكار الدعوة – وستمضى هذه المدة فى خدمة السلطة أو – على افضل الاحوال – التعاون مع السلطة .

ومن الحقائق التاريخية ان الدعوتين موضوع هذا الفصل بدءا حياتهما «الرسمية» بتحالف مابين الداعية والحاكم ، الفكر والسيف . ففى حالة الوهابية قام هذا التحالف مابين الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ومحمد بن سعود امير الدرعية . وظل حتى الآن مابين آل سعود . وآل الشيخ . وفى حالة الجعفرية ، فقد حدث هذا عندما اتصل الشيخ صفى الدين – وهو احد شيوخ شيعه اردبيل برئيس قبيلة «الآف قيون لو» اوزون حسن . اتصالاً انتهى بامتزاج المذهب الشيعى بالقوة العسكرية . والى هذين الحلفين يعود ظهور الدعوتين على منصة الحكم – ويعود ايضا ماأتسم به التطبيق من قصور .

ذلك لان اسلوب السلطة .. يختلف عن اسلوب الدعوة .. فالسلطة لايمكن ان تقوم بدعوة ، واذا دعت ، فسيأتيها ابعد الناس عن حقيقة ماتدعو اليه ، سيأتى اليها الأفاقون والانتهازيون والوصوليون . وهو مايحدث اذا حاولت السلطة ان تؤسس حزبا أو هيئة ، وشواهد ذلك عديدة .. لعل أخرها محاولة عبد الناصر تكوين هيئة التحرير ، ثم الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى . وقد اخفقت جميعاً وكانت فشلاً . وهيئات «سلطوية» .

فالسلطة كدعوة فاشلة ، ولهذا فإنها تلجأ الى وسيلتيها الخالدتين اللتين يرمز لهما بذهب المعز وسيفه ، فلديها الاغراء والترغيب والمناصب والنفوذ الخ ... ولديها الترهيب والسجون والمصادره والاضطهاد . وكل وسيلة من هاتين مفسده ، ولا يمكن ان تأتى بخير .

والنتيجة ان السلطة تفشل اذا ارادت ان تقوم بدور الداعية . وانها تفسد النفوس اذا استخدمت وسيلتيها . فعملها يدور بين الفشل والفساد .

وقد ظن الشيوعيون ان المِلْكية هى أصل الشرور وانها هى التى تغرى الرأسماليين بالتحكم والطغيان الخ .. فجعلوا هدفهم القضاء عليها بالسلطة – ولكنهم نسوا ان السلطة اسوأ من الملكية . وهكذا فانهم ارادوا اصطياد الملكية بالسلطة ، ولكن السلطة صادتهم وأفسدت عليهم محاولتهم القضاء على الملكية أو جعلت القضاء على الملكية بالوسيلة السلطوية اسوأ من الملكية نفسها (رغم انها سيئة) .

ولا يتحدث القرآن الكريم عن السلطة ابداً ، وعندما يتحدث عن «الحكم» فيغلب ان يقصد القضاء ، أو حكما يقوم على القضاء . لان الحكم الاسلامى هو الحكم بالقرآن والقرآن هو أسمى قانون . فالحكم الاسلامى له طبيعة قضائية . واذا اراد القرآن الحكم مطلقاً ، فإنه ينسبه الى الله تعالى : ﴿إن الحكم الا الله﴾ .

ولم يحدث ان تحالف الرسول مع أحد رؤوس العرب رغم كل ما لقى من اعراض واضطهاد . ولما عرض عليه بعضهم ان يسلم على ان يكون له من الأمر شيء ، رفض الرسول وكان يقدم دعوته للناس جميعاً . وكانت البيعة الاولى له من سبعين رجلاً وامرأة .. وبعد ان آمنت الجماهير جاء دور انتخاب النقباء . فأسلوب الدعوة النبوية كان اسلوبا أصوليا سليما . كان الحكم هو النهاية .. هو الذى طلب الرسول . وانتظره .. ولم يكن البداية المطلوبة اولاً .

وكان الذين تعاطفوا مع الاسلام ، فى مكة والمدينة هم الجماهير ، وكان الذين تنكروا له ، فى مكة والمدينة ايضاً هم الكبراء والأثرياء والحكام ..

وستجد فى الحديث عن الوهابية ، والجعفرية ان الحكم كان على حساب الدعوة ، وليس لحساب الدعوة وان الحكم كسب من الدعوة اكثر مما كسبت الدعوة من الحكم .

وما من دعوة أساء اليها الحكم كالجعفرية ، ذلك أن ايران كانت سنية حتى دهمها الحكم الصفوى سنة ١٥٠١ ودخل الصفويون فى حرب ضروس مع العثمانيين الذين كانوا يمثلون السنه – ودفعت هذه الحرب الصفويين لان يلصقوا بالسنة – مذهب اعدائهم الالداء – كل نقيصه – كما عمدوا الى المبالغة التى تصل للخيال فى تمجيد آل البيت ونسبة المعجزات اليهم دعماً لدعوتهم ..

وحتى لو استبعدنا هذا العامل الاستثنائى ، فسيظل دائماً من الخير للدعوات ان نعتمد على وسائلها الشعبية التى تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والاقناع القلبى والآسوة .. من ان تستعين بالسلطة والحكم وذهب المعز وسيفه فتفسد القلوب وتدخل عليها عنصراً ، لايمكن التعرف معه على حقيقة ايمان المؤمنين . وهل هو ايمان قلبى او هو خوف أو هو طمع ...

ثانيها : والامر الثانى الذى نريد البرهنة عليه بعرضنا لتجربة الدعوتين فى الحكم ، ان الدعوة مالم تكن دعوة متكاملة ، تقدم مايمكن ان يكون «نظرية» يمكن فى ضوئها تحديد المواقف تجاه التحديات واستلهام الحلول ، وتعيين الاهداف ، سواء القريبة أو البعيدة فانها لن تستطيع ان نملأ الفراغ أو تؤدى دور «الدعوة الحاكمة» وسيضطر اصحابها الى تلفيق الحلول تلفيقا قصارى مايمكن ان يصل اليه هو محاولة تحقيق الاهداف دون المساس بالسلطة ، بالمصالح المكتسبة ، بالاوضاع التى قامت نتيجة للسلطة . فاذا أدى المضمون الموضوعى للحل الى مساس بالوضع الذى تقولبت فيه الدعوة ، عندما استحوزت على السلطة ، فانه يستبعد ويعد مخالفاً للدعوة ، وان لم يكن مخالفاً لها . ولكن ماسيا بالسلطة .

وهذه الاثارة عن قصور الدعوة تنطبق على الدعوات الاسلامية بوجه عام ، إذ هى تتجاهل كثيراً من القضايا الاجتماعية العامة الهامة (العمال – النساء – الاقتصاد – الفنون والاداب الخ ..) حتى لا تضطر للاعلان عن مواقف مرفوضة من الآخرين ، أو تضطر لتقبل مواقف ترفضها هى . وهذا الموقف – موقف التجاهل على سوئه – افضل من موقف دعوات اخرى لم يكن فى حسبانها أصلاً وبادى ذى بدء – كل هذا التعقيد الاجتماعى والسياسى والاقتصادى . ومن المفارقات

ان من بين هذه الدعوات الأخيرة . الدعوتين اللتين قدر لهما ان تصلا للحكم . فآخر الدعوات تأهيلا للحكم هى التى تقلدت الحكم بالفعل !!

فماذا يمكن ان تقدمه «الوهابية» لتحديات العصر ، وهى التى تدور حول التوسل والشفاعة والصفات والقباب والقبور .. وماذا يفهم «المتحجرون» من الوهابيين ازاء قضية العلاقات الصناعية - أو الفنون الادارية . او جواز الاضراب أو قيام الاحزاب .. وماذا يمكن «للجعفرية» التى تقوم على الوله بآل البيت وافضليتهم - وتنتظر الامام الغائب - صاحب الزمان - وتدور عواطفها كلها حول العتبات المقدسة أو ذكرى استشهاد الحسين التى يسير فيها «المتولهون» صارخين ، نادبين الخ .

ان دعوة كالجعفرية قامت أصولها المذهبية على افتراضات تاريخية كانت ماثلة منذ الف عام ، ثم انطوت تماماً ، او دعوة «كالوهابية» ظهرت فى بيئة صحراوية بدائية .. لا يمكن لهذه او تلك مجابهة تحديات العصر ، أو فهم لغته أو مجابهته بما يكفل لها لانتصار ..

وسنرى فى استعراض تجربة الوهابية والجعفرية فى الحكم مصداق الفرضين الذين [illegible]مناهما ، الاوهما .

الاول : ان لاعتماد على الحكم فى نشر الدعوة [كما حدث فى حالتَّى الوهابية والجعفرية] يحمل للدعوة مخاطر جمة ويلوث صفاءها ونقاءها ، كما قد يفسد الدعاة انفسهم ، او يحولهم الى حكام ، أو يحملهم بأوزار الحكام .

الثانى : ان الدعوات الاسلامية لم تصل الى مستوى النظرية المتكاملة التى يمكن ن تجابه تحديات العصر . فبعضها يتجاهل المشكلات والبعض الآخر ليس لديه فكرة عنها . وعليها ان تعترف بان ماكان يصلح من الف عام ، او ماظهر فى بيئة صحراوية بدائية ، أو نتيجة لوقائع تاريخية عفى عليها الزمان .. لايمكن ان يصلح الآن . وان عليها ان تخرج من قوقعه الدعوة الضيقة الى الاطار الاسلامى الفسيح بدون ان ترى فى هذا حرجاً أو غضاضة ، فانها من قبل ، ومن بعد - دعوات اسلامية .

أ - الوهابيـة

للحجاز - لان هذا هو الاسم التاريخى للبلاد ، فما عهدنا دولة تحمل اسم ملكها[1] ، وعهدنا بالملوك يحملون اسماء دولهم - لان الملوك بالدول ، وليست الدول بالملوك ، وضع خاص بين الدول - ومنزله متميزه . ففيها اول بيت وضع للناس لعبادة الله ، وفيها روضة من رياض الجنة يثوى بها جسد الرسول . وشاهدت الفلوات مابين مكة والمدينة رواحات وغدوات الرسول والصحابه .. وكتب عليها تاريخ الاسلام حروفه الاولى .. ولا يمكن لاى بقعة من بقاع الارض ان تفخر بمثل ذلك .

ومن ناحية اخرى فالحجاز صحراء غير ذى زرع ، عاش معتمداً على معونات الدول الاسلامية التى رأت فى هذا واجبا عليها ، وكان يستمد من موسم الحج ما يفرج كربته . وما يسد حاجته .

وجاء وقت كان اعيان هذا البلد من وزراء أو تجار «مطوفين» .

وكان الحجاز يتبع السلطنة العثمانية ، وكان لدى الاتراك على غشومتهم ضعف نحو الحجاز . فلم يبخلوا عليه بالمساعدات ، وانهالوا على الحرمين بالذهب والفضة والتحف .. ولكن نظام حكمهم كان عقيما واوجد نوعاً من الأزدواجية مابين الباشا التركى .. وزعماء القبائل أو بقية آل البيت النبوى .

وكان فهم الاسلام قد تدهور الى تقليدية ضيقة أو صوفية خرافية وساد حديث الاولياء والاوتاد والاقطاب وانتشرت أفكار الشفاعة والتوسل لشفاء الامراض أو قضاء الحاجات وتسوية المشكلات ..

---

(١) باستثناء «روديسيا» التى حملوها اسم سيسيل رودس - وهو من اكابر مجرمى الاستعمار البريطانى ، وقد خلصت من اسم هذا الرنيم واصبح اسمها «زيمبابوى» .

وكان الامام تقى الدين بن تيميه (٦٦١ – ٧٢٨ هـ) قد حاول ان يقضى على هذه الخرافات فى مصر والشام ، واكتسبت دعوته شهرة كبيرة ، وكان الشيخ يتصف بقدر كبير من الجرأة ، لعلها كانت مطلوبة لنسف النل المتعالى من الخرافات ، ولكنها أثارت عليه العلماء والسلاطيين ، الذين كان قد بادأهم بالهجوم «ولم يقتصر على ذلك بل هاجم بقلمه ولسانه كل الفرق الاسلامية كالخوارج والمرجئة والرافضة والقدريه والمعتزلة والجهمية والكرامية والاشعرية وعيرها ، و طعن كذلك على الرجال الذين يعتبرون حجة فى الاسلام ، فقال على منبر جامع الصالحية ان عمر بن الخطاب وقع فى كثير من الاخطاء ، وقال ايضا ان على بن ابى طالب اخطأ ثلثمائة مرة ، ولم يتردد فى مهاجمة كثير من الأعلام الذين سبقوه ، وانعقد اجماع الناس على تفردهم بالعلم والتفقه فى الدين والفلسفة فهاجم الغزالى بشدة ، كما هاجم محى الدين بن عربى وعمربن الفارض والصوفية بوجه عام ودعا الناس فى كثير من الجرأة والقوة الى اصلاح شأنها وتقويم أمرها ووصف للناس سبيل هذا الاصلاح والتقويم بان صحهم بالرجوع الى القرآن والحديث والاكتفاء بنصيبهما كما فعل مارتن لوثر حين دعا المسيحيين الى اصلاح شأن دينهم بالرجوع الى الكتاب المقدس وحده»[١] .

.. س الغريب ان ابن تيمية قد عورض ، وحورب ، وسجن ، ان الغريب انه لم يقتل ، .. ن ماقاله على رؤوس الاشهاد كان يمكن أن يؤدى الى قتله . وانما تعود نجاته الى قو عارضته ، ورباطة جأشة ، وتمكنه التام من العلوم الاسلامية . وكان يمكن .. ن تنجح دعوة ابن تيمية لولا أن الناس شغلوا بحرب التتار ، وان بساطة دعوة ابن تيمية وتجريدها – على صحتها النظرية – ماكانت – تتمشى مع درجة التعقيد التى وصل اليها المجتمع المصرى والشامى وقتئذٍ ، وانما كانت تصلح لمجتمع بسيط فطرى الطبيعة ، كمجتمع الحجاز مثلاً ، وقد كان هذا من اسباب اهتداء محمد بن عبد الوهاب اليها قدر ما كان من اسباب نجاحها هناك .

محمد بن عبد الوهاب :

ولد محمد بن عبد الوهاب المشرفى التميمى النجدى (١١١٥ – ١٢٠٦ هـ – ١٧٠٣ – ١٧٩١ م) ببلدة العيينة القريبة من الرياض ، وتلقى علومه الاولى على

(١) الشرق الاسلامى فى العصر الحديث – حسين مؤنس ص ١٨٨ – ١٨٩ وقد عاد فى هذا الاقتباس الى دائرة المعارف الاسلامية . وجزيرة العرب فى القرن العشرين . حافظ وهبه .

والده دراساً شيئا من الفقه الحنبلي والتفسير والحديث ، حافظاً القران وعمره عشر سنين ذهب الى مكة حاجا ، ثم سار الى المدينة ليتزود بالعلم الشرعى وفيها التقى بشيخه محمد حياة السندى (ت ١١٦٥ هـ) صاحب الحاشية على صحيح البخارى ، وكان يأثره به عظيما . وعاد الى العيينه ، ثم توجه الى العراق عام ١١٣٦ هـ - ١٧٢٤ م ليزور البصرة وبغداد والموصل وفى كل مدينة منها كان يلتقى بالمشايخ والعلماء ويأخذ عنهم وغادر البصره مضطراً الى الاحساء ثم الى حريملا . حيث انتقل اليها والده الذى يعمل قاضيا»[1] ..

وفى هذه الفترة تعرف محمد بن عبد الوهاب على دعوة ابن تيمية فأعجب بها وتجاوبت بساطتها وصرامتها مع طبيعته البدوية ، ووجد فيما اتسمت به القطع والحسم ، والوضوح والصراحة .. ما يمكنه ان يحسم شأفة مظاهر الخرافة التى سادت العقيدة ، والتى رأى فيها ابن تيمية نوعاً من الشرك وأفتى بكفر من يعتقدها . وقتله مثل قوله فى الاقناع» ان من دعا ميتا ، وان كان من الخلفاء الراشدين ، فهو كافر ، وان من شك فى كفره فهو كافر» وقوله فى الرسالة السنينة «ان كل من غلا فى نبى او رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الالهية مثل ان يقول ياسيدى فلان - أغثنى أو انصرنى ، او ارزقنى أو أجرنى وأنا فى حسبك ونحو هذه الاقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فان تاب نجا والا قتل» ...

مثل هذه الأحكام فى جرأتها أعجبت محمد بن عبد الوهاب فتبناها ووجد فيها ما يتسلح بها ليقضى على ظاهرة بناء القبور ورفع القباب و التمسح بالاضرحة والتشفع بالأولياء . وبدأ فى نشر دعوته عندما كان فى حريملاء عام ١١٤٣ هـ - ١٧٣٠ م . ولكنه مالبث ان غادرها بسبب تآمر نفر من أهلها عليه لقتله .

«فتوجه الى العيينة وعرض دعوته على أميرها (عثمان بن معمر) الذى قام معه بهدم القبور والقباب ، وأعانه على رجم امرأة زانية جاءته معترفة بذلك .

- أرسل امير الاحساء عريعر بن دجين الى امير العيينة يأمره فيها بان يمنع الشيخ عن الدعوة ، فغادر الشيخ البلدة كى لايحرج أميرها .

- توجه الى الدرعية مقر إمارة آل سعود ، ونزل ضيفاً على محمد بن سويلم العرينى عام ١١٥٨ هـ حيث أقبل عليه التلاميذ وأكرموه ..

---

(١) الموسوعة الميسرة فى الاديان والمذاهب المعاصرة - الندوة العالمية للشباب الاسلامى - الرياض ص ٢٧٣ .

– الأمير محمد بن سعود الذى حكم خلال الفترة (١١٣٩ – ١١٧٩ هـ) علم بمقدم الشيخ فجاءه مرحباً به وعاهده على حمايته ونأييده وجرى بينهما الحوار التالى :

الامير : ابشر ببلاد خير من بلادك وابشر بالعز والمنعة .

الشيخ : وانا ابشرك بالعز والتمكين ، وهذه كلمة «لا اله الا الله» من تمسك بها وعمل بها ونصرها ، ملك بها البلاد والعباد ، وهى كلمة التوحيد ، وهى مادعا اليها رسل الله كلهم ، فالأرض يرثها عباده المسلمون ..

ثم اشترط الامير على الشيخ شرطين .

١ – أن لايرتحل عنهم وان لايستبدل بهم غيرهم .

٢ – ان لايمانع الشيخ فى ان يأخذ الحاكم وقت الثمار ما اعتاد على أخذه من اهل الدرعية ..

– أما عن الشرط الاول فقد قال له الشيخ : ابسط يدك أبايعك الدم بالدم والهدم بالهدم .

ـ واما عن الشرط الثانى فقد قال له : لعل الله ان يفتح لك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ماهو خير منها(١) .

الأفكار والمعتقدات :

ماهى الأفكار والمعتقدات التى يمكن القول ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب انتهى اليها او تبناها ؟ ويمكن ان نقول إنها «الوهابية» ؟ تقول الموسوعة الميسرة ..

– كان الشيخ المؤسس حنبلى المذهب فى دراسته لكنه لم يلتزم ذلك فى فتاواه اذا ترجح لديه الدليل فيما يخالفه وعليه فان الدعوه السلفية اسمت بانها لامذهبية فى اصولها حنبلية فى فروعها .

– دعت إلى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقاً منذ سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

– أكدت على ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وعدم قبول أى أمر فى العقيدة مالم يستند إلى دليل مباشرة وواضح منهما .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٤ .

– اعتمدت منهج أهل السنة والجماعة في فهم الدليل والبناء عليه .

– دعت إلى تنقية مفهوم التوحيد مطالبة المسلمين بالرجوع به إلى ما كان عليه المسلمون في الصدر الأول للإسلام .

– توحيد الأسماء والصفات : وهو إثبات الأسماء والصفات التي أثبتها الله لنفسه وما أثبتها رسوله ﷺ له من غير تمثيل ولا تكييف ولا تأويل .

– التركيز على مفهوم توحيد العبودية ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ «النحل ١١٦» .

– إحياء فريضة الجهاد ، فقد كان الشيخ صورة للمجاهد الذي يمضي في فتح البلاد ينشر الدعوة ويزيل مظاهر الشرك التي انحدر إليها الناس .

– القضاء على البدع والخرافات التي كانت منتشرة آنذاك بسبب الجهل والتخلف من مثل :

● زيارة قبر يزعمون أنه قبر الصحابي ضرار بن الأزور وسؤاله قضاء الحاجات .

● زيارة قبة يقولون إنها لزيد بن الخطاب .

● التردد على شجرة يقولون إنها شجرة أبي دجانة وأخرى تسمى الطرفية .

● زيارة مغارة تسمى مغارة بنت الأمير .

– تقسيم التوسل إلى نوعين :

● توسل مرغوب فيه وهو ما كان بأسماء الله الحسنى .

● توسل مبتدع منهي عنه وهو ما كان بالذوات الصالحة «بجاه الرسول ، بحرمة الشيخ فلان ..» .

– منع بناء القبور وكسوتها وإسراجها وما إلى ذلك من البدع التي تصاحبها .

– التصدي لشطحات الطرق الصوفية ولما أدخلوه على الدين من أشياء لم تكن فيه من قبل .

– تحريم القول على الله بلا علم (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) «الأعراف : ٣٣»

- إن كل شيء سكت عنه الشارع فهو عفو.لا يحل لأحد أن يحرمه أو يوجبه أو يستحبه أو يكرهه ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ «المائدة ١٠١» .

- إن ترك الدليل الواضح والاستدلال بلفظ متشابه هو طريق أهل الزيغ كالرافضة والخوارج ﴿فأما الذين فى قلوبهم مرض فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ [آل عمران : ٧» .

- إن النبى ﷺ ذكر أن الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور متشابهات فمن لم يفطن لهذه القاعدة وأراد أن يتكلم عن كل مسألة بكلام فاصل فقد ضل وأضل .

- ذكر الشيخ فى بيانه لأنواع الشرك ومراتبه أنه :

١ - شرك أكبر : وهو شرك العبادة والقصد والطاعة والمحبة .

٢ - شرك أصغر : وهو الرياء لقوله ﷺ فى حديث رواه الحاكم : «اليسير من الرياء شرك» .

٣ - شرك خفى : قد يقع فيه المؤمن وهو لا يعلم كما قال ﷺ : «الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاة سوداء فى ظلمة الليل» .

- لقد عملت هذه الدعوة على إيقاظ الأمة الإسلامية فكرياً بعد أن رانت عليها سجف من التخلف والخمول والتقليد الأعمى .

- العناية بتعليم العامة وتثقيفهم ، وتفتيح أذهان المثقفين منهم ولفت أنظارهم إلى البحث عن الدليل ودعوتهم إلى التنقيب فى بطون أمهات الكتب والمراجع قبل قبول أية فكرة فضلاً عن تطبيقها .

- للشيخ مصنفات كثيرة أهمها (كتاب التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد) و (كتاب الإيمان) و(كشف الشبهات) و (آداب المشى إلى الصلاة) و(مسائل الجاهلية) وعدد من المختصرات والرسائل التى تدور حول أمور فقهية وأصولية أكثرها فى التوحيد .

الجذور الفكرية والعقائدية :

- لقد تَرسّمَ الشيخ فى دعوته أعلاما ثلاثة استَنَّ طريقتهم وهم :

١ - الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ) .

٢ - ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) .

٣ - محمد بن القيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) .

- فكانت دعوته صدى لأفكارهم وترجمة لأهدافهم فى واقع عملى(١) .

واستعراض «الأفكار والمعتقدات» هام لأنه يوضح ان التركيز هو على زيارة القبور ، والتوسل والشرك والصفات الخ . وليس هناك اى اشارة الى قضايا تتعلق بالاقتصاد او السياسة - وهذا التركيز فى الوهابية ستظهر جريرته عندما ستتحول السعودية من صحراء بلقع كما كانت ايام الشيخ - الى اكبر دولة مصدرة للنفط فى العالم .. إذ لن تجد الدولة الجديدة فى الوهابية مايفيدها فى وضع سياساتها ونظمها . ولم يجد الوهابيون انفسهم فيها ما يجعلهم يلزمون قادة «السعودية» جادة الشرع بالنسبة للشورى ، والعدل والحريات الخ .. كما سيلى فى فقرات تالية .

التاريخ والتطور :

لايتسع المجال بالطبع لاستعراض تاريخ الوهابية ، فقد حكمت الدرعية فى حياة الشيخ . وحاربت القبائل المجاورة وضمت معظم الجزيرة العربية وكتب محمد بن سعود الى السلطان العثمانى بان لايرسل «المحمل» وهاجم سعود الثانى بن عبد العزيز بن عمر بن سعود ، الذى تطلق عليه بعض المراجع الأوروبية «نمر الجزيرة العربية» - حدود العراق وشرق الاردن ، ولكنه ابتلى بالحملة المصرية التى ارسلها بناء على أمر السلطان العثمانى ، محمد على ، وكانت تحت إمرة ابنه طوسون ، واستطاع سعود ان يهزم طوسون بفضل حرب المناوشات والاكمنة . ولكنه توفى هذه الفترة ، واوصى ابنه عبدالله ان لا يدخل فى حرب مكشوفة مع المصريين ، الأمر الذى لم يحافظ عليه عندما استدرجه ابراهيم باشا - ابن محمد على الذى خلف طوسون ، فهزمه ابراهيم ، وأسره وارسله الى القاهرة التى ارسلته الى الاستانة ، واعدم هناك .

ولكن هزيمة الوهابية امام الحملة المصرية كانت جولة واحدة من جولات عديدة ،

---

(١) الموسوعة الميسرة ص ٢٧٦ .

فقد انقلب الحظ على محمد على نفسه ، وعلى الدولة العثمانية .. وتآمرت عليها الدول الاوروبية ، وظهرت مرة اخرى الوهابية .

وفى الفصل الأخير لها ، استطاع عبد العزيز آل سعود ان يستحوز على الجزيرة العربية ، وان يدخل مكة والمدينة المنورة بعد سلسلة من الحروب تحالف فيها مع آل الشيخ – اى احفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب فأعاد الحلف القديم الذى تم بين جده الاعلى محمد بن سعود ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبفضل هذا الحلف عادت الدعوة الوهابية قوية وآمن بها كثير من اهل نجد الذين عرفوا بالبداوة والجفاء – وحملوا لفترة ما اسم «الاخوان» أو «الغطغط» وما كانوا يترددون فى ان يضربوا بالسيف من يقول «سيدنا» محمد وذكر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، فى كتابه «القضايا الاجتماعية الكبرى فى العالم العربى (١٩٣٦) انه «فى الحملة النجدية التى شنت الغارة على شرق الاردن منذ نحو عشر سنوات (اى حوالى ١٩٢٧) هجم بدوى من الغطغط فى جملة من هجموا على قرية تدعى «ام العمد» ليجاهد فى سبيل الله اعداء الدين من المرتدين الذين يجوزون زيارة القبور وطلب الشفاعة من اصحابها ، فرأى امراه فى حجرها ابنها فنادت تستغيث وتطلب الامان ، ولكن لا أمان للمرتد فذبح الطفل اولاً ثم ذبحها وهو يهلل ويكبر وينشد النشيد المعروف .

هبت هبوت الجنة   رائح فين ياباغيها[1]

ولاقى الملك عبد العزيز منهم عنتا فى الايام الاولى لحكمه عندما حرّموا التليفون والراديو والتصوير الفوتوغرافى الخ . وجاء وقت كان الطبيب المصرى والمهندس المصرى يمتحن «ماذا تقول فى آيات الصفات !!» ولكن الملك عبد العزيز روّضهم شيئاً فشيئاً . وبعد عناء طويل ..

وكان من الوسائل التى استطاع بها الملك عبد العزيز ان يسيطر على القبائل أنه عمد الى كل قبيلة تقريباً من قبائل الحجاز فأصهر اليها وكان بعد استكمال العدد الشرعى لأربعة زوجات يطلق واحدة فواحدة ليتزوج بأخرى وانجب من كل واحدة عدداً من الابناء وتزوج هؤلاء الابناء – وقد اصبحوا امراء – وانجب كل واحد منهم ابناء ، اصبحوا بدورهم امراء . وهكذا تكونت قبيلة ملكية تمثل قبائل الدولة ، ويمثل كل قبيلة منها امير – على الأقل – فى هذه القبيلة . وقبل ظهور البترول كان هذا

(١) ص ١٥١ .

الرباط فخريا وادبيا ، وعندما ظهر البترول كان فى البترول متسع للجميع .. وبهذه الطريقة اوجد الملك عبد العزيز طريقة جديدة فى النظم السياسية وتقلد زمام الحكم يمكن ان نسميها «**القبيلة الملكية**» **أو** «**قبيلة العقال الذهبى**» .

وقبل ظهور البترول كان الحكم القبلى ، والفكر الوهابى يكفيان دولة صحراوية فقيرة محدودة فى كل شىء لا ترتبط بالعالم الا عبر موسم الحج .. وكانت العلاقات مابين الحجاز والدول الاسلامية وثيقة فكل طرف يحرص على الآخر بحكم الاخوة الاسلامية ..

ولكن البترول الذى تفجر فى السعودية غير كل شىء فى هذه الدولة – خاصة بعد حرب رمضان سنة ٧٣ التى قفزت بثمن برميل البترول من ثلاثة دولارات الى اربعين دولارا ، فتدفق نهر ذهبى على الحجاز ، وأصبحت السماء تمطر ذهباً وفضه ودولارات ....

وكان الحجاز قد شاهد شيئا كهذا منذ الف عام عندما انهالت ثروات كسرى على المدينة ، وعندئذٍ قال عمربن الخطاب للمسلمين «ان شئتم نكيل لكم كيلاً ، أو نزن لكم وزنا» ووزع كل شىء على المسلمين ، حتى بساط كسرى الثمين ، قُطِعَ قطعاً ووزعت ولكن الوهابية لم تتضمن شيئاً بالنسبة للبترول والدولارات ، ولم يستطع آل الشيخ ان يقترحوا على «السعوديين» شيئاً . او يقفوا فى وجه السفه والتبذير التى جعلت «العربى» وجها قبيحا فى العالم أجمع ..

كما لم يكن لدى آل الشيخ فى التراث الوهابى شيئاً عن الشورى ، فليس مايمنع من ان تكون الشورى الوحيدة هى شورى «**مجلس العائلة**» **فى القبيلة الذهبية ..**

ولم تجد ما تقوله بالنسبة للاخوة الاسلامية . وان البيت الحرام للمسلمين جميعاً سواء العاكف فيه والباد ، وانّ ليس لآخر ان يصد المسلمين عنه باشتراط التأشيرات والضرائب ومختلف صور التحكمات .. وما الفرق بين الحكم السعودى اليوم والذين قال فيهم القرآن .. ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا اولياءه ، ان اولياؤه الا المتقون ، ولكن اكثرهم لايعلمون﴾ . ٣٤ الانفال ..

لقد اراد السعوديون اكتساب شعبية ، والظهور بمظهر التواضع فأطلق الملك على نفسه «خادم الحرمين الشريفين» وهى مفارقة لدعوة قامت لتجريد المساجد من

الزخرف والزينة وهدم القباب عليها ، ومارست هذا اول عهدها بالحرمين .. ولا يريد الاسلام ممن يملك ان يكون خادما للحرمين ، وانما ان يكون خادماً للمسلمين أو للاسلام ، وان يكون الملك خادماً للحرمين أمر يقرب مابين الملك السعودى .. والشاه الصفوى المتيم والهائم بالعتبات .

ولم تُعن الوهابية ، اقل عناية ، بقضية العدل لا فى المجتمع السعودى نفسه ، أو بالنسبة لاستغلال السعوديين للوافدين على بلادهم طلبا للعمل ، وممارستهم لأسوأ صور التحكم واستغلال الحاجة ، والعنصرية المقيتة التى تجعل السعودى فوق المسلم المصرى أو السودانى . وتضع «الامريكى» فى اعلا المستويات .. والمسلم فى الحضيض وتبيح للتجار والمقاولين ان يعيشوا على عرق العامل عن طريق مايسمى «بالكفيل» وهى بقية من بقايا النخاسة القديمة . نها عنها الاسلام واطلق عليها القُسامة – وكان جديراً بالوهابيين ان يطالبوا بالغائها ، لأن النهى عنها جاء فى احد المراجع الاسلامية التى حققها احد شيوخهم[1] .

اما عن كرامة الانسان والحريات ، فهى قضية مغلقة لاتفهمها ، ولاتسيغها الوهابية ، ولم يكن عبثاً تلك الظاهرة التى تثير الانتباه . ان يكون اول ما يبحث عنه رجال الجمارك فى المطارات والموانى السعودية هو «الكتب» فاذا عثر احدهم على كتاب فكأنه عثر على مخدرات ويتعرض للمساءلة ، ويتعرض الكتاب للمصادرة .. فكيف يمكن ان يرجى خير من نظام يناصب العلم والمعرفة العداء .. ويعلنها حرباً شعواء على الكتاب ..



هل معنى هذا ان الوهابية لم تحقق شيئا .

بالطبع حققت ..

فأنها أوجبت تطبيق الحدود ، وكما كان من انجازات الشيخ محمد بن عبد الوهاب انه «رجم» زانية اعترفت بالزنا ، فان مايحرص عليه آله هو القطع فى السرقة ..

---

(١) هو تيسير الوصول الى جامع الاصول ، بتحقيق الشيخ حامد الفقى . والنهى عن «الكفيل» كما يسمونه ، والقسامة (بالضم) كما سماها الرسول جاء فى حديث عن أبى سعيد الخدرى قال : «قال رسول الله ﷺ اياكم والقسامة قلناوما القسامة قال الرجل يكون . على الفئام من الناس فيأخذ من حظ هذا وحظ هذا» الجزء الرابع ص ١٤٥ .

وتطبيق بقية الحدود . والحدود اذا جردت من مضمونها الاسلامى لم تعد اكثر من عقوبات رادعه زاجرة ، وهى تأتى بفائدة الردع ، وكانت مطبقة فى اوروبا طوال القرون الوسطى .

ماذا أيضا ؟

انها أوجبت على الناس جميعاً حضور الصلوات فى المساجد ، او على الاقل ، اغلاق المحال . وهو «إنجاز» هزيل يمكن لاى «بلدية» أو «نقابة» أن تحققه ، لان البلديات والنقابات هى التى تحدد ساعات العمل واوقات الاغلاق اما جَّر الناس جراً الى المساجد .. فهى عملية شكلية لاتحقق القربى الى الله .

وقد ترى الوهابية ان من مآثرها انها الزمت النساء الحجاب الثقيل ، وحرمت عليهن قيادة السيارات . وانها قضت على كل صور اللهو من سينما أو مسرح أو غناء [الا الدف] وهو امر تزيد سوءاته ، عن حسناتة ، ولانرى انه يستحق شرحاً أو ايضاحاً .

ولكن قد ترى الوهابية ان اعظم انجازاتها انها قضت على مظاهر وصور «الشرك» . وهذا أمر عظيم – ولكنه لا يحتاج صولجان الدولة وسلطانها ، بل ان تدخل الدولة قد يفسده . ويمكن لاى هيئة متطوعة ان تقوم به ..

★ ★ ★

ان الوهابية تعرض لنا مثالاً لدعوة تقوم على تطهير «العقيدة» كما تفهمها من مظاهر الشرك .. دون أن يكون لها أى أثر بالنسبة لقضايا المجتمع الكبرى فى السياسة والاقتصاد والاجتماع . وانه يمكن ان يوجد فى مجتمعها أسوأ صور الظلم والفساد والاستغلال والسفه .. دون أن ترى ان اصلاح هذا يدخل فى عملها ..

إنه الافلاس . إفلاس أغنى دولة فى المنطقة .

ب – الجعفرية[1]

الثورة الاسلامية الايرانية التى قادها آية الله الخمينى عام ١٩٧٩ تعد من اكبر .. ولعلها أكبر الاحداث الاسلامية التى مرت بالعالم الاسلامى طوال القرن العشرين . هذا القرن الذى شاهدت بداياته حضيض الاستعمار الذى سقطت فيه الدول الاسلامية ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية فحررتها منه ، وان كانت قد اوقعتها فى إسار إستعمار آخر ، وشاهدت فى وقت واحد ظهور اسرائيل كدولة ، وصعود الدعوة الاسلامية عام ١٩٤٨ ، ثم تلت ذلك موجة الانحسار وظهور طغمة العسكريين وتلفيقاتهم السياسية ، ولعبة «القط والفأر» مع الدعوات الاسلامية ..

فى هذا المناخ المتقلب المضطرب ، الذى يغلب اليأس فيه الرجاء ، لمعت – كشهاب ثاقب – بارقة الثورة الايرانية ، وسطعت ، وملأت الآفاق نوراً ..

ولايعود الأثر الكبير للثورة الايرانية ان ايران دولة كبيرة المساحة ، كثيرة العدد ، غنية الموارد ، ذات حدود استراتيجية وموقع هام ، ولكن ايضا الى الملابسات «الدراماتيكية» التى احاطت بالثورة . فمن ناحية وُجد حاكم متغطرس وصل به الصلَف والزهو والغرور أن يصفع رئيس وزرائه فى محفل عام ! ويظن نفسه ملك الملوك – شاهنشاه – الذى يجلس على عرش الطاووس . ونصب هذا الدعِّى نفسه عدواً للاسلام ورموزه ، نصيراً لمَا ظنها الحضارة الاوروبية ورموزها وكان مجرداً من المواهب بالمرة . ولكنه استطاع بموارد النفط الضخمة ، وبتأييد الولايات المتحدة أن يرأس

(١) آثرنا تعبير الجعفرية على تعبير الأثنى عشرية ، لان الامام جعفر الصادق هو رأس هذه الفرقة من الشيعة ، وقد كان رجل دين ، ودولة ، وتوفرت له صفات نادرة ، وان الصقت به دعاو لا أصل لها .

اكبر قوة عسكرية فى المنطقة ، وان يؤسس جهاز مخابرات رهيب «السافاك» وفى مناسبة للاحتفال بذكرى قيام الامبراطورية الفارسية القديمة – صنع ماصنعه الخديوى اسماعيل عندما افتتح قناة السويس ، فدعا ملوك وامراء اوروبا الى مهرجان يفوق «الف ليلة وليلة» وكانت الاطعمة والاشربة تأتى من «ماكسيم» فى باريس بالطائرات ..

فى مواجهة هذا الطاووس المختال ، المزين بالذهب والماس ، المدجج بالسلاح ، المحمى بالسافاك ، المدعم بأمريكا ظهر شيخ واهن الجسم ، فى الثمانين من العمر ، لايملك الا سجادة صلاته . ويقيم فى بلد بعيد .. استطاع كأنما بمعجزة – أو بتوفيق من الله ان يقوّض هذا البناء المشمخر ، وينسفة حجراً حجراً : الجيش ، الاسطول ، السافاك ، البلاط ، أمريكا التى وقفت مشدوهة فاغرة الفم ..

قالت احدى الصحف إن عودة الخمينى من باريس الى ايران لاتماثلها الا عودة لينين من سويسرا الى روسيا . ولكن الحقيقة كانت اعظم من ذلك بكثير ، فلم ينتظر لينين على محطة السكة الحديد الا مجموعة من حزبه ، قلقة ، متربصة ، وكان عليه ان يعمل طوال عشرة شهور ليصل الى الحكم وسط معارضات وثورات لا حد لها . اما الخمينى فقد وجد بحراً من البشر .. كأنما خرج كل الشعب الايرانى لاستقباله وسط حماسة لم تسبق وأسلمه السلطة بالاجماع ، ولم يشذ الا الذين لوثوا ايديهم بدماء الشعب من السافاك او البلاط أو لصوص وحاشية الشاه المخلوع.

وفى حقيقة الحال ، فان الثورة الايرانية تكاد تكون اعظم الثورات فى العصور الحديثة – بمعايير الثورية بما فى ذلك الثورة الفرنسية ١٧٨٩ والثورة البلشفية سنة ١٩١٧ فالشعب كله اشترك فيها . وغيرت الثورة تغييراً جذرياً الحياة قبلها . فقد كانت طهران – كباريس – مدينة اوروبية فيها كل مظاهر الاستمتاع والانطلاق الاوروبى . وبعدها أصبحت بلداً اسلاميا يلتزم بمقاييس الحفاظ الاسلامى . وقبلها كان الخبراء الامريكيون والاسرائيليون يقتعدون مناصب الحكم والادارة .. فحل محلهم الفقهاء بعمائهم ولحاهم ..

نعم ، لم يحدث هذا فى ايران – منذ ان خرجت الرايات السود من الف عام لتقضى على الخلافة الأموية . وتحل الخلافة العباسية ..



وفى مصر تلقينا هذه الثورة بكل الحب والاعزاز والحماسة والتشجيع ..

لم نهتم باى نفرقة فقهية . او تحليل عقلانى ، لانها لمست وتراً حساساً فى نفوسنا ، فرأينا ثورة «العمامة» على «القبعة» وعودتها الى مجال الصدارة والسياسة .. ويالها من عودة إنبثقت من أعماق الماضى القديم .

★ ★ ★

كان على الثورة الايرانية ان تتصدى للوقائع الصلبة .

وفى الايام الاولى بدا كل شىء ميسراً بفضل دفعة الحماسة الدافقة ، وجِدة التجربة ..

ولكن الثورة الناشئة لم تترك طويلاً ..

فالقوى العالمية التى أخذت على غرة بانتصارها ، دبرت لها مكيدة تجهضها ، فدفعت احد عملائها من الطغمة العسكرية ليشن عليها حرباً ضروسا تحت لافته «**قادسية صدام**» ..

وياله من زيف .. وادعاء ..

ان كل حرف فى كلمة «قادسية» يتبرأ من كل حرف فى كلمة «صدام» .

وتدفقت اموال النفط من السعودية والخليج وبعثوا من حفريات التاريخ كلمات : المجوس .. التتار .. الفرس .. ووقفت أمريكا وراء الجميع ..

كان الخمينى يريد ان يخلص العالم من شخص شرير بمعنى الكلمة ..

ولكن العرب - على بكرة ابيهم !.. وقفوا وراءه .. ودفع الكويتيون البخلاء الممسكون بسخاء .. وانفق السعوديون بسفه فى سبيل ابقاء هذا الشرير ..

فتركه الخمينى .. ليكون لهم حزنا ، وليحرق آبارهم وقلوبهم ويفعل بهم الافاعيل .. ثم يعود ليدمر كل ماأقامه هو نفسه تدميراً !

واذا كان الخمينى قد تجرع كأساً من السم - فان سهما من سهام دعائه أصاب صدام فأصماه ، وجعله امثولة يتعوذ أقل الناس منها ..

تُصِمُ السميعَ وتُعمى البصيرَ ويُسألُ من مثلها العافية

وزهق باطل صدام ..

وعادت ايران ، ولكن بعد ان خسرت ثمان سنوات فقدت فيها دفعة الثورة ، التى كان يمكن ان تحقق لها الكثير ، كما فقدت امامها ورمزها .

ومع هذا تظل ايران – دولة اسلامية منتصرة تملك مالا تملكه اى دولة اسلامية اخرى ..

ان مصر يمكن ان تنافسها فى عدد السكان ، ويمكن ان تفوقها بالعربية ، ولكن ليس لديها امكانيات النفط ، أو الموارد الطبيعية .

والحجاز يمكن أن يفوقها فى البترول وبالعربية ، وبالمشاهد المقدسة ... ولكن ليس هناك شعب ...

والشعب هو أقوى القوى ..

ولدى ايران شعب من خمسين مليونا . يتسم بالذكاء .. وصفه الأثر «لو كان العلم في الثريا لناله ناس من فارس» وقدم لصحبة الرسول رجلاً ورعا ذكيا أحبه الرسول حتى قال «سلمان منا أهل البيت» وخدم الثقافة الاسلامية ، وأنجب لها عباقرتها فى الحديث والتفسير والفقه ، وحتى اللغة العربية ...

وبيننا وبين «الشيعه» وشائج عديدة ..

فاذا كانت الشيعة تفخر بأنها تنتسب الى فارس الاسلام النبيل ، وصفًى الرسول الأثير الامام على بن ابى طالب .. فنحن أيضاً ننتسب اليه ونفخر به ..

واذا كانت ترى فى الامام ابى عبدالله الحسين سيد الشهداء .. ورمز الفداء .. فنحن ايضاً نعتبره كذلك ..

واذا كان رأسها المباشر هو الامام جعفر الصادق ، فإن جعفر الصادق هو إمام من ائمة السنه ..

واذا كانت ترى ان «الامامة» من اصول العقيدة .. فنحن – ايضاً – نؤمن ان الاسلام يعتبر الحكم رسالة سامية ومهمة مقدسة ، وليست – كما تنظر اليه الديمقراطية – كرة تتقاذفها الاحزاب ومغنما يطمع فيه الطامعون . وان «الامام» يجب ان تتوفر فيه صفات معينة .. فالفرق بيننا وبين الشيعة يكاد يكون فى «الدرجة» .

وفى الدعوة الشيعية بعد صيحة تنتظمها وتسير معها منذ ان ظلموا عليا حقه

وسيروا الجيوش لحربه وحقه كالشمس فى رائعة النهار ثم تتبعوه حتى خضبوا لحيته بدم رأسه وراح شهيدا فى اشرف ساعة من أشرف فجر يوم «١٧ رمضان» حتى الفترة الراهنة . تلك الصيحة هى الثورة على الظلم والتطلع للعدل والتنديد بالطغاة والعالين فى الارض والمتحكمين فى الناس وما يضعونه من ملك عضوض ونظم كسروية وقيصرية والانتهاض بالجماهير المسحوقه المغلوبة على أمرها لتثور وتحطم عنها اصرها والاغلال وتعيد مرة أخرى الخلافة الراشدة فكأنها دعوة المظلومين ضد الظالمين.وعندما سنحت الفرصة للزيدية وهى احدى فصائل الشيعة للحكم فى طبرستان وفى اليمن اعادوا مرة أخرى تقاليد الخلافة الراشدة ، وعندما قامت الثورة الشيعية فى ايران فانها اطاحت باحد الطواغيت ثم نطحت طاغوتا آخر حتى زعزعت قوائمه وزلزلت دعائمه ..

وقد يعترض معترض ، ماذا تقول فيما تحفل به بعض كتابات الشيعة من المزاعم الفظيعة والدعاوى الشنيعة ... وما تتضمنه من غلو فى حب الآل ونديد ببعض الصحابة ، وتأويل لظاهر القرآن أو حتى ادعاء قرآن آخر ؟ فنقول ان الشيعة مذهب عريق شرد دعاته شرقا وغربا ، وتعرضوا لحرب أرادت استئصاله تماما فاضطروا الى سرية حالت بين الجمهور والائمة فكانت «الغيبة» أمرا واقعا ، وكانت «التقّية» تكتيكا وأسلوبا لازما ، ولم يكن مناص فى كثير من الحالات من الكناية والرمز واللجوء الى لحن القول . وسمح هذا بوجود الغلاة والمتشددين بل واندساس بعض الاعداء والشانئين . وهى ظروف كان لابد أن تتعرض لها دعوة سلخت الف عام من الملاحقة والاضطهاد . وقد رأينا بأنفسنا كيف ان الاضطهاد الذى لاحق دعوة الاخوان المسلمين خلال خمسين عاما ادى الى ظهور أجنحة تذهب الى مالم تذهب اليه الجماعة نفسها وتلوذ بصور من العنف والشطط ، فما بالك لو ظل هذا الاضطهاد خمسمائة عام .

والمسلك الامثل الذى يكون علينا ان نسلكه هو أن نتفهم هذه الاوضاع ، وان لانحاسب الدعوة والجماعة على سلوك آحاد أو شذوذ أفراد ، أو ظهور صور من الغلو والتشدد فهذا أمر معهود فى الدعوات ، وقد تنبه اليه كثير من كتاب الشيعة أنفسهم ، وقد أمرنا الاسلام برأب الصدع ولم الشمل وان نصل من قطعنا ونحسن الى من أساء الينا ، وحذر النبى المسلمين من أن يعودوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض . وعلمنا القرآن أدب القول وحسن الاستماع فقال ﴿واذا خاطبهم الجاهلون

قالوا سلاما﴾ وقال ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ وما أجمل هذا وانبله وابعده عن شنآن العداوة ولدد الخصومة . فما بالنا لا نستمع الى ما يقول القوم ونتبع أحسنه ..

والامر بعد ليس أمر عاطفة فحسب أو واقعة تاريخية ولكنه أمر مصلحة عظمى قد لا يوجد ما يماثلها ، وأى مصلحة أعظم من وحدة المسلمين وان تعود «دار الاسلام» مفتوحة الابواب لاتحدها الحدود ولا تقطعها السدود ولا تعزلها الخصومات والقيود .

فى سبيل هذا الامل العظيم عمل حسن البنا ومحمود شلتوت وعبد المجيد سليم وغيرهم من الدعاة وأئمة المسلمين وتغاضوا عن الخلافات والمزاعم حتى مع افتراض وجودها لأن الاهم يغلب المهم .

ونحن نقف من الشيعة الموقف الذى وقعه مفكر شيعى جعفرى ، عمل للثورة ، ومهد أمامها السبيل ذلكم هو «**على شريعتى**» .

ان على شريعتى يفرق تفرقة حاسمة بين «التشيع الصفوى» و «التشيع العلوى» وينسب الى الأول كل ما علق بالشيعة من مثالب ولوثات لاغراض سياسية ولكسب التأييد الأعمى من الجماهير ...

ان على شريعى يقول :

ان التشيع العلوى والتشيع الصفوى ، يبدوان فرقتين متقاربتين فى الظاهر ، ولكنهما فى الواقع مناقضتان لبعضهما ، ولا يوجد ما يربط بينها سوى الاسم . سأحاول أن أعرض باختصار مقارنة بين هذين «المذهبين» ، وكيف ينظر كل منهما لمبادىء وقضايا أساسية وهامة لدى الشيعة :

فى التشيع العلوى

الوصاية :

تعنى ان الرسول ، طبقاً لأوامر الله تعالى ، أوصى بأفضل الأشخاص وأكثرهم كفاءة فى أهل بيته ، على أساس كونه أكثرهم علماً وتقوى واستحقاقاً .

الأمامة :

تعنى قيادة ثورية ، تهدى الناس فى الكفاح من أجل بناء مجتمع سليم ؛ وتقوم

بنوعية الناس وحثهم على التفكير والاستقلال فى الرأى . إنها قيادة تتكون من أشخاص هم التجسيد العملى لمبادىء ورسالة الاسلام ؛ ويمكن بالعمل تحت قيادتهم أن نتربى ونعى أكثر فأكثر .

العصمة :

تعنى الاعتقاد بالتقوى الفكرية والاجتماعية للقادة المؤمنين ، الشاعرين بالمسؤولية ، والساعين من أجل العلم وحكم الشعب . ويعنى هذا ، رفض حكم الجور ، ورفض طاعة العلماء المشكوك بنزاهتهم ورجال الدين المزيفين المرتبطين بأجهزة الخلافة .

الولاية :

تعنى القبول بحب على ، والتصرف اقتداءً بسلوك على ، باعتباره نموذجاً راقياً لأحد عباد الله . كانت قيادته تهدى الناس كسراج منير ، وحكمه كان كتطلع الانسان نفسه عبر التاريخ : أمل فى العدل والحرية والمساواة . وإن فى سنوات حكمه الخمس لخير دليل ، ينشدها الناس ولا زالوا ، كقدوة .

الشفاعة :

حافز على العمل من أجل اكتساب استحقاق النجاة فى الآخرة .

الاجتهاد :

عنصر الحركة والتطور فى الدين عبر الزمن ، وخطوة فخطوة مع التاريخ والثورة الدائمة للانسان . إنه تطور فى نظرة الدين يسمح بتطور منسجم فى الفقه حسب التغييرات .

التقليد :

علاقة منطقية وعلمية ضرورية بين عامة الناس وعلماء الدين المتخصصين فى المسائل العملية والحقوقية وقضايا أخرى ذات طابع فنى ومتخصص .

العدل :

الاعتقاد بوجود صفة العدالة فى الله ، وبأن الكون قائم على التوازن والعدل ،

فالنظام الاجتماعي والحياة أيضاً ، يجب أن ترسى على أسس العدل . إن الظلم واللامساواة هما نظام غير طبيعى وغير الهى ، بل انه ضد الله . إن العدل هو أحد ركنين أساسيين فى الدين ، فالعدل هو هدف الرسالة والشعار العظيم للاسلام .

الدعاء :

نص يربّى ويعلّم . يلقّن الجمال والطيبة . إنه عمل يقود الروح نحو المعراج . إنه يبعد المرء لحظات عن الحياة اليومية ليقرّبه من الله .

الانتظار :

الاعداد الروحى والعملى والعقائدى ، من أجل الاصلاح والثورة وتغيير العالم . أمل يعين على الايمان القاطع بزوال الظلم وانتصار الحق والعدل ، وسيادة الطبقة المحرومة والمستضعفة على العالم ، حيث وعد الله بأن يرث المستضعفون الأرض . إنه ثقة بانتصار الجماهير والناس الصالحين الذين كرّسوا أنفسهم من أجل الثورة العالمية .

الغيبة :

تعنى مسؤولية الناس فى تقرير مصيرهم ، وفى اتخاذ القرار فيما يخص : إيمانهم ، قيادتهم ، حياتهم المعنوية والاجتماعية ، تعنى مسؤولي الشعب فى انتخاب قيادة نابعة من صفوفه ، قيادة مسؤولة ونزيهة تستطيع أن تنوب عن قيادة الامام .

* * *

إن التشيع العلوى هو تشيع المعرفة والمحبة .
إن التشيع العلوى هو تشيع السنة .
إن التشيع العلوى هو تشيع الوحدة .
إن التشيع العلوى هو تشيع العدل ، [العدل فى العالم ، فى المجتمع وفى الحياة] .
إن التشيع العلوى هو تشيع الممارسة .
إن التشيع العلوى هو تشيع الالتزام .
إن التشيع العلوى هو تشيع الاجتهاد .
إنه تشيع المسؤولية .

تشيع الحرية .
تشيع ثورة كربلاء .
تشيع الشهادة .
نشيع السعى وراء التقدم والتطور .
نشيع التوحيد .
تشيع الاختيار .
تشيع صداقة الحسين .
تشيع الانسانية .
تشيع الامامة العلوية .
تشيع الانتظار الايجابى .
تشيع تقية المناضل الشجاع .

فى التشيع الصفوى

الوصاية :

تعنى تعيين سلطة غيرمنتخبة ، وراثية ، تستند إلى التسلسل الوراثى وعلاقة الدم والقرابة .

الامامـة :

هى الاعتقاد بـ (١٢) إسماً ، باعتبارهم معصومين ومقدسين عناصر فوق البشر ومن ما وراء الطبيعة ، وهم الوسيلة الوحيدة للتقرب والشفاعة . إنهم ١٢ ملاكاً يمكن عبادتهم ، وهم مخلوقات غيبية ، بل وإله صغير يتحكم بالدنيا وبمشيئة الناس إلى جانب الاله الأكبر فى السماء .

العصمة :

تعنى مفهوماً ذاتياً ، صفة استثنائية خارقة لمخلوقات غيبية ، ليست من طينة البشر ، ولا يمكن أن يخطئوا فى شىء ؛ ويعنى هذا بأن ١٤ شخصاً فقط امتلكوا هذه الذات الخاصة وهذه الصفات .

هذا يعنى أيضاً ، الاعتراف بأن انحراف وعدم نزاهة الحكومات القائمة هى أمر طبيعى (لأنها ليست معصومة) ، والقبول بعلماء الدين غير النزيهين ورجال الدين غير المتقين ، بحجة انهم غير معصومين ولايمكن توقع الكمال منهم .

الولاية :

تعنى حب على فقط ، والتنصل من كل مسؤولية عملية . تعنى الأمل بالجنة فقط ، بسبب الاعتقاد بولاية على . أى أن الولاية هى لضمان الآخرة ، وليست شيئاً يفيد المجتمع والشعب . إنها مسألة لاتهم الناس بل تهم الله . إذ أنها تعنى فى مفهوم التشيع الصفوى التشارك مع الله فى إدارة الكون والعالم .

الشفاعة :

وسيلة لنجاة من لايستحق !

الاجتهاد :

عنصر الجمود والتحجر فى الدين ، وعائق أمام التقدم والتجدد والتغيير . وسيلة لادانة وتكفير وتفسيق كل عمل جديد ، كل كلمة جديدة ، وكل نهج جديد فى الدين ونظام الحياة والعلم والفكر وفى المجتمع .

التقليد :

الطاعة العمياء لرجال الدين . التبعية المطلقة وغير القابلة للنقاش لرجل الدين ، وذلك فى العقل والعقيدة والحكم . أى حسب تعبير القرآن ، عبادة رجال الدين «عبادة الأحبار والرهبان من دون الله»[١] .

★ ★ ★

هذا هو ما ارتآه على شريعتى .

وهذا هو مايراه من اهل السنة المنزهون من الغرض ، البرآء من المرض المشفقون من الفرقة الحريصون على الوحدة .. والذين يريدون لايران ان تكون قوة كبرى وعزاً للاسلام والمسلمين ..

---

(١) هكذا تكلم على شريعتى تأليف طالب رسول ص ١٧٧ - ١٨١ .

«وفى نظرنا ان على شريعتى وضع امام «المؤسسة الشيعية» البداية الصحيحة .. والتى لا مناص عنها . واذا سلكتها كسبت الشرف والانتصار واذا تجاهلتها خسرتهما ...

فلا يُتصَور ان ينجح اليوم ، فى عصر الثقافة والمعرفة وثورة المعلومات . ما نجح قديما فى ضم الجماهير واكتساب تأييدها ، عندما كانت امية ، جاهلة ، منقطعة عن العالم فكان لابد من الاساطير ، والتهاويل والرموز ليمكن الحفاظ عليها وابقاء حبل الدعوة متصلاً حتى الانتصار ..

وقد جاء الانتصار واصبح هو «صاحب الزمان» .

وقد انتصرت الثورة لا لايمان خاص بالتشيع الصفوى .. ولكن لان شيوخ الشيعة – ايات الله – مثلوا نبل رموز التشيع العلوى فى مواجهة أسوأ وأحط صور الحكم الدنيوى ..

فالمؤسسة الشيعية ليست اليوم فى حاجة الى الصفات التى اضفاها التشيع الصفوى عليها من قداسة وعظمة ..، فضلاً عن ان هذه الصفات تتناقض مع روح العصر وعليها أن تعلن العودة الى التشيع العلوى ففيه وحده الرموز التى تلهم الشعب القوة والمثالية ...

* * *

وليس لدينا تصور دقيق عما هو واقع فى ايران اليوم .

نحن نعلم ان قادة الثورة يتصفون بالاخلاص ، ويأخذون انفسهم بالتقشف ويجعلون من الدعوة نقطة الانطلاق والتحرك ..

ولكننا لانعلم شيئاً عن حقيقة الأوضاع ، او ان ما نعلمه يختلف عن الواجب ..

فهل يتفق اصطحاب الدعوة الشيعية بالجماهير المستعبدة والمستغلة .. بعدم وجود حركة نقابية تمثل العمال وتكون دليلاً عملياً على مقاومة الاستغلال كائناً ما كان ، أو نظام شامل للتأمينات الاجتماعية أو سياسة قومية للصحة والاسكان ..

هل يتفق مع الأخُوة الاسلامية ان يقاتل جناح شيعى جناح مسلم آخر فى لبنان بينما ينتظر المارونيون المنتصر ليجهزوا عليه ..

هل يتفق مع تقاليد الشيعة ان تضع ايران يدها فى يد طاغية سوريا الملوثة بدماء الاطفال والنساء . وهو الذى هدم حماة على أهلها ، ومارس واخوه أحط صور التعذيب .

ان طاغية سوريا سفاح مثل يزيد فكيف تصابعه الشيعة ؟

وهل يتفق مع نفاليد على بن ابى طالب تجاه الخوارج .. عدم وجود معارضة .. او حرية سياسية .. أو صحافة حرة تعبر عن ارادات ومشاعر الأحاد والجماعات ..

ان الامام على كرم الله وجهه دهب فى الحرية مع المعارضة الى مالم يذهب اليه أشد الاحرار .. فعندما تكتل الخوارج ضده واعتزلوه وحملوا سيوفهم ، لم يتعرض لهم وسمح بوجود هذا التكتل المسلح المعارض .. ولم يقربهم الا عندما قتلوا أحد اصحابه .. عندئذٍ فحسب تعرض لهم لا بقتال ... ولكن طالبا ان يسلموه القاتل فهتفوا «كلنا قتله !» وعندئذٍ لم يكن مناص من قتال القتلة .. ومع هذا فقد أوصى ان لايتبع هاربهم ، ولا يجهز على جريحهم ، ولا تستباح مغانمهم .

ولو اتبعت ايران تقاليد على بن ابى طالب وما وضعه من قواعد مع المعارضة ، لكانت اشد بلاد الله حرية ..

★ ★ ★

ان المؤسسة الشيعية اليوم على ميعاد مع التاريخ .

انها تقف فى مفترق الطرق ..

وراؤها السلطة ، العصمة القداسة ، الغيبة ، التقية ، اسماعيل الصفوى ، الشاه عباس ، ما الصق زوراً من اتهامات بالسنة بتأثير لدد خصومة الصفويين للاتراك السنيين ، عندما كان الفريقان فى حرب حياة أو موت ..

وامامها التواضع ، الاخلاص . العدل . الحرية . المساواة . على بن ابى طالب . الحسين . زين العابدين . زيد .. جعفر ..

فاذا التفتت الى الوراء فستحتفظ – لفترة – بالسلطة ولكن التاريخ لن يسامحها .. والجماهير لن تسكت عليها وسيحكم الله عليها كما حكم على أمم قد خلت ﴿فما بكت عليهم السماء والارض .. وما كانوا منظرين﴾ .

واذا نظرت الى الامام فستكون جديرة بتراث على والحسين الدَعوِى .. الكفاحى .. وسترود الطريق نحو «دار الاسلام» .

وستسكب الحسنيين النصر والشرف .

الباب الثاني

دعوة العمل الاسلامي

الفصل الاول : تمهيد ومنطق

الفصل الثاني : الركيزة الاولى : كرامة الانسان

الفصل الثالث : الركيزة الثانية : قداسة العلم

الفصل الرابع : الركيزة الثالثة : الحرية

الفصل الخامس : الركيزة الرابعة : العمل

الفصل السادس : العدل : «مايسترو» الدعوة

الفصل الاول

تمهيد ومنطق

مقدمة :

انطلقت الدعوات الإسلامية السابقة كلها من منطلق واحد هو «الإسلام» .. وبوجه خاص «الفهم السلفى للإسلام» ..

فبعضها استهدف شرح الإسلام وإظهار حقيقته ، وبعضها الآخر استهدف تنقيته من الخرافات .. الخ .

وقد يبدو أن هذا أمر طبيعى ومنتظر .. فماذا تريد من دعوة إسلامية غير هذا ؟ .. إن إنعام النظر يوضح أن القضية ليست بهذه البساطة ..

فهذه الدعوات ليست دعوات «أكاديمية» تقدم بحوثا لتنال بها درجة علمية ، ولا هى هيئات «آثار» تنقب فى الحفائر لتصل إلى أثر توارى تحت الرمال ..

إنها هيئات تقدم دعوة إلى الناس وتطلب منهم الإيمان بها ..

وهذا مالا يتيسر إلا إذا أخذت الدعوة الإسلامية شكل نظرية لها مقومات وتكامل ووحدة النظرية .

وهو ماعجزت عن أن تقدمه الدعوات الإسلامية السابقة .

إنها لم «تستقطع» أو تستلهم من الإسلام نظرية ما .

فنظريتها هى نظرية الإسلام ، ولكن الإسلام رحب وفسيح بصورة لا يتأتى معها أن يوضع فى سلة نظرية .

وعندما أحيت الرافضة الجديدة فكرة «الحاكمية الإلهية» فانها أوجدت «منطلقا» لها .

وقد أوجد هذا المنطلق فى القديم «الخوارج» بسيوفهم على عواتقهم ، وجباهم مسودة من السجود ، وتلاوتهم للقرآن لا تجاوز تراقيهم حتى يفنون على شط النهروان .

وأوجد – فى العصر الحديث مثيلا للخوارج ينطلقون حتى تحتويهم السجون أو تحطمهم صخور الواقع أو يقتلون ، ولكن المهم أنهم وجدوا «منطلقا» يدفعهم إلى حركة تتسم بجرأة وشجاعة ، ونقطة القوة تعود إلى وضوح وبساطة وخلوص المنطلق ، ونقطة الضعف تعود إلى أنه كائنا ماكان – ليس إلا منطلقا وليس نظرية وبالتالى فلا يمكن أن يقيم بناء أو يبدأ عهداً .

وكان من أسباب عجز الدعوات الإسلامية عن التوصل إلى نظرية إسلامية أن جمهورها ورث الإسلام وراثة ولم يؤمن به ابتداء عن اختيار وفكرة وتمحيص . فلم تثر عجائب الإسلام فى نفسه الدهشة ، ولم تدفعه غرائبه إلى الرغبة فى الاستكشاف ومر على آياته غافلاً .

كان هذا الجمهور كأهل مكة بالنسبة للكعبة ، وكأهل القاهرة بالنسبة للأهرام لا يأبهون لهما بينما يهرع الناس من أقصى الأرض لزيارتهما واستلهام العبرة والعظة . فاذا كانت الوراثة تؤصل الإسلام فى نفس صاحبه كبقية الموروثات فإن هذا المسلم لم يستطع أن يرى الإسلام لأنه ليس شيئا خارجيا عنه (فالعين لا ترى نفسها) .

وقصارى مايمكن أن تصل إليه هذه الدعوات هو رؤية «جلد الإسلام» أو بعض جزئياته أو بعض منطلقاته .

أما الإسلام ككل فهذا ما لا يمكن أن تراه تماما لأن شرط رؤيته – ككل – هو البعد عنه .

وكما يحدث عندما يريد اى واحد منا ان يرى صورة ما ككل فانه يبعد عنها . اما اذا اقترب منها ، فان البصر سينصرف الى جانب دون آخر . وحتى عندئذ – فان مابراه من قرب ليس هو فى حقيقة الأمر الاسلام موضوعاً ومجرداً ، ولكن

الاسلام الموروث ، الاسلام السلفى ، اى ان الفهم السافى للدعوات الاسلامية حجبها عن رؤية الاسلام الحقيقى -- اسلام ماقبل السلفية .

وكان مما دعم هذه الحقيقة ان الدعاة الاسلاميين ركزوا دراستهم فى الثقافة الاسلامية التقليدية ولم يشركوا بها الثقافة الأوروبية الحديثة .. حتى وإن الم بعضهم بها فما كان الايمان الموروث لديهم بقداسه الإسلام اندع الاهانتها ضئيلا من التأثير على موضوعية الدراسة وحيدتها ولو أنهم درسوا هذه الثقافة دراسة عميقة وأخذوها مأخذاً جاداً لحقق لهم ذلك نوعاً من التكامل فى الفكر .

ومن الخطأ الفاحش أن يظن أحد أن الثقافة الأوروبية لابد وأن تكون مناقضة للإسلام بحكم صدورها عن أوروبا ، لأن الثقافة الأوروبية تدين فيما تدين به للإسلام نفسه ولا يجوز ان نحكم على الثقافات بالازمنة والامكنة والمعيار على الصحة أو الفساد هو المعيار الموضوعى الذى وجهنا إليه القرآن الكريم وعلمنا إياه الرسول الكريم ﷺ .

واستغرق الدعاة الإسلاميون فى دراساتهم الإسلامية ، وركزوا العناية على الجوانب النظرية فى الدعوة مثل صدق نسبة حديث ما الى الرسول او الاستخدام اللغوى السليم لحرف ما فى احدى الايات ... الخ .

وهو وان كان امراً لازما . ولامناص عنه ، إلا ان التركيز عليه جعلهم ينسون نقطة هامة جداً ، تلك هى ان دعوتهم انما أريد بها ان تقوم للناس وسيطالب الناس بالايمان بها . فهناك الناس الذين سنقدم اليهم . **والدعاة الاسلاميون عادة قلما يلحظون الناس كطرف أخر ، فاعل وله وجود ، وله كيانه ، وضروراته والياته . فهم ينظرون للناس كطرف سالب يتلقى من الموجب او كوعاء فارغ يصب فيه المضمون . كأنه خلق لهذا ، وقد يستشهدون ﴿وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون﴾ .**

وهذا استشهاد خاطىء -- والاستشهاد القرآنى فيما نحن بصدده هو ما تعبر عنه الأية " ﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد﴾ فهل حاول الدعاة المسلمون ان يتقربوا الى الجماهير ويعلموا ماتوسوس به نفوسهم ..؟ هل يعلمون أن أول ما يهدف اليه مراهق أو شاب هو أن يشبع غريزته الجنسية التى تعوى بين جنبيه كوحش جائع ؟.. هل يعلمون ان أهم ما يفكر فيه الاب هو اطعام ابنائه وكسوتهم ؟.. هل يعلمون ان أمال المرضى هى الصحة وأن أمال

المسجونين هى الحرية ؟ ان الله تعالى يعلم هذا وهو أقرب اليهم من حبل الوريد وقد وضع فى الاسلام وسائل وطرق لتحقيق أمالهم وحل مشاكلهم . ولكن الدعاة الاسلاميين غفلوا عن هذا - **وتجاهلوا الصلة الوثيقة ما بين الاسلام والناس . ولم ينظروا الى الاسلام من منطلق الناس او فى مرآة المشاكل والاحتياجات والمشاعر والالام - كأن الاسلام تجريد مُنبت عن الناس او الخياة** واتجاهات وطرق دراستهم للاسلام تنم عن هذا فهم فى القرآن مثلاً لايتحدثون عن **الحكمة** فى الايات قدر ما يدرسون «اسباب **النزول** ». كما لو أن القرآن مجموعة «حواديت» نزلت الايات بسببها . وانتهى الأمر . وعبثا يقولون ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» لانه مادام هناك سبب معين ، فقد قضى الامر ، ولن يكون لهذه الاشارة من معنى الا تشويه عموم اللفظ ، وهذا ايضا ما يفعلونه فى اعتبار **العلة** فى القياس وليس الحكمة ، لان العلة مغلقة أو بتعبرهم «منضبطه» ولكن الحكمة مفتوحة ..



نقطة التحول الكبرى هى ان الاسلام يريد الانسان - ولكن الدعوات الاسلامية تريد الاسلام وتعمل للاسلام مستقلاً عن الانسان . فى حين ان القرآن لا يفتا يردد ان رسالة الاسلام هى اخراج الناس من الظلمات الى النور ، ورفع الاصر والاغلال التى كانت عليهم .

نتيجة للأسباب السابقة .. أعنى : ان الاسلام كوراثه لم يضرم فى النفوس جذوة النظر والاستكشاف والتأمل ، وأصبح نوعاًمن تحصيل حاصل . وكانت هذه الحقيقة فى أصل التسجيل السلفى للاسلام وابرازه كتراث ..

واقتصار الدعاة الاسلاميين على الثقافة الاسلامية السلفية التى دعمت المعنى التراثى والاطار السلفى وعدم احتفالهم بالثقافات الاخرى التى كان يمكن ان تستكمل القصور فى الفهم ، والحكم .

واغفال الدعاة الاسلاميين لفكرة الانسان . وان الاسلام انما انزل للانسان ، وان خدمة الاسلام انما تكون عبر الاتساق ، وليس بتجاوز الانسان ، لان تجاوز الانسان لا يعنى الا ان يكون الاسلام دراسة اكاديمية مجردة - متحجرة . فالانسان هو العنصر الحى وهو الذى يمثل الحياة ، والوجود العملى ...

لهذه الاسباب ....

لم تستطع الدعوة الاسلامية ان تقدم نظرية اسلامية وكانت اقصى جهودها في محاولة تنفية العقيدة من الغشاوات .

ولابد للوصول الى النظرية الاسلامية التخلص من وجوه القصور السابقة أى ...

● تجاوز السلفية ليمكن الوصول الي القرآن . إذ ان السلفية فرضت نفسها وصية على القرآن او عقبة فى الطريق الى القرآن . ولا يمكن الوصول الى القرآن الا بتجاوز السلفية .

● الفهم الشامل والعميق للقرآن . وطبيعة الخطاب القرآني ومردود ذلك . ورفض انتزاع آية ، او جزء من آية من السياق والحكم بما قد توحي اليه . اذ لا يمكن فهمها حقا الا فى ضوء ما سبقها وما لحقها ، ثم متابعة ايراد القرآن لمثل معنى هذه الاية في مواضع اخرى . اذ قد يكون لها حكم آخر بحيث يكون هناك بدائل وسعة ، والتوصل الى «روح القران» ومفاتيح هذه الروح من القيم العليا التى يستهدفها القرآن كالعدل والحرية والمساواة والسماحة .. والمعرفة وكرامة الانسان .

● مراجعة السنة فى ضوء القرآن الكريم وقِيمه العليا ووضع معايير صارمة للحيلولة دون تسرب الوضع او تغير المدلول نتيجة للروايه بالمعنى الخ ...

● إحكام الثقافات والمعارف المختلفة التى تكشف عن «السنن» التى وضعها الله تعالى لصلاح النفس ، وصلاح المجتمع ، بما فى ذلك ما تقدمه الحضارة الاوربية من دروس ثمينة . والمفروض ان نحرص على المعرفة اينما كانت ، وان نعمل بتوجيه القرآن ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا .. اعدلوا هو اقرب للتقوى﴾ .

ويجب ان يكون «الانسان» هو منطلق هذه الثقافات والدراسات ومحورها لانه هو المادة الحية ، ولانه هو الذى نزل الاسلام له .

وهناك عامل اخر خارجي – يفترض التحرر منه . ذلك هو ملاحظة المستويات المتدنية ، او الخوف من الحفاظ المتأصل ، او مقاومة قوى مضادة ، او حتى الحرص على كثرة العدد أو عدم الدخول فى معارك.ان هذه العوامل اذا أخذت فى الاعتبار عند وضع النظرية ، فستؤدى الى الهبوط بها ، او تمييعها ، او التنازل عن اجزاء ثمينة من مكوناتها . لهذا فيفترض ان لا تستهدف النظرية عند وضعها اكتساب الجموع ،

او الوصول الى الحكم . فهذا وذاك يمكن ان يكونا «سم» النظرية . ان المهم هو السلامة الموضوعية والايمان بها وحول هذا وذاك يجب ان يدور محور العمل.

وكل عارف بالدعوات الاسلامية القائمة ينتهى بسهولة الى ان هذه الاشتراطات لم تتوفر فى أى منها .. فكلها بدأت من «المقرر» السلفى ، وليس من الفهم القرآنى . وعلى ان بعض قادتها أحكم الثقافة الاوروبية الا ان من المشكوك فيه أنه استفاد منها فى تكوين دعوته ، واصطدمت معظمها بالمستوى المتدنى والتقليدى لفهم الناس ، وغلبة الموروثات . وهو الأمر الذى اعترف به اكثر قادة الدعوات الاسلامية إهتماماً بتجديد الفكر الاسلامى . وهو الدكتور حسن الترابى فيما سبق ان قد مناه . ونعلم ان الجبهة الاسلامية فى السودان نسير فى محاولاتها التجديدية على الشوك . وتتلفت يمنه ويسرة قبل ان تتحرك خطوه صغيرة . وتجابه كل يوم باتهام . وقد توضع قضيتها بين ايدى اكثر القضاه تزمنا [كما حدث بالفعل[1]] وكان الامام الشهيد حسن البنا فى منهجه التربوى وملاحظته للاعتبارات الماثلة وردود الفعل يضطر لان يأخذ الناس على قدر عقولهم ويصانع أئمة المساجد ووعاظ الاوقاف .. الخ .. وقد خلص المودودى الذى اعتزل فى مكتبه من هذه المؤثرات البيئية ولكن منهجة السلفى لم يصل به الا الى «فكرة الحاكمية الالهية» .

ان هذه الاعتبارات والاشتراطات كلها هى ماتضعه دعوة العمل الاسلامى نصب عينيها وهى تأمل ان تنجح فى تقديم نظريتها الاسلامية ودعوتها .

المنطلق

تأخذ دعوة العمل الاسلامى نقطة انطلاقها من واقعة هامة اثبتها القرآن الكريم فى اكثر من صورة وفى اكثر من آية . تلك هى استخلاف الله تعالى آدم على الارض وظروف وملابسات وطبيعة هذا الاستخلاف ، وما يستتبعه من نتائج .

عرضت سورة البقرة لهذه الواقعة :

● ﴿واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال انى اعلم مالاتعلمون (٣٠)

(١) نحن نشير الى واقعة معينة تعرضت لها الجبهة عندما قدم الشيخ عبدالبديع صقر رحمة الله الى الشيخ عبدالعزيز بن باز بالسعوديه شكوى يتهم فيها الجبهه بمجاوزة الحدود فى بعض الاجتهادات .

● وعلم أدم الاسماء كلها ، ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (٣١).

● قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم (٣٢)

● قال ياآدم انبئهم بأسمائهم ، فلما انبأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السموات والأرض واعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون (٣٣)

● واذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين .» (٣٤)

وفى سورة الاعراف ، عرض القرآن نقطة سجود الملائكة لأدم .

● ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١)

● قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين (١٢)

● قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصغرين (١٣)

● قال أنظرنى إلى يوم يبعثون (١٤)

● قال إنك من المنظرين (١٥)

● قال فبما أغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم (١٦)

● ثم لاتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شكرين (١٧)

● قال أخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملان جهنم منكم أجمعين (١٨)

وفى سورة الاسراء جاء

● وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً(٦١)

● قال أرئتيك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيمة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً(٦٢)

● قال أذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزآء موفوراً(٦٣)

● و تفزز من أستطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأمو ل والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً(٦٤)

● إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً(٦٥)

وفى سورة الكهف

● واذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو وبئس للظلمين بدلاً (٥٠) .

وفى سورة طه جاء

● ولقد عهدنا إلى إدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما (١١٥)

● واذ قلنا للملائكة أسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس أبى (١١٦)

★ ★ ★

هذه الأيات فى منتهى الأهمية والخطورة ، ليس فحسب لانها توضح تصوير القرآن لنشأه الحياة ومكان الانسان فيها . ولكن ايضا لأن هذا التصوير يختلف عن التصوير اليهودى المسيحى الذى نراه فى العهد القديم والاناجيل فى نقاط هامة تبرز تميز الاسلام مثل استخلاف أدم[1] ، وسجود الملائكة لادم . ورفض ابليس ذلك ، او حتى وجوده ، فقد استغنى عنه بالحية . كما ان الاشارة الى تعليم أدم الاسماء جاءت فجه ، وهى كبقية نصوص التوراه تحصره فى «البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية» .

ولا يتسع المجال لاجراء مقارنة ، لان هذه المقارنة ستحيل موضوعنا الى بحث اكاديمى عن مقارنة الاديان . وسيأتى هذا على حساب ابراز دعوة العمل الاسلامى .

---

(١) تضمنت كتب التفسير العديد من النقول والاقوال التى لا أصل لها عن قضية الاستخلاف وهى أقرب الى الخرافة منها الى الحقيقة . فجاء فى بعضها ان الاستخلاف انما جاء بعد الملائكة ، لان الملائكة عاشوا على الأرض قبل آدم . وجاء فى بعضها ان المقصود هو استخلاف جيل لجيل بمعنى «خلائف» وقيل ان هناك قراءة «خليقة» بالقاف وليس بالفاء . وكلها لاتستند على أصل وأقربها الى المعنى . وهو «خلائف» الارض مما لايكون للسياق معه معنى ومن هنا فقد ضربنا صفحاً عنها وأخذنا بما تدل عليه الالفاظ وما يؤدى اليه السياق ، وهذا فيما نرى هو التفسير السليم للقرآن . اما ماعداه فهو أخذ بالرأى او تحكيم للأقاويل المظنونه فى النص المحكم والواضح الذى لا يحتاجها .

المهم ان التصوير القرآني لنشأة الحياة والانسان الذى نجده على أتمه فى سورة البقرة ، ونجد اشارات عديدة اليه فى السور الأخرى ، يتضمن .

أ – ان الله تعالى قرر ان يستخلف آدم وذريته على الارض ، رغم ما أشارت اليه الملائكة من افساد وسفك الدماء ..

ب – ان الله تعالى «علم ادم الاسماء كلها» وهو تعبير يقصد به مفاتيح المعرفة وان هذه الصفة هى التى تبرز تميز أدم على الملائكة .

ح – ان الله تعالى بعد ان زود أدم بهذه المعرفة أمر الملائكة بالسجود له . فسجدت الملائكة كلهم الا ابليس الذى تصور انه افضل من ادم لانه خلق من نار وأدم خلق من طين .

د – ان الله تعالى غضب على ابليس وطرده من السماء . وفى مقابل هذا جعل ابليس مهمته هى افساد بنى ادم وقد أنظَرَه (اى مد له الأُجل) حتى يوم القيامة وسمح له باستخدام كل قوى الاغراء ، وان يَعِدَهم مختلف الوعود .

ه – كان اولى صور ذلك اغراء أدم ، الامر الذى ادى الى نزوله الارض حيث واصل ابليس اغواءه . وأصبح استخلاف ادم على الأرض يأخذ صورة اختيار مابين قوى المعرفة التى زود الله بها الانسان والرسالات السماوية التى انزلها الله لتعزيز عمل هذه المعرفة ، وحل ما استغلق منها .. وبين غواية ابليس وما يعرضه من فتن وشهوات واغراءات عادة ما تدور احابيله فيها حول المال والنساء والسلطان والذات او الانانية!

ويقف الانسان ، الهداية على يمينه والغواية على شماله . وعليه ان يختار بين هذين النجدين .

وهذا التصوير مليىء بالايحاءات والدلالات والفعالية والديناميكية . وهو لم يرد مرة او مرتين ولكنه جاء مراراً وتكراراً . وذكر فى معظم السور وهو ما يؤكد انه يمثل التصوير القرآني للحياة . ودور الانسان فى الوجود .

واستخلصت دعوه العمل الاسلامى من هذا التصوير الركائز الاربعة التالية . وجعلتها دعائم دعوتها .

١ – الركيزة الاولى : كرامة الانسان .

٢ – الركيزة الثانية : قداسة المعرفة .

٣ – الركيزة الثالثة : حرية الاختيار بين الخير والشر .

٤ – الركيزة الرابعة : ان العمل هو الذى يحكم على هذا الاختيار ويصدقه . فهو الفيصل فى النهاية . وهو الذى يحدد مصير الانسان فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

ومن اجل هذا ولانه هو نتيجة الاختيار وثمرة الاستخلاف ، فان دعوة العمل الاسلامى حملت اسمه وأصبحت «دعوة العمل الاسلامى» .

يلف هذه الركائز جميعاً ويحيط بها العدل المشتق من «الحق» الذى قامت به السموات والارض .

يتضح من ذلك اننا نشتق دعوتنا من صميم التصوير القرآنى . واننا لم نستجد تنظيراً – او نحاول ان نلجا الى انتقاء مبادى معينة ومحاولة التلفيق بينها على غير أساس او على اسباب الهوى ، كما قد يظن البعض . اننا عمدنا الى أقدس مقدسات الاسلام . وهو القرآن الكريم ، فنقلنا منه ايات بينات واضحة ومكررة فى أكثر من سورة ثم أحكمنا من هذه الايات نظريتنا فاذا كان لنا من فضل فهو ترجمة المعانى التى تضمنتها هذه الايات دون تعسف من اى نوع ، او تطويع لا يسمح به المعنى . وانما استطعنا ذلك لاننا لم ننظر فى هذه الآيات بعيون الاسلاف او نقرأها فى التفاسير او نسمح للاسرائليات والنقول ان تفتات على المعنى ، لقد تركنا المعنى القرآنى يقودنا فقادنا الى نظريتنا .

كما يجب الاشارة أيضا الى ان الركائز التى استخلصناها مترابطة بعضها ببعض ترابط التكامل فالعلم والمعرفة تعزز الكرامة الانسانية .. والحرية شرط لازم لها لا يتصور وجودها بدونها . وان يكون العمل هو المحك والثمرة والمعيار هو «القفلة» الطبيعية لمثل هذه الحياة ولهذا جاءت كل ركائز النظرية متوالية ومتتابعة فى اربع أيات من سورة البقرة كل أية تسلم للأخرى ، وترمز الى احدى الركائز . فلا يتصور ان يكون فيها تنافر او تضاد – فهذه الأيات كالبنيان يشد بعضها بعضا .

الفصل الثانى

الركيزة الاولى : كرامة الانسان

فى دين يقوم على الوحدانية الخالصة ويتمحور حول الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لايلد ولايولد ولم يكن له كفوًا أحد ، يكون أعظم تكريم يضفيه الله تعالى على خلق من خلقه ان يجعله «خليفه» له على الارض .

لم يكن هناك شىء اعظم ، او أعلى من هذا ، ذلك ان الاسلام لا يمكن ان يربط بين الانسان والله تعالى برابطة بنوة ، ولو على سبيل الرمز ، فهذا ما لايسمح به الاسلام وما يخالف فلسفة فكرته عن الله تعالى .

ولم يكن الاسلام ليقول – كما قال العهد القديم «ان الله تعالى خلق الانسان على صورته[1] ،على صورة الله خلقه» (التكوين ٢٨) او «وقال الرب الاله هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً بالخير والشر» (تكوين ٢٣) فهذا لا يسمح به توحيد الاسلام وجوهر فكرته عن الله تعالى ، وما قد يدفع البعض لان يتصور تجسيماً لله – كالانسان .

ولكن الاسلام مع هذا وضع الانسان موضعاً يمثل أقصى درجة من درجات التكريم هو أن يكون خليفة .

وكلمة «خليفة» بالذات تستحق التأمل ، فهى اعمق وأقوى فى الدلالاله من كلمة «نائب» او «وكيل» وقد تعطى انطباعا ان الله تعالى اسلم أمر الارض للانسان وترك له حرية العمل على ان يحاسبة على النتائج .. وهو يتلاءم مع التصور الاسلامى للكون ،

---

(١) الحديث الذى يسبونه الى النبى ﷺ عن ان الله تعالى خلق أدم على صورته ورمزوا له بالصحه لم يقصد به ان الله تعالي خلق ادم على صورته تعالى . ولكن على صورة آدم التى كان عليها (وكان بالحديث ان طول ادم عندما خلقه الله تعالى ستون ذراعاً) ونقطع ان الحديث من الاسرائليات . وان المقصود به هو المعنى الذى فى التوراة ، ولكن جاءت اضافة الستين ذراعاً فأوحدت اشكالاً . وقد روى الحديث ابو هريرة عن همام بن منبه . وقد استشكل ابن حجر «قال ابن حجر يشكل علىّ هذا ما يوجد الان من آثار الامم السابقة كديار تمود ، فان مساكنهم تدل علىّ ان قاماتهم لم نكن معرطه فى الطول . ولم يظهر لى ما يزيل الاشكال» (فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى ج ٣ ص ٤٤٧) ومايزيل الاشكال هو همام بن منبه – الاسرائيلى الأصل . وقد جاء الحديث فى مشكاة المصابيح ولم يعلق – او يستشكل عليه – محققه الشيخ ناصر الالبانى .

والوجود، والسنن التى وضعها الله لحكم هذا الكون ، والثواب والعقاب فى الأخرة .

ماذا يمكن للاسلام ان يفعل فى تقديره كرامة الانسان اكثر من هذا؟ .. .

لقد ارتأى كثير من المفكرين ان من أسباب تفضيل الاوروبيين للمسيحية انها كرّمت الانسان ، وجعلته «ابنا لله» ومن الواضح بالطبع ان هذا فرض لاهوتى يعسر تفهمه فى حين ان الفرض الاسلامى أقرب الى العقلانية فى التصوير ، وفى تحقيق الكرامة . فلا يُستخلف إلا من هو محل الثقة والتكريم والاعزاز .

وهناك تفرقة اخرى بين الاسلام واليهودية والمسيحية فى هذا الصدد فالاسلام يتحدث عن استخلاف ادم على الارض ، وعن تعليمه الاسماء كلها وعن امر الله تعالى للملائكة السجود له .. كل هذا قبل ان يزله الشيطان . ويكون هذا هو السبب المباشر «لنزول» آدم الارض وليس السبب الأصيل الذى كان فى علم الله عندما قرر استخلافه بعد توبة الله عليه . ولكن الرواية اليهودية/ المسيحية تعرض «نزول» آدم باعتباره «السقوط» نتيجة لاستسلامه للاغراء او بالتعبير المسيحى «الخطيئة الاصلية» الرواية الاسلامية ترى فى الاستخلاف تعزيزاً وتكريما بينما المسيحية ترى فى «السقوط» عقوبة أو تجريما ...

★ ★ ★

ويشير القرآن الى تكريم «بنى آدم» ﴿ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ الاسراء ٧٠ ..

ويعطى القرآن هذا التكريم مدلولاً عمليا هو ان الله تعالى سخر كل ما فى هذا الكون من شمس وقمر ونجوم وسماء وارض .. الخ .للانسان .

﴿وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبيين وسخر لكم الليل والنهار﴾ (ابراهيم ٣٢ –٣٣) .

﴿**وسخر لكم مافى** السموات ومافى الأرض **جميعاً** منه ، ان فى ذلك لأيات لقوم يتفكرون﴾ (الجاثية ١٣) .

﴿الم تروا ان الله **سخر لكم** مافى السموات وما فى الارض . **وأسبغ عليكم نعمهُ ظاهرة وباطنة** ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ (لقمان ٢٠).

﴿والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين

تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالاتعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لاية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم اليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لأيت لقوم يعقلون وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لأية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً ونستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (النحل ٥ – ١٤) .

فانظر الى مدلول هذه الايات ، و معنى «سخر لكم» وأحص كم «لكم» جاءت بايات سورة النحل . وكيف شملت هذه الايات تعبيرات – جمال – زينه – حلية – مما يدل على شمول تكريم الله تعالي للانسان وانه لا يسد حاجاته المادية من اكل وشرب وركوب وسير . ولكن ايضاً الزينة والحلية والجمال ..

وتحدث القرآن عن المؤمنين حديثاً يبين مدى تكريم الله تعالى لهم وفضله عليهم ﴿هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور . وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام . واعد لهم اجراً كريماً﴾ (الاحزاب ٤٣ – ٤٤) .

﴿لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ، خالدين فيها ابداً رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ (المائدة ١١٩) .

﴿والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها ابداً ذلك الفوز العظيم﴾ (التوبة ١٠٠) .

﴿ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، اولئك حزب الله ، الا ان حزب الله هم المصلحون﴾ (المجادلة ٢٢) .

﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ابداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه﴾ (البينة ٨) .

وأشارت الاحاديث الى اشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ، وحديث قدسى «من تقرب منى شبرا . تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا . ومن اتانى يمشى اتيته هروله . ومن لقينى بقراب الارض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة «رواه مسلم» .

وكائنا ماكان المجاز فى هذه التعبيرات وتعبير «يصلى عليكم» و«رضوا عنه» فانها تنم عن تقدير رائع للانسان . بل ان استخدامها مع ضرورات المجاز يترك هامشاً من المعنى الحرفى مبالغة فى ابراز معنى الاكرام . والحق ان هذا احد الادلة على كرم الله تعالى الذى لا يحد ورحمته التى تفوق المدارك - فهو الخالق المنعم يفيض على الانسان دون حساب ودون مقابل لان الحساب والمقابل ، انما هى معان انسانية بحته .

مضمون هذه الايات

وماعبر عنه القرآن الكريم من استخلاف لأدم وتكريم لبنيه يستتبع ان يكون له مضامين عملية والا لكان ذلك لغواً تعالى القرآن عن ذلك .

أ - الكرامة حق إلهى

اول هذه المضامين ان الذى قرر هذه الكرامة واضفاها على بنى آدم هو الله تعالى وما يقرره الله ويمنحه لا يمكن لاحد ان ينزعه فالكرامة حق الهى لا يمكن لاى حاكم ان يتنكر لها .. وهذه الكرامة أشبه بحياة ادبية لا يجوز لاحد المساس بها الا عندما يرتكب صاحبها أثاما محددة ، وكأنها فى هذا تشبه الحياة المادية التى وهبها الله ايضا للانسان ، ولايجوز المساس بها الا فى الحالات التى حددها الله تعالى ، فكأن الله تعالى حمى الحياة الادبية للانسان فى شكل الكرامة الانسانية وحمى الحياة المادية له فى شكل تحريم القتل . ولا يجوز المساس بهذه او تلك الا عندما يرتكب فرد ما من الجرائم ما يبرر ذلك .

ب - الكرامة لبنى أدم جميعا دون تمييز :

من الواضح بالطبع ان الكرامة الانسانية التى اضفاها الله تعالى على الانسان تشمل جميع بنى أدم - رجالاً ونساءً دون نظر الى لون او جنس او بلد .. او ماض او مستقبل .. ان هذه الكرامة حق الهى لا يمكن لاى نظام او فرد ان يحرم الانسان منه او هى بالتعبير الشائع «حق طبيعى» وهو تعبير ان كان شائعاً الا انه أقل فى الدلاله من حق الهى .

ومن هنا نعرف أن قصر الكرامة على البيض دون السود ، او الرجال دون النساء ، او الاوروبيين دون الاسيويين الخ .. هذه التفرقات .. لا أصل لها وتناقض الشمول الذى تضمنته الكرامة ، كما اراده الله تعالى .

ح - كرامة الانسان : جسداً

ويفترض ان تغطى هذه الكرامة كل ما يتعلق بالانسان جسداً ونفساً . فالجسد الانسانى له كرامة اذا أهدرت أهدرت كرامة الانسان . لان الجسد ما هو الا الهيكل الجميل المحكم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسواه ، فعدله ، وجعله فى احسن تقويم وأناط به العمل .

ويدخل فى كرامة الجسد ان لايهان بضرب او تعذيب او حبس يقيد الرجلين عن الانطلاق الذى خلقهما الله له .

والجسد الانسانى ليس كجسد الحيوان . ان له حقوقاً ومقتضيات . وقد يمكن لكل «قطه» ان تنام فى صندوق قمامه . ثم تقوم تتمطى وتلحس شعرها . فاذا هو يلمع ويبرق . وهذا لا يصلح للانسان . فكرامة جسد الانسان تتطلب ان يغتسل . وآداب الاسلام التى توجب ذلك بدءاً من الوضوء وما يتعلق بالطهارة ، حتى التخلص من الشعر الزائد فى مواضع من الجسم - هو مما لايوجد فى دين آخر بل فى اى تهذيب أخر . ويروع الانسان المسلم الذى يسافر الى اوروبا وامريكا اهمال هؤلاء الناس لصور من النظافة والتجميل قررها الاسلام منذ خمسة عشر قرنا عندما لم تكن الامكانيات التى وضعها العهد فى ايديهم متاحه .

ولابد للجسد من ان يكتسى بلباس وقد ينظر الاسلام الى الزى كما تنظر اليه بيوت الازياء ريشاً ، وجمالاً ، وحلية وهى الفاظ قرآنية اشار اليها القرآن عند اشارته الى الزى وعندما رأى الرسول أعرابياً فى أسمال احمر وجهه على ماذكرنا فى موضع سابق - لان هذا المنظر مخجل يدفع بجمرة الخجل إلى الوجه .

ولا يحتفظ الجسد الانسانى بلياقته او حتى بكيانه - مالم ييسر له الغذاء المنتظم - فاذا لم ييسر له جاع . واذا جاع لم تعد له كرامة وقد خلق الله هذه الارض وقدر فيها أقواتها بما يكفى اهلها وأوجب نظم التكافل الاقتصادى وندد بالذين يكنزون الذهب والفضة وجعل وجود المترفين مبرراً لتدمير المجتمعات كل هذا حرصاً منه لتوفيز الأمن الغذائى لانه بدونه لاتتوفر الكرامة الانسانية واى دولة تدعى الاسلام ثم لاتطبق هذا فانها لاتفهم الاسلام .

ولما وقع الاسلام بين الضرورات التى تتطلب فى بعض الحالات المساس بالجسم الانسانى عندما يسىء فرد ما التصرف ، فيسرق أو يزنى الخ .. وبين حرصه على كرامة الجسم الانسانى اضطر للأخذ بالجلد والقطع وهما معا يهدر ان كرامة الجسد الانسانى .

ولكنه انما اضطر اليهما لان البدائل عنهما اسوأ منهما . فلا جدال فى ان فى الجلد اهدار لكرامة الجسم الانسانى ولكن هذه المهانه لاتطول لاكثر من ساعة . فى حين ان السجن يتضمن صوراً متعدده من اهدار كرامة الجسم لسنوات طوال .

ومع هذا ، فان الاسلام رغم اخذه بالعقوبات البدنية احتفظ بمنطقة من الجسم لا يجوز المساس بها تلك هى الوجه . وهو اسمى وأجمل مافى الجسم الانسانى .

وقد حرمت الاحاديث تحريماً باتاً لطم الوجه وعندما لطم احد ابناء مقرن (وهم ثمانية من رجالات الاسلام) جاريه له ، امره الرسول بعتقها ، وعندما اعتذر عن ذلك . وتعلل بشدة حاجتهم اليها ، قال الرسول «فلتخدمهم حتى يستغنوا عنها ، فاذا استغنوا عنها فليعتقوها» .

وليس معنى تحريم الاحاديث لطم الوجه ان الاسلام لم يحرم الضرب مطلقاً ، ان المبدا هو التحريم والاستثناء يكون لأسباب وفى حدود وبضمانات حددها الاسلام لان الضرب هو اكثر الوسائل بدائية وشيوعا لاهدار كرامة الانسان . ولما كان عادة يمارس بحكم الولاية فقد حرمه الاسلام من المنبع . فاكثر هذه المنابع هو مايتعلق بسلطة الحاكم على المحكومين . وقد وضح عمر بن الخطاب امام الناس بصريح العبارة «اننا لانرسل عمالنا ليضربوا أبشاركم ولكن ليعلموكم دينكم ..» واعلن انه سيقتص من كل وال يضرب احد الرعية وعندما قال له عمرو بن العاص «ياأمير المؤمنين أرأيت إن ادب الامير رجلاً من رعيته أتقصه منه ؟» فقال عمر«ومالى لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ».. وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لعمرو بن العاص وابنه فى القصة المشهورة .

فاذا قال أحد ليس هذا هو مانعرفه عن الاسلام ، او أن الامام مالك اجاز الضرب للاقرار الخ .. فنحن نقول .. هذا هو اسلام القرآن واسلام محمد ... فخذ أو دع .

وبعد ولاية الحاكم على الرعية تأتي ولاية السيد على خدمه . ومرة أخرى نرى الرسول يجعل العتق كفارة هذا الضرب فى الحديث المشهور عن ابى مسعود البدرى عندما كان يضرب غلامه بالسوط فقال له الرسول «اعلم ابا مسعود ان الله اقدر عليك ، منه عليك على هذا الغلام» فقلت هو حر يارسول الله فقال اما لو لم تفعل للفحتك النار او لمستك النار » والاحاديث مترادفه فى هذا المعنى . ومترادفه فى عتق الذين ضُربوا من الغلمان .

ولم يكن الضرب وقتئذ بتلك الاسواط التى تشق الجلد . لا فى الحدود او فى غيرها . وانما كانت بأسواط بدائيه . واشار حديث نبوى الى ضرب «بالسواك» !

قد يثار هنا تأديب الزوجة والولد .. والرد ان الأصل فى التأديب ان لا يكون بالضرب . وان الضرب انما يمثل الاستثناء . وفى هذه الحدود العائلية الخاصة ، والأفضل والأمثل ان نسلك مسلك الرسول فلم يروى عن الرسول أنه ضرب خادماً ابداً ومن باب اولى احدى زوجاته – وكن فى بعض الحالات يغاضبنه والنهى عن الضرب هو اكثر من السماح به ، فلا يحتج به وقد قال رسول الله «لاتضربوا اماء الله» فجاء عمر الى رسول الله ﷺ فقال ذئرن[1] النساء على ازواجهن ، فرخص فى ضربهم . فأطاف بالرسول نساء كثير يشكون ازواجهن فقال رسول الله ﷺ لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون ازواجهن . ليس اولئك بخياركم» فقضية الضرب . ليست امراً مسلماً به ، ولا هو مطلق .

ولا يكون من قبيل الاستطراد – مادمنا بصدد كرامة الجسم الانسانى الاشارة الى الاحاديث المتكررة التى توجب احسان معاملة الارقاء والخدم وان يأكلوا ويلبسوا مما يأكل ويلبس سادتهم[2] .

هـ – كرامة الانسان نفساً

وكرامة الانسان كنفس لا تقل عن كرامته كجسد . بل لعلها أهم . والواقع ان القرآن الكريم يتكلم عن الانسان باعتباره نفساً ليشمل الجانبيين .

وكرامة الانسان – كنفس – تشمل كل الجوانب الادبية والنفسية والفكرية . فالانسان يملك مالايملكه مخلوق آخر إنه يملك ارادة وفكراً واحترامهما هو مايعنى كرامة الانسان كنفس .

---

(١) اى اجترأن وغلبن . والحديث رواه ابو دواود وابن ماجه والدارمى (مشكاه المصابيح ، ص ٩٧٣ حديث ٣٢٦١) .

(٢) بل الحرص على «الكرامة» يمتد ليشمل الحيوان ايضا فتحريم لطم الوجه فى الانسان يقابله تحريم الوسم فى الوجه للحيوان . وتحريم الارهاق واحد بالنسبة للانسان والحيوان . وتحريم التعذيب يشمل الانسان بحيث لا يجوز قصاصاً ، ويضم الحيوان حتى الكلب العقور ، لان هذه المبادى وضعها الله تعالى رب هذا الكون بأسره من انسان وحيوان . فهى اوسع واشمل من الاطار الانسانى . كما انها اكثر قداسة .

فيفترض اولاً ان يعامل الانسان معاملة «ادبية» مهذبة كريمة ، فلا يخاطب باسمه المجرد بل بلقبه او كنيته ، ومن باب اولى ان لا يشتم او ينبذ بالالقاب . وعندما قال عمرو بن العاص لاحد الناس «يامنافق» رفع الامر الى عمربن الخطاب الذى اوجب عليه حداً ..، وان لا يُرَّوع . ولو هزلاً ، وان لا يساء الظن به او تستقصى عوراته وعثراته وان لا يتجسس عليه او يوشى به او يكون موضوعاً لنميمه أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً ، فكرهتموه .

والنفس الانسانية ارادة وفكر وكرامتها تكون بتحقيق الحرية لهما . والبعد عن كل صور الاكراه والتقييد والضغوط - ويدخل فى هذا حرية الفكر والاعتقاد . فكل نفس- من ذكر وانثي - يجب ان تحترم ارادتها . مالم توقع شراً ملموساً بأحد او تنتهك ايجابيا ارادة آخر ويجب الابتعاد عن التحكم فى ارادات الناس وأفكارهم . وسيأتى الحديث عن هذا فى الحديث عن الركيزة الثالثة من ركائز دعوة العمل الاسلامى وهى الحرية . لان ركائز الدعوة متكاملة ، وهذا الجانب يتصل بالحرية بسبب وثيق .

وتنسحب كرامة الانسان جسداً ونفساً على بيته فيكون فى حماية الستار فلا يجوز اقتحامه او الافتيات على خصوصيته . ومادام باب البيت مغلقاً . فلا يجوز لسلطة ان تقتحمه حتى وان ارتكبت وراءه المنكرات ، مالم يدل على ذلك اثر يجاوز البيت الى الخارج كارتفاع صوت (صراخ ، شتائم ، الخ ...) او نفاذ رائحة ،.. والبيت فى الاسلام هو قلعة المسلم اكثر مما هو فى اى بلد آخر لانه فى حماية الستار ، الذى هو أقوى وأمنع من الدستور أو القانون ..



عندما قال الفليسوف كانط «ان الانسان غاية فى ذاته» اعتبر ذلك افضل صياغة تعبر بها الحضارة الاوربية عن «مبدئيه» الانسان ولكن القرآن الكريم كان قد سبق الى هذا عندما قال ..﴿.. من قتل نفساً بغير نفس ، او فساداً فى الأرض فكأنما قتل الانسان جميعاً .. ومن احياها فكأنما احى الناس جميعاً﴾ فان هذه الآيات تتضمن تقديساً لحياة الفرد على اساس مبدئى وعام .

ولقد كان يفترض - والاستخلاف يتضمن - بداهة الكرامة . والآيات القرآنية عديدة عنها أن يكون هذا المبدأ من المبادىء الشائعة فى الفكر الاسلامى .

ولكن هذا المبدأ لم يجذب انتباه المفكرين الاسلاميين بالدرجة الواجبة واهدر معناه

خلال التفاسير المقحمة على الايات . بحيث لم يرتبوا على الاستخلاف مايستتبعه ..، بل اساء معظمهم لهم .

وقد يصور ذلك ماكتبه العلامة المودودى عندما مسخ معنى الاستخلاف، ليتفق مع فكرته المحورية عن «عبودية الانسان» فقال .

«.... فمنزلة الانسان فى هذا الكون من الوجهة الاسلامية انه خليفة لله . اى نائب، عنه فى مملكته لا يتصرف فيها الا طبقاً لحق الاستخلاف والتصرف الذى وهبه الله اياه ..

ثم يمضى فيقول

.. او لاترى انك اذا وكلت الى احد أمر ضيعتك وجعلته نائبا عنك فيها تكون واثقاً من نفسك بأربعة امور ..اولاً انك انت صاحب الضيعه ومالكها الحقيقى لا هذا الذى وكلت اليه أمرها ثانيا انه يجب على هذا الرجل ان يتصرف فى ملكك حسب ما امرته به انت وارشدته اليه . ثالثاً انه لا ينبغى له ان يشق عصا طاعتك ويتعدى الحدود التى أقمت له ولعمله . رابعا ان من واجبه فى هذه الضيعة ان يقضى فيها ماتريد قضاءة انت لا مايريد هو نفسه[1] »

والخطأ فى هذا هو أشرنا اليه عندما عرضنا لاسلوب المودودى فى ضرب الامثال . فالمودودى يقيس الله تعالى على الكائن الانسانى . ويتصور ان الله تعالى يريد ويتصرف كما يتصرف آحاد الناس . تعالى الله عن ذلك . وحتى بالنسبة لآحاد الناس . فان الرئيس الذى لديه الملكة الادارية يحسن أنتخاب خلفائه ، ثم يدع لهم الحرية فى العمل ويحاسبهم فى النهاية . وقد يكون ظلوما غشوماً مثل محمد على باشا ولكنه يكون من الذكاء بحيث يقول لأعضاء مجلس الشوره بعد أن مَّن عليهم بانه هو الذى علمهم وانشأهم « .. حتى اذا كنت آمر احدكم شفاها او تحريراً بقولى له أجر المادة الفلانية بهذه الصورة ، وحصل منه اعتراض علىَّ ونكرنى وافادنى شفاها او تحريراً بان المادة المذكورة مضره ، فهذا يكون منه عين ممنونيتى الزائدة» فهذا الكلام قيل من أكثر من مائة عام ومن حاكم عسكرى . ومع

---

(١) نظام الحياه فى الاسلام – للمودودى – الطبعة الخامسة – الاتحاد الاسلامى العالمى للمنظمات– الطلابيه (٢) انظر كتابنا «العمل الاسلامى لارساء سيادة الشعب والحكم الدستورى» ص ٧٥

هذا فانه يعلم ان التضيق على المستشارين والمندوبين الخ .. يحول دون انطلاق مبادأتهم الخلاقه لتحقيق افضل النتائج .

فما اورده المودودى خطأ فى حق الله تعالى وخطأ بالنسبة لكبار الاداريين . وهو يمثل نفسية عتيقة تتملكها الغيرة وتحوطها الظنون والشكوك ، نفسيه تاجر رقيق او فلاح ضيق الافق .

ومع هذا فان المودودى فى كلامه هذا يمثل الاتجاه الاسلامى السائد . الذى قضى على الكرامة الانسانية . وقضى على الحرية والارادة ، والعزه . ومكَّن الآخرين من السيطرة على المسلمين واستعبادهم و«من يهن يسهل الهوان عليه» .

الفصل الثالث

الركيزة الثانية : قداسة العلم

رأينا فى التصوير القرآنى الذى قدمته سورة البقرة لقصة الحياة الانسانية . السياق الذى أخذته الآيات . فبعد تقرير الله تعالى استخلاف آدم . وبعد دهشة الملائكة لما تتسمته فى بنى ادم من ميل للفساد وسفك الدماء ، يحدث شىء عبرت عنه الآيات :

- وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضها على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين[٣١] .
- قالوا سبحانك لا علم لنا الا ماعلمتنا انك انت العليم الحكيم[٣٢] .
- قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال : الم أقل لكم انى اعلم غيب السموات والارض واعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون[٣٣] .
- واذقلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين[٣٤] .

فالسياق هنا يبرز ان الله تعالى لما علم آدم الأسماء كلها ، ولما عجزت الملائكة ان تجاريه أمر الملائكة ان تسجد لآدم . والربط مابين تعلم الاسماء والسجود هو مايحكمه السياق . فضلاً عن اننا لا نجد ميزة اخرى للانسان على الملائكة او الشياطين . فانه من طين . اكثف من الملائكة المخلوقه من نور ، او الشياطين المخلوقه من نار .. اما نفثة الحياة ، فان الله تعالى نفثها فى كل مخلوقاته الحية . ففيما نرى ان مبرر السجود هو تميز آدم بما علمه الله . **وهذا مايعطى العلم قداسة . لاتعلوها قداسة اخرى . لان السجود عادة لا يكون الا لله تعالى[١] .**

---

(١) من النقط الهامة التى تبرز تميز الاسلام عن المسيحية واليهودية ان العهد القديم يذكر ان الشجرة المحرمة هى شجرة «المعرفة» بينما يذكر القرآن انها شجرة «الخلد» وهذا مايتفق مع ماسبق من ان الله تعالى علم آدم الاسماء كلها فليس هو فى حاجه الى شجرة المعرفة ، ولا فى المساس بها شىء يثير غضب الله تعالى اما «الخلد» فالامر مختلف لان الخلد معناه ان يحيا فلا يموت . وهذا يخالف ماوضعه الله للانسان ، وبقية الكائنات ايضاً من سنة الموت كجزء لا يتجزأ من آليات الحياة . فضلاً عن ان الحرص على الخلد فيه تشبث بالمضمون الذاتى . والاسلام يؤثر دائما المضمون الموضوعى . وانما كانت سقطة الشيطان الكبرى هى انه قال «انا»خير منه ..

وقد يثور تساؤل حول استخلاصنا لكلمة العلم من التعبير القرآنى «وعلم آدم الأسماء كلها» وما قد يذكره بعض المفسرين «او ماذكرته بالفعل التوراة»(١) او مايوحى به المعنى الحرفى ولكن التقصى يثبت لنا ان مااخترناه هو التفسير الحقيقى لما اراده القرآن . فلا معنى لان نقول ان الله تعالى علم آدم اسماء الحيوانات ، والنبات ، والبلاد فقال له «هذا اسد وهذا ثعلب وهذا تفاح ، وهذا عنب الخ .... فضلاً عن ان كلمة «كلها» تفترض ان يعلمه الله تعالى كل الاسماء بما فيها من اسماء صواريخ وطائرات ودبابات . وما سيأتى به المستقبل مما نجهله نحن الأن . ومجرد المعرفة للأسماء لا معنى له . اذا لم يتضمن دلاله هذه المعرفة . فالتعبير في نظريا لا يحتمل الا معنى واحداً هو مفاتيح المعرفة وعناوينها ، باختصار العلم . واستخدام القرآن الكريم للكناية والمجاز امر معروف يتفق مع اسلوب القرآن فى تفضيله لهما على التحديد القاطع لانهما اكثر اثارة للنفس من ناحية ، ولأنهما يحولان دون اغلاق الموضوع واعتباره منتهياً . ان القرآن يريد دائما للعقول ان تسرح فى معانيه ، ويريد لمعانيه ان تكون مجالاً لهذا السرح والفكر لانه لكل الناس ولكل العصور .



ومن ناحية اخرى لايمكن ان يقال اننا نقتطع ثلاث او اربع ايات لنقيم عليها دعوى عريضة ، او صرحاً ممرداً . الامر ليس كذلك لان القرآن الكريم تضمن مئات الايات التى تنم عن قداسة العلم ، وترفعه عاليا ، وتربط بينه وبين الايمان . وهناك العشرات من الاحاديث النبوية التى تفضل العلم على العبادة . وعندما يكون الامر امر مئات من الايات وعشرات من الاحاديث فى معنى واحد فان الامر يخرج عن صفة الالمام الطارىء او الظاهرة العارضة . الى الركيزه الدائمة المقررة . كما لا يمكن ان نهمل دلاله ان تكون اولى آيات القرآن الكريم وتوجيهاته هى اقرأ ..

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق (١) خلق الانسان من علق (٢) اقرا وربك الاكرم(٣) الذى علم بالقلم (٤) علم الانسان مالم يعلم (٥) .(العلق)

ومن الايات التى توضح أهمية العلم وانه طريق الايمان ..

---

(١) «وجبل الرب الا له من الارض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها . وكل مادعا به آدم ذات نفس حيه . فهو اسمها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم ، وطيور السماء وحميع حيوانات البرية» تكوين ١٩ – ٢١ .

● هو الذى انزل عليك الكتاب منه أيات محكمات هن ام الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . ومايعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا ومايذكر الا اولو الألباب (آل عمران ٧).

فاذا عطفنا «والراسخون فى العلم» على الله تعالى فكأننا رفعنا العلماء الى مستوى واحد مع الله تعالى فى هذه الناحية .. ونحن نؤثر الفصل ويكون معنى الآية ان الراسخين فى العلم يقولون أمنا به . الخ ... فالرسوخ فى العلم حمل أصحابه على الايمان به . وهذا أمر طبيعى . لان العلم يبصر الانسان باعجاز الله تعالى ، ومن ثَم يسلم العالم له ...

● شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة ، واولو العلم ، قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم (١٨ آل عمران) .

فانظر كيف جمعت الآية بين الله تعالى والملائكة واولى العلم .. فى امر من خاصة الايمان ...

● ... لكن الراسخون فى العلم منهم . والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك . وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر اولئك سنؤتيهم اجراً عظيماً (١٦٢ النساء) .

● ويرى الذين اوتوا العلم الذى انزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد (٦ سبا) .

● الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف الوانها . ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود . ومن الناس و الدواب والأنعم مختلف ألوانه كذلك **إنما يخشى الله من عباده العلماء (٢٨ فاطر)** .

وهناك ٨٥ آيه جاء فيها كلها فعل «يعلمون» بمعنى ان الذين يعلمون هم الذين يسيغون الايمان ويفقهون الدين ، وان «الذين لايعلمون» لا يستطيعون ذلك . ويسلك بهم عدم علمهم مسالك الضلال أو المقاومة . ولو كانوا «يعلمون» **لأمنوا ولجنبوا** انفسهم الضلال والعذاب .

وقد ذهب الامام ابو حامد الغزالى الى ان كل الآيات التى جاءت فى القرآن بمعنى اخراج

الناس من الظلمات الى النور هى بمعنى اخراجهم من الجهل الى العلم .

وقد يقال ان العلم هنا هو العلم بالدين وليس العلم بالجغرافيا والهندسة الخ .. والرد انه حتى لو كان الأمر كذلك فنحن نقبله ، لأن المسلمين انما اوتوا من جهلهم بدينهم ، ولو علموه حقاً لعلموا أنه يقوم على إعمال الفكر ، وتوظيف الابصار والاقدام للاعتبار بآيات الله ومشاهد خلقه وتراث الاولين الخ .. ولو علموا هذا لتقدموا .. ولأقبلوا على دراسة الجغرافيا والهندسة الخ .. لانها كلها من آيات الله ولهذا فان الاية ٢٨ من سورة فاطر ، جعلت «الكون» سواء فى الثمرات ، او الجبال ، او الناس او الدواب من آيات الله التى تستحق العلم والمعرفة وتؤدى الى الايمان .

وليست الآيات التى سقناها عن العلم هى الايات الوحيدة عن العلم والمعرفة لان هناك آيات بالمئات تشير الى التدبر والتفكير والاعتبار والاتعاظ واستخدام العقل وهى كلها «ادوات» العلم ووسائله .. وكلها تؤدى الى معنى واحد : **إعمال العقل هو سبيل الايمان** .

ومما يتفق مع هذا ايضاً ان الاسلام ، لما كان هو الذى يؤذن بالعقل ، والذى يقدم العقلانية الى الناس جميعاً بالأسلوب الذى يسيغه الناس وليس باسلوب الفلاسفة المتعمق الذى يشق على الناس فهمه – **فانه جعل معجزته «كتابا» يتلى** ، ورفض مطالب العرب من الرسول ان يأتى بمعجزه ، او تكون له جنة . او ينزل ملائكة من السماء .. الخ .. رفض الاسلام هذا كله ورد عليهم ...﴿او لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ...﴾ (٥١ العنكبوت) .

★ ★ ★

- ان واقعة سجود الملائكة لآدم إثر تعلمه الأسماء ...
- والآيات العديدة عن العلم والعقل والتدبر والتفكر ..
- وان أول آية استهل بها القرآن كانت «اقرأ» .
- وجعل المعجزة الاسلامية كتاباً يتلى ..
- والاحاديث العديدة عن تمجيد العلم وفضل العالم على العابد .

كل هذا اليس كافياً لتأكيد قداسة العلم والأهمية القصوى للمعرفة ..؟؟

ماذا كان يمكن ان يفعل الاسلام اكثر من هذا ..؟؟

والمضمون العملى لهذه الآيات والاحاديث عن قداسة العلم والمعرفة ان يكون الالمام بالعلم - كل صنوف العلم ، واجباً على الانسان المسلم .. وواجبا على المجتمع المسلم وواجباً على الحكومة المسلمة .

لقد فهم المسلمون ذلك فى ايامهم الاولى وليس هناك مايشبه ذلك الاقبال على العلوم والمعارف فى القرون الثلاثة الاولى للاسلام التى انجبت عباقرة الفكر فى الفلسفة ، والادب ، والفقه ، والهندسة ، والطب ، او حركة الترجمة أيام المأمون ..

يكفى فحسب ان يوجد فى كتب الحديث باب عن «الرحلة فى طلب العلم» يحدثنا عن الصحابى الذى سافر من المدينة الى القاهرة ليعلم حديثا من صحابى آخر ثم وما أن يعلم به ، حتى يعود لايلوى على شىء ، وان المحدثين والفقهاء كاندا يطوفون بالعلم الاسلامى..

يكفى ان نعلم ان علم العلماء المسلمين كان هو الأساس الذى قامت عليه حركة «الاحياء» فى اوربا فى القرن الخامس عشر ..



قد نفهم ان عوامل التحلل التى أصابت المجتمعات الاسلامية ادت الى شيوع الجهالة والأمية ..

ولكننا لانفهم «سلبية» الدعوات الاسلامية ازاء واجبها المقدس نحو الثقافة والمعرفة .. فالمفروض انها كدعوات وان دعاتها كرواد يعلمون ما لايعلمه عامة الجماهير ..

ان اى دعوة اسلامية لاتضع العلم فى صدارة اهتماماتها واولوياتها ، اولا تقيم منه ركيزه من ركائزها ، اولا تجعل من الحث عليه (تعلم .. تعلم تعلم) شعاراً لها .

مثل هذه الدعوة تكون قد ظلمت نفسها وظلمت جمهورها .. وظلمت الاسلام .

فى مصر مثلاً كانت الهيئة الوحيدة فى الاربعينات التى تستطيع محو أمية الشعب هى «الاخوان المسلمون» لانها هى التى تغلغلت فى اعماق الريف واكتسبت ايمان الفلاح ، وجعلت الشيخ الصعيدى يلبس «الشورت» ويلعب «سويدى» ولو انها نفضت يديها من كل شىء ، وركزت جهدها لمحو أمية الشعب المصرى .. لحققت

شيئاً رائعاً ، وكسبت لنفسها اروع وانبل ذكرى يمكن ان تذكر عن هيئة ما ..

ولكن هذا لم يحدث لان الايمان بقداسة العلم لم يصل لدى الاخوان الى الدرجة المطلوبة ..

وليس الاخوان بدعاً في الهيئات الأسلامية ، فما من دعوة توصلت الى هذه الصلة الوثيقة مابين الاسلام من ناحية والعلم من ناحية اخرى او تنبهت الى مايعنيه سجود الملائكة لآدم اثر تعلمه الاسماء كلها ، أو الربط مابين تعلم الاسماء .. والسجود ..

* * *

ان دعوة العمل الإسلامى تؤمن بالعلم وتؤمن انه «تراث محمد» الذى غفل عنه المسلمون ، وتنبه له الاوربيون فبنوا عليه مجدهم ...

ان العلم اليوم هو مصدر الثروة ، ومصدر القوة .. كما انه احد مصادر العزة ..

العلم هو مصدر الثروة .. لان كل ثروة العصر الحديث انما هى ثمرة لتطبيق العلم على العمل ، الاختراع والكشوف والبحوث على تربة الارض ، وهوائها وجبالها ، على الحبوب وعلى لقاح الحيوان وعلى عناصر الكون من كربون او اكسجين ..

فى القرن الثامن عشر كانت افكار استخدام طاقة وصنع الات معدنية موجودة فى فرنسا قبل بريطانيا ولكن الفرنسيين كانوا وقتئذ ينظرون اليها كطُرفَ . وعجائب . او «ألعاب» للكبار كالعاب الصغار . ولكنهم فى بريطانيا طبقوها على صناعة الغزل والنسيج – فكان ذلك بداية الثورة الصناعية التى مهدت بعد ذلك للثورة الكهربائية ، وثورات الذره والاليكترون والكومبيوتر والترانزستور والليزر الخ ..

الصناعات كلها ، والزراعات كلها ، وسائل الانتقال والخدمات كلها ... من ثمار العلم ... وقد أصبح الأن من الممكن بفضل العلم ان نصنع أى شيء من اى شيء ... من الكربون ... حريراً ومن البترول لحوما وهلم جراً .. لان العلم اوجد «الاكسير» الذى يحول الرصاص الى ذهب وأفنى القدماء اعمارهم فيه ..

لقد سخر العلم للانسان «بساط الريح» وجعل صواريخه تجاوز الجاذبية الأرضية ،

وتسبح في الفضاء العميق . وجعل له مردة كمردة الجان تقيم الصروح الممردة وتذيب الحديد وتدفع الى البحر بالمنشآت .. كالأعلام . كأنها قطع الجبال ..

اصبح العلم يضاعف الثمار النباتية ويحسن السلالات الحيوانية ويخصب التربة .

باختصار اصبح العلم مصدر الثروة ... وانظر الى اليابان التى هزمت فى الحرب .. فانتصرت فى السلم بالعلم واصبحت اغنى دولة فى العالم .

أما ان العلم هو مصدر القوة فمنذ ان اخترع العلم «الطاقة» البخارية ؛ وقد اصبح مصدر القوة Power وهذا هو مارد به جيمس وات على ملك انجلترا ، عندما زار «ورشته» وسأله ماذا يصنع . فقال جمس وات : اننا نصنع يامولاي ماير يده العالم أجمع :نصنع القوة ! وقد كان هذا والاختراع بدائياً فطيراً .. وقد تقدم الان يصنع الصواريخ والدبابات والطائرات التى تصور كل شيء والقنابل الذرية الخ .. فكل الأسلحة والذخائر ومعدات القتال هي ثمرة من ثمرات العلم ...

والعلم ايضاً هو احد مصادر الكرامة لان العلم يضفى على صاحبه سمتاً وكرامة ولانه يجعله اهدى سبيلاً واصدق حكماً وابعد عن التأثر بالخرافات . وقد كان يكفى ان يكون شخص ما من حملة القرآن العظيم او من حفظته ليكون محلاً لاكرام ومستحقا لمزايا ..

وهكذا نرى العلم مصدراً للثروة وللقوة وللكرامة . ان الله تعالى لم يكن ليجعل الملائكة تسجد لمن علمه الاسماء كلها .. عبثاً لقد كان سبحانه وتعالى – يعلم منزلة العلم وما اودعه فيه من قوى ومزايا .

★ ★ ★

ان دعوة العمل الإسلامي ، تؤمن بالعلم هداية للعمل .. وتدعو من لم يكن متعلماً لان يتعلم ومن كان متعلماً لان يزداد علما ﴿وقل رب زدني علما﴾ تدعو من يلم بلغة واحدة .. ومهارة واحدة لان يعلم لغه اخرى .. او ثالثة .. ومهاره ثانية او ثالثة . ان العلم كالبحر مهما تأخذ منه فانه لا ينفد ، ومهما تطلب منه لا يرفض .. ولايطلب مقابلاً .

ان دعوة العمل الإسلامي تدعو للعلم المفتوح الذى لا يعرف اسواراً ولا حدوداً . ولا يشترط شهادات ولايأبه بالخانات او الدرجات ... وتقدمه معاهد وجامعات حرة مفتوحة .

ان دعوة العمل الاسلامى تؤمن بالتدريب المهنى المفتوح امام العمال ليجعل من النابهين منهم مهندسين ومديرين وابطالاً فى مجال الانتاج الصناعية ، فينهضون بأنفسهم وبلادهم .. .

ان دعوة العمل الاسلامى تدعو النساء بوجه خاص لان يتعلمن فى كل مايتجاوب مع قابلياتهن ، فاذا كان الله تعالى قد وضع فى بعضهن ملكة ، وموهبة للهندسة او الرياضة او الاداب او الفنون .. فمن هو ذا الذى يئد هذه الموهبة ويمارس فى العصر الحديث ماكان يمارسه الاعراب فى الجاهلية .

ان دعوة العمل الاسلامى تدعو للكتاب .. تدعو للمطبعة تدعو اجهزة الاذاعة والتلفزيون لتكف عن اذاعة التفاهات واشاعة الفاحشات .. ولتقوم بدور فى التثقيف والتعلم .

ان دعوة العمل الاسلامى تدعو لاشاعة الفنون والاداب وترى فيها زينة الحياة الدنيا واحد علامات التذوق النفسى والتميز الانسانى .

ان دعوة العمل الاسلامى تؤمن بالعقل ، ولكل مايهدى اليه العقل ، ولاترى حداً يقف عنده الا الذات الالهية .. وماوراء الغيب ...

ان دعوة العمل الاسلامى ترى انه اذا كانت الدعوة لرغيف العيش مقدسة واذا كانت الدعوة للانتظام فى صفوف الصلاة فريضة . فان الدعوة للعلم وللكتاب لا تقل عن هذين ، فكيف ندعو للبطون ولاندعو للعقول .

ان دعوة العمل الاسلامى تدعو الهيئات الاسلامية التى تؤمن بالجهاد .. لان تتعلم ، لان العلم هو وسيلة الجهاد وهو الذى يضع فى ايديها السلاح الذى يكفل لها المنعة فى الداخل والانتصار فى الخارج ، وبدونه سيكونون عبيداً للكفرة ينظفون لهم مباولهم ويغسلون كؤوس خمرهم واطباق خنزيرهم ..

ان دعوة العمل الاسلامى تؤمن ان الشعب القوى الذى يعرف حقه فيطالب به وواجبه فيؤديه ، ويتصدى لحكامه هو الشعب المتعلم ، اما الشعب الأمى الجاهل فما أسهل ان يخدعه الحاكم بمعسول القول

ويدللــون اذا أريــد قيادهــم كالبهم تأنس اذ ترى التدليلاً

ثم يتحكم بعد ذلك فيهم كما يشاء .

ان دعوة العمل الاسلامى لا تتأثر بدعاوى «الغزو الثقافى» لانها ترى ان المعرفة

والعلوم ارث حضارى للبشرية كلها دون تمييز او حساسية اسهم فيه المصريون القدماء واليونان وقدم المسلمون فيه اضافتهم المميزة والاسلام بعيد عن مشاعر الدونية او الاستعلاء او الانغلاق . أنه الحكمة والعدل مع الاصدقاء والاعداء ونحن بعد لنا عقول .. نأخذ فى ضوئها ما نشاء ، وندع فى ضوئها مالانريد .. ولكننا نرفض كل دعوة للانغلاق او لفرض وصاية على العلم والثقافة والمعرفة .



وخيراً ، فان دعوة العمل الاسلامى تجعل من شعاراتها الاثيرة «تعلم .. تعلم .. تعلم .. تعلم من المهد الى اللحد ...»

الفصل الرابع

الركيزة الثالثة : الحرية

أعطتنا الأيات التى أستشهدنا بها من سورة البقرة ركيزتين من ركائز دعوة العمل الاسلامى ، هما الكرامة الانسانية المتأتية من استخلاف الله تعالى الانسان على الأرض . وقداسة العلم التى جعلت الملائكه تسجد لمن علمه الله الأسماء كلها:آدم .. ويمكن للآيات التى اعقبت الآيات التى استشهدنا بها من سورة البقرة أن توصلنا للركيزة الثالثة . ولكنها تشير اليها فى اقتضاب . ومن هنا سنشير | الى آيات من سور أخرى تقدم لنا بنوع من التفصيل الركيزة الثالثة ..

فهذه الأيات من سورة الأعراف تعرض بقية مشاهد ظهور الحياة الأنسانية بعد ان تمرد أبليس على أمر الله تعالى . وما أعقب هذا .

- قال ما منعك الا تسجد إذ امرتك قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين(١٢)
- قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إنك من الصاغرين(١٣) .
- قال فانظرنى الى يوم يبعثون(١٤) .
- قال فانك من المنظرين(١٥) .
- قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم(١٦) .
- ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين(١٧) .
- قالِ أخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين(١٨) .

وفى سورة الاسراء يعرض القرآن هذا المشهد :

- وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلآ إبليس قال ءَأسجد لمن خلقت طيناً[٦١] .
- قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليّلا[٦٢] .
- قال أذهب فمن تبعك منهم ، فان جهنم جزآؤكم جزاء موفوراً[٦٣] .
- واستفزز من أستطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً[٦٤] .
- إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً[٦٥] .

ومره ثالثة يكرر القرآن الصورة نفسها فى سورة الحجر ..

- قال يا ابليس مالك الا تكون مع الساجدين[٣٢] .
- قال لم اكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون[٣٣] .
- قال فاخرج منها فإنك رجيم[٣٤] .
- وإن عليك اللعنة الى يوم الدين[٣٥] .
- قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون[٣٦] .
- قال فإنك من المنظرين[٣٧] الى يوم الوقت المعلوم[٣٨] .
- قال ربِ بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين[٣٩] .
- إلا عبادكَ منهم المخلصين[٤٠] .

فى سورة ص

- قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالينَ[٧٥] .
- قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين[٧٦] .
- قال فاخرج منها فإنك رجيم[٧٧] .
- وإن عليك لعنتى الى يوم الدين[٧٨] .
- قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون[٧٩] .
- قال فإنك من المنظرين[٨٠] .
- الى يوم الوقت المعلوم[٨١] .
- قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين[٨٢] .
- إلا عبادك منهم المخلصينَ[٨٣] .

ان هذه الأيات المترادفة من سور متنوعة بمعني واحد بل وبألفاظ تكاد تكون واحدة ، تبرز عدداً من الوقائع على أعظم جانب من الأهمية ، سواء بمعناها المجرد ، أو بما يمكن أن يستخلص منها .

فنحن نرى أبليس يتمرد ، ويرفض إطاعة الأمر الالهى لسبب معين ، هو انه يرى نفسه أفضل من آدم فقد خلقه الله من نار .. وخلق آدم من طين ..

إننا نشهد للمرة الاولى « أنا » تظهر ، وتودى بصاحبها الى المنطق الذاتى . فيرى نفسه افضل من غيره ، لانه من نار .. ولان غيره من طين .. وسيأتى بعده كثيرون يرون أنفسهم أفضل من غيرهم لمجرد أنهم ولدوا فى القصور ، بينما ولد غيرهم فى الاكواخ .

وهذا الدرس له أهميته فى السلوك الانسانى ، ويقدم مفتاح معظم الانحرافات ، ولكنه ليس هو الذى يهمنا فى السياق ..

الذى يهمنا فى السياق ان الله تعالى طرد ابليس من الجنة مذموما ، مدحوراً ، فأراد أن يثأر لنفسه من عدوه آدم وبنيه – وطلب أن يُنظِّره – أى ان يسمح له البقاء الى يوم القيامة ، وأجابه الله تعالى الى هذا ، بل وسمح له بمشاركة الانسان فى الامو"، والاولاد ، وان يستفز منهم من يشاء ، ويجلب عليهم بخيله ورجله .. ويعدهم .. كما رأينا فى الأيات .

وفى الوقت نفسه . فان الله تعالى لا يدع الانسان فريسة سهلة لاغراء الشيطان إنه أولاً زوده بالعلم ، والمعرفه ، ثم هو أيضا يرسل رسله وينزل كتبه لهداية الانسان « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، الا من اتبعك من الغاويين ..» .

إننا لا نجد مثيلاً لهذا « الاخراج » و « الحبكة » فى اقامة الحياة الانسانية ، وجعلها مسرحاً تؤدى عليه رواية الحياة .. بكل دراماتيكية ، وديناميكية .. وحيوية .. وانتصار .. وهزيمة .

فنحن نرى الانسان وعلى يمينه العلم والمعرفة ، وهداية الرسالات السماوية والكتب المنزلة ، والفطرة السليمة التى فطر الله عليها الانسان والامانة التى نزلت فى جذر قلبه .. وعلى يساره نجد غواية الشياطين من مال .. وجاه وشهوات وسلطان ، وكل ما يمكن ان تثيره فى النفس « الانانيات » التى هى فى إصل إثاره الشيطان والتى تسرى فى الانسان مسرى الدم ..

ويظل الانسان حراً .. مختارا .

- **فمن شاء فليؤمن ..**
- **ومن شاء فليكفر ..(٢٩ الكهف).**
- من أهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها (١٥ الاسراء) .
- من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً (١٨ الاسراء) .
- ومن اراد الأخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا (١٩ الاسراء) .
- كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا (٢٠ الاسراء) .
- إن سعيكم لشتى (٤)
- فأما من أعطى وأتقى (٥)
- وصدق بالحسنى (٦)
- فسنيسره لليسرى (٧)
- وأما من بخل وأستغنى (٨)
- وكذب بالحسنى (٩)
- فسنيسره للعسرى (١٠ الليل)

والنهاية .. ؟

النهاية أن توجد الفئات المتفاوتة تبعا لايمانها وصلابتها . أو ضعفها واستخذائها ..

هناك الائمة الذين يدعون الى الجنة .. والائمة الذين يدعون الى النار ..

هناك السابقون السابقون وهناك اللاحقون وهناك القاعدون .. « منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات » .

هناك من صدق عليهم ابليس ظنه ، وهناك من استعصموا بالايمان وانتصروا على الغواية .

وهناك من خلطوا عملاً صالحا .. وآخر سيئاً ..

وربما كان المثال « النمطى » هو آدم نفسه الذى استزله الشيطان « فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

والحق أننا لا نكاد نجد واحداً ينجو من الضعف والاغراء ، فكل بنى آدم خطاءون .. ولكنهم يتوبون ويتوب الله على من تاب .. فرحمة الله .. أكبر من عصمة الانسان ولولاها لهلك الانسان ..

.. هكذا يعرض القرآن الكريم الحياة الدنيا مشاهد متتالية .. متقابلة .. من الهدى والضلال ، من الاستسلام لزهرة الحياة الدنيا . وشهوات المال والنساء وجاذبية الحكم والسلطان والشهوة ، والاعتصام بما هو أقوم من قربى الى الله وايثار للعمل الصالح .

وبالطبع لو اراد الله تعالى لغيَّر هذه الصورة :

كان يمكن ان لا يسمح للشيطان بممارسة هذه السلطات الواسعة وتملك كل هذه الافانين للاغراء والاغواء ...

كان يمكن ان يجعل الانسان كالملائكة لا تخطىء .

- ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون (٦٠ الزخرف)
- ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين (٣٥ الانعام)
- ولو شاء الله ما أشركوا .. وما جعلناك عليهم حفيظاً (١٠٧ الانعام)
- لو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً، أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٩٩ يونس)
- ولولا ان يكون الناس امه واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم ابواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والأخرة عند ربك للمتقين (٣٣ - ٣٥ الزخرف)

كان من الممكن ان يقضى الله بهذا ولكنه اراد للحياة أن تكون بالصورة التى عرضناها .

فما الحكمة من هذا..

الحكمة أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار ، فلا تكون جنة تسكنها الملائكة أو ناراً تسكنها الابالسه .. ولكن يوجد فيها من الجنه هداية الانبياء .. ومن النار غواية الشياطين « ليحيى من حى عن بينه .. ويهلك من هلك عن بينه ...»

ولكن هذا الوضع لا يستقيم الا بعنصر هو الذى يعطى المشهد حيويته ومضمونه ذلك العنصر هو الحرية .

فالانسان حر تماماً فى ان يسلك مسالك الهداية .. أو يهوى مهاوى الضلال .

حر فى ان يؤمن .. وحر فى أن يكفر ..

حر فى أن يريد العاجلة .. وحر فى أن يريد الأجلة .

وبدون هذه الحرية لا يكون للمشهد كله أى معنى ..

فلو قُسِر الانسان على الهداية لما كان له الفضل فيها .. ولو قُسِر الانسان على الضلالة لما كان له ذنب فيها ..

وليس للشيطان رغم كل قوته من سلطان على الانسان اذا اراد ان يستعصم ، كما ليس للنبى من سلطة على من آثر الضلالة ، لان النبى ليس حفيظا .

إنها إرادة الانسان ، والحرية هى قوام الامر كله .

وثمة حديث معروف يقول « الاعمال بالنيات » فاذا كانت الاعمال بالنيات .. فلا نيات دون حريات .. ومن ثم ، فلا أعمال دون حريات ..

إنه لمن الغريب حقا ضحاله الاحساس بالحرية لدى المسلمين فى حين أنها حجر الزاوية فى البناء الذى اقامه الله للحياة الدنيا .. وللهدى والضلال وبدونها لا يقوم ولا يكون له معنى .

★ ★ ★

بصرف النظر عن هذا التصوير القرآنى للحياة الدنيا وطريقة عملها ، فأننا لو افترضنا أن الدولة الاسلامية هى دولة العقيدة .. فان هذا يفترض بالضرورة والتبعية أن تكون دولة الحرية ...

ذلك لان من المستحيل أن نحمل الناس قسراً على الايمان بالعقيدة .

بل ان الترغيب – يماثل الترهيب – فى هذا لانه « رشوة » على الايمان ...

لا الترهيب .. ولا الترغيب يمكن أن يصلا بالانسان الى ايمان صحيح ، لانهما يكونان قوة ضاغطة على حرية الانسان من ناحية وعلى قدرته على التمييز والاختيار ، وينعكسان بالتالى على ايمانه ..

إن الايمان الحقيقى هو الذى يتوفر له عنصران الحرية من ناحية الانسان و« المنطقية » من ناحية الدعوة ...

فالانسان عندما يكون حـرـاًمختاراً ،،ويرفض دعوة سليمة ، منطقية ، فانه عندئذ يكون خاطئا ويكون تفكيره منحرفاً ويستحق المواخذة ،. وعندما يؤمن بها ويسلم لها فأنه عندئذ يكون مستحقاً للثواب ...

ولكى يؤكد القرآن الكريم معنى الحرية فأنه فى آيات لاحصر لها قضى ، قضاءً باتا ومؤكداً ، بأمرين ..

الأول : أن الله تعالى نفسه هو الذى يحاسب الناس ويواخذهم ويفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون من هداية وضلال ايمان وكفر

الثانى : أن هذا يحدث يوم القيامة .. عندما تنصب محكمة العدل الالهية . لاثابة المحسنين ومعاقبة المذنبيـن ...

فألامر خارج تماما عن سلطان الافراد ، او النظم او الهيئات ، خارج عن اطار محاكم هذه الحياة الدنيا .

★ ★ ★

فى قضية الايمان .. والكفر .. الهدى والضلال .. الأمرْ متروك تماماً للفرد . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ..

الحساب والعقاب عليها أنما يكون يوم القيامة والله تعالى وحده هو الذى يحكم فيها ..

★ ★ ★

هذه هى المبادىء القاطعة الفاصلة ، البيِّنة التى ينطق بها التصوير القرآنى لنشاة الحياة ، والأيات المتكررة والمترادفة عن حرية الايمان والكفر ، والايات التى تماثلها – تكراراً ووضوحا – عن أن الله تعالى وحدة ودون غيره هو الذى يفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ...

والايات كلها متكاملة لانها من اصل واحد فكل أية تكمل جانباً من جوانب هذا الأصل . فلو لم يكن هناك حرية لما كان هناك معنى لغواية الشياطين او لهداية الانبياء ، ولو جيز ان يكون الثواب والعقاب على الايمان .. فى الحياةالدنيا لما نشأ الضمير ، فانما ينشأ الضمير عندما يقبل الانسان او يرفض . ايمانا دون جزاء مادى أو أدبى فى الحياة الدنيا ، كما لا يمكن لكل ما فى هذه الحياة الدنيا من اساليب اغراء .. أو قوى ضغط أن تحوله عن ايمانه .

هذا هو الضمير ولو جاز لأحد أن يتولى الحكم لكان يجب أن يعلم السرائر ويشق عن القلوب وهيهات ..

وكرامة الانسان التى اقتضتها الاعتبارات التى أشرنا اليها فى الفصلين السابقين لا توجد . الا فى مناخ الحرية ، فلا كرامة فى ظل ارهاب .

فالايات كلها تصب فى هدف واحد . اراده الله تعالى أو تقيم بناء واحدا اراده الله وكل آية بمثابة لبنه فى البناء ..

ومع هذا كله ومع وضوح الصورة وتكرار الأيات عن حرية الاعتقاد . فان معظم .. او كل الدعوات الاسلامية تعزف عن الحرية ، وتتبنى بدرجات متفاوته . ضوابط على الايمان . يمكن أن تصل الى حد قتل المرتد أو« من يجحد معلوماً من الدين بالضرورة » .

والمجتمع المثالى لديها هو مجتمع القيود .. والاحكام االمسلطة . والقوانين الامرة ..

إنه مجتمع العبيد ..

وإنما فضل المسلمون الأول الاسلام لأنه أخرجهم من عبادة الحكام الى عبادة الله ..

وأى عبادة لله بقانون من العقوبات تكون عبادة لقانون العقوبات . ولمن وضع قانون العقوبات ولا تكون لله ..

وأنما تكون العبادة لله ، والايمان بالله عندما يصدر ذلك عن حرية ، وطواعية ، بل وعاطفة وقربى ..

★ ★ ★

إن دعوة العمل الاسلامى تؤمن بحرية الفكر والاعتقاد الى آخر مدى ، الى مدى « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .. » ولا تضع قيداً من أى نوع على الفكر والاعتفاد ..

فلو ارتد مسلم أو كفر فأنما على نفسه يجنى ، ولن يضير المسلمين أن ينقصوا فرداً ، أو حتى مليونا ، ولن يمس الاسلام شيئا ان يخرج منه من لا يؤمن بالله . ولن يحزننا الذين يسارعون فى الكفر .

ان دعوة العمل الاسلامى لا تُكَفِرْ احداً ، حتى الذى يقر على نفسه بالكفر[1] لان القضية قضية « عدم اختصاص » فليس من شأننا أن نقول هذا مؤمن . وهذا كافر .. وهذا سيدخل الجنة .. وهذا سيدخل النار ..

وان يقر أحد على نفسه بالكفر شيء ، وأن نقر نحن هذا – ولو تبعا له – شى آخر ، لانه حـر يفعل بايمانه ما يشاء ولكن ليس لنا أن نتدخل فيه . ولو كان اقراراً لما يعترف به ، لان ذلك سيحملنا على ان نبنى عليه حكماً .. وهذا كله ليس من اختصاصنا ، انه اختصاص الله تعالى وحده .. يوم القيامة وحده . وقد يحمله سكوتنا على اعادة النظر فى موقفه ، قدر ما يدفعه تنديدنا به على الاصرار عليه .

ودعوة العمل الاسلامى لا تبيح مصادرة كتاب لانه لا يتفق مع المقررات أو لأنه يدعو للالحاد وينكر وجود الله وبعثة الانبياء .. فلن يضر الله شيئا ، ولن يضر الايمان شيئا ، أو ردوا عليه الحجة بالحجة والدليل بالدليل والبرهان بالبرهان ، وهو ما فعله القرآن مع إدعاءات المشركين .

إن المصادرة تبسط سيف الارهاب الفكرى ، وحتى عندما لا يستخدم ، فان مجرد تجريد هذا السيف من غمده ، وجعله مشهرا سيسىء الى حرية الفكر ...

وليس معنى هذا ان يكتب احد سفاهات وبذاءات أو ينشر قذفا أو يسىء الادب والذوق مع الرسل او الاديان .. او الله تعالى . إن هذا مرفوض ومعاقب عليه حتى عندما يمس أقل شخص ، فكيف عندما يمس الرسل .. والله تعالى ...

ان القضية قضية إعمال فكر ، قضية وجهة نظر مبنية على مقدمات ونتائج .. حتى وإن كانت خاطئة وفاسدة .

★ ★ ★

ان دعوة العمل الاسلامى عندما تقف هذا الموقف ، تؤمن أنها تقف الموقف الاسلامى والموقف الموضوعى وليس بينهما تنافر أو اخلاف ، وإنما يحدث هذا ما بين الاسلام .. والمواقف الذاتية ...

---

(١) ان معاربة ذلك بما جاء فى الدر النضير فى اخلاص كلمة التوحيد للشوكانى ص ٤٦ « وقال شيخ الاسلام نقى الدين فى الاقناع من دعاميتا . وان كان من الخلفاء الراشدين . فهو كافر ، وان من شك فى كفره ، فهو كافر » يوضح المسافة البعيدة بين الاتجاهين . ناهيك بناشئة دعوات الرفض الجديدة التى تكفر ، وتهدر دم كل مخالف .

فمن الناحية الاسلامية . فالاسلام يعلم أنه لا فائدة من سوق الناس للايمان بالارهاب والقسر ، وان الدعوة السليمة أنما تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة وان الحرية تكفل مؤمنين اعمق ايمانا ...

ومن الناحية الموضوعية ، فأن الاصل فى الايمان هو الحرية ، ولا يمكن تصور حمل الناس على الايمان قسراً ، فهذا يخالف طبيعة الأشياء ..

فلبس فى الفضية شيء يثير الدهشة وعندما تكون دولة الاسلام .. دولة عقيدة فانها تكون بالتالى دولة حرية .. ولهذا يجمع القرآن الدعوة للاسلام ، والحرص على الحرية والتنديد بكل صور « حمل » الناس على الايمان او اكراههم عليه ..

القضية محلولة اسلامياً وموضوعياً ولكن هناك سدنة يفرضون أنفسهم ما بين الناس .. والله .. وهذا الوضع يقضى عليهم ، ولهذا يستميتون فى الدفاع عن أوضاعهم المميزة ومصالحهم المكتسبة وأفكارهم التى تسربت الى الاسلام فى عهود التحلل والانحطاط .

الفصل الخامس
الركيزة الرابعة - العمل

رأينا الانسان وقد خصه الله فى سابق علمه بكرامة . فقرر أن يستخلفه على الارض وعلمه الأسماء كلها . وآمر الملائكه ان تسجد له .. وَأسلَم له هذا الكوكب الجميل : الأرض بتربتها الخصبة وأنهارها الجارية وشمسها الساطعة وثرواتها المعدنية وأشجارها وحيواناتها .. ومنحه الحرية الكاملة .:.

بقى أن يقوم الانسان بدوره الذى من اجله استخلفه الله ، وعلمه الأسماء ، ومنحه الحرية ...

هذا الدور لابد وأن يأخذ شكل **العمل** لان العمل هو بلورة الحياة وثمرتها ، وهو مضمونها وتجسيد معناها ...

وحتى فى مجال الفكر الخالص فنحن نقول « **يُعْمِل عقله** » فالتفكير عمل .. بل ان عدم التفكير يؤدى الى عمل فى صورة سلبية - كالانسياق والتقليد والاتباع ..

وهذا ما يوضح الأهمية القصوى لهذه الركيزة ، فكل الركائز السابقة هامة . ولكن أهميتها تكمن فى أنها تهىء المجال ، وتعد العدة وتبعد المعوقات لكى يعمل الانسان عملاً صالحا . فهذا العمل هو محصلة الركائز الثلاث السابقة وعليه تتوقف النتيجة .. إما شاكراً . وإما كفوراً .

وعندما نفتح المصحف ، ونسير معه من الفاتحة حتى الناس ، فاننا نلتقى فى كل سورة تقريبا بتعبير قرآنى متكرر « **الذين أمنوا .. وعملوا الصالحات** » .. فعمل الصالحات جزء مكمل للايمان .. لاننا لو استبعدنا هذا الربط ما بين الايمان والعمل ،

واقتصرنا على الايمان لكان كل واحد يقول لا اله الا الله محمد رسول الله مؤمنا يعادل اى مؤمن أخر يقول القول نفسه ، ولوقفت قضية الحياة كلها عند هذا او لنحصر التمايز بين رجل يصلى الفرائض وآخر يزيد عليها النوافل وما الى ذلك ..

ولكن الشهادتين ، والصلاة ، والصيام لا تحرث الأرض ، ولا تنبت البذر،ولا نغزل القطن ، ولا يمكن أن تُرْكَب لقضاء الحوائج ، ولا هى تتضمن الهمة والنشاط والمثابرة أو الدقة والامانة أو الوفاء بالوعد والصدق عند الحديث فكل هذه هى ما يقدمه العمل ..

من اجل هذا دأب القرآن الكريم على الاشارة إلى العمل.ويؤدى بنا الربط المستمر للقرآن ما بين « الذين أمنوا » و « وعملوا الصالحات » إلى تفسيرين . الأول أن القرآن يشير بكلمة « الذين أمنوا » الى العقيدة ، ويمكن ان يلحق بها العبادات ، وانه يشير بالذين عملوا الى العمل ، وبهذا يكون الاسلام عقيدة وعمل ، وهو ما يقول به كثير من الفقهاء وتصبح العقيدة شيئا والعمل شيئا آخر ويكمل كل واحد منهما الآخر ليتكامل «الاسلام » كما أن من الممكن أن القرآن إنما يهدف بربطه ما بين الذين أمنوا وعملوا الصالحات لان يجعل من العمل مصداقاً للايمان بمعنى ان الذين يؤمنون حقا لابد وان يعملوا عملاً صالحا بحكم ايمانهم فالعمل فى التفسير الاول عنصر مستقل ، وهو فى التفسير التانى عنصر مكمل وفى المحصلة الأخيرة لا نجد اختلافاً كبيراً فسواء كان العمل عنصراً مستقلاً أو عنصراً مكملا ففى الحالين لا بد منه سواء كان كعنصر مستقل أو كعنصر مكمل ..

ويغلب ان تأخذ إشارات القرآن الى المؤمنين صورة من ثلاث صور ، فعندما يذكر « الذين آمنوا » فأنه كما قلنا يقرن ذلك بتعبير « وعملوا الصالحات » والآيات التى جاء فيها هذا القران أكثر من أن تحصى فى هذا الموجز ، وعندما يتحدث الى المؤمنين بصيغة الخطاب « يا أيها الذين آمنوا » فأنه يقرن ذلك بأحد التوجيهات العملية « لا تبطلوا صدقاتكم » « أوفوا بالعقود » ، « كلوا من الطيبات » ، « انفقوا مما رزقناكم » « أتقوا الله وذروا ما بقى من الربا » ، « لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها » الى آخر هذه التوجيهات التى تتعلق بالسلوك أو المواقف التى يجب على المؤمنين وقوفها والالتزام بها . واخيرا فأن القرآن عندما يشير الى « من آمن » فانه يضيف الى ذلك « وعمل صالحا » ، « من آمن بالله واليوم الأخر وعمل صالحا » ، « من آمن واصلح » ، « أما من آمن وعمل صالحا » ، « الا من تاب وآمن وعمل صالحا » .. الخ .

وفى بعض الحالات لا يذكر القرآن العمل صراحة ولكنه يعطى مضمونه جنبا الى جنب مختلف العبادات .. ففى سورة الجمعة ﴿ فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضله ﴾ وفى سورة الحج ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ﴾ ، ولم يأنف من أن يرمز الى الأيمان بكلمة تجارة ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله ﴾ ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ . وذكر جنبا الى جنب الذين ﴿ يقاتلون فى سبيل الله ﴾ الذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾ ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ .

فهذه الاشارات كلها للجمع ما بين الصلاة والحج والمنافع وأبتغاء فضل الله والرمز للايمان ومختلف قربانه بالتجارة كلها توضح أن العمل بالمعنى الاقتصادى أى العمل المنتج أعتبر قرينا للايمان ومصداقا له .

وهذا الجمع المتكرر المتواتر بين الايمان والعمل الصالح يوحى أن الايمان فى القرآن يعد المدخل الى عالم العقيدة ، و « الهوية » للمؤمنين . ولكن هذا المدخل والهوية لا يكفيان وحدهما بل لابد من العمل الصالح الذى يؤكدهما ويصدقهما فليس الايمان بالتمنى ولكن بما يصدقه العمل .

ولا يقل عن ذلك أهمية ان الاسلام لا يعتبر العمل مصداقاً للايمان او مكملا للايمان فحسب . ولكنه يعتبر العمل معيار الثواب والعقاب فى الأخرة ، وقد يقدمه عند الذكر على التوحيد ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملاً صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه احداً ﴾ .

والحق أن التصوير القرآنى لنشأة الحياة الانسانية على الأرض . وما تطلبه من ركائز آشرنا اليها . لا يكمل الا بقيام العمل واعتباره معيار الثواب والعقاب فى الأخرة والآيات التى تنص على ذلك بصورة قاطعة أكثر من أن يستوعبها المجال ، وهذا بعضها .

* يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود ولو أن بينها وبينه امدا بعيدا . (٣٠ ال عمران) .

* ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون (١٢٩ الاعراف) .

* ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون (١٢١ التوبة) .

* ليبلوكم ايكم أحسن عملا (٧ هود) .

* وتوًفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون (١١١ النحل) .

* فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون (١٩٣ الحجر) .

* من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠ غافر) .

* من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد (٤٦ فصلت) .

* من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون (١٥ الجاثية) .

* أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون (١٤ الاحقاف) .

* من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون (٤٤ الروم) .

* فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . (٧ ،٨ الزلزله) .

وفى القرآن الكريم جزء من آية ، ثلاث كلمات بعيدة الدلالة والمغزى تلك هى ﴿ وعلمناه صنعة لبوس ﴾ (٨٠ الانبياء) من هذه الكلمات الثلاث نعلم أن الحديث صادر من الله تعالى .. فالله تعالى هو الذى « علم » وأن الحديث موجه الى داود ، رأس بنى أسرائيل وفخرها وأن ما علمه الله لداود هى صنعة الدروع . فأى تكريم للصنعة كما جاءت اللفظة القرآنية وهى نفسها اللفظة السارية بين العمال اليدويين .. أن يعلمها الله نفسه لداود نفسه .. كما تتضمن الآية أيضا أن العلم هو وسيلة الصنعة وليس شئيا آخر .

وأبرز من هذا كله فى الدلالة الآية ﴿ وخلقنا الموت والحياة لنبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ فلا شيء أصرح من هذا فى أن الله تعالى جعل هذه الحياة الدنيا امتحانا يدور حول العمل .

ويتفق الحديث النبوى مع القرآن الكريم فى الجمع ما بين الايمان والعمل وأعتبار العمل مبرر الثواب والعقاب . فالحديث النبوى عن أن الايمان بضع وسبعون (وفى رواية وستون) شعبة أعلاها لا اله الا الله وادناها أماطة الاذى عن الطريق . يوضح لنا مدى شمول الايمان بدءا من ذروة العقيدة حتى أدنى عمل من الأعمال اليدوية ..

وهناك الحديث المشهور عن الشاب الجَلد الذى تمنى الصحابة لو كان جَلَده فى سبيل الله فصحح النبى ﷺ لهم هذا المفهوم « لو كان يسعى على أبوين شيخين فأنه فى سبيل الله أو يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله » فسبيل الله ليس مقصورا على الصلاة والصيام .

واعتبر النبى ﷺ أن « امرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة وحملك عن الضعيف صلاة . وانحاؤك القذى عن الطريق صلاة » رواه ابن خزيمة فى صحيحه وتحدث عن رجل « يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين .. » ويقابل هذا أمرأة « دخلت النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

وجاء فى كتاب أدب الدنيا والدين للماوردى :

وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ « فاذا فرغت فانصب والى ربك فأرغب » قال أهل التأويل فاذا فرغت من أمور الدنيا فانصب فى عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه ﷺ فيها ولكن ندبه الى اخذ البلغة منها . وعلى هذا المعنى قال ﷺ ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة .. ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه وروى عن النبى ﷺ أنه قال « نعم المطية الدنيا فأرتحلوها تبلغكم الآخرة » وذم رجل الدنيا عند على ابن أبى طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه « الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها »(١) .

وعن أنس قال كنا مع النبى ﷺ فى السفر فمنا الصائم ومنا المفطر فنزلنا منزلا فى يوم حار فسقط الصوامون وقام المفطرون فضربوا الابنية وسقوا الركاب فقال النبى ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالاجر كله .

وكما فضل النبى ﷺ هؤلاء المفطرين فى السفر على الصائمين ورأى أنهم « ذهبوا بالاجر » فقد فضل فى حديث تعددت رواياته أمراة لا تؤدى الا الفرائض لكنها تتصدق ولا تؤذى جيرانها على أمراة أخرى كثيرة الصلاة والصيام ولكنها تؤذى جيرانها .

وعن أبى قلابة أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيرا

---

(١) طبعة وزارة المعارف العمومية ١٩٢٨ ص ١١١ .

قالواما رأينا مثل فلان قط ما كان يسير الا كان فى قراءة ولا نزلنا منزلا الا كان فى صلاة قال فمن يكفيه ضيعته ومن كان يعلف جمله أو دابته قالوا نحن قال فكلكم خير منه .

وعن النبى ﷺ أنه قال « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع رزعا فيأكل منه الطير أو الانسان الا كان له به صدقة » وقال « لو قاما القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليزرعها » .

وعن عبد الله بن مسعود قال رسول الله « طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة » .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم وزاد البيهقى فى شعب الايمان برواية فضاله « والمجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » .

وعنه أنه قال « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف وأذا أئتمن خان وان صلى وصام وزعم أنه مسلم » .

وعن أنس قال رسول الله ﷺ « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله » .

وكان النبى ﷺ يستعيذ من « علم لا ينفع » كما يستعيذ من « قلب لا يخشع » ويقول أذا أراد الله يقوم سوءا أوتوا الجدل ومُنِعوا العمل .. وكان الدعاء المأثور « اللهم علمنى ما ينفعنى انفعنى بما علمتنى » .

وحديث المفلس يوضح لنا أهمية العمل فى مقابل العبادة وكيف أن العبادة لا تغنى عنه ، ونصه « أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من أمتى من يأتى يو القيامة بصلاة وصوم وذكاة ، وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار . »

فهذه الاحاديث كلها هى كالآيات التى استشهدنا بها من قبل تجمع ما بين الايمان والعمل وتوضح أنه حتى تعبيرات الصدقة والصلاة والايمان والجهاد والمسلم

والمؤمن تتسع لصنوف من الأعمال مستقلة عن العبادات قدر ما هى متصله بممارسات من صميم الحياة العملية واليومية للناس بل ان العبادات نفسها تحكم بهذه الممارسات والأعمال وتقاس بها حتى وان شملت أدنى الاعمال وأمتدت الى الحيوان والجماد .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لأن أموت بين شعبتى رحلى أضرب فى الأرض ابتغى من فضل الله أحب الى من أن أقتل مجاهدا فى سبيل الله » وقد ذكر هذه الرواية أحد الفقهاء والاساتذة فى السعودية على أساس أنها تقديم من عمر بن الخطاب للكسب على الجهاد أستنادا على تقديم القرآن الذين يضربون فى الارض لكسب الرزق على المجاهدين فى سبيل الله ﴿ وأخرون يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾ (الزمل ٢) ونقل ما رأه بعض الفقهاء من أن الجهاد فرض « وقد اقترن بالضرب فى الأرض للاكتساب فيكون الاكتساب فرضا بدلالة الاقتران وتقديمه على القتال يدل على أولويته »[١] ، ورأى الكاتب أن هذا لا يخرج عما أراده عمر من قوله وأستطرد « والحقيقة أنه لولا الكسب لما قام الجهاد فى سبيل الله ، لان المال عصب القتال ، ومن هنا جاءت أهمية الاعداد الاقتصادى والاقتصاد الحربى لتمويل الحروب ، خاصة فى العصر الحاضر ، اذ المال هو الوقود الحقيقى للحروب حيث تصمد الدولة فى القتال ما قويت على تمويل حربها[٢] .

وقد يذكر فى هذا الصدد أن القرآن الكريم عندما يذكر الذين يجاهدون فى سبيل الله فيغلب أن يذكر الذين يجاهدون « بأموالهم » أولا ثم « بأنفسهم » ثانيا .

كما قد يذكر أن حرص عمر بن الخطاب رضى الله على صحبة الرسول وتقديره لأهمية ذلك . لم يمنعه من « الصفق فى الاسواق » وعندما أُعْلم بحديث لم يسمعه قال « الهانى عنه الصفق فى الاسواق » ولعمر رضى الله عنه اقوال أخرى معروفة فى الحث على العمل فهو الذى قال لا ناس وجدهم فى المسجد تاركين العمل « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول « اللهم ارزقنى » فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضه » وقال « انى لارى الرجل فيعجبنى فأقول أله حرفه فان قالوا لا سقط

---

(١) و (٢) الاحتراف وآثاره فى الفقه الاسلامى للدكتور محمد رواس قلعجى ، صفحة ٢١ ، ٢٢ بحث نشره المركز العالى لابحاث الاقتصاد الاسلامى جامعة الملك عبد العزيز جده .

من عيني » وقد كان هو الذى عندما مر بقوم من القراء فرأهم جلوسا فى المسجد قد نكسوا رؤوسهم فقال من هؤلاء فقيل المتوكلون فقال كلا ولكنهم المتأكلون ، يأكلون أموال الناس الا انبئكم من المتوكلون قيل نعم قال هو الذى يلقى الحب فى الأرض ثم يتوكل على ربه » كذلك فانه عندما دخل السوق فى خلافته فرأى غالبية من فيه من النبط أغتم لذلك . ولما أجتمع الناس أخبرهم بذلك وعذلهم فى ترك السوق فقالوا ان الله أغنانا عن السوق بما فتح به علينا فقال والله لئن فعلتم ليحتاج رجالكم الى رجالهم ونساؤكم الى نسائهم ..

ومقارنه جانبى العمل – أى العمل كمصداق للايمان .. والعمل كمعيار للثواب والعقاب توضح لنا أن العمل الاسلامى وان كان محكوما بالايمان ويفترض أن يأتى تصديقا له .. الا أنه من ناحية أخرى له وجوده الموضوعى وكيانه الخاص فالعمل الحسن أو بالتعبير القرآنى (الصالح) من كرم أو شجاعة أو عدل أو انفاق أو وفاء بالعهد والوعد ... الخ له كيانه الخاص ووجوده قبل الاسلام وبعد الاسلام وسواء وقع فى دار اسلام أو فى دار كفر .. من مسلم أو غير مسلم .

وحتى فى الجانب الذى يكون العمل فيه محكوما بالايمان فليس هناك صعوبة فى تبين أن دعوى الايمان مفتوحة ولا يمكن جحدها لكل من يدعيها أو يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » وأننا لا نستطيع ان نفترض فى كل واحد فناء الحلاج أو هيام رابعة العدوية مما لا يمكن ضبطه أو تقديره ، وما يمكن أن يجنح بصاحبه الى بحار الاهواء المتلاطمة . وبالتالى فان الدليل الوحيد الذى يمكن للمجتمع الاستدلال به على حسن الايمان لابد وان يكون العمل ، لان النية والقلب محجوبان عن هذا المجتمع لا يعلمهما الا الله ، ولهذا المعنى حُق للعمل ، وهو المحكوم بالايمان – أن يكون هو نفس دليلا على الايمان ، ومعيارا للثواب والعقاب ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

وهناك حكمة دقيقة وهامة فى هذا القرن ما بين الايمان والعمل ، وجعل العمل مصداقا للايمان ، ذلك أن العبادات التى تصطحب تقليديا فى الاذهان بالايمان من صلاة أو صيام أو حج ... الخ يمكن أن تصبح طقوسا شكلية ، ويمكن أن تصبح أداة لتعميق الاحساس بالذات بصرف النظر عن المجتمع . فالمصلى لا يعنيه ما تدور عليه حياة الناس حوله وما يملأ دنياهم من هموم ومشاكل مادام هو عاكف على صلاته وصيامه ، مؤمن أنه أدى وأجبه وانقذ نفسه وأرضى ربه ، بل قد يتطور الأمر فتعطى

هذه الصلاة والصيام منعزلة عن العمل اشباعا كاذبا يرضى الضمير ، وأن هذا هو المطلوب منه ، وقد أداه فلا عليه اذا انصرف الى غير ذلك مما يراه خارج اطار العبادة وطبقا لمصلحته وهواه دون أى اعتبار آخر ، وأخيرا فقد تحيف العبادة على العمل ، كما يحدث عندما يترك موظف عمومي عمله ليصلى الظهر بمجرد سماعه الاذان ويدع الناس واقفين أو متعطلين فى أنتظاره وقد يطيل ويصلى النوافل أيضا ، وكأنه يتلذذ بتعذيب الناس أو يتقرب الى الله بتعطيل أعمالهم !! فى حين أن فى الوقت المباح متسع ، وان تفريج كربات الناس افضل من اى قربى أخرى ، وقد تحرص أحدى الموظفات على أن تغطى رأسها بطرحه كثيفة ، ولكنها لا تحرص على خدمة المواطنين .

ان دعوة العمل الاسلامى ادراكاً منها أن العمل هو محصلة الرحلة الطويلة من لستخلاف الله تعالى الانسان على الارض حتى يوم القيامة ، وتقديراً منها له فانها حملت اسمه وأصبحت « دعوة العمل الاسلامى » .

ان دعوة العمل الاسلامى تدق الناقوس،إنها تقول للمسلمين جميعا : أيها المسلمون اعملوا ...

فالعمل هو الذى سيضعكم فى الجنة او يودى بكم الى النار .. هو الذى سيضعكم فى الصدارة .. او فى المؤخرة فى الحياة الدنيا ..

إيها المسلمون اعملوا فان الله تعالى لم يخلقكم عبثا ولم يستخلفكم فى الدنيا سدى ، فاذا لم تعملوا فأنتم آثمون،عاصون بعيدون عن رضا الله مستحقون لغضبه ..

أيها المسلمون

اذا كنتم حريصين على أن يكون لكم العزة فاعملوا .. وإذا اردتم أن تحموا أنفسكم من عدوان الأخرين فاعملوا .. واذا اردتم أن تظهروا الاسلام على حقيقته الواقعة التى تكسب له الاحترام والتقدير فاعملوا لانكم بسلبيتكم وتكاسلكم ، واعتمادكم على الأخرين ، وبضحاله احساسكم بالعمل جعلتم من عملكم تلفيقاً وهبطتم بالصناعة والتجارة والزراعة والخدمات ، واسم المسلمين واسم الاسلام الى الدرك الأسفل من الانحطاط .

ان دعوة العمل الاسلامى تقول لكم ما قاله الرسول لابنته الحبيبة فاطمة ، ولعمته الاثيرة صفية : يافاطمة اعملى ، فانى لا اغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية اعملى فانى لا اغنى

عنك من الله شيئا .. لا يأتينى الناس بالاعمال وتأتونى بالاحساب ..

ان دعوة العمل الاسلامى تعيد عليكم ما أمر به القرآن ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ١٠٥ التوبة .

الفصل السادس

وأخيراً - العدل : « مايسترو » الدعوه

ليس العدل ركيزة كالركائز السابقة ولكنه وازن هذه الركائز وضابط الايقاع بينها انـه اشبه بالمايسترو الذى يقود الفريق ليعزف كل واحد دوره طبقا لما هو مسجل فـى النوتة بحيث تأتى « السمفونية » صادقة التعبير آمنة من النشاز تقوم فيها كل من الطبلة والكمان والبوق النحاسى بدور تتطلبه السمفونية مع ان كل واحد منهم يختلف فى طبيعة ما يصدره من صوت عن الاخر ، او هو شفرة الحياة التى نحملها« جينات » الوراثة فى الذكر والانثى ويتمخض تلاقيها عن ميلاد كائن سوى لا تطول احدى يديه عن الاخرى او تقصر احدى رجلية عن الثانية الخ ...... ، **واذا كان العمل هو معيار الثواب والعقاب فان العدل هو معيار العمل نفسه** ووجوده فى الدعوة هو من طبيعة الدعوة نفسها بحيث لا يمكن تصور خلوها منه . فالله تعالى استخلف الانسان على الارض فأضفى عليه كرامة وجعل الملائكة تسجد له فأشار الى قداسة العلم الذى كان مبرر هذا السجود ثم هداه النجدين واراد له حرية الاختيار وجعل العمل هو المعيار والمصداق لهذه المسيرة التى تسلم كل خطوة منها الى الاخرى باعتبارها النتيجة الطبيعية لما سبقها ، تحوطها وتحكمها حقيقة كلية منبثقة من الاصل الاعظم ، من الله تعالى ، فالله تعالى خلق الكون بأسره ووضع النواميس التى تحكمه واستخلف الانسان فى الارض ... على اساس قبس منه هو الحق الذى هو بالنسبة للنواميس والنظم كالنفثة بالنسبة للخلق ، وقد سمى الله تعالى نفسه الحق ، وجعل السماوات والارض تقوم بالحق وانزل الكتاب بالحق ، ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ فهذه المسيرة الانسانية من الخلق حتى يوم القيامة ومن الميلاد حتى الوفاه تحكمها -

وتضبطها وتحول بينها وبين الانحراف قيمة عظمى مهيمنة عليها هى الحق ، وعندما يراد تطبيق الحق فأنه يصبح العدل لأن العدل هو احقاق الحق ووضع كل شيء موضعه ، واعطاء كل ذى حقٍّ حقه . ولهذا فأن للعدل جوانب متعددة فله الجانب الاقتصادى وله الجانب السياسى وله الجانب الاجتماعى « وهو القصد » وهو الذى يحكم الارادة الانسانية الطليقة من الشطط والجموح ويضبط العمل بميزانه الدقيق حتى لا يتطرف الى ظلم واستغلال ، ويضبط العلم حتى لا يصبح المارد الذى يتحكم فى صاحبه . وانما اخذ العدل هذه الابعاد كلها – لأنه كما ذكرنا ينبثق عن الحق الذى اراد الله له ان يحكم كل شيء : الاكوان والانسان والنظم والنواميس . ولقائل ان يقول : ما هو العدل الاسطورى العجيب وكيف نتأكد لنه ليس تمويها وخداعاً وتضليلاً ؟ لقد قلنا فى كثير من كتاباتنا السابقة ان العدل لا يمكن ان يُقْبِضَ عدا ونقدا ولا يمكن ان يأخذ شكلا رياضيا محددا فهو يقوم على حاسة فى النفس يفترض ان توجد وتتأصل نتيجة للأيمان بتوجيهات مؤكدة ومكررة فى القرأن الكريم وفى السنة النبوية وفى اصول الأشياء وتميز هذه الحاسة الاعمال والتصرفات وتحكم بما اذا كانت تتفق مع العدل او تختلف معه ، حتى عندما تختلف الاحكام من عصر الى عصر ومن مكان الى مكان ، لأن العدل كظاهرة الاجتماعية يخضع لاعتبارات المجتمع ولكن الطبيعة الموضوعية – المعيارية له المنبثقة من الحق لا تجعل العدل جزءً يتأثر بالاوضاع حوله وانما هو يلحظ هذه الاوضاع ويكيفها ، وهو فى جميع الحالات يلتزم اطارا مرنا وواسعا ولكن قسماته الرئيسية واحدة ، فكل الاديان تحض على الخير والرفق والاحسان والانفاق . وكل الاديان تحذر من السرف والسفه والتبذير والانسياق وراء شهوات التسلط وكل الاديان تندد بالقسوة والظلم والاستغلال وهذه كلها ضوابط للعدل – مهما كانت مرنه فانها لا تجعل من الظلم عدلا .... ومن العدل ظلما .... .

ويمكن على كل حال ان نميز بين طريقتين لتطبيق العدل يختلفان تبعا للمجال ، فالعمل كله محكوم بالعدل لانه يندر ان يوجد عمل لا يمس طرفا اخر ومن ثم فانه يقع مباشرة فى اطار العدل فالاقتصاد والسياسة والعلاقات كلها يحكمها العدل بصورة مباشرة ولكن الأمر يختلف بالنسبة لمجال الفكر فانه يعود الى الحرية-وليس معنى هذا ان يخرج من صلاحيات العدل لان العدل المنبثق عن الحق يحكم كل شيء ولكن معناه ان تطبيق العدل والحكم بمقتضاه على الفكر مؤجل الى يوم القيامة ويتولاه الله تعالى ذلك لان الطبائع والنواميس التى أقامها الله تجعل التدخل فى حرية الفكر – ولو لأحقاق الحق – من جانب السلطات يجلب من المشكلات ، اضعاف ما يحقق من

الحلول ولذلك ترك الحكم فيه الى الله تعالى يوم القيامة ما لم يقترن هذا الفكر بعمل يخرج به من اطار الفكر الى اطار العمل الذى يحكمه العدل ، فلو افترضنا ان احد الناس اعتنق فكرا فاسدا فهو حر ويمكن ان يصدر كتابا او يضم اتباعا ولكنه ما ان يمارس عملا بعد ذلك حتى يخضع لضابط العمل وهو العدل .

وانما سمح الاسلام بحرية الفكر وان تحكمها ما ظلت فى اطار الفكر ارادة خارج المجتمع وليس العدل ان الحرية فى حقيقة الحال هى حرية الرأى المخالف وقد أراد الله تعالى – كما هو ثابت فى العديد من الايات – وجود هذا الرأى المخالف فى الحياة الدنيا فكان لابد ان يحكم فيه هو يوم القيامة فليس هذا الرأى المخالف يعفى من الحساب ... ولكن حسابه مؤجل وليس معجلا وهو الى الله وليس الى الافراد او السلطات .

فى نظرنا ان هذا التكييف قبس من الاعجاز الالهى فى وضع النظم وهو ما يميز النظام الاسلامى عن النظم الوضعية الاخرى التى تتمحور حول الانسان ويمكن ان نجد فيها الركائز الاربعة لدعوتنا : كرامة الانسان ، قداسة العلم ، الحرية ، العمل ولكننا لا نجد ولن نجد مايسترو العدل الذى يحيط بها ، ولن نجد لهذا العدل – فى غير الاسلام موضوعية تُستمَد من الله تعالى مثبته فى قرآن محكم وتستعصى على التغير والتحوير ، ولن نجد الا فى الاسلام عدلا يسمح بحرية الفكرلا على انها لا حساب عليها وانما على ان الحساب عليها انما يكون من قبل الله تعالى يوم القيامة .

فالذى يميز دعوة العمل الاسلامى عن الدعوات الاوربية هو انها تعمل فى رعاية الله تعالى وأمنه ، وانها تستلهم منه ركائزها ومثلها ، وتجعل من قرأنه دستورا ومن رسوله اسوة وقدوة وانها اولا واخراً فى قبضته . وهى تسلم بهذا تسليما وتسعد به وتطمئن اليه وتجد فيه الامن والسلام والكمال فضلا عن ان استمداد قيمها من الله تجعلها موضوعية – فى حين ان هذه القيم [الكرامة – الحرية – العمل – العلم] فى المجتمع الاوربى ذاتية وما ان تدخل امتحانا حتى تتضح نسبيتها وذاتيتها فهى للاغنياء والبيض غيرها للفقراء والسود وهى ملحوظة داخل اوربا منسية خارجها .

وقد يدعى احد ان هذه ليست نظرية وانها تفتقد الابداع والتكامل والاحكام الذى يظن انه يجده فى الماركسية بشقيها المادية الجدلية والمادية التارخية ، واننا انما لفقنا مجموعة من القيم المثالية ونحن نقول انها دعوة اسلامية وليست نظرية مستقلة عن الاسلام . ونحن لانهدف الى ابداع نظرية كالماركسية – تعالج التطور من زاوية واحدة او من منطق الجدلية لتكشف مائة سنة عن ثغراتها – وانما نعبر عن التصور الاسلامى

المتكامل لنشأة الحياة الانسانية على الارض وطريقة عمل هذه الحياة والهدف منها ، وحلقاتها مترابطة ومتكاملة تماما فكل واحدة تبنى على الاخرى وتبدأ منها لتكملها دون ان يكون هناك تعارض او تنافر وانما هو بناء متماسك متناسق . اما دعوى المثالية فان الاسلام فعلا يرمز الى المثال ولكنه يتقبل الواقع كواقع وكما قلنا فى مناسبة سابقة .

« ان مثالية الاسلام تقوم على قاعدة صلبة رصينة من طبيعة النفس الانسانية وهى تبدأ من هذه القاعدة وتسيربها بقدر ما تستطيع الطبيعة البشرية من مراحل التقدم. والاسلام يعلم ان مادة الطبيعة البشرية كمادة النفط يشتق منها الاسفلت الثقيل الكثيف كما يشتق منها البنزين الخفيف الطَيار والاسلام يبدأ من اسفلت الواقع ويتصاعد من هذا الواقع وبه حتى يصل الى البنزين الطَيار وهو يعلم ان هذا الاسفلت لابد منه وان كان للوطأ وانه يجب ان يحمد باعتباره موطئا للاقدام ، وان الطائرة لا يمكن ان تبدأ تحليقها او تنهى رحلتها الا على هذا الاسفلت[1] . »

ومثالية الاسلام بهذا المعنى تختلف عن المثالية الخيالية فهى ليست مثالية بمعنى انها ترفض الطبيعة البشرية بضعفها وقصورها ولكنها كذلك ليست واقعية بمعنى انها تستسلم للواقع وترى ان علينا ان نأخذ الطبيعة البشرية ككل او نرفضها ككل.ان هذا هو منطق النظريات التى تصدر عن الانسان المجرد من الاديان كالماركسية التى استهدفت التغيير ولكن لانها صادرة من الطبيعة البشرية فان تغييرها كان داخل الاطار المطلوب تغييره نفسه فاحلت الحكام الطغاة ونقمة السلطة محل الرأسماليين القساة ونقمة الملكية .. ولم يكن لها مناص من هذا ما دامت قد حبست نفسها داخل الطبيعة البشرية ورفضت رحمة الله وهدايته/اما الاسلام فانه يرفع نجما ليستهدى الناس به وما ظلوا يسيرون فى ضوئه فانهم على هدى وقد يتنكبون ضوءه ثم يعودون إليه وفى جميع الحالات فانهم لايبلغونه لانه ليس الهدف هو ان يبلغوه فما هم ببالغيه وانما أن يسيروا فى ضوئه.

وباعتبارها دعوة اسلامية فانها تتقدم للمؤمنين بالاسلام فعلا . اما غير المؤمنين او الذين فى قلوبهم مرض فيفترض ان يتعرفوا اولا على الاسلام وهو شىء اخر غير دعوة العمل الاسلامى،شىء اوسع مدى ويعالج قضية الاسلام أصلا .

العمل فى الاسلام ملاحق مجلة العمل بالقاهرة عدد ٨٥ لسنة ١٩٧١ ص ١٧ .

خاتمة

الى الشباب المسلم فى كل مكان

لم يكن موضوع « الدعوات الاسلامية » جديداً على مؤلف هذا الكتاب ، فمن الطبيعى ، وهو نفسه داعية اسلامى أن يكون هذا نصب عينيه من وقت بعيد . فضلاً عن أنه عايش بعض هذه الدعوات معايشة طويلة وتعرف على قياداتها فى مناسبات عديدة . وفى سنة ١٩٧٨ اصدر كتابه « الدعوات الاسلامية المعاصرة ما لها وما عليها » الذى يعد الأن من الكتب الكلاسيكية فى الموضوع ، كما أشار الى « الدعوتين الكبيرتين » اى الاخوان المسلمين والجماعة الاسلامية (باكستان) فى كتيب « نحن ودعوتنا » الذى اصدره الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل .

ولكن الكتاب الذى تختمه هذه الكلمات يعد من أكمل الكتب فى مثل حجمه -- عرضاً للموضوع ، فقد توفر له من المواد والوقائع الخاصة بنشأة وتطور بعض الدعوات الاسلامية ما لم يتوفر لغيره كما ان دعوة العمل الاسلامى عرضت لأول مرة فى شكلها الاخير القائم على فكرة الاستخلاف الالهى وما يعنيه هذا من مضامين .

ان الفكرتين المحوريتين اللتين أنتهى اليهما الكاتب بعد دراسة وتمحيص خمسين عاما بحيث أصبحت عنده من الحقائق المؤكدة هما :

أولا : أن أى نظام سياسى أو دعوة عامة تتجاهل الاسلام لن تجد قبولاً قلبياً من الجماهير ، لان الاسلام هو وجدان الشعوب الاسلامية واى نظام يحاول التلفيق او التطويع أو الخداع محكوم عليه بالفشل،وقد حاوله كل الطغاة الذين حكموا المنطقة فى الفترة الاخيرة وفشلوا وكل نظام يضع نفسه فى خصومة مع الاسلام فانه يقضى على نفسه أجلاً أو عاجلاً .

ففى جميع الحالات لا مفر من الاسلام .

ثانيا : ليس فى الاسلام مشكلة : ان المشكلة فى المسلمين وفهمهم والازمة التى يقال عليها « ازمة الاسلام » هى فى حقيقتها الازمة الحضارية للمجتمعات الاسلامية وفهمها السلفى المهيمن الذى يُطَبق على المجتمع وعلى الدعوات الاسلامية التقليدية ويجد حمايته فى الاوضاع القائمة والمصالح المكتسبة ، وقد فشلت حتى الآن كل المحاولات لهز ، ناهيك عن زلزلة ، هذا الفهم التقليدى . ونحن نؤمن ايمانا لا يتطرق اليه شك ان الفهم السلفى كائنا ما كانت مأثرة القديمة – فانه لا يصلح مطلقاً فى التحدى الحديث وان المسلمين غير ملزمين مطلقا بالتمسك به ، وان لهم مندوحه عما وضعه من قواعد ومبادىء وضوابط ما داموا فى النهاية لا يخرجون عن توجيه القرآن ، ولا يختانون أنفسهم فى ذلك . وفى القرآن متسع والحمد لله .

وهذه المهمة المقدسة هى ما لم يتصدى لها بعد كاتب أو مفكر بصراحة وقوة – لان الخوف يشل الجميع ومن يريد أن يصلح لابد ان يُرضى أوصياء على الفكر الاسلامى ، ولابد ان يتلطف وان يقدم الاعذار والمبررات ولم يظهر من المفكرين الاسلاميين من يتصدى لها تصدى داعية حتى وان ظهر فى الفترة الأخيرة عدد من الكتاب المبدعين لمس كل واحد منهم جانبا من جوانب القضية ، وجاء فيه برأى جديد ولكنهم جميعا ليسوا من طينة الدعاة وليس لديهم من التجرد والتركيز ما يجعلهم يحكمون الدعوة ، ويعيشون بها ولها ، فبعضهم شغل الوزارة حينا وآكل من حلواء القوم ، وبعضهم يعمل بالصحافة ويخضع لضروراتها ، بينما يعالج البعض الأخر الاسلام معالجة باحث اكاديمى . وجميعهم مرتبطون بالوضع والنظام .

نتيجة لهذا أخذت مجموعات عديدة من الذين خاب أملهم فى الدعوات التقليدية وتملكهم الروع من دعوات « الرافضة الجديدة » يفتشون هنا وهناك ويتلمسون البديل ويدعون الله أن يأتيهم به . وقد لمسنا هذا مراراً ، وطلب الينا ان نقوم بدورنا ، فى الوقت الذى كنا نفكر فيه فيما هو أبعد مما تصوروا . ان دوراً تاريخيا ينتظر الدعوة المنشودة ، دورا يمكن ان يؤثر على مصير العالم بأسره وليس المنطقة العربية والاسلامية ، لان الاسلام اليوم مدعو لتقديم عطائه الحضارى كما قدمه منذ عشرة قرون ، ولديه من الأصول ما يمكنه من ذلك لولا تلك السدود التى أقامها الذين احتكروا اسم الاسلام وقاموا بالوصاية عليه . وتشتد أهمية « الدور الاسلامى » بعد تهاوى الاشتراكية وما كانت تدعيه من قيِّم ، وانفراد الراسمالية بالساحة فهل قضى على البشرية ان تشهد عربدة الرأسمالية مرة أخرى . ان الاسلام وحده هو القوة الباقية التى يمكن ان تقف فى مواجهة هذا .

إننا نقدم دعوة العمل الاسلامى مؤمنين تماما أن فيها ما يشفى العصر الحديث من آفتة المستعصبية وما يحل أزمة المجتمع الاسلامى / العربى .ولا تخالجنا أثارة من شك فى أن هذا لمن يمر سهلاً ولن يأتى قريباً . ولا تساورنا أوهام انتصار وشيك . ان الانتصار سيتطلب معارك مريرة طويلة وقد لايأتى قبل مرور مائة عام . إننا نزرع بذرة لن نرى ثمارها . وتلك هى قسمة الدعاة ، تسعد بهم ويسعدون بها ..

ان دعوة العمل الاسلامى . دعوة اسلامية مائة فى المائه كما يقولون من نقطة انطلاقها وهى الاستخلاف الالهى للانسان على الارض حتى غاية نهايتها وقد قامت على آيات بينات محكمة من الكتاب الكريم . وعلى تفسير سليم لا تطويع ولا ابتسار فيه ، ونحن نؤمن ان القيم التى تقوم عليها والاهداف التى تستهدفها هى ما يمثل روح الاسلام حقاً ، وهى أفضل ما يمكن أن تقوم عليه دعوة اسلامية ، ولغيرنا بالطبع ان يرى ما يشاء فنحن لا نصادر الأخرين ...

وقد ينتقد البعض الاسلوب الذى عالجنا به الدعوات الاسلامية والصراحة التى تحدثنا عنها ، واطلاق الاحكام وذكر الأسماء وعدم ملاحظة ما يثيره ذلك من حساسيات الخ .. وهذه الاعتبارات التى يلحظها الاكاديميون أو الذين يحرصون على العلاقات والمجاملات او يعزفون عن اصدار الاحكام . أو يمسكون العصا من الوسط . لم تكن خافية علينا ولكننا إنما اردنا أن نضع الحقائق كلها . وفضلنا ذلك على أن نخدع الناس أو نخفى عنهم جانبا ، ولأننا نريد تشجيع الشباب على البحث والجرأة فى تناول القداسات المزعومة لان هذا هو ما ينقصه ، وليس الحياء أوالاستخذاء ، فهذا ما يجثم على الصدور .

وقد لاتُفهَم دعوة العمل الاسلامى تماماً . لان هناك جوانب عديدة من الفكر الاسلامى تتطلب معالجة أصولية جديدة لم يتسع لها عرض الدعوة نفسها ، وهذا ما لم يكن خافيا على المؤلف عندما اصدر الاصلان العظيمان « الكتاب والسنة » والذى اختصره فى كتاب « الدعوة الى القرآن » وكتاب «الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة » وعدد كبير آخر من الكتابات الاسلامية وهو اليوم بصدد عمل عظم هو « نحو فقه جديد » .

فهذه المجموعة من الكتب تقدم فهماً جديداً متكاملاً للاسلام . فهماً مستقبلياً لا فهماً ماضويا ، فهماً منتصراً يعبر عن نفسه بلغة العصر ، ويتسلح بسلاحه ويجابه تحدياته بل ويصلح فساده .

وهذه الدعوة ملك للمسلمين جميعاً ولكل واحد يؤمن بها أن يقول « **هذه دعوتى** » فلسنا نحن أحق بها منه ، انها ليست مقصورة على أحد.انها دعوة ، وليست هيئة والشباب أولى الناس بها .

فيا أيها الشباب المسلم فى كل مكان:

اذا قلنا إن هذه دعوتكم ، فإنما يعود هذا الى أن المستقبل أمامكم طويل بعواصفه ومشاكله ، وهذه الدعوة وحدها هى التى تمنحكم ، كمسلمين حريصين على اسلامهم . جواز المرور الى عالم العصر.ان الفقهاء التقليديين ابعدوا العصر . ولم يكن ليعنيهم هذا فى شىء . لانهم بفضل أوضاعهم الخاصة يمكن ان ينالوا كل حقوق العصر وهم بمعزل عنه . فاذا كان أحد الشيوخ يستطيع كأستاذ جامعى ان ينال المزايا المادية لهذا الوضع التى تكفل له معيشة مترفه ، مقابل ان يلبس زياً خاصاً ويدرس حديث ابن حنبل أو فقه الشافعى كما وضعا من الف عام فلا تعنيه فى شىء مشاكل العصر .. ولكن مشاكل العصر تجابهكم ، ولهذا قلنا إن هذه دعوتكم ، لانها هى التى تقدم الاسلام مدججا بسلاح العصر ، ومصلحا فى فساد العصر .. فخذوها بقوة .. وستفتح لكم مغاليق الطريق .. وتحل أزمتكم ، وأزمة العصر الحديث ايضاً ..

ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير

فهـرست

الموضوع | الصفحة

الباب الثانى : دعوة العمل الاسلامى

بقلم المؤلف

أ - مؤلفات

١ - ثلاث عقبات فى الطريق الى المجد .... (١٩٤٥)
٢ - ديمقراطية جديدة .... (١٩٤٦)
٣ - على هامش المفاوضات .... (١٩٤٧)
٤ - مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم (١٩٥٢)
٥ - ترشيد النهضة (صودر قبل التوزيع) .... (١٩٥٢)
٦ - الازمة والبطالة فى الرأسمالية .... (١٩٥٣)
٧ - موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة .... (١٩٥٧)
٨ - قصة فرسان العمل .... (١٩٦٢)
٩ - دور المنظم فى الحركة النقابية............................ (١٩٥٧)
١٠ - القانون والقضاء فى المجتمع الاشتراكى............................ (١٩٦٣)
١١ - التنظيم والبنيان النقابى (ثلاث طبعات)............................ (١٩٦٦)
١٢ - فى التاريخ النقابى المقارن - طبعتان .... (١٩٦٧)
١٣ - دور النقابات فى المجتمع الاشتراكى .... (١٩٦٧)
١٤ - مسئولية القيادات النقابية ملحق مجلة العمل العدد ٣٦ سنة (١٩٦٧)
١٥ - الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها .... (١٩٦٩)
١٦ - منظمة العمل الدولية - ملحق مجلة العمل العدد ٦٤ سنة (١٩٦٩)
١٧ - الحركة العمالية الدولية - ملحق العمل العدد ٧٢ سنة (١٩٧٠)
١٨ - العمل فى الاسلام - ملحق مجلة العمل العدد ٨٥ سنة (١٩٧١)
١٩ - محاضرات فى الادارة النقابية .... (١٩٧٢)
٢٠ - الحرية النقابية ملحق مجلة العمل مارس .... (١٩٧٢)
٢١ - روح الاسلام .... (١٩٧٢)
٢٢ - العمال والدولة العصرية ملحق مجلة العمل عدد مايو سنة (١٩٧٥)
٢٣ - قضية الانتاج .... (١٩٧٣)
٢٤ - ظهور وسقوط جمهورية فايمار .... (١٩٧٧)
٢٥ - حرية الاعتقاد فى الاسلام (طبعتان) .... (١٩٧٧)
٢٦ - بحوث فى الثقافة العمالية .... (١٩٧٨)
٢٧ - الدعوات الاسلامية المعاصرة مالها وما عليها .... (١٩٧٨)
٢٨ - من محو الأمية حتى الجامعة العمالية ملحق مجلة العمل مايو . (١٩٧٨)
٢٩ - الجامعة العمالية .... (١٩٧٩)
٣٠ - الأصول الفكرية للدولة الاسلامية .... (١٩٧٩)
٣١ - بيان رمضان (طبعتان) .... (١٩٧٩)
٣٢ - الأصلان العظيمان : الكتاب والسنة .... (١٩٨٢)
٣٣ - الفريضة الغائبة : جهاد السيف أم جهاد العقل .... (١٩٨٤)

٣٤ – الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة .... (١٩٨٦)
٣٥ – الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الاسـلامية ...... (١٩٨٦)
٣٦ – الحركة العمالية الدولية (كبير) .... (١٩٨٨)
٣٧ – مشـروع لاصلاح الحركة النقابية .... (١٩٨٧)
٣٨ – الحساسيـة الدينية (وسيط) دار الزهراء .... (١٩٨٨)
٣٩ – الأسلام هو الحـل (٨١٣ صفحة) .... (١٩٨٨)
٤٠ – تفسير حديث « من رأى منكم منكرا » .. الخ .... (١٩٨٨)
٤١ – خطابات حسن البنا الشاب الى ابيه .... (١٩٩١)
٤٢ – الاسـلام والعقـلانيـة .... (١٩٩١)
٤٣ – العمل الاسلامي لارساء سيادة الشعب والحكم الدستورى........ (١٩٩١)

ب – كتـب الاتـحـاد الاسلامـى الدولى للعمـل

خـلال الفـترة من (١٩٨٠) حتى (١٩٩١) كتب الأستاذ جمال البنا للاتحـاد الكتـب الأتية :

٤٤ – أزمـة النقابيـة .... (١٩٨٠)
٤٥ – الاسلام والحركة النقابية .... (١٩٨٠)
٤٦ – الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل (كتيب تعريفى) .... (١٩٨٠)
٤٧ – الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل يبدأ المسيرة .... (١٩٨١)
٤٨ – رسـالة الاسـلام .... (١٩٨١)
٤٩ – أخـت الصـلاة المهجورة .... (١٩٨٢)
٥٠ – الخيـار الصعـب .... (١٩٨٢)
٥١ – الحركة النقابية من منطلق أسلامى .... (١٩٨٣)
٥٢ – الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل فى عامين .... (١٩٨٣)
٥٣ – الحساسيـة الدينية (وجيز) .... (١٩٨٣)
٥٤ – نظـم الثقافة العمالية فى الوطـن العربى .... (١٩٨٤)
٥٥ – وجوه الائتلاف والاختلاف بين الرأسمالية والشيوعية والاسلام . (١٩٨٤)
٥٦ – الدولـة العصـرية .... (١٩٨٥)
٥٧ – رؤيـة لمضمون الحكم بالقرآن .... (١٩٨٥)
٥٨ – محكمة العدل الدولية الاسلامية .... (١٩٨٥)
٥٩ – العـودة الى القـرآن .... (١٩٨٥)
٦٠ – لا حـرج (قضيـة التيسير فى الاسـلام) .... (١٩٨٦)
٦١ – نحـن ودعوتنـا .... (١٩٨٦)
٦٢ – لست عليهم بمسيطر (قضية الحرية فى الاسلام) .... (١٩٨٦)
٦٣ – العهـد .... (١٩٨٧)
٦٤ – الشـورى فى الادارة .... (١٩٨٧)

٦٥ – الحركة العمالية الدولية (وسيط) .... (١٩٨٨)
٦٦ – عمال السودان والسياسة (مع آخرين) .... (١٩٨٨)
٦٧ – الحرية النقابية ثلاثة أجزاء .... (١٩٨٩)
٦٨ – الحركة النقابية السودانية تجد نفسها .... (١٩٩٠)
٦٩ – نحو حركة نقابية مثقفة ودور الكتاب فى ذلك .... (١٩٩٠)

ج – مترجمات ومراجعات

٧٠ – النقابات فى الولايات المتحدة .... (١٩٦٢)
٧١ – النقابات فى المملكة المتحدة .... (١٩٦٢)
٧٢ – النقابات فى الاتحاد السوفيتى .... (١٩٦٢)
٧٣ – النقابات فى السويد .... (١٩٦٢)
٧٤ – النقابات فى بورما .... (١٩٦٣)
٧٥ – النقابات فى الملايو .... (١٩٦٣)
٧٦ – الازمة المقبلة .... (١٩٦٣)
٧٧ – العمالة والتنمية الاقتصادية .... (١٩٦٦)
٧٨ – مدخل لدراسة الأجور .... (١٩٦٦)
٧٩ – الادارة العمالية فى يوجسلافيا .... (١٩٦٧)
٨٠ – العمل يجابة عصرا جديدا .... (١٩٦٨)
٨١ – الديمقراطية النقابية .... (١٩٦٩)
٨٢ – دستور منظمة العمل الدولية .... (١٩٧٠)
٨٣ – توصيات العمل الدولية .... (١٩٧١)
٨٤ – اتفاقيات العمل الدولية فى مجلدين .... (١٩٧١)
٨٥ – البرنامج العالمى للعمالة .... (١٩٧١)
«تقرير المدير العام لمكتب العمل الدولى »

وكل هذه الكتب باستثناء الديمقراطية النقابية والأزمة المقبلة من مطبوعات منظمة العمل الدولية.

رقم الايداع

١٩٩١ / ٩٨٣٦

دار الطباعة الحديثة
٦ ش كنيسة الأرمن – أول شارع الجيش
ت : ٩٠٨٣١٨

هـذا الكتاب



فى الباب الأول من هذا الكتاب يعرض الدعوات الاسلامية بادئا **بالاخوان المسلمين** . ثم **الجماعة الاسلامية** . وأخيراً **حزب التحرير** ، كل فى فصل مستقل ثم يعرض فى فصل آخر دعوات «الرافضة الجديدة» كما سماها وهى **جماعة التكفير والهجره والقطبيون وكتاب «معالم فى الطريق»** للشهيد سيد قطب ، **والجهاد وكتاب «الفريضة الغائبه»** والكتاب يرى أن الطابع الذى طبع هذه الدعوات كلها بطابعه هو «**السلفية**» وينقد آثار السلفية على هذه الدعوات . وفى فصل مسهب طويل يناقش المؤلف الدعوات الجديدة الصاعدة . وهى **الجبهة القومية الاسلامية فى السودان . وجبهه الانقاذ الاسلامى فى الجزائر ودعوة النهضة فى تونس . ودعوة الشوريين التعاونيين فى اليمن . وأخيراً الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل** .. وفى كل منها يعرض الكتاب مبادءها واهدافها وما وصلت اليه من توفيق ويختم الباب بفصل عن دعوتين وصلتا الى الحكم وهما **الوهابية فى الحجاز والجعفرية فى ايران** ، وهو يرى ان مردود هاتين الدعوتين على الحكم اقل مما يفترض فى دعوة اسلامية .

والباب الثانى يمثل الاضافة الجديدة فى الكتاب اذ هو **يعرض دعوة العمل الاسلامى** .فها هى ذى دعوة مشتقة من القرآن الكريم رأسا دون تطويع أو ابتسار تنطلق من فكرة الاستخلاف الالهى . وتقوم على كرامة الانسان . وقداسة العلم . والحرية . والعمل ويكون فيها «العدل» بمثابه «المايسترو» .

وهذه الدعوة هى الرسالة التى يقدمها الكتاب الى الدعوات الاسلامية ..

ويعود المؤلف الى عدد كبير من المراجع ، فضلاً عن قراءاته ، وعلاقاته الشخصية بقيادات بعض هذه الدعوات . وكان قد عالج هذا الموضوع من زوايا اخرى فى كتابه «الدعوات الاسلامية المعاصره مالها ، وما عليها» (١٩٧٨) .

دار الفكر الاسلامى